الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

بيع من هذه الرواية ملايين النسخ وبقيت لعدّة أشهر
على لائحة الكتب الأكثر مبيعاً

المِليُونير المُتَشَرِّد

SLUMDOG MILLIONAIRE

الرواية التي تحوّلت
إلى فيلم سينمائي
نال ثماني جوائز
أوسكار عام 2009

ڤيكاس سواراب
VIKAS SWARUP



ما هو المطلوب لاستعادة حبٍ ضائع؟

أ. المال | ب. الحظ

ج. قوة الذهن | د. القدر

المِليُونير المُتَشرِّد

المِليُونير المُتَشَرِّد

SLUMDOG MILLIONAIRE

الرواية التي تحوّلت
إلى فيلم سينمائي
نال ثماني جوائز
أوسكار عام 2009

تأليف

ڤيكاس سواراب

Vikas Swarup

ترجمة

علي عبد الأمير صالح

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. s.a.l

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
Slumdog Millionaire
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Transworld Publishers
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-614-01-0014-5

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

إلى

والدي،

فينود واندرا سواروب

وإلى جدي الراحل،

شري جاغديش سواروب

المحتويات

المقدّمة

تم اعتقالي. بسبب فوزي في برنامج تلفازي خاص بالمسابقات. أقبلوا إليّ في ساعة متأخرة من ليلة أمس، في وقت رحلت فيه حتى الكلاب الضالة كي تنام. كسروا بابي، قيدوني، وأرغموني على السير أمامهم إلى سيارة الجيب المنتظرة التي كان ضوؤها الأحمر يومض من دون انقطاع.

لم تكن هنالك صيحة مطاردة. ما من نزيل تحرك من كوخه حتى ولو حركة طفيفة. فقط البوم الهرم على شجرة التمر الهندي نعب لدى اعتقالي.

الاعتقالات في دهارافي شائعة شأنها شأن النشالين في القطارات المحلية. لا يكاد يمر يوم من دون أن يؤخذ نزيل سيئ الطالع إلى مركز الشرطة. ثمة أشخاص وجب على موظفي الأمن أن يجروهم بدنياً، وهم يصيحون ويقاومون. وهنالك آخرون يذهبون بهدوء مذعنين طائعين. من كان يتوقع الشرطة، لا بل من كان ينتظرها حتى. بالنسبة إليهم، إن وصول سيارة الجيب ذات الضوء الأحمر الوامض هو في الواقع فَرَج.

في استعادتي للحادثة، ربما كان يجب عليَّ أن أقاوم وأصرخ. كان يجدر بي أن أؤكد براءتي، أن أرفع احتجاجي، أن أكهرب الجيران. ما كان ذلك ليساعدني قليلاً. حتى إذا أفلحتُ في إيقاظ بعض النزلاء من نومهم، ما كانوا ليرفعوا إصبعاً دفاعاً عني. ربما كانوا سيراقبون المشهد بعيون نعسة، ويدلون بملاحظة مبتذلة من قبيل *هذا شخص آخر*

يمضي، يتثاءبون، ويعودون فوراً إلى النوم. إن مغادرتي لأضخم حيّ للفقراء في آسيا ما كان ليشكل فرقاً في حياتهم اليومية. سيكون هنالك الطابور نفسه لتعبئة الماء في الصباح، الكفاح اليومي نفسه لنقله إلى محلة سبعة - ثلاثين في الوقت المحدد.

ما كانوا حتى ليقلقوا أنفسهم في اكتشاف سبب اعتقالي. حتى أنا لم أفكّر في السبب، حين اقتحم رجلا الأمن كوخي. حين تكون حياتك كلها غير شرعية، حين تعيش على حافة الفقر المدقع في أرض يباب مدينية حيث يجدر بك أن تشق طريقك كي تنال إنشاً من المكان وأن تقف في طابور حتى لو كان هذا الطابور من أجل الحصول على البراز، الاعتقال يملك صفة الحتمية. أنتَ محدد بالاعتقاد أنه ذات يوم ستكون هنالك مذكّرة دُوِّن عليها اسمكَ، وأنه في نهاية المطاف ستأتي من أجلك سيارة جيب ذات ضوء أحمر وامض.

هنالك من يقول إنني جنيتُ على نفسي، وجلبتُ هذا لذاتي. من خلال مشاركتي على سبيل الهواية في ذلك البرنامج التلفازي الخاص بالمسابقات. سيهزون إصبعاً بوجهي ويذكرونني بما يقوله كبار السن في دهارافي عن عدم عبور خط التقسيم الذي يفصل الأغنياء عن الفقراء. على كل حال، ماذا تقدم المهنة لنادل مفلس، وجب عليه أن يشارك في المسابقات؟ الدماغ ليس عضواً نحن مخولون استخدامه. من المفروض أن نستخدم أيدينا وأرجلنا فقط.

ليتهم رأوني وأنا أجيب عن تلك الأسئلة. بعد إنجازي كان في وسعهم أن ينظروا إليّ نظرةً جديدةً. إنه لأمر مؤسف أن البرنامج لم يكن قد بُث بعد. إلا أن كلمةً تسربتْ مفادها أنني فزتُ بشيء ما أشبه باليانصيب. حين سمع النُدل الآخرون الأنباء، قرروا أن يقيموا حفلةً كبرى لي في المطعم. أنشدنا الأغاني، ورقصنا، وشربنا حتى ساعة

متأخرة من الليل. لأول مرة لم نتناول طعاماً سيئ الطعم بوصفه وجبة عشاء. طلبنا برياني الدجاج وأسياخ الكباب من الفندق ذي الخمس نجوم الواقع في مارين درايف. النادل الخرف قدّم إليّ ابنته كي أتزوجها. حتى مدير الفندق كثير التذمر ابتسم لي، بتسامح وفي النهاية وهبني أجرتي المتأخرة. لم يدعوني ابن الساقطة عديم القيمة. أو يسميني كلباً مسعوراً.

الآن يدعوني غودبول بذات العبارات، لا بل بأسوأ منها. أجلس متقاطع الساقين في زنزانة بعديها عشر - و - ست أقدام، ذات باب معدني صدئ ونافذة صغيرة مربعة ذات حاجز من قضبان متصالبة، ينسكب من خلالها شعاع مغبر من نور الشمس في الغرفة. السجن حار ورطب. الذباب يطن حول البقايا الطرية لثمرة مانغا متفسخة ترقد مهروسةً على الأرض الحجرية. صرصور حزين المنظر يتحرك بتثاقل نحو ساقي. بدأتُ أشعر بالجوع. معدتي تكركر.

قالوا لي إنهم سيأخذونني إلى حجرة الاستجواب بعد وقت قصير، كي يطرحوا عليَّ الأسئلة للمرة الثانية منذ اعتقالي. بعد انتظار طويل، يُقبل شخص ما كي يرافقني. إنه ضابط الشرطة غودبول نفسه.

لم يكن غودبول هرماً جداً، ربما هو في أواسط العقد الرابع من العمر. رأسه أصلع ووجهه مستدير يهيمن عليه شارب أشبه بمقود دراجة هوائية. يسير بخطوات بطيئة وبطنه المتخم يتدلى فوق سرواله الكاكي. "ذباب حقير"، يقول مشمئزاً، ويحاول أن يضرب بعنف واحدةً تحوم أمام وجهه. تفلت منه.

ضابط الشرطة غودبول ليس في مزاج جيد اليوم. الذباب يضايقه. حرارة الجو تزعجه. غدران العرق تجري على جبينه. يمسحها بكُم قميصه. أكثر من أي شيء آخر، هو منزعج من

اسمي. "رام محمد توماس - أي اسم هو ذاك، مازجاً الأديان كلها؟ ألم تستطع أمك أن تقرر من كان والدك؟" يقول ضابط الشرطة، ليس لأول مرة.

سمحتُ للإهانة أن تمر. إنها شيء تعوّدتُ عليه.

خارج حجرة الاستجواب يقف موظفا أمن منتصبين ساكنين، وهي علامة تدل على وجود شخص مهم في الداخل. في الصباح كانا يمضغان البآن[1] ويتبادلان النكات البذيئة. دفعني غودبول بكل ما لكلمة دفع إلى داخل الحجرة، حيث يقف رجلان أمام خارطة جدارية تُسجل ضمن لائحة العدد الكلي لحوادث الاختطاف والقتل سنوياً. ميزتُ أحدهما. إنه الرجل نفسه، ذو الشعر الطويل الشبيه بشعر امرأة - أو نجم الروك - الذي كان حاضراً في أثناء تسجيل البرنامج التلفازي الخاص بالمسابقات، يرحّل التعليمات عبر سماعتي الرأس إلى مقدّم البرنامج. لا أعرف الرجل الآخر، الذي كان أبيض البشرة وأصلع تماماً. يرتدي بذلةً ذات لون بنفسجي وربطة عنق برتقالية ساطعة. فقط الرجل الأبيض يستطيع أن يلبس بذلةً ويضع ربطة عنق في هذا الحر الخانق. يذكرني هذا بالكولونيل تايلور.

مروحة السقف تدور بأقصى سرعة، مع ذلك تبدو الحجرة خالية من الهواء في غياب نافذة. تتصاعد الحرارة من الجدران التي قُصر لونها إلى الأبيض، وأُعيقت بواسطة السقف الخشبي المنخفض. عارضة طويلة، رفيعة تشطر الحجرة إلى قسمين متساويين. الغرفة خالية إلا من طاولة صدئة في الوسط مع ثلاثة كراسٍ حولها. تتدلى من العارضة الخشبية ظُلة مصباح معدنية فوق الطاولة مباشرةً.

---

(1) البآن Paan: ورق التنبول ممزوج مع جوزة الأريقة. يُمضغ البآن بوصفه منظفاً لسقف الفم ومطيباً للنفس - م.

يقـــدّمني غودبـــول إلى الرجل الأبيض كما يقدّم مدير الحلبة في السيرك أسده المدلل. "سيدي، هذا رام محمد توماس".

الرجل الأبيض يمسح جبينه بمنديل، وينظر إليّ كما لو كنتُ صنفاً جديـــداً من القردة. "هذا إذاً فائزنا ذائع الصيت! لا بد لي أن أقول إنه يـــبدو أكبر سناً مما ظننتُ". أحاول أن أميز لهجته. يتحدث هو بالخنة نفـــسها التي يتكلم بها السياح الأثرياء الذين رأيتهم يملأون أغرا مقبلين من أمكنة بعيدة جداً من مثل بالتيمور وبوسطن.

يريح الأميركي نفسه على كرسي. له عينان عميقتا الزرقة وأنف وردي. الأوردة الخـــضراء في جبهـــته تبدو شبيهةً بغصينات. يخاطبني قـــائلاً: "مرحباً. اسمي نيل جونسون. أنا أمثل تيليميديا العصر الجديد، الشركة التي تجيز برنامج المسابقات. هذا بيليناندا، المخرج".

أبقى صامتاً. القردة لا تتكلم. هي لا تتكلم الإنكليزية على وجه الخصوص.

يلتفت إلى ناندا. "إنه يفهم الإنكليزية، أليس كذلك؟".

يحذره ناندا قائلاً: "نيل، بالله عليك، هل جننتَ؟ كيف تتوقعه أن يتحدث الإنكليزية؟ إنه مجرد نادل مغفل في مطعم مهجور!".

يـــثقب صـــوت صفارة مقتربة سكون الهواء. موظف أمن يأتي راكضاً إلى الغرفة ويهمس بشيء ما لغودبول. يندفع ضابط الشرطة إلى الخـــارج مـــسرعاً، ويعود مع رجل قصير القامة، بدين، يرتدي بذلةً نظاميةً لضابط شرطة رفيع المستوى. يبتسم غودبول بابتهاج لجونسون، كاشـــفاً عن أسنانه الصفراء. "سيد جونسون، السيد مندوب الحكومة وصل".

يهـــب جونـــسون واقفاً على قدميه. "أشكرك على المجيء، أيها السيد المندوب. أعتقد أنك تعرف سلفاً بيلي الحاضر هنا".

أومـــأ المندوب برأسه علامة الإيجاب. "أتيتُ حالما تلقيتُ الرسالة من وزير الداخلية".

"آه نعم... إنه صديق قديم لعائلة السيد ميخائيلوف".

"حسن، ماذا أستطيع أن أفعل لك؟".

"أيها المندوب، أحتاج إلى مساعدتك في W_3B".

"W_3B؟".

"باختصار من أجل برنامج **من سيربح البليون**؟".

"وما هو هذا البرنامج؟".

"إنـــه بـــرنامج تلفازي خاص بالمسابقات انطلق تواً - في خمسة وثلاثين بلداً - تنتجه شركتنا. ربما شاهدتَ إعلاناتنا التجارية في أرجاء مومباي كلها".

"لا بد أنها فاتتني. لكن لماذا بليون؟".

"لِمَ لا؟ هل شاهدتَ **برنامج من يرغب في أن يصبح مليونيراً**؟".

"**كـــاون بانـــيجا كروريباتي**؟ ذلك البرنامج كان هاجساً قومياً. كانت مشاهدته إجبارية في أسرتي".

"لماذا كنتَ تشاهده؟".

"حسن.. لأنه ممتع جداً".

"هـــل سيكون نصف ممتع لو كانت جائزته الكبرى عشرة آلاف بدلاً من مليون روبية؟".

"حسن.. لا أعتقد هذا".

"بالـــضبط. كمـــا تعرف، أكبر شيء في العالم يعذب الناس من خـــلال إثارة رغباتهم من دون النية في إشباعها هو المال. وكلما كان مبلغ المال أضخم يصبح العذاب أكبر".

"فهمت. إذاً من هو أستاذ المسابقات في برنامجك التلفازي؟".

"لدينا بريم كومار، هو الذي يقدّمه".

"بريم كومار؟ ذلك الممثل من الدرجة الثانية؟ لكن شهرته لا تبلغ نصف شهرة أميتاب باجاجان، الذي قدّم برنامج كروريباتي".

"لا تقلق، سيكون شهيراً على غراره. بطبيعة الحال، نحن مرغمون جزئياً على اختياره لأن لديه تسعة وعشرين بالمائة من الأسهم في الفرع الهندي لتيليميديا العصر الجديد".

"جـــيد. اتضحت لي الصورة. الآن كيف يكون هذا الرجل، ما اسمه، رام محمد توماس، مهيئاً لهذا كله؟".

"كان مشاركاً في حلقتنا الخامسة عشرة الأسبوع الماضي".

"وماذا بعد؟".

"أجاب عن الأسئلة الاثني عشر بصورة صحيحة كي ينال بليون روبية".

"ماذا؟ لا بد أنك تمزح!".

"لا، إنـــه ليس مزاحاً. كنا منذهلين مثلك. هذا الغلام هو الفائز بأكـــبر جائزة في التاريخ. الحلقة لم يتم بثها حتى الآن، لذا فإن قلة من الناس يعرفون عنها".

"جيد. إذا كنتَ تقول إنه ربح بليون روبية، ربح بليون روبية. إذاً ما هي المشكلة؟".

توقـــف جونسون عن التحدث مؤقتاً. "هل نستطيع أنا وبيلي أن نتكلم معك على انفراد؟".

يومـــئ المندوب إلى غودبول بالمغادرة. يحملق إلى ضابط الشرطة ويخـــرج. أبقى في الحجرة، إنما لا أحد يأخذ ملاحظتي. أنا مجرد نادل. والندل لا يفهمون الإنكليزية.

يقول المندوب: "جيد. الآن قل لي".

يقـــول جونـــسون: "كمـــا تعـــرف، أيها المندوب، إن السيد ميخائيلوف ليس في وضع يؤهله لتسديد مبلغ بليون روبية الآن".

"إذاً لماذا حدد الجائزة بهذا المبلغ؟".

"حسن... كانت تلك حيلة تجارية".

"انظـــر، لا أزال لا أفهم. حتى إذا كانت حيلةً، ألا يكون وضع بـــرنامجك أفضل الآن حين نال شخص ما الجائزة الكبرى؟ أتذكر أنه كلمـــا يـــنال متنافس مليون روبية في **برنامج من يرغب في أن يصبح مليونيراً**، يتضاعف عدد المشاهدين".

"إنـــه التوقيت، حضرة المندوب، التوقيت. إن برامج تلفازية من مثل W_3B لا يمكن إملاؤها بالمصادفة، بدحرجة النرد. عليهم أن يتبعوا مسوّدةً. ووفق مسوّدتنا، لا يمكننا تسديد المبلغ لأي فائز قبل مرور مدة ثمانـــية أشـــهر على الأقل، خلال هذه الأشهر الثمانية نستعيد أغلب اســـتثمارنا عـــبر مدخولاتـــنا من الإعلانات التجارية. إنما الآن هذا الشخص توماس حطم خططنا كلها".

أومـــأ المندوب برأسه علامة الموافقة. "جيد، إذاً ماذا تريد مني أن أفعل؟".

"أريد مساعدتك من خلال إقامة الدليل على أن توماس احتال في الـــبرنامج. أي إقامة الدليل على أنه ما كان بميسوره أن يعرف الأجوبة عـــن الأســـئلة الاثني عشر من دون شريك. فكّر فقط. لم يلتحقْ بالمدرسة يوماً. لم يطالع صحيفةً. ليست ثمة فرصة كي ينال الجائزة الكبرى".

"حـــسن... لستُ متيقناً جداً". يحك المندوب رأسه. "ثمة صبيان يـــنحدرون مـــن خلفـــيات فقيرة ينتهي بهم المطاف عباقرةً في حياتهم اللاحقة. ألم يكن آينشتاين نفسه تلميذاً فاشلاً في مدرسته الثانوية؟".

قال جونسون مومئاً إلى ناندا: "انظر، أيها السيد المندوب، يمكننا أن نثبت الآن أن هذا الشاب ليس آينشتاين".

يدنو مني ناندا، يمرر أصابعه عبر شعره الغزير. يخاطبني بالهندية. "سيد رام محمد توماس، إذا كنتَ حقيقةً لامع الذكاء بدرجة كافية كي تفوز في برنامجنا، نريدك أن تبرهن على ذلك من خلال المشاركة في مسابقات أخرى لدينا، الآن. ستكون هذه أسئلة غاية في البساطة. تقريباً أي شخص ذو ذكاء متوسط سيتمكن من الإجابة عنها". يجلسني على كرسي. "هل أنتَ مستعد؟ إليك السؤال الأول. ما هي العملة المتداولة في فرنسا؟ الخيارات هي: (أ) الدولار، (ب) الباوند، (ج) اليورو، أو (د) الفرنك".

ألتزم الصمت. فجأةً، راحة المندوب المفتوحة تنقض عليّ وتصفعني بقوة على خدّي. "ابن الساقطة، هل أنتَ أصم؟ أجب وإلا سأكسر فكك"، يهددني.

يبدأ ناندا بالحجل من حولي كالمعتوه - أو كنجم من نجوم الروك. "رجاااءً، هل يمكننا أن نقوم بهذا بطريقة متحضرة؟" يسأل ناندا المندوب. ثم ينظر إليّ. "نعم؟ ما هو جوابك؟".

أرد مقطب الجبين: "الفرنك".

"خطأ. الجواب الصحيح اليورو. جيد، السؤال رقم اثنان. من هو أول رجل وضع قدمه على سطح القمر؟ هل كان (أ) إدوين ألدرين، (ب) نيل أرمسترونغ، (ج) يوري غاغارين، أم (د) جيمي كارتر؟".

"لا أعرف".

"إنه نيل أرمسترونغ. السؤال رقم ثلاثة. تقع الأهرامات في (أ) نيويورك، (ب) روما، (ج) القاهرة، أم (د) باريس؟".

"لا أعرف".

"الجــواب تقــع في القاهرة. السؤال رقم أربعة. من هو الرئيس الحــالي للــولايات المتحدة الأميركية؟ هل هو (أ) بيل كلينتون، (ب) كولن باول، (ج) جون كيري، أم (د) جورج بوش؟".

"لا أعرف".

"إنــه جورج بوش. أنا متأسف لأن أقول، سيد توماس، إنكَ لم تجب جواباً صحيحاً واحداً".

يلتفت ناندا إلى المندوب، ويعود إلى الإنكليزية. "انظر، قلتُ لكَ إن هذا الشاب غبــي. الطريقة الوحيدة التي استطاع بها أن يجيب عن تلك الأسئلة الأسبوع الماضي هي الاحتيال".

"هــل لــديك أدنى فكــرة عن طريقته في الاحتيال؟" يسأل المندوب.

"هذا ما يحيرني. لقد حصلتُ لكَ على نسختين من تسجيل الدي في دي. تفحــصه خبراؤنا بالمجهر، إنما حتى الآن لم نحصل على تفسير مقنع. شيء ما سيقلب حساباتنا في نهاية المطاف".

الجوع في معدتي يرتفع الآن إلى حنجرتي، ويورثني الدوار. ألوي جذعي، وأسعل.

جونسون، الأميركي الأصلع، ينظر إليّ بحدة. "أتذكر أيها السيد المــندوب، تلــك الحالة المتعلقة برائد الجيش الذي نال مليون باوند في برنامج **من يرغب في أن يكون مليونيراً**؟ جرى ذلك في بريطانيا، قبل ســنوات قلــيلة خلــت. رفضت الشركة تسديد مبلغ الجائزة. بدأت الــشرطة بالتحري، وأفلحت في إدانة الرائد. تبين أن بروفيسوراً حضر معه بوصفه مشاركاً بين الجمهور كان يؤشر إليه الإجابة الصحيحة من خلال حالات سعال مشفرة. من المؤكد أن شيئاً مشابهاً حدث هنا".

"إذاً هل نحتاج إلى أن نفتش عمّن يسعل بين الجمهور؟".

"كـــلا. لـــيس ثمة دليل على السعال. لا بد أنه استخدم إشارةً أخرى".

"ما رأيكَ بالفكرة القائلة إنه تم الاتصال به هاتفياً بواسطة بليب[1] أو جهاز نقال؟".

"كلا. نحن متأكدون إلى حدٍّ ما أنه لم يكن يحمل وسائل اتصال. فلا بليب ولا جهاز نقال عملا في الاستوديو".

فتنت المندوب فكرة ما. "هل تعتقد أنه يملك رقاقة ذاكرة مزروعة في دماغه؟".

يتنهد جونسون. "أيها السيد المندوب، أعتقد أنكَ شاهدتَ عدداً كـــبيراً جـــداً من أفلام قصص الخيال العلمي. انظر، مهما كان الأمر، عليكَ أن تساعدنا على اكتشافه. لا ندري من كان الشريك. لا ندري أي نظـــام إشاري تم استخدامه. لكنني متأكد مائة بالمائة أن هذا الغلام محتال. يلزمك أن تساعدنا على إثبات ذلك".

"هـــل فكـــرتَ في رشوته؟" اقترح المندوب بأمل. "أعني أنه من المحتمل ألاّ يكون عارفاً بعدد الأصفار في البليون. يخيل إليّ أنه سيكون غايةً في السعادة لو أنكَ رميتَ إليه ألفي روبية لا غير".

شعرتُ بالرغبة في أن أنخس رئيّ المندوب. باعتراف الجميع، قبل برنامج المسابقات التلفازي لم أكن أعرف قيمة البليون. إنما ذلك كان في الماضـــي. الآن أعـــرف. وقد صممتُ على الحصول على جائزتي. بالأصفار التسعة كلها.

جواب جونسون يعيد طمأنتي. يقول: "لا نستطيع أن نفعل ذلك. عندها سنكون عرضة لدعوى جزائية. كما تعرف، هو إما فائز صادق أو محتال. لذا إما أن يكسب بليوناً أو يذهب إلى السجن. ما من منطقة

(1) بليب bleep: أداة تستخدم للاتصال البعيد – استخدم المؤلف كلمة pager – م.

وسـطى بـين هاتين الحالتين. عليكَ أن تمد إليّ يد العون كي نضمن إيداعه في السجن. السيد ميخائيلوف سيصاب بانسداد تاجي إذا وجب عليه أن يدفع بليون روبية الآن".

نظـر المندوب إلى عيني جونسون مباشرةً. تشدق في كلامه: "أنا أفهم قصدك. إنما ما علاقتي بالموضوع؟".

كمـا لو في تلميح، يأخذه جونسون من يده إلى إحدى الزوايا. يـتكلمان بنبرات هادئة. ألتقط كلمتين فقط. "عشرة بالمائة". المندوب متأثر بصورة جلية بما قيل له. "جيد، جيد، سيد جونسون، اعتبر الأمر منتهياً. الآن دعني أستدعي غودبول".

يُـستدعى ضـابط الشرطة. يسأله المندوب: "غودبول، ما هي المعلومات التي حصلت عليها حتى الآن؟".

ينظـر إليّ غودبـول. "لا شيء، سيدي المندوب. ابن الساقطة يواصل تكرار القصة ذاتها ويقول إنه محظوظ".

"محظوظ!؟" يسأل جونسون بسخرية واستهزاء.

"أجل، سيدي. حتى الآن لم أستخدم الدرجة الثالثة، عندها سيغني مثل الكنار. ما إن تسمح لي سيدي باستخدام الدرجة الثالثة سأحصل على أسماء شركائه بالجريمة بلمح البصر".

ينظـر المندوب بفضول إلى جونسون ونāندا. "هل أنتما مرتاحان مع تلك الحالة؟".

يهز ناندا رأسه بقوة، فيتطاير شعره الطويل. "لا تعذبه. الصحف تعلم بالاعتقال سلفاً. إذا اكتشفوا أنه لقي معاملةً سيئةً، سننتهي. لديّ مـا يكفـي من المشاكل لا داعٍ إلى القلق بخصوص مقاضاتي من قبل منظمة حقيرة غير حكومية معنية بحقوق الإنسان.

يـربت المـندوب علـى ظهره. "بيلي، لقد أصبحتَ على غرار

الأميركيين. لا تقلق. غودبول رجل محترف. لن تكون ثمة علامة واحدة على جسد الغلام".

الصفراء ترتفع في بطني كبالون. أشعر برغبة في التقيؤ.

يستعد المندوب للمغادرة. "غودبول، صباح الغد أريد اسم الشريك وتفاصيل كاملة عن الحوالة البريدية. استخدم كل الوسائل كي تستخلص المعلومة. إنما كن حذراً. تذكر، ترقيتك تعتمد على هذه القضية".

"شكراً، سيدي. شكراً". يرسم غودبول على وجهه ابتسامة مصطنعة. "لا تقلق، سيدي. في الوقت الذي أنتهي فيه من هذا الغلام، سيكون مستعداً للاعتراف بجريمة قتل المهاتما غاندي".

أحاول أن أتذكر من قتل المهاتما غاندي؟ الذي عُرف أنه قال "رام!" قبيل وفاته بلحظات. أتذكر هذا لأنني هتفتُ، "ذاك هو اسمي!" وشرح الأب تيموثي بوداعة أنه كان اسم السيد المبجل رام! السيد الهندوسي المبجل الذي نُفي إلى الأجمة مدة أربع عشرة سنةً.

في أثناء ذلك، عاد غودبول بعد توديع المندوب والرجلين. يصفر في حجرة الاستجواب ويصفق الباب غالقاً إياه. ثم يشير بأصابعه نحوي. "جيد، ابن الساقطة، تعرّى!".

وجع حاد، نابض ينضح من كل مسام جسدي. يداي مشدودتان إلى العارضة الخشبية بحبل غليظ. العارضة تعلو الأرض تسع أقدام، لذا فإن ساقيَّ تتأرجحان في الهواء وأشعر كما لو أن يديّ وقدميّ مجرورة كل واحدة على حدة. أنا عارٍ تماماً. أضلاع صدري ناتئة كأضلاع الأطفال الأفارقة الجياع.

كان غودبول يعاقبني منذ مدة تزيد عن الساعة لكنه لم ينتهِ بعد. في كل نصف ساعة أو نحو ذلك يأتي بأداة تعذيب جديدة. في البداية

أدخــــل قـــضيباً خشبياً في شرجي. القضيب مكسو بمسحوق رهيب. شـــعرتُ كمـــا لـــو أن مسماراً ضخماً، متوهجاً، لافحاً يُساق عبر مؤخـــرتي. بعـــدها دفع رأسي في دلو ماء وأبقاه هناك إلى أن كادت رئتاي تنفجران. بقبقتُ، ولهثتُ، وشارفتُ على الاختناق.

هـــو الآن يحمـــل سلكاً مُكهرَباً بيده أشبه بمشررةٍ[1] في ديوالي. يـــرقص حـــولي كملاكم ثمل ويطعنني فجأةً. يخزني في أخمص قدمي اليـــسرى بالسلك العاري. التيار الكهربائي يروِّع جسدي كسُمٍّ حار. أتراجع وأنتفض بعنف.

يصرخ بـــي غودبول. "ابن الساقطة، أما زلتَ لا تريد أن تخبرني بالحيلة التي استخدمتها في البرنامج؟ مَنْ الذي أخبرك الأجوبة؟ قل لي، وســـينتهي هـــذا. ستنال وجبة طعام جيدة وساخنة. وحتى يمكنكَ أن تذهب إلى البيت".

لكـــن البيت يبدو الآن أشبه بمكان قصي. ووجبة الطعام الساخنة ستجعلني أتقيأ. إذا امتنعتَ عن تناول الطعام مدةً طويلةً، الجوع يذوي ويموت، تاركاً وجعاً غامضاً في معدتك.

أول موجة من الغثيان تبدأ الآن بالهجوم عليّ بعنف. أفقدُ الوعي. عبر ضباب كثيف، أرى امرأةً طويلة القامة، ذات شعر أسود منسدل. الريح تعصف وراءها، وتجعل شعرها الأسود الفاحم يطير على وجهها، حاجـــباً إياه. المرأة ترتدي سارياً أبيض اللون من قماش خفيف يرفرف ويهتـــز كطائرة ورقية. تفتح ذراعيها وتصرخ، "ولدي... ولدي... ما الذي يفعلونه بكَ؟".

"أمـــاه!" أزعـــق، وأمد يدي كي أصل إليها عبر فجوة الغشاوة والضباب، إلا أن غودبول يقبض عليَّ بفظاظة من عنقي. أشعر كما لو

(1) المشررةِ sparkler: ضرب من الألعاب النارية يطلق شرارات لامعة – م.

أنـــي أركـــض مـــن دون أن أتحرك إلى الأمام. يصفعني بقوة وتنقشع الظلمة.

غودبول يعرض قلم الحبر مرةً أخرى. هو أسود اللون ذو سن ذهبية لماعة. حبر أزرق يتلألأ في طرفه. يأمرني قائلاً: "وقع إفادة الاعتراف".

إفـــادة الاعتراف بسيطة تماماً. "أنا الموقع أدناه، رام محمد توماس، أعلـــن الآن أنه في العاشر من تموز كنتُ مشاركاً في برنامج المسابقات **من سيربح البليون؟** أعترف أنني خدعتُ. لم أكن أعرف الأجوبة عن الأســئلة كلها. ها أنذا أسحب مطالبتي بالجائزة الكبرى أو بأي جائزة أخـــرى. ألتمس العفو. أدوّن إفادتي هذه وأنا بكامل قواي العقلية ومن دون أي ضغط مفرط من أي شخص كان. الموقع: رام محمد توماس".

أعرف أنها مسألة وقت لا غير قبل أن أوقع هذه الإفادة. لن أكون قـــادراً علـــى التحمل وقتاً أطول. كان يقال لنا دوماً ألاّ نتشاجر مع رجـــال الـــشرطة. غلمان الشوارع من أمثالي يأتون في أسفل لائحة الأطعمة[1]. فوقنا المجرمون الصغار، كالنشالين. فوقهم المبتزون ونصابو القروض. فوقهم يأتي النبلاء. فوقهم يأتي أصحاب المؤسسات التجارية الضخمة. إنما فوق الجميع رجال الشرطة. إنهم يملكون أدوات السلطة المجـــرّدة. وما من أحد يفتشهم. من يستطيع أن يضبط رجال الشرطة؟ لذا سأوقع الإفادة. بعد عشر صفعات، ربما خمس عشرة صفعة أخرى. بعد خمس، ربما ست، صدمات كهربائية أخرى.

علـــى حين غرة، أسمع جلبةً عند الباب. موظفو الأمن يصيحون. الأصوات ترتفع. يرتعد الباب وينصفق منفتحاً. تندفع شابة إلى الحجرة. متوسطة القامة ونحيفة البنية. لها أسنان جميلة وحاجبان مقوّسان بصورةٍ

(1) اســتخدم المؤلــف هــنا تعبيراً مجازياً مأخوذاً من الحياة الشخصية للبطل النادل – م.

محببة إلى القلب. في منتصف جبينها تحمل نقطة دائرية زرقاء كبيرة. يتكون زيها من قميص وسروال من قماش أبيض اللون وشال طويل أزرق وخف من الجلد. شعرها الأسود الطويل مسدول. تتدلى من كتفها اليسرى حقيبة بنية اللون. تتحلى الشابة بحضور ما.

غودبول مرتبك جداً، وهو يمسك بالسلك المشحون بالتيار الكهربائي بيده، ويعوي بألم. يوشك أن يمسك بالمتطفل من ياقته، بعدها يدرك أنها امرأة. "من أنتِ، كي تقتحمي الحجرة هكذا؟ ألا ترين أنني مشغول؟".

"اسمي سميتا شاه"، تعلن المرأة بهدوء لغودبول. "أنا محامية السيد رام محمد توماس". من ثم تنظر إليّ، إلى حالتي المزرية، وبسرعة تشيح عينيها عني.

غودبول منذهل. كان منذهلاً جداً بحيث لم يلحظ أنني منذهل بالقدر نفسه. لم أرَ هذه المرأة من قبل. لا أملك مالاً كي أستدعي سائق سيارة أجرة. قلّما أستطع أن أستخدم محامياً.

"هل ستأتين مجدداً؟" يتكلم غودبول بصوت خفيض أجش. "هل أنتِ محاميته؟".

"أجل. وما تفعله لموكلي هو شيء غير قانوني وغير مقبول البتة. أريد نهاية فورية لهذه المعاملة. إنه يحتفظ بحقه في مقاضاتك وفق المادتين 330 و31 من قانون العقوبات الهندي. يلزمني أن أكشف للصحف الأمور المتعلقة باعتقاله. لا أرى دليلاً على استخدام الأشعة تحت الحمراء كما دونوا. الاعتقال لا أساس واضح له كما تفترض المادة اثنتين وعشرين من الدستور وأنتَ تخرق المادة خمسين من قانون العقوبات ساري المفعول. الآن إذا لم تستطع أن تقدّم مذكرة اعتقاله، فإنني سأنقل موكلي من مركز الشرطة كي أتشاور معه على انفراد".

"إر... م م م... عـــ... عليّ أن أتحدث إلى المندوب. انتظري من فـــضلكِ"، هو كل ما يستطيع أن يقوله غودبول. ينظر إلى المرأة وعلى وجهه تعبير العاجز، يهز رأسه، وينسل خلسةً من الغرفة.

تتـــرك فيَّ المحامية انطباعاً قوياً. لا أعرف أن المحامين يستخدمون ســـلطةً كهـــذه على رجال الشرطة. أعتقد أن لائحة الأطعمة ينبغي تعديلها.

لا أدري في أي لحظـــة يعـــود غودبـــول إلى الحجرة، ما يقوله للمحامـــية، أو ما تقوله المحامية له، لأنني فقدتُ الوعي. من جراء الألم، والجوع، والسعادة.

* * *

أجلـــس الآن علـــى مصطبة جلد وفي يديّ كوب شاي ساخن يتصاعد منه البخار. مكتب مستطيل تناثرت عليه الأوراق. على سطحه مثقلة أوراق من زجاج ومصباح منضدي أحمر. جدران الحجرة مطلية بطلاء وردي اللون. الرفوف اصطفت فوقها كتب سميكة سوداء ذات حروف ذهبية على ظهورها. ثمة شهادات، ووثائق رسمية مؤطرة معلقة علـــى الجدران. تنمو غرسة يشب موضوعة في قِدر فخارية جانبياً في أحد أركان الحجرة.

تعـــود سميـــتا بصحن وكأس بيديها. أشم الطعام. "أعرف أنك جائـــع، لذا جلبتُ لكَ بعض أقراص الخبز[1]، شيئاً من خليط الخضار وزجاجة كوكا كولا. هذا كل ما هو موجود في ثلاجتي الكهربائية".

أمـــسك يدها. تبدو عند اللمس دافئة ورطبة. "شكراً"، أقول. لا أزال لا أعـــرف كيف استطاعتْ الوصول إلى مركز الشرطة، أو لماذا.

(1) في النص chapattis: وهي أقراص رقيقة صغيرة تُصنع من عجينة الخبز (على الطريقة الهندية) – م.

كـــل مـــا أخبرتني به هو أنها قرأت عن اعتقالي في الصحف، وجاءت بأســـرع وقـــت ممكـــن. أنا الآن في منـــزلها في باندرا. لن أسألها متى جاءت بـــي إلى هنا، أو لماذا. المرء لا يسأل القدر عندما يبتسم له لماذا ابتسمت لي.

أبـــدأ بتـــناول الطعام. آكل أقراص الخبز كلها. آتي على الخضار كلها. أشرب زجاجة الكوكا كولا كلها. آكل إلى أن تجحظ عيناي.

الوقت الآن ساعة متأخرة من المساء. أكلتُ ونمتُ. سميتا لا تزال معـــي، لكنني الآن في حجرة نومها، أجلس على سرير كبير ذي ملاءة زرقـــاء. حجرة نومها تختلف عن تلك المخصصة لمستخدمتي السابقة، نجمـــة السينما نيليما كوماري. فبدلاً من المرايا الضخمة، وميداليات، وجوائـــز التمثيل المصفوفة على الرفوف، هنالك كتب ودب كبير بني اللـــون من القش ذو عينين زجاجيتين. لكنها، على غرار نيليما، تملك جهاز تلفاز ماركة سوني وحتى جهاز تشغيل أقراص DVD.

سميتا تجلس معي على حافة السرير تحمل بين أصابعها علبة قرص ليـــزري. "انظر، استطعتُ أن أحصل على نسخة من تسجيل DVD الخـــاص ببرنامجك التلفازي. يمكننا الآن أن نمشطه تمشيطاً. أريدك أن تـــشرح لي على وجه الدقة كيف استطعت أن تجيب عن تلك الأسئلة كلها. وأريدك أن تخبرني الحقيقة".

"الحقيقة؟".

"حـــتى إذا خدعـــتهم، أنا هنا كي أحميكَ. ما تخبرني به لا يمكن استخدامه ضدك في جلسة المحكمة".

أول الشكوك بدأت تزحف إلى عقلي. هل هذه المرأة جيدة جداً كـــي تكون صادقة؟ هل غرسها جونسون الأصلع ذاك كي تنتزع مني حقائق متعلقة بالجريمة؟ هل يمكنني أن أثق بها؟

الوقت هو الذي سيقرر ذلك. أخرج قطعة النقد الموثوقة خاصتي من فئة روبية واحدة. إذا استقرت على وجهها سأتعاون مع المحامية. أما إذا استقرتْ على قفاها فسأقول لها مع السلامة. أقذف قطعة النقد بظفري. تستقر على وجهها.

"هل تعرفين ألبرت فيرنانديز؟" أسألها.

"كلا. من هو؟".

"إنه يملك معملاً غير قانوني في دهارافي يصنع أبازيم لسيور الساعات".

"و؟".

"يلعب الماتكا؟".

"ماتكا؟".

"مقامرة غير قانونية بالورق".

"فهمت".

"لذا فإن ألبرت فيرنانديز يلعب ماتكا ويوم الثلاثاء الماضي كانت له لعبة مذهلة".

"ماذا جرى؟".

"عرض خمس عشرة ورقة رابحة في صف واحد. هل تصدقين؟ خمس عشرة ورقة رابحة الواحدة بعد الأخرى. ربح خمسين ألف روبية ذلك المساء".

"وماذا يعني. ما صلة ذلك بموضوعنا؟".

"ألا تفهمين؟ إنه محظوظ في أوراق اللعب وأنا محظوظ في البرنامج التلفازي".

"أنتَ تعني أنكَ فقط خمنتَ الأجوبة وبفعل الحظ الخالص حصلتَ على اثني عشر جواباً صحيحاً عن اثني عشر سؤالاً؟".

"كلا. لم أخمن تلك الأجوبة. بل عرفتها".

"عرفتَ الأجوبة!؟".

"نعم. أجوبة الأسئلة كلها".

"إذاً ما هو الدور الذي يلعبه الحظ في الصورة؟".

"حسن، ألم أكن محظوظاً بحيث إنهم طرحوا عليّ تلك الأسئلة التي كنتُ أعرف أجوبتها؟".

نظرة عدم التصديق التام على محيا سميتا، تشي بكل شيء. لم يعد بمستطاعي أن أتحملها. أثور بحزن وغضب. "أعرف ما تفكرين فيه. على غرار غودبول، أنتِ تسألين ما الذي كنتُ أفعله في ذلك البرنامج التلفازي الخاص بالمسابقات. على غرار غودبول، أنتِ تعتقدين أنني أصلح فقط لتقديم الدجاج المقلي والشراب الاسكتلندي في أحد المطاعم. أي مطلوب مني أن أعيش حياة كلب، وأن أموت ميتة حشرة. أليس كذلك؟".

"كلا، رام". تقبض على يدي. "لم أقل ذلك. إنما يجدر بك أن تفهم. إذا تعين عليَّ أن أساعدك، فعليّ أن أعرف كيف ربحتَ ذلك البليون. وأعترف، أجد أنه شيء عسير أن أستوعب المسألة. يا الله، حتى أنا لا أستطيع الإجابة عن نصف تلك الأسئلة".

"طيب، مدام، نحن الفقراء نستطيع أيضاً أن نطرح الأسئلة ونطلب إجابات عنها. وكوني على ثقة، إذا تولى الفقراء مسؤولية إدارة المسابقات، لن يكون في وسع الأغنياء الإجابة عن سؤال واحد. لا أعرف العملة المالية المتداولة في فرنسا، لكنني أستطيع أن أخبركِ بالمبلغ الذي تدين به شاليني تاي للمرابي في محلتنا. لا أعرف أول إنسان وضع قدمه على سطح القمر، لكنني أستطيع أن أخبرك من هو أول إنسان ينتج أقراص DVD المقرصنة في دهارافي. هل باستطاعتكِ أن تجيبي عن هذه الأسئلة في مسابقاتي؟".

"انظر، رام، لا تقلق. لا أقصد الإساءة إليكَ. في الحقيقة، أرغب في مساعدتك. لكن إذا لم تحتال، ينبغي لي أن أعرف كيف عرفتِ الأجوبة".

"لا أستطيع أن أشرح".

"لماذا؟".

"هل تلاحظين نفسك حين تتنفسين؟ لا. أنتِ ببساطة تعرفين أنكِ تتنفسين. لم أذهبْ إلى المدرسة. أنا لا أقرأ الكتب. لكنني، أقول لكِ، إنني عرفتُ الأجوبة".

"لذا فأنا أحتاج إلى معرفة حياتك كلها كي أفهم أصل أجوبتك؟".

"ربما".

تومئ سميتا برأسها. "أعتقد أن ذلك هو المفتاح. على كل حال، إن المسابقات، أي مسابقات، ليست اختباراً دقيقاً للمعرفة مثل اختبار الذاكرة". تثبت شالها الكبير الأزرق، وتحدق إلى عيني مباشرةً. "أريد الإصغاء إلى ذكرياتكَ. هل يمكنك أن تبدأ من البداية؟".

"تقصدين من السنة التي ولدتُ فيها؟ السنة الأولى من حياتي؟".

"كلا. من السؤال رقم واحد. إنما قبل أن نبدأ، عدني، رام محمد توماس، أنكَ ستقول الحقيقة".

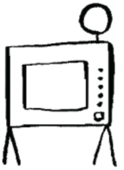
"تقصدين كما يقولون في الأفلام السينمائية، (الحقيقة، الحقيقة كلها ولا شيء سوى الحقيقة)؟".

"بالضبط".

آخذ نفساً عميقاً. "نعم. أعدكِ. إنما أين هو الكتاب الذي سأقسم عليه إنني سأقول الحقيقة".

"لا أحتاج إلى كتاب. أنا شاهدة عليك. مثلما أنتَ شاهد عليّ".

تأخذ سميتا القرص الليزري اللامع من غلافه وتدسه في جهاز تشغيل أقراص DVD.



1,000
موت بطل

قُرِع الجرس للمرة الثالثة. الستارة المخملية الأرجوانية على وشك أن تُــرفع. تُطفــأ الأضواء بصورة متوالية، إلى أن تبقى فقط اللافتات الحمراء التي تشير إلى *الخروج*، تتوهج كالجمر في الصالة المعتمة. بائعو الفــشار وبائعــو قناني المرطبات يبدأون بالمغادرة. سالم وأنا نستقر في مقعدينا.

أول شيء يجب أن تعرفيه عن سالم هو أنه صديقي المفضل. ثانياً هو أنه مفتون حتى الجنون بالأفلام الهندية. إنما ليس كل الأفلام الهندية. إنما فقط تلك التي يظهر فيها أرمآن علي.

يقولون كان هنالك في البداية أميتاب باجاجان. بعده كان هنالك شاهروخ خان. الآن يوجد أرمآن علي. بطل أفلام الأكشن بلا منازع. إنه نبض قلب الملايين.

ســالم يحب أرمآن. أو، بصورةٍ أدق، إنه لا يرى في عالم السينما إلا أرمــآن. غــرفته الصغيرة جداً في المبنى السكني هي بمثابة مزار. إنها مكسوة بملصقات من كل الأنواع تصوّر البطل في أوضاع شتى. أرمآن يــرتدي ســترة جلد. أرمآن على دراجة نارية. أرمآن خالعاً قميصه،

عارضاً صدره كث الشعر. أرمآن يحمل مسدساً. أرمآن يمتطي صهوة حصان. أرمآن في حوض سباحة ومن حوله سرب من الحسناوات.

أنـــا وهـــو نشغل المقعدين (أ 21) و(أ 22) في الصف الأول من الحلقـــة الرسمية[1] في ريغال تولكيز في باندرا. في الحقيقة، لم يكن يجدر بـــنا الجلوس هناك. البطاقات التي أضعها في جيب قميصي لا تشير إلى الحلقة الرسمية 150 روبية. إنها تشير إلى مقاعد أمامية 25 روبية. مرشد المـــشاهدين إلى مقاعدهم في مزاج جيد اليوم، وقد أسدى لنا معروفاً. أخـــبرنا أن نذهب ونستمتع على الشرفة، لأن المقاعد كانت مهجورةً عملـــياً. حتى الشرفة كانت خاليةً تقريباً. عدا سالم وأنا، ثمة أشخاص آخرون لا يزيد عددهم على دزينتين في الصفوف التي أمامنا.

حـــين أذهب وسالم إلى صالات السينما، نجلس عادةً في المقاعد الأمامـــية. إنها تجعلنا قادرين على أن نطلق صيحات الاستهجان أو أن نصفّر. يعتقد سالم أنكَ كلما دنوتَ أكثر من الشاشة تكون أقرب إلى الأكشن. يقول إنه يستطيع أن ينحني إلى الأمام ويكاد يمس أرمآن. في وسعه أن يحصي الأوردة في العضلة ذات الرأسين في أعلى ذراع أرمآن، في وســـعه أن يشاهد بياض عينيّ أرمآن البنيتين كالبندق، الشعر الناعم الـــذي ينمو على ذقن أرمآن المشقوق، الخال الأسود الصغير على أنف أرمآن واضح المعالم.

لستُ مولعاً بصورة خاصة بأرمآن علي. أعتقد أنه يمثل بالطريقة نفسها في كل فيلم من أفلامه. لكنني، أيضاً، أود الجلوس في الصفوف الأمامـــية من الصالة، أقرب ما يكون إلى الشاشة الضخمة. من هناك تبدو مفاتن البطلة مبهجة للحواس.

---

(1) الحلقة الرسمية Dress Circle: حلقة أو جزء من المقاعد أو شرفة في مسرح مخصصة للمرتدين ملابس رسمية – م.

رُفعـــت الستارة الآن، والشاشة تومض ومضة خاطفة. في البدء يعرضـــون لـــنا الإعلانـــات التجارية. أربعة إعلانات رعتها شركات القطـــاع الخاص وواحد رعته الحكومة. الإعلان الأول هو عن حبوب الفطور المصنوعة من الذرة وفيه عرض للخطوات اللازم اتباعها لنصبح طلابـــاً مجتهدين ولاعبـــي كركيت لامعين، أما الإعلان الثاني فهو عن عطـــر الطيب، ويشير إلى أن من يستخدمه يحظى بالسيارات السريعة ويفـــوز بود الفتيات فائقات الجمال ("ذاك هو العطر الذي يستخدمه أرمآن"، يهتف سالم). أما الإعلان الثالث فهو عن صابون روما الذي يـــؤدي غسل الثياب به إلى جعلها ناصعة البياض، وهذا البياض الناصع قـــد يكون مفتاح ترقية إلى وظائف مهمة أما الإعلان الثالث فهو عن شـــراب اسكتلندي وفيه تلميح إلى أن من يحتسيه يمكن أن يعيش حياة الملوك. أما الإعلان الأخير وهو الإعلان الحكومي فهو بمثابة تحذير من مضار التدخين وأنه يقود إلى سرطان الرئة.

بعـــد الإعلانات التجارية، هنالك توقف قصير بينما يتم استبدال البكـــرات. نـــسعل ونتنحنح. وبعدها تظهر إجازة الرقيب على شاشة الـــسينما. تخبرنا أن الفيلم السينمائي قد أجيز من قبل U/A، الإجازة موقعة من قبل سيدة اسمها أم. كين، رئيسة هيئة الرقابة. هذه المرأة هي التي توقع إجازات الرقابة كلها. كان سالم يسألني في كثير من الأحيان عـــن هذه المرأة. في الحقيقة، كان يحسدها على وظيفتها. فهي تستطيع أن ترى أفلام أرمآن السينمائية قبل أي فرد آخر.

لـــوائح الأسماء تبدأ بالدوران. يعرف سالم جميع المسهمين في هذا الفـــيلم. يعرف من هو مصمم الأزياء، من هو مصفف الشعر، من هو المـــزين. يعـــرف أسماء مدير الإنتاج، مراقب التمويل، مسجل الصوت وأسماء المساعدين كلهم. هو لا يتكلم الإنكليزية بصورة جيدة جداً، إنما

في وسعه أن يقرأ الأسماء، حتى تلك المطبوعة بحروف صغيرة فعلاً. كان قد شاهد هذا الفيلم ثماني مرات حتى الآن وفي كل مرة يحفظ عن ظهر قلب اسماً جديداً. لكنكِ إذا قُدر لكِ أن تري التركيز البادي على وجهه الآن تحديداً، سيخطر ببالكِ أنه يشاهد (العرض الأول لليوم الأول) بتذاكر السوق السوداء.

في غضون دقيقتين، أرمآن علي سيحقق دخوله العظيم بالقفز من مروحية ذات لونين أزرق وأبيض. عينا سالم تشرقان. أرى الفرح البريء نفسه على وجهه حين رأى أرمآن أول مرة، قبل سنة. رآه شخصياً.

يأتي سالم راكضاً عبر الباب، وينهار على وجهه فوق الفراش. يصيبني الذعر. أصرخ قائلاً: "سالم!... سالم! ماذا جرى لكَ؟ كيف استطعتَ أن تعود مبكراً جداً؟" أقلبه على ظهره. يقهقه سالم.

"أكثر الأشياء إدهاشاً حصل اليوم. هذا أسعد أيام حياتي"، يعلن قائلاً.

"ما هو هذا الشيء؟ هل ربحتَ جائزة اليانصيب؟".

"لا. شيء حتى أفضل من الفوز بجائزة اليانصيب. رأيتُ أرمآن علي".

ببطء لاهث، تتبدى للعيان القصة كلها. كيف لمح سالم أرمآن علي في أثناء قيامه بجولته اليومية في جاتكوبار. كان النجم يترجل من سيارته المرسيدس بنز كي يدخل فندقاً ذا خمس نجوم. كان سالم راكباً في حافلةٍ كي يسلم علبة الغداء الأخيرة إلى أحد الزبائن. في اللحظة التي وقعت فيها عيناه على أرمآن، قفز من الحافلة المسرعة، كاد أن يضيعه حين مرت سيارة ماروتي وهرع نحو الممثل، الذي كان يمر

عـــبر الـــباب الدوّار للفندق. الحارس طويل القامة، قوي البنية بالبذلة النظامـــية، أوقـــف سالم، ومنعه من دخول الفندق. "أرمآن!"، صاح ســـالم، محـــاولاً بيأس لفت انتباه النجم. سمع أرمآن الصيحة، وقف في دربه، والتفت من حوله. وقعت عيناه على عينيّ سالم. ابتسم له ابتسامة خفـــيفة، وأومأ برأسه إيماءة شكر غير محسوسة، وتابع مسيره إلى صالة الفـــندق. نسى سالم كل ما يتعلق بالغداء، وأقبل مسرعاً صوب البيت كي يحيطني علماً بحلمه الذي تحقق. زبون (حاملي الغداء المتجولين)[1] ظل جائعاً في ما بعد ظهيرة ذلك اليوم.

أسأله: "هل يبدو أرمآن مختلفاً عما هو عليه على الشاشة؟".

"كلا. إنه يبدو أفضل"، يقول سالم.

"إنه أطول وأكثر وسامةً. أمنيتي في الحياة أن أصافحه، على الأقل مرة واحدة. ربما لن أغسل يدي بعد مصافحتي له شهراً كاملاً".

أفكّـــر في كم هو شيء جيد أن تكون للمرء أُمنيات بسيطة، غير معقدة، مثل مصافحة يد نجم.

خـــلال ذلك، على الشاشة، تلك اليد تحمل مسدساً تصوبه نحو مجموعة مؤلفة من ثلاثة رجال شرطة. يلعب أرمآن في هذا الفيلم دور قاطع طريق. قاطع طريق ذو قلب. يسلب الأثرياء، ويوزع النقود على الفقـــراء. بـــين هذا وذاك يقع في غرام البطلة، بريا كابور، وهي ممثلة متوقع لها النجاح، تنشد ست أغانٍ، وتحقق رغبة أمه المحبوبة من خلال أخـــذها في رحلة إلى ضريح فيشنو ديفي. على الأقل، تلك هي القصة حتى الفاصل.

(1) حاملو الغداء المتجولين Gawli Tiffin Carriers: عمال يقومون بنقل وجبة الغداء الجاهزة إلى الزبائن أينما وُجدوا – م.

دخـــول بريا كابور في الفيلم تم الترحيب به عبر صفير المتفرجين الجالـــسين في الـــصفوف الأولى. هي ممثلة طويلة القامة، جميلة المظهر فـــازت بلقـــب ملكـــة جمال العالم قبل بضع سنوات خلت. جسدها منحوت كجسد حسناء كلاسيكية، مكتنـــزة الصدر نحيلة الخصر. إنها ممـــثلتي الأثيرة هذه الأيام. تقطب وجهها كثيراً في الفيلم، ومراراً تقول "اخرس" للممثل الكوميدي. فنضحك.

أخاطـــب سالم قائلاً: "طموحك أن تصافح يد أرمآن. لكن، في رأيـــك، مـــا هـــو طموح أرمآن في حياته الشخصية؟ يبدو أنه يملك الطموحات كلها – الوجه، الشهرة، الثروة".

يرد سالم بوقار: "أنتَ مخطئ. إنه لا يملك أورفاشي".

امـــتلأت الصحف بأخبار انقطاع العلاقة بين أرمآن وأورفاشي، بعد قصة غرام عنيف كالزوبعة استمرت تسعة شهور. ثمة تخمين مفاده أن أرمـــآن كسير الفؤاد تماماً. وأنه أضرب عن الطعام والشراب. وأنه ربمـــا يـــنوي الانتحار. أورفاشي راندهاوا عادت إلى مهنتها بوصفها عارضة أزياء.

أرى ســـالم يبكـــي. عيناه حمراوان ومخضبتان بالدمع. لم يتناول الطعام طيلة ساعات النهار كلها. قاعدة الكأس التي تتخذ شكل القلب تحتوي على صورة أرمآن وأورفاشي، أنفق عليها (أي القاعدة) نصف راتبه الهزيل، ملقاة على الأرض، محطمة إلى مائة قطعة.

أقول له: "انظر، سالم، سلوكك هذا صبياني. ما من شيء يمكنك أن تفعله حيال هذا الأمر".

"ليتني ألتقي أرمآن. أريد أن أخفف عنه همومه. أن أمسك بيده، وأجعله يبكي على كتفي. يقولون إن البكاء يجعل القلب أخف".

"وما فائدة كل ذلك؟ أورفاشي لن تعود إلى أرمآن".

فجـأةً يـرفع سالم بصره إلى الأعلى. "أتعتقد أن في وسعي أن أتحـدث إليها؟ ربما أستطيع أن أقنعها بالرجوع إلى أرمآن. أقول لها إنها كانت غلطة بكل معنى الكلمة. أقول لها كم هو حزين وكسير الفؤاد".

أهز رأسي. لا أريد أن يتسكع سالم في أرجاء مومباي كلها باحثاً عن أورفاشي راندهاوا. "سالم، إنها ليست فكرة سديدة أن تدس أنفك في قـضية أشـخاص آخرين، أو أن تجعل مشاكل الآخرين مشكلتك الخاصـة. أرمـآن علـي رجل ناضج. سيتعامل مع مشاكله بطريقته الخاصة".

يقول سالم: "على الأقل سأبعث له هدية".

يـذهب ويـشتري قنينةً كبيرةً من صمغ فيفيكول، ويبدأ بلصق شـظايا القاعـدة التي لها شكل القلب، كي يعيدها إلى حالها السابق. يـستغرق هذا العمل منه أسبوعاً كاملاً، إنما في النهاية يكتمل القلب، شـبكة الخطـوط الـسود المتصالبة وحدها التي تذكره بالخطوط غير الصحيحة التي انكسرت فيها.

يقـول: "سأبعثها الآن إلى أرمآن. إنها رمز مفاده أنه حتى القلب الكسير من الممكن جمع شظاياه".

أسأله: "بصمغ فيفيكول؟".

"كلا. بالحب والرعاية".

يغلـف سالم القاعدة بالقماش، ويبعثها إلى عنوان منـزل أرمآن علـي. لا أعرف ما إذا وصلت الهدية إلى أرمآن أم لا. ما إذا كسرت من قبل ساعي البريد، هُشمت من قبل حراس الأمن أو رُميت في سلة المهمـلات من قبل سكرتير أرمآن. الشيء المهم هو أن سالم يعتقد أن الهديـة وصلت إلى بطله، وساعدت على شفاء جرحه الدامي. جعلت

أرمآن متعافياً من جديد، مكنته من أن يستأنف إلقاءه القنابل الضخمة شـــديدة الانفجـــار مـــن الطائرة، كهذه القنبلة التي يلقيها الآن. التي أشاهدها أول مرة ويشاهدها سالم تاسع مرة.

أُغنـــية تُنـــشد على الشاشة. أرمآن وأمه يصعدان صوب ضريح فيشنو ديفي.

"يقولـــون إنـــكَ إذا طلـــبتَ من فيشنو ديفي أي شيء، فسيُلبى طلبك. قل لي، ماذا تطلب منها؟" أقول لسالم.

يرد عليّ: "ماذا تطلب منها أنتَ؟".

أقول: "أعتقد أنني سأطلب منها المال".

"ســـأطلب منها أن تجمع شمل أرمآن وأورفاشي"، يقول من دون تفكير.

تظهر على الشاشة كلمة **فاصل** بحروف حمراء ثخينة.

* * *

أقف وسالم ونمط أذرعنا وسيقاننا. نشتري سمبوستين[1] نديتين من بائع الأطعمة. ينظر الغلام الذي يبيع قناني المشروبات الغازية إلى المقاعد الخالـــية بحزن. لن يحقق ربحاً جيداً اليوم. نقرر الذهاب إلى دورة المياه. هـــي ذات رقاقـــات بيضاء جميلة، صفوف من المباول وأحواض غسل نظـــيفة. لكلٍّ منا حجيرة محددة. يذهب سالم دوماً إلى الحجيرة الواقعة في أقـــصى الـــيمين، أمـــا أنا فأختار المبولة المنفردة على حائط الناحية

(1) سمبوستين Samosas: مثنى سمبوسة، وهي عموماً تتكون من محارة مقلية مـــن المعجنات، ثلاثية الشكل وذات أربعة سطوح ذات حشوة لذيذة المذاق مـــن البطاطس المتبلة، البصل، حبات البازلاء، الكزبرة، اللحم المفروم أو غالباً الجبن الطازج المصنوع بالطريقة المحلية – م.

اليـــسرى. أفرّغ مثانتي وأقرأ العبارات المنقوشة على الحائط. (تينو بال هنا... شينا ساقطة... أحب بريانكا).

بريانكا؟ أحتج على فنان النقش الذي شوّه النقش الأخير. أبصق في يدي، وأحاول أن أزيل الحروف الإضافية، لكنها مكتوبة بمعلّم أسود وترفض أن تتزحزح. في النهاية أستخدم أظافري في حكها عن الجدار، وأفلـــح في إعـــادة الـــنقش إلى حالته الأصلية، مثلما حفرتُه قبل أربعة شهور: أحب بريا.

يـــرن الجـــرس الثاني. انتهى الفاصل. يوشك الفيلم أن يبدأ من جديد. لخص لي سالم سلفاً الحبكة المتبقية. أرمآن وبريا سينشدان الآن أغنـــيةً في سويسرا، قبل أن يتم قتل بريا من قبل عصابة منافسة. بعدها سيقتل أرمآن مئات الرجال السيئين انتقاماً، يفضح السياسيين وضباط الشرطة الفاسدين، وفي الختام يموت ميتة بطل.

نعود إلى المقعدين (أ 21) و(أ 22). تصبح الصالة مظلمةً من جديد. فجأةً يدخل رجل طويل عبر باب الشرفة، ويشغل المقعد المجاور لسالم. (أ 20). كان في وسعه أن يختار مقعداً من بين مائتي مقعد، لكنه يختار (أ 20). كان يتعذر عليّ أن أرى وجهه، لكنني أستطيع أن أثبت أنه رجل مسن ذو لحية طويلة يرتدي ما يبدو أنه زي رجل أفغاني مقيم في الهند.

كـــنتُ فضولياً في ما يتعلق بهذا الرجل. لماذا جاء ليشاهد الفيلم بعـــد أن تم عـــرض نـــصفه؟ هل دفع نصف أجرة التذكرة؟ سالم غير مكتـــرث به. إنه يدفع عنقه إلى الأمام متوقعاً سلفاً المشهد الغرامي بين أرمآن وبريا الذي يكاد يبدأ.

يـــأتي أرمآن إلى سويسرا، ظاهرياً كي يحدد اتصالاً مباشراً، إنما واقعـــي كـــي يمثل قصة حب عنيف مع بريا وينشد أغنيةً، تنضم إليه

خلال إنشادها عشرون راقصة بيضاوات البشرة يرتدين الأزياء التقليدية التي هي نوعاً ما مقترة بالنسبة إلى بلد جبلي بارد. الأغنية والرقصة تنتهيان، إنه الآن يجلس في حجرته بالفندق، حيث تشتعل نار محسحسة في الموقد.

تستحم بريا. نسمع صوت الماء الجاري وتدندن هي لحناً موسيقياً، ومن ثم نشاهدها في الحمّام. تضع الصابون وتستخدم رأس الدُش على جسدها، وتجعل الفقاعات تختفي، ولكن أملنا يخيب في أن نشاهد شيئاً آخر وهي تستحم.

في النهاية، تخرج من الحمّام بمنشفة وردية فقط تحيط بجسدها. ويتدلى شعرها فاحم السواد مسدولاً خلف كتفيها، متلألئاً من جراء الرطوبة. ساقاها الطويلتان ناعمتان وملساوان. يطوّقها أرمآن بذراعيه، ويغطي وجهها بالقبلات. تنحدر شفتاه نحو حفرة عنقها. تبدأ موسيقى خفيفة رومانسية بالعزف. تقوّس ظهرها كي تسمح لأرمآن أن يعانق حنجرتها. تتدحرج يده إلى ظهرها وتسحب منشفتها. القماش الوردي يرتخي ويسقط عند قدميها. يعتقد سالم أنه في هذا الموضع أدخل المراقبون مقصهم. ولهذا السبب فهو يحسد السيدة كين.

الآن حبس أرمآن بريا في عناقه. يسمعوننا أنفاسها الثقيلة، ويروننا حبات العرق المتصببة على جبينها. ثمة صيحات وصفير من المقاعد الأمامية. يتململ الرجل العجوز الجالس إلى جانب سالم، يتململ بعدم ارتياح في مقعده، يلف ساقاً على ساق. لستُ متيقناً، لكنني أعتقد أنه يقوم بعمل ما لا يليق بسنه.

"الرجل العجوز الجالس جنبك يصبح ناشطاً"، أهمس لسالم. لكنه غافل عني وعن الرجل العجوز. إنه يحدق فاغراً فاه إلى الجسدين المجدولين المنغرزين بإيقاع متزامن مع الموسيقى التي تعزف في الخلفية.

تـــدور الكاميرا على ظهر أرمآن وتركز على الموقد، حيث تلعق ألسنة اللهب الصفراء - الذهبية زنود الخشب بحماسة متزايدة. تخفت الأضواء ويعمّ الظلام.

ثمـــة نـــار ذات تناســبات متشابهة في مطبخنا حين أدخل المبنى الـــسكني، إنمـــا بدلاً من زنود الخشب، يستخدم سالم الورق. "أولاد الـــساقطات... كلاب!" يتمتم فيما هو يمزق حزمةً سميكةً من الورق الصقيل ويحوّلها إلى قطع صغيرة.

"سالم، ماذا تفعل؟" أسأله مرعوباً.

"إنني أنتقم من أولاد الساقطات الذين افتروا على أرمآن"، يقول ذلك بينما يرمي مزيداً من الورق في المحرقة.

ألاحظ أن سالم يمزق صفحات من مجلةٍ ما.

"أي مجلة هذه؟ إنها تبدو جديدة".

"إنها آخر عدد من (انفجار نجم - starburst). سأدمر أكبر عدد ممكن من النسخ أستطيع الحصول عليها. أستطيع فقط أن أشتري عشر نسخ منها من كشك بيع الصحف والمجلات".

ألـــتقط نسخةً لم تتلف بعد. يظهر على غلافها أرمآن علي، مع العنوان الرئيس الصارخ: **الحقيقة العارية عن هذا الرجل.**

أصيح: "لكنها تحمل صورة نجمك على الغلاف. لماذا تتلفها؟".

"بسبب ما يقولونه في داخلها عن أرمآن".

"لكنك لا تستطيع أن تقرأ".

"أقـــرأ بصورة كافية وفي وسعي أن أسمع. سمعتُ مصادفةً السيدة بـــارفي والـــسيدة شيركي تناقشان الاتهامات السفيهة التي سيقت ضد أرمآن في هذا العدد".

"مثل ماذا؟".

"أورفاشي هجرته لأنه لم يستطع أن يرضيها. كونه مستهتراً".

"هكذا إذاً؟".

"هل تعتقد أنهم يستطيعون أن يظلموا بطلي بهذه الطريقة وأن ينجوا بفعلتهم؟ أعرف أن هذا التقرير هو شحنة من الكلام الفارغ. منافسو أرمان في صناعة السينما يغارون من نجاحه. لقد لفقوا هذه الحبكة كي يدمروا سمعته. لن أسمح لهم في تحقيق مآربهم. سأذهب إلى مكتب مجلة (انفجار نجم) وأشعل النار فيه".

غضب سالم عنيف. وأنا أعرف السبب. إنه يكره المستهترين. لم يتوقع أن تصل بهم السفالة إلى إلصاق تهمة الشذوذ به.

أنا، أيضاً، أعرف بعض الأمور عن الشاذين وما يفعلونه للغلمان. في الصالات المظلمة. في دورات المياه العمومية. في الحدائق المحلية. في ملاجئ الأحداث.

لحسن الحظ، مجلة انفجار نجم تسحب مزاعمها في العدد التالي. وتنقذ (جامع وجبات الغداء وناقلها)[1] من أن يتحول إلى مُحرق مبانٍ.

* * *

خلال ذلك تسخن الأشياء بعيداً عن الشاشة، في المقعد (أ 20). ينزلق الرجل العجوز مقترباً من سالم. تمس ساقه ساق سالم بصورةٍ عرضية. في البدء، يظن سالم أنها غلطته. في المرة الثانية، يظن أنها محض مصادفة. في المرة الثالثة، يقتنع أنها متعمدة.

---

(1) جامع وجبات الغداء وناقلها dabbawallah: شخص في مدينة مومباي الهندية يقوم بجمع وجبات الغداء المطبوخ تواً في علب طعام (سفرطاس – بالعامية العراقية) من مقار عمال المصنع (في الضواحي، أغلب الأحيان) ويسلّمها إلى أمكنة عملهم بالتوالي، مستخدماً وسائل نقل مختلفة – م.

يهمـــس لي قـــائلاً: "محمـــد، سأعطي ابن الساقطة الجالس إلى جانبـــي ركلةً شديدةً إذا لم يوقف ساقه الضالة".

أنـــصحه قـــائلاً: "سالم، انظر كم هو كبير السن. ربما هي فقط ارتعاشات في ساقه".

بـــدأت سلسلة الشجار وسالم منهمك بمشاهدة الأكشن. دخل أرمـــآن وكر الوغد وانفتح باب الجحيم. يستخدم البطل كل أساليب الهجـــومات المخادعة والمعالجات - الملاكمة، الكاراتيه، الكونغ فو - كي يلحق بخصومه الهزيمة.

يـــدا الرجل العجوز هما أيضاً تصلان إلى حالة الأكشن. يضغط مـــرفقه على مسند الكرسي المشترك، ويجعل ذراعه تنـــزلق إلى جانب ذراع ســـالم، ماسة إياها بمزيدٍ من الرقة. قلما يلاحظ سالم ذلك. كان منهمكاً بالفيلم، الذي يصل إلى ذروته.

أشهر مشهد من الفيلم يكاد يحدث. المشهد الذي يتوفى فيه أرمآن علي بعد أن يقتل الأشرار كلهم. سترته مبللة بالدم. ثمة جروح في كل ناحـــية من بدنه. سرواله مكسو بالغبار والسخام. يجر نفسه على طول الأرض المؤدية إلى أمه، التي كانتْ قد وصلتْ تواً إلى مسرح الأحداث.

ســـالم غـــارق بدموعه. ينحني إلى الأمام ويقول بصورة مؤثرة، "أماه، أتمنى أنني كنتُ ابناً طيباً. لا تبكي من أجلي. تذكري، أن يموت المرء ميتةً مشرفةً أفضل من أن يعيش حياة جبان".

رأس أرمآن في حضن أمه. إنه يقلّد سالم: "أماه، أتمنى أنني كنتُ ابناً طيباً. لا تبكي من أجلي. تذكري، أن يموت المرء ميتةً مشرفةً أفضل مـــن أن يعيش حياة جبان". الأم تبكي أيضاً فيما هي تهز رأسه النازف في حـــضنها كمـــا لو كان مهداً. تنهمر الدموع من عينيها على وجه أرمآن علي. يقبض على يدها. يهتز صدره بعنف.

تنهمر الدموع في حضني. أرى أماً أخرى تقبّل وليدها مرات عدة علـــى جبينه قبل أن تضعه في صندوق ملابس، تعيد ترتيب الملابس من حـــوله. في الخلفية تعصف الريح. صوت صفارات إنذار. وصل رجال الشرطة، كدأبهم، متأخرين جداً. بعد أن أنجز البطل العمل كله بالنيابة عنهم. لا يستطيعون أن يفعلوا أي شيء له الآن.

أرى أن يـــد الـــرجل الملتحـــي اليسرى قد تحركت. هي الآن موضـــوعة في حضن سالم وتستقر هناك برفق. سالم مستغرق جداً في مـــشهد المـــوت بحيث إنه لم ينتبه لها. يتشجع الرجل العجوز. يدعك راحـــته على سروال سالم (الجينـــز). فيما يلفظ أرمآن أنفاسه القليلة الأخيرة، يزيد العجوز ضغطه إلى أن يكاد يقبض على شيئه.

يـــثور ســـالم. "أنتَ يا ابن الساقطة الحقير! أنتَ أيها المنحرف القذر! سأقتلك!" يزعق ويصفع الرجل على وجهه. بقوة.

يـــرفع الرجل يده بسرعة عن حضن سالم، ويحاول أن ينهض عن الكرســـي. إنما قبل أن يتمكن من رفع نفسه كلياً، يقبض عليه سالم. يفشل في الإمساك بياقة الرجل، لكنه يمسك بلحيته. حين يجرها سالم، تأتي في يده. يقفز الرجل خارج مقعده بصرخة مختنقة، ويندفع بقوة نحو باب الخروج، الذي قلما يبعد عشرين قدماً.

في تلك اللحظة تحديداً تنقطع الكهرباء في الصالة، ويبدو أن المولّد معطـــل. تصبح الشاشة خاليةً وتغدو الصالة المعتمة متألقةً حين تشتعل مـــصابيح الطوارئ بصورةٍ متقطعة. يُلقى القبض على الرجل على حين غـــرة، كغزالٍ على ضوء المصابيح الأمامية لسيارة ما. يدور، غير واثق من نفسه.

فجـــأةً، يعـــود التيار الكهربائي. كان انقطاعاً مؤقتاً لا غير. يبدأ الفـــيلم من جديد على الشاشة، تُطفأ مصابيح الطوارئ. يندفع الرجل

وراء الستائر السوداء صوب لافتة *الخروج* الحمراء، يفتح الباب ضارباً إياه بعنف ويتلاشى عن الأنظار.

إنما في ذلك الجزء من الثانية شاهد سالم وأنا وميضاً خاطفاً من عينين خضراوين كالبندق، وأنفاً منحوتاً بدقة، وذقناً مشقوقاً.

حين بدأت لائحة المشاركين في إخراج الفيلم وإنتاجه وتمثيله بالدوران على الشاشة، كف سالم عن الإمساك بكتلة الشعر الأشيب المشوش الذي تفوح منه بصورةٍ غامضة رائحة عطر وصمغ كحولي. هذه المرة لا يشاهد اسم مصمم الإعلان واسم موظف العلاقات العامة، أسماء رجال الإضاءة وصبيان تحديد المواضع، مُخرج الشجار والمصوِّر، إنه يبكي.

صار أرمآن علي، بطله، في عداد الأموات.

تنظر إليّ سميتا بعينين مرتابتين. "متى جرت هذه الحادثة على وجه الدقة؟".

"قبل ست سنوات خلت. حين كنت أسكن وسالم في حجرة مستأجرة في مبنى سكني في جاتكوبار".

"وهل تدرك أهمية ما رويته لي تواً؟".

"ماذا؟".

"أي أن هذه الحادثة إذا شاعت، فربما تدمّر أرمآن علي، وتضع نهايةً لمسيرته السينمائية. بطبيعة الحال، سيحدث ذلك فقط إذا كان ما حكيته لي صحيحاً".

"أنت، إذاً، لا تزالين لا تمحضينني ثقتكِ؟".

"لم أقلْ ذلك".

"يمكنني أن أرى الشك في عينيك. إذا كنتِ لا تزالين لا تصدقيني، فأنتِ تفعلين هذا انطلاقاً من مخاطرتكِ. لكنكِ لا تستطيعين أن

تتجاهلـــي الدلـــيل على قرص DVD هذا. هل يمكننا أن نرى السؤال الأول؟".

تومـــئ سميتا برأسها، وتضغط زر التشغيل في جهاز التحكم عن بعد.

تم إطفـــاء مـــصابيح الاســـتوديو. قلما يمكنني مشاهدة الجمهور الجـــالس حـــولي بهيئة حلقة. الصالة مضاءة بواسطة ضوء كشاف في الوسط، حيث أجلس في كرسي جلدي دوّار قبالة بريم كومار. تفصلني عنه طاولة نصف دائرية. ثمة شاشة كبيرة أمامي ستُعرض عليها الأسئلة. تُضاء لافتة الاستوديو. تشير اللافتة إلى سكوت.

تدور آلات التصوير، ثلاثة، اثنان، واحد، "الآن يجري تصويرك".

يأتي اللحن المميز للبرنامج وصوت بريم كومار الهادر يملأ الصالة. "هـــا نحن نطل عليكم مرةً أخرى، مستعدين لمعرفة من يصنع التاريخ اليوم من خلال الفوز بأكبر جائزة مُنحت على الأرض حتى الآن. نعم، سيداتي سادتي، نحن مستعدون لمعرفة من سيربح البليون!".

تتغير لافتة الاستوديو إلى *تصفيق*. يبدأ الجمهور بالتصفيق. هنالك بعض الهتافات والصفير، أيضاً.

يتلاشى اللحن المميز للبرنامج. يقول بريم كومار: "معنا هذه الليلة ثلاثـــة متـــسابقين محظـــوظين، تم اختيارهم بصورة عشوائية بواسطة الحاســـوب. المتسابق رقم ثلاثة هو كابل جوداري من مالدا الواقعة في بنغال الغربية. المتسابق رقم اثنان هو البروفيسور هاري باريخ من أحمد آباد، إنما متسابقنا الأول هذه الليلة هو رام محمد توماس البالغ من العمر ثمانـــية عـــشر عامـــاً من مدينتنا مومباي. سيداتي سادتي، من فضلكم امنحوه دورةً كبيرةً من التصفيق".

يـــصفق الجميع. بعد أن يخفت التصفيق، يلتفت إليّ بريم كومار. "رام محمد توماس، إنه اسم ممتع جداً. إنه يعبر عن غنى وتنوّع الهند. ما هي مهنتك، سيد توماس؟".

"أنا نادل في مطعم جيمي في كولابا".

"نادل! أليس هذا شيقاً! قل لي، كم تكسب من النقود شهرياً؟".

"نحو تسعمائة روبية".

"هذا كل شيء؟ وماذا ستفعل إذا ربحت اليوم؟".

"لا أدري".

"لا تدري؟".

"بلى".

بريم كومار يعبس بوجهي. أنا لا أتبع المخطوطة. من المفروض أن *أدرك بالـــبديهة* وأن أكون *مسليًا* خلال *الكلام القصير*. كان يلزمني أن أقـــول سأشتري مطعماً، أو طائرةً خاصة، أو قرية. كان في وسعي أن أقـــول سأقيم حفلةً كبرى أضيّف فيها عشرات المدعوين والمدعوات. أتزوج ملكة جمال الهند. أسافر إلى تومبوكتو.

"جيد. دعني أشرح لكَ قواعد المسابقة. سنطرح عليك اثني عشر سؤالاً، وإذا أجبتَ عن كل واحدٍ منها بصورةٍ صحيحة، ستترشح لنيل أكبر جائزة على الأرض: بليون روبية! أنتَ حرٌ في ترك المسابقة في أي لحظة حتى السؤال التاسع، وتأخذ ما كسبته حتى تلك المرحلة، إنما ليس في وسعك أن تترك المسابقة بعد السؤال التاسع. من ثم، إما أن (تلعب أو تخسر). إنما دعنا نتكلم عن ذلك حين نصل إلى تلك المرحلة. إذا لم تكن تعرف جواب أحد الأسئلة، لا تصب بالذعر، لأنك تملك قاربين للنجاة - فكرة مفيدة من صديق وتحذف إجابتين. لذا أعتقد أننا جميعاً مستعدون للسؤال الأول بألف روبية. هل أنت جاهز؟".

أجيب: "أجل، أنا جاهز".

"جيد، إليك السؤال الأول، سؤال جميل وبسيط يتعلق بالسينما الشعبية. أنا متأكد من أن كل فرد من الجمهور يستطيع الإجابة عنه. نحن نعرف الآن أن أرمآن علي وبريا كابور كوّنا واحداً من أنجح الثنائيات السينمائية في الأوقات الحديثة. إنما هل بمستطاعك أن تسمي الفيلم المروِّع بصورة واسعة الذي مثل فيه أرمآن علي أول مرة مع بريا كابور؟ هل كان الفيلم (أ) النار، (ب) البطل، (ج) الجوع، أم (د) الخداع؟

تتغير الموسيقى في الخلفية إلى لحن ترقب، مع صوت تكتكة قنبلة مؤقتة مركّب فوقه.

"أجيب: (د)، الخداع".

"هل تذهب إلى دور السينما؟".

"أجل".

"هل شاهدتَ الخداع؟".

"نعم".

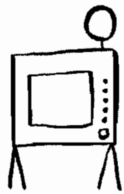
"هل أنتَ متأكد مائة بالمائة من جوابك؟".

"نعم".

هنالك تصعيد لقرع طبول. الجواب الصحيح يومض على الشاشة.

"تماماً، صحيح مائة بالمائة! ربحتَ ألف روبية! سنأخذ الآن فاصلاً إعلانياً سريعاً"، يعلن بريم كومار.

لافتة الاستوديو تتغير إلى *تصفيق*. يصفق الجمهور. يبتسم بريم كومار. أنا لا أبتسم.



2,000
عبء قس

إذا كنتِ وصلتِ إلى دلهي بواسطة القطار، فلا بد أنكِ زرتِ بهار جاني. في كل الاحتمالات لا بد أنكِ وصلتِ إلى محطة قطار بهار جاني المغبرة وكثيرة الضجيج. لا بد أنك خرجتِ من المحطة وبصورة مؤكدة تقريباً واتجهتِ يساراً صوب ميدان كوناوت، متجنبةً السوق المزدحمة بدور الضيافة منخفضة السعر والساقطات الرخيصات المخصصات للسياح. لكنكِ إذا كنتِ ذهبتِ يميناً، مروراً بمصنع ألبان الأم ومستشفى النساء جي. جي، فلا بد أنكِ شاهدتِ مبنى أحمر، في هذا المكان ولدتُ قبل ثمانية عشر عاماً خلت في 25 كانون الأول أو، كي أكون أكثر دقةً، تُركتُ هناك في تلك الليلة الشتائية الباردة. أُودعتُ في صندوق كبير خصصته الممرضات للثياب القديمة. مَنْ الذي تركني هناك ولماذا، لا أدري حتى يومنا هذا. كانت إصبع الشك موجهة دوماً إلى ردهة الأمومة في مستشفى جي. جي. ربما ولدتُ هناك، وكانت أمي، لأسباب تعرفها هي وحدها، مرغمةً على التخلص مني.

في خيالي كنتُ في أحيان كثيرة أتصوّر ذلك المشهد. شابة طويلة وجميلة، ترتدي الساري الأبيض، تغادر المستشفى بعد منتصف الليل

حاملـــةً طفلاً وليداً بين ذراعيها. الريح تعصف، شعرها الأسود الطويل يطير على وجهها، مخفياً ملامحها. تحت قدميها تخشخش أوراق الشجر. يتبعثـــر الغـــبار. يومض البرق. تسير الشابة بخطوات بطيئة صوب دار العـــبادة، وتـــستخدم مقرعة الباب المعدنية التي تتخذ شكل حلقة. إنما الـــريح شـــديدة جداً، فتحجب صوت القرع. وقتها محدود. بدموعٍ تفيض من مقلتيها، تغطي وجه الوليد بالقبلات. ثم تضعه في الصندوق، مرتبةً الثياب القديمة من حوله كي تجعله ينعم بالراحة. تلقي نظرةً أخيرةً علـــى الولـــيد، تشيح عينيها وبعدها، تهرول مبتعدةً عن آلة التصوير، تختفي في الليل...

تديـــر ممرضات المستشفى داراً للأيتام وقسماً إدارياً للتبني، وقد أعـــدوني للتبني مع مجموعة من الأطفال اليتامى الآخرين. كل الأطفال الآخـــرين تم تبنـــيهم، إنمـــا لم يأتِ إليّ أحد. أم محتملة وأب محتمل يـــشاهدانني ويتبادلان النظر إلى بعضهما بعضاً. تكون هنالك هزة غير محـــسوسة للرأس، ومن ثم يتحركان إلى المهد التالي. لا أدري لماذا. ربما لأنني داكن السمرة. قبيح جداً. ممغوص جداً. ربما لأنني لا أملك بسمةً بـــريئةً، أو أنني قرقرتُ كثيراً جداً. لذا بقيتُ في دار الأيتام مدة سنتين. وبغـــرابة كافية، لم يقتنعن بمنحي اسماً ما. كن يطلقن عليّ اسم وليد – الوليد الذي لم يرده أحد.

في الخـــتام تبنـــتني السيدة فيلومينا توماس وزوجها دومينيك تـــوماس. في الأصل كانا ينحدران من ناجو كويل في ولاية تاميل نادو، وهما الآن يقيمان في دلهي. كانت السيدة توماس تعمل منظفة في دار عـــبادة سان جوزيف وزوجها يعمل بستانياً. لأنهما كانا في عقـــدهما الـــرابع ولـــيس لهما أطفال من زواجهما، الأب تيموثي

فرانسيس، قس الأبرشية، حثهما على التفكير ملياً في التبني كي يملأا الفـــراغ في حياهما. لا بل حتى وجههما إلى دار الأيتام. لا بد أن السيد توماس نظر إليَّ مرةً واحدةً وفي الحال تحرك إلى الطفل التالي، إلا أن السيدة فيلومينا اختارتني لحظة رؤيتها لي. كنتُ أشبهها تماماً في بشرهما الداكنة!

أمـــضى الـــسيد توماس وزوجته مدة شهرين في إنجاز المعاملات الورقـــية لغـــرض تبنيهما إياي، إنما خلال الأيام الثلاثة الأولى لأخذهما إيـــاي إلى مسكنهما، اكتشف السيد توماس أن الفراغ في حياة زوجته قـــد مُلـــئ. ليس بواسطتي، إنما بواسطة نبيل يحمل اسم ماستان شيخ، الـــذي كان خياطاً للألبسة النسائية في المحلة، كان متخصصاً في خياطة التـــنانير القـــصيرة. تخلصت السيدة فيلومينا من زوجها القديم والطفل الـــذي تم تبنـــيه حديـــثاً وهربت مع الخياط، إلى بهوبال، كما نقلت الأخبار. مكان وجودها مجهول حتى اليوم.

لدى اكتشافه هذا، سيطر الغضب على السيد توماس. جرني في مهـــدي إلى منـــــزل القس وأودعني هناك. "أيها الأب، هذا الطفل السبب الرئيس لكل المشاكل في حياتي. لقد أجبرتني على تبنيه، وأنتَ الآن مَنْ يقرر ماذا أفعل به". وحتى قبل أن يتمكن الأب تيموثي من أن يقـــول "آمين"، خرج دومينيك توماس من دار العبادة. وآخر مرة شـــوهد فيها كان يشتري تذكرة قطار متوجه إلى بهوبال وبين يديه رشـــاش. هكذا شئتُ أم أبيت أصبحتُ من مسؤولية الأب تيموثي. منحني الطعام، منحني سكناً، ومنحني اسماً: جوزيف ميخائيل توماس. لم تكـــن هنالك طقوس دينية. ما من شال أبيض يُلقى عليّ. ما من شمعـــة تُشعل. لكنني أصبحتُ جوزيف ميخائيل توماس. على مدى ستة أيام.

في السيوم السسابع، أقبل رجلان للقاء الأب تيموثي. رجل بدين يرتدي منامة كورتا[1] بيضاء، ورجل نحيف، ملتحٍ يرتدي شيرواني[2].

قــال الــرجل البدين: "نحن من (لجنة الأديان كلها). أنا السيد جاغــديش شارما. هذا السيد عنايات هداية الله. عضو هيئتنا الثالث، السيد هأرفندر سنغ، الذي يمثل السيخ، كان من المفروض أن يأتي، إلا أنه لسوء الحظ تأخر في غورودوارا. سنأتي إلى النقطة مباشرةً. قيل لنا، أيها الأب، إنك منحتَ سكناً لطفل صغير يتيم".

"أجـــل، والـــدا الطفل المسكين اللذان تبنياه اختفيا عن الأنظار، تاركين إياه في رعايتي"، قال الأب تيموثي، وهو لا يزال غير قادر على أن يفهم سبب هذه الزيارة غير المتوقعة.

"ما هو الاسم الذي أعطيته لهذا الغلام؟".

"جوزيف ميخائيل توماس".

"أليس هو اسماً مسيحياً؟".

"أجل، لكن –".

"كيف تعرف أنه مولود لأبوين مسيحيين؟".

"حسن، لا أعرف".

"إذاً لماذا منحته اسماً مسيحياً؟".

"حـــسن، كان لا بد لي أن أطلق عليه اسماً ما. ما هو الشيء غير الصحيح في جوزيف ميخائيل توماس؟".

"كل شيء. ألا تعرف، أيها الأب، كم هي قوية الحركة المضادة لاعتـــناق ديـــن جديد في هذه الأنحاء؟ دور عبادة عديدة أُشعلت فيها

(1) منامة كورتا Kurta pyjamas: سروال منامة مع قميص طويلة – م.

(2) شـــيرواني Sherwani: كـــساء طويل أشبه بالسترة، يُصنع عادةً من قماش سميك وله بطانة – م.

الـــنيران مـــن قبل الرعاع سريعي الغضب، الذين نبت في عقولهم أن التحول الجماهيري لاعتناق المسيحية كان يجري هناك".

"لكن هذا ليس تحولاً لاعتناق دين جديد".

"انظر، أيها الأب، نحن نعرف أنك لا تملك أي باعث خفي. إنما أُذيعت كلمة مفادها أنكَ حوّلتَ طفلاً هندوسياً إلى العقيدة المسيحية".

"لكن كيف تعرف أنه هندوسي؟".

"أنا لا أبالي بالعناصر المنحطة التي تخطط لنهب دار عبادتك غداً. لهذا السبب أتينا كي نقدّم إليك العون. كي نهدئ الأمور".

"ماذا تقترح أن أفعل؟".

"أقترح أن تغيّر اسم الغلام".

"إلى ماذا؟".

"حـــسن... منحه اسماً هندوسياً ربما يكون عملاً بارعاً. لم لا تـــسميه رام، علـــى اسم واحد من المبجلين المفضلين؟" قال السيد شارما.

ســـعل السيد هداية الله برفق. "معذرةً، سيد شارما، لكن، ألسنا نـــستبدل شراً بشر؟ أعني، ما هو البرهان على أن الطفل كان هندوسياً بالـــولادة؟ ربمـــا كان مسلماً، كما تعرف. لماذا لا نستطيع أن نسميه محمداً؟".

ناقش السيد شارما والسيد هداية الله الحسنات الخاصة برام ومحمد على مدى الدقائق الثلاثين التالية. في الختام، انسحب الأب تيموثي من المـــسألة. "انظـــرا، إذا كان استبدال الاسم يبعد الرعاع عني، سأفعله حالاً. ما رأيكما إذا قبلتُ اقتراحيكما معاً وغيّرتُ اسم الغلام إلى رام محمد توماس؟ هذا الحل سيرضي الجميع".

من حسن حظي أن السيد سنغ لم يأتِ يومذاك.

كان الأب تيموثي طويل القامة، أبيض البشرة، في منتصف عمره، وهو مرتاح جسمانياً. كان له منـــزل ضخم في مجمع دار العبادة، ذو بستان ممتد من دون اتساق مليء بأشجار الفاكهة. على مدى السنوات الـــست التالـــية، أصبح والدي، والدتي، سيدي، معلمي وقسي، كلها مطوية معاً. إذا كان ثمة شيء يقترب من السعادة في حياتي، فهو الزمن الذي أمضيته معه.

كـــان الأب تيموثي ينحدر من شمال بريطانيا، من مكان يُدعى يورك، لكنه استقر في الهند على مدى سنوات طويلة جداً. أنا مدين له بالـــشكر كوني تعلمتُ قراءة وكتابة إنكليزية الملكة. علمني حكايات الأم الإوزة والقصائد المقفاة لدار الحضانة. أنشد توهجي، توهجي، يا نجمـــة صـــغيرة وخا، خا، خروف أسود، بصوتي المرعب ذي الطبقة الـــسيئة، موفراً، على ما أعتقد، للأب تيموثي تحولاً مسلياً من واجباته الكهنوتية.

كـــوني سكنتُ في مجمع دار العبادة، شعرتُ أنني جزء من عائلة كـــبيرة جـــداً. يمكـــث في المنـــزل، فضلاً عن الأب تيموثي، خادمه المخلص جوزيف، وكذلك السيدة غونـــزالفيس، مدبرة المنـــزل، التي كانتْ تسكن أيضاً في مكان قريب. ومن ثم هنالك مجموعة كاملة من أولاد الشارع المنتمين إلى السمكريين، الإسكافيين، الكناسين، وغاسلي الثـــياب، الذين كانوا يسكنون عملياً في المنازل المتاخمة لنا ولم يكونوا يتـــرددون عن استخدام أراضي دار العبادة لمباريات الكريكيت وكرة القـــدم التي يمارسونها بشغف منقطع النظير. علمني الأب تيموثي وهذه العائلة الممتدة الكثير حول معظم الديانات.

هذا لا يوحي، مع ذلك، أنني كنتُ طفلاً متديناً بوضوح. كنتُ مـــثل أي طفل آخر، بثلاثة انشغالات كاملة: الأكل، النوم، واللعب.

أمـــضيتُ أوقاتاً كثيرة بعد الظهر مع أطفال الجيران ممن كانوا في سني، نمـــسك بالفراشات ونخيف الطيور في بستان الأب تيموثي. فيما كان جوزيف، الخادم العجوز، ينظف الغبار عن التحف في قاعة الاستقبال، أتـــسلل إلى الخارج وأحاول أن أقطف ثمار المانغا الناضجة، تحت العين الـــيقظة للبـــستاني. إذا قبض عليّ، سأوجه إليه سباباً سخياً بالهندية. أرقـــص بحماسة تحت المطر الموسمي، أحاول أن أصطاد الأسماك الصغيرة في الـــبرك الموحلة المتكونة من مياه المطر، وتنتهي بـــي الحال بالسعال والعطـــاس، اللذين يركز عليهما الأب تيموثي بشدة. ألعب كرة القدم مع أولاد الشارع، أعود إلى المنـــزل مضروباً بقوة ومرضوضاً، وبعدها أبكي طيلة الليل.

يعـــيش الأب تيموثـــي حياةً نشيطةً. يذهب في جولة راجلة كل صباح، يلعب الغولف، وكرة السلة، وكرة المضرب يقرأ بشراهة ويأخذ الإجـــازات ثلاث مرات سنوياً كي يلتقي أمه الهرمة في إنكلترا. كان أيضاً عازف كمان ضليعاً. في معظم الأمسيات يجلس في البستان المضاء بـــنور القمـــر ويعزف أكثر الألحان عاطفيةً التي يمكن أن تخطر ببالكِ. وحـــين تمطـــر السماء ليلاً خلال الفصل الذي تهب فيه الريح الموسمية، يدور في خلدي أن السماء تبكي بسبب سماعها لألحانه الحزينة.

استمتعتُ بالذهاب إلى دار العبادة. كانت بنايةً قديمةً شُيدت سنة 1878، ذات نوافذ بزجاج مطلي وسقف مذهل مصنوع من الخشب. كانت مصاطب دار العبادة مصنوعة من خشب الساج، إلا أنها تكون مملوءة فقط في أيام الآحاد. يلقي الأب تيموثي موعظةً طويلةً من المنبر، خلالها يغلبني النعاس، وأستيقظ فقط حين يعطي للجميع رقاقات الخبز المـــدوّرة. استمتعتُ أيضاً بسماع الأورغن وجوقة المرتلين. وقعتُ في غـــرام أعـــراس دار العـــبادة، التي تقام في الفصول كلها. أنتظر الأب

تيموثي كي يقول، "وعليك الآن أن تقبّل العروس". وكنتُ دوماً أول من ينثر قصاصات الورق الملون في احتفالات الأعراس.

لم تكن علاقتي بالأب تيموثي محددةً بدقة. لم تكن توضح لي ما إذا كنتُ خادماً أم ابناً، طفيلياً أم طفلاً مدللاً. لذا خلال السنوات القليلة الأولى من حياتي، عشتُ في وهم سعيد أن الأب تيموثي هو والدي الحقيقي. لكنني رويداً رويداً بدأتُ أدرك أن ثمة شيئاً غير صحيح. لسبب واحد، هو أن كل أولئك الذين يأتون إلى الاحتفال الديني في صباحات الأحد يسمونه الأب، وقد توهمتُ أنه والد أشخاص كثيرين، وأن لي إخوة كثيرين وأخوات كثيرات، كلهم أكبر مني سناً. كنتُ حائراً أيضاً بالحقيقة التي مفادها أنه أبيض البشرة وأنا لست كذلك. لذا سألته ذات يوم، فهشم عالم الفانتازيا الذي سكنتُ فيه حتى ذلك الوقت. بأكثر الطرائق وداعةً قدر الإمكان، شرح لي أنني طفل يتيم تركتني أمي في صندوق الثياب العائد لدار أيتام، ولهذا السبب كان هو أبيض البشرة وأنا لست كذلك. حينذاك، لأول مرة، فهمتُ الفارق بين الوالد والقس. في تلك الليلة، لأول مرة، لم تكن دموعي ناجمة عن الألم الجسماني.

ما إن فهمت فهماً جيداً الحقيقة التي مفادها أنني لا أملك صلة بيولوجية بالأب تيموثي وأنني كنتُ أقيم في دار العبادة فقط بفضل سخائه، قررتُ أن أرد، على الأقل جزئياً، الدين الذي كنت مديناً له به. بدأتُ أقوم بأعمال روتينية صغيرة له، من مثل أخذ الملابس من سلة الملابس المعدة للغسل إلى الغسالة. أجلس أمام الغسالة، أشاهد الأسطوانة تدور وتدور مسائلاً نفسي كيف تخرج الثياب نظيفةً بصورة فاتنةٍ جداً. ذات مرة وضعتُ أيضاً بعض الكتب المكسوة بالغبار داخلَ

الغسالة. أغسل الأطباق في مغسلة المطبخ. أكسر صحون الخزف الصيني الرقيقة. أقطّع الخضار. وذات مرة كدتُ أقطع إصبعي.

قدّمني الأب تيموثي إلى كثير من أبناء رعيته. التقيتُ السيدة العجوز بينيدكت، التي كانت تأتي بورع إلى الاحتفال الديني يومياً، تأتي في البَرَد أو المطر، إلى أن زلت قدمها ذات يوم على الرصيف، وماتت من جراء ذات الرئة. حضرتُ عرس جيسيكا، التي بكت بكاءً مُراً لدى إصابة والدها بنوبة قلبية. أخذوني يوماً ما إلى حفلة شاي مرحة في منزل الكولونيل ووغ، الذي كان ملحق الدفاع الأسترالي في دلهي والذي بدا أنه يتكلم مع الأب تيموثي بلغة مختلفة كلياً. ذهبتُ في رحلة لصيد السمك مع السيد لورنس، الذي لم يتمكن من اصطياد سمكة واحدة، فما كان منه إلا أن قصد سوق السمك ليشتري سمكة سلمون مرقطة كبيرة كي يخدع زوجته.

كل الناس الذين التقيتهم لم يتحدثوا عن الأب تيموثي إلا بالمديح. قالوا إنه أفضل قس تولى هذه الرعية حتى الآن. رأيته يريح المحرومين، يزور المعلولين، يزود المحتاجين بالمال ويتقاسم وجبة الطعام حتى مع المصابين بالجذام. كان يبتسم بوجه كل عضو من أعضاء الرعية، وكان له علاج لكل مشكلة.

اليوم هو الأحد ودار العبادة مكتظة بالناس الذين تجمعوا من أجل الاحتفال الديني. إنما اليوم الأب تيموثي لا يقف وحده خلف المنبر. هنالك رجل آخر معه، يرتدي أيضاً غفارةً ويضع طوقاً أبيض في رقبته. يبدو أشبه بملاكم أكثر مما هو قس. الأب تيموثي يقدّمه إلينا. "... وإنها لسعادة كبرى لنا أن نرحب بالأب جون لتل، الذي انضم إلى دار عبادة جوزيف، بوصفه قساً مرافقاً. الأب جون، كما يمكنكم أن تروا،

أصغر مني سناً بكثير، ومع أنه عُيّن منذ ثلاث سنوات لا غير، إلا أنه واسع الخبرة. إنني متيقن من أنه سيكون قادراً على إقامة علاقة مؤثرة جداً مع المؤمنين الأصغر سناً، الذين، أنا عارف جداً، يشيرون إليَّ خفيةً بكوني *ذلك الرجعي العجوز*". يضحك الرعايا ضحكات نصف مكبوتة.

ذلك المساء، دعى الأب تيموثي الأب جون إلى تناول طعام العشاء. كان من المفترض أن يقدّم إليهما جوزيف الطعام والشراب، إنما بسبب حماستي في أن أترك انطباعاً جيداً لدى الأب تيموثي، ألتقط طاسة الحساء الثقيلة من المطبخ، وأسير بخطوات غير ثابتة صوب مائدة الطعام. كما هو متوقع من طفل في السابعة من عمره، بدلاً من أن أودع طاسة الحساء على المائدة، سفحته كله على الأب جون. نهض بسرعة، وأولى الكلمات التي نطق بها هي: "يا للخراب اللعين!" يرفع الأب تيموثي حاجبه، إنما لا يقول أي شيء.

بعد ذلك بثلاثة أيام، يذهب الأب تيموثي إلى بريطانيا في إجازة، تاركاً دار العبادة، وأنا، في رعاية الأب جون. ألتقيه بعدها بيومين وهو ينزل درجات سلم دار العبادة.

أقول بأدب: "مساء الخير، أيها الأب".

يتطلع إليّ الأب جون بازدراء. "أنتَ ذلك الصبي اليتيم الذي سفح الحساء عليَّ يومذاك! خير لك أن تتأدب في غياب الأب تيموثي. سأراقبكَ عن كثب.

أرسلني جوزيف مع كأس حليب إلى حجرة الأب جون. كان يشاهد فيلماً سينمائياً يُعرض في التلفاز. دعاني إلى الدخول. "تعالَ، توماس. هل تريد أن تشاهد هذا الفيلم معي؟" أنظر إلى التلفاز. إنه فيلم

إنكليـــزي – عـــن القساوسة، على ما أعتقد، لأنني أرى قساً يرتدي غفـــارةً سوداء يتحدث إلى قس آخر بغفارة بيضاء. شعرتُ بالارتياح لأن الأب جـــون مولع بمشاهدة الأفلام الدينية، الجيدة. إلا أن المشهد الـــتالي تحديداً يجعل القشعريرة تسري في عمودي الفقري، لأنه يعرض فـــتاةً صغيرةً، في عمري تقريباً، تجلس على سرير ما. لم تكنْ تبدو فتاةً طبيعـــيةً، لأنها تملك تعبيراً مضحكاً على محياها وكانت عيناها تفتشان المكـــان. يدخل القس ذو الغفارة السوداء حجرتها حاملاً شيئاً في يده. يوجهه نحوها، وتشرع هي في التحدث بلغة فاحشة جداً لم أسمع مثيلاً لهـــا مـــن قبل، وكان ذلك أيضاً بصوت أجش لشخص بالغ. وضعتُ إصـــبعيّ في أُذنيّ، لأن الأب تيموثي علمني ألاّ أصغي إلى كلمات بذيئة كهذه. فجأةً تتوقف عن الكلام. تبدأ بالقهقهة، كفتاة معتوهة. بعدها تفـــتح فمها فتنبجس منه مادة مرعبة، خضراء ولزجة كنافورة ماء من أنـــبوب حديقة وتهبط على القس. شعرت بالرغبة في التقيؤ. لم أستطعْ مـــشاهدة المـــزيد من الفيلم فهرولتُ نازلاً درجات السلم متوجهاً إلى حجرتي. أسمع الأب جون يضحك مطلقاً صرخةً طويلةً حادةً. يصيح: "ارجع، أيها الغلام اليتيم الأبله".

تلك الليلة أرى كوابيس.

بعـــدها بثلاثة أيام أخرج للتسوق مع جوزيف. نشتري اللحم، والبيض، والخضار، والطحين. فيما كنا عائدين إلى دار العبادة في ساعة متأخرة من المساء، أسمع صوت دراجة بخارية ورائي. قبل أن أتمكنْ من النظـــر إلى الخلف، يكون راكب الدراجة البخارية فوقنا. ضربني على رأسي وانطلق بدراجته التي أحدثت أثراً صارخاً، رافعةً ذيلاً من الغبار. ألمـــح ظهـــره فقط. يبدو رجلاً قوي البنية يرتدي سترة جلد وسروالاً

أسود ضيقاً، مع رجل ذي زي مشابه على المقعد الخلفي. أسائل نفسي من هو راكب الدراجة البخارية ولماذا ضربني على رأسي. لم يخطر ببالي أنه ربما يكون الأب جون. على كل حال، أنا مجرد غلام يتيم أبله.

بعـــد مرور أسبوع، وجب عليّ أن أسلّم بعض الرسائل البريدية لـــلأب جون، غير أنه كان يستحم. "اترك البريد على الطاولة"، يصيح من حجرة الحمّام. كنتُ أهم بمغادرة الغرفة حين لمحتُ شيئاً ما يبرز من تحت فراشه. نظرتُ عن كثب. كان ذلك الشيء مجلةً. سحبتها. ومن ثم وجـــدتُ مجموعة كاملةً منها تحت الفراش. لم تكنْ المجلات سميكةً جـــداً إلا أنها ذات أغلفة صقيلة وجميلة. كانت لها عناوين غريبة إلا أن الـــرجال الظاهرين على أغلفتها لا يبدون سعداء جداً ومرحين. كانوا جمـــيعاً كثيفـــي الـــشعر وعراة. بسرعة أعيد المجلات إلى مكانها تحت الفراش. كنتُ على وشك أن أخرج حين ظهر الأب جون من حجرة الحمّـــام. كـــان يلـــف منـــشفةً حول خصره. إلا أن صدره مكسو بتخطيطات غريبة بالحبر الأسود وهنالك ثعابين مرسومة على ذراعيه. "ما الذي تفعله هنا؟" يحذرني. "انصرف!".

لمـــاذا يملك الأب جون كل هذه التصميمات الغريبة على جسده ويحفظ تلك المجلات الغريبة تحت سريره، لا أدري. أنا مجرد غلام يتيم أبله.

في كـــثير مـــن الأحـــيان أرى أشخاصاً يافعين غريبـــي المظهر يدخلـــون دار العـــبادة لـــيلاً ويذهبون إلى حجرة الأب جون. اعتاد الزائـــرون أن يأتوا للقاء الأب تيموثي كذلك، غالباً في ساعات غريبة

مـــن اللـــيل، إلا أنهـــم لم يكونوا يأتون بواسطة الدراجات البخارية ويلبسون السترات ويضعون السلاسل المعدنية السميكة حول أعناقهم. أقـــرر أن أتابع واحداً من هؤلاء الزائرين إلى حجرة الأب جون. يقرع الـــباب، ويـــدخل، ويغلق الأب جون الباب. أختلس النظر عبر ثقب المفتاح الصغير. أعرف أنني أفعل شيئاً سيئاً جداً، إلا أن فضولي يقتلني. عبر ثقب المفتاح أرى الأب جون والشاب المكسو بالجلد يجلسان على الـــسرير. يفـــتح الأب جون دُرجه ويخرج علبةً بلاستيكيةً، في داخلها مسحوق أبيض. ينشر المسحوق في خط رفيع على قفا كفه اليسرى. ثم يفعـــل الشيء نفسه على قفا كف صديقه. كل منهما يحني وجهه نحو المـــسحوق ويستنـــشق بعمق. يبدو أن المسحوق الأبيض يتلاشى في أنفـــيهما. يضحك جون، كتلك الفتاة المجنونة في الفيلم. يقول صديقه: "هـــذه مـــادة جـــيدة، يا رجل! إنها طريقة مفيدة جداً لقس. كيف استطعتَ أن تدخل إلى دار العبادة هذه أولاً؟".

يـــضحك الأب جون مجدداً. "لقد أحببتُ الرداء"، يقول، ويقوم من السرير. "تعالَ"، يقول لصديقه ويمد يده. أتراجع بسرعة.

لمـــاذا يضع الأب جون مسحوق الطلق[1] في أنفه، لا أدري. غير أنني يومذاك كنتُ مجرد غلام يتيم أبله.

يعود الأب تيموثي أخيراً من إجازته في إنكلترا وأنا مسرور برؤيته مـــن جديـــد. أنا متأكد إلى حدٍّ ما أنه سمع كثيراً من الشكاوى حول الأب جون، لأنه خلال اليومين اللذين أعقبا عودته كان هنالك خلاف كـــبير بيـــنهما في حجرة المكتب. يخرج الأب جون من الغرفة في نوبة غضب.

(1) مسحوق الطلق talcum powder: مسحوق للتجميل مؤلف من طلق معطر – م.

انتهى الفصح. أُكلت كل بيضات الفصح العائدة إليّ. وتضحك السيدة غونـــزالفيس، مدبرة المنـــزل، ضحكات نصف مكبوتة.

أسألها: "ما الخطب، سيدة غونـــزالفيس؟".

همس بصورةٍ جريئة: "ألا تعرف؟ جوزيف ضبط الأب جون في دار العـــبادة مع رجل آخر. إنما لا تخبر أحداً، ولا همس بكلمة للأب تيموثي، خلاف ذلك سيترتب علينا أن ندفع ثمناً غالياً".

لا أفهم. ما هو الخطأ في كون الأب جون مع رجل آخر في دار العـــبادة؟ طـــيلة الوقت يكون الأب تيموثي مع رجال آخرين في دار العبادة. مثل تلك المرات حينما يصغي للاعترافات.

اليوم، لأول مرة، أنا في صندوق الاعتراف.

يـــسألني الأب تيموثـــي: "نعم، ابني، ما الذي جئتَ لتخبرني به؟".

"إنه أنا، أيها الأب".

يكـــاد الأب تيموثـــي يقفـــز عن كرسيه. "ما الذي تفعله هنا، توماس، ألم أخبرك أن هذه ليست مسألةً بسيطة؟".

"أتيتُ للاعتراف، أيها الأب، اقترفتُ إثماً".

"حقيقةً؟" يلين الأب تيموثي. "ما هو الخطأ الذي ارتكبته؟".

"اختلـــستُ النظر إلى داخل غرفة الأب جون عبر ثقب المفتاح. ونظرتُ إلى بعض حاجياته من دون موافقته".

"ابني، ذلك شيء جيد جداً. لا أعتقد أنني أريد سماع ذلك".

"كـــلا، يلزمك أن تسمع، أيها الأب"، أقول وأتابع حديثي كي أخبره بما يتعلق بالمجلات المخبأة تحت الفراش، بالتصاميم المرسومة على الجسد، بزائري الليل الذين يلبسون الجلد، ومسحوق الطلق.

في ذلك المساء يكون أصل كل المكاشفات في حجرة المكتب بين القسين. أرهف السمع عند الباب. ثمة صياح كثير. ينهي الأب تيموثي النقاش بالتهديد بالتبليغ عن الأب جون إلى المطران. يقول: "أنا قس، وكي تكون قساً، يجب عليك أن تحمل عبئاً ثقيلاً. إذا لم يكن في وسعك أن تفعل هذا، إذاً ارجع إلى المعهد".

جاء إلى دار العبادة هذا الصباح حمال إنكليزي كان ماراً عبر دلهي واكتشف الأب تيموثي أنه أيضاً ينحدر من يورك. لذا أتى به إلى المنزل، وسمح له بالبقاء أياماً معدودة. يقدّمه إليّ: "إيان، التقِ توماس، الذي يقيم معنا هنا. توماس، هذا إيان. هل تعرف إنه أيضاً ينحدر من يورك؟ أنتَ تسألني دوماً عن مدينة أمي؛ الآن يمكنك أن تسأله".

أحب إيان. هو في الخامسة أو السادسة عشرة. له بشرة صافية، عينان زرقاوان وشعر ذهبي. يريني صور يورك. أرى دار عبادتها الكبيرة. يقول: "تسمى يورك منستر". يريني صور حدائق، ومتاحف، ومتنزهات تسر العين وتخلب اللب.

أطرح عليه سؤالاً: "هل التقيتَ أم الأب تيموثي؟ إنها تقيم في يورك أيضاً".

"كلا، لكنني سألتقيها بعد عودتي، الآن عنوانها بحوزتي".

"ماذا عن أمك؟ هل هي تقيم في يورك كذلك؟".

"اعتادت أن تقيم هناك. لكنها توفيتْ قبل تسع سنوات مضتْ. دهسها راكب دراجة بخارية". يُخرج صورة أمه من محفظة الجيب خاصته ويريني إياها. كانت ذات بشرة صافية، وعينين زرقاوين وشعر ذهبي.

أسأله: "لم أتيتَ إذاً إلى الهند؟".

"كي ألتقي والدي".

"ما هي مهنة والدك؟".

يتردد إيان. "إنه يدّرس في مدرسة دهرادون".

"لماذا لا تسكن أنتَ أيضاً في دهرادون؟".

"لأنني أتابع دراستي في يورك".

"إذاً لماذا لا يقيم والدك معك في يورك؟".

"ثمة أسباب. لكنه يأتي لزيارتي ثلاث مرات سنوياً. هذه المرة قررتُ أن ألتقيه في الهند".

"هل تحب والدك؟".

"نعم، حباً جماً".

"هل تتمنى أن يبقى معك والدكَ إلى الأبد؟".

"أجل. ماذا عن والدك أنتَ؟ ما هي مهنته؟".

"ليس لي والد. أنا غلام يتيم أبله".

بعدها بثلاث أمسيات، دعى الأب تيموثي الأب جون لتناول العشاء مع إيان. يأكلون ويتحدثون حتى ساعة متأخرة من الليل والأب جون يعزف على كمانه. يغادر الأب جون بعد منتصف الليل بمدة ما، إلا أن الأب تيموثي وإيان يتابعان التكلم من دون كلفة. أستلقي على السرير أرهف السمع لصوت الضحك الذي يندفع عبر النافذة المفتوحة. يصيبني الأرق.

هي ليلة مضاءة بنور القمر، وتهب ريح شديدة. تتمايل أشجار الأوكاليبتوس وتُحدث أوراقها ضجةً مخشخشةً. أشعر بالرغبة في الذهاب إلى الحمام، وأنهض من فراشي. فيما أسير صوب الحمّام، أرى ضوءاً داخل حجرة الأب جون. أسمع كذلك أصواتاً. أسير على أطراف أصابعي إلى الباب. إنه مغلق، لذا أختلس النظر عبر ثقب

الـــباب. ما رأيته في الداخل يزرع الخوف في نفس المرء. إيان يحدودب علـــى الطاولة والأب جون ينحني فوقه. هوتْ منامته إلى قدميه. كنتُ مضطرباً تماماً. ربما أكون غلاماً يتيماً أبله، لكنني أعرف أن ثمة شيئاً غير صحيح. أهرع إلى الأب تيموثي، وهو سريع النوم. أهتف: "استيقظ، أيها الأب! الأب جون يفعل شيئاً سيئاً لإيان!".

"لِمَنْ؟ لإيان". في الحال يغدو الأب تيموثي يقظاً. يهرع كلانا إلى حجـــرة الأب جون ويقتحمها الأب تيموثي. يرى ما رأيته تواً. يغدو وجهـــه شـــديد الشحوب، في اعتقادي أنه يكاد يفقد وعيه. يتشبث بالـــباب كـــي يمنع نفسه من الانهيار. ثم يصبح وجهه أحمر من جراء الغضب. يكاد يزبد من فمه. أنا خائف. لم أرَه غاضباً هكذا من قبل. يرعد قائلاً: "إيان، اذهب إلى حجرتك. وأنتَ أيضاً، توماس".

فعلتُ ما أخبرني به؛ كنتُ حتى أكثر اضطراباً من قبل.

أفـــيق مـــن نومي مبكراً صباح اليوم التالي على صوتين مدويين، آتـــيين من جهة دار العبادة. أحسستُ حالاً أن ثمة شيئاً غير صحيح. هرعتُ إلى دار العبادة ورأيتُ مشهداً هزني من الأعماق. الأب تيموثي يرقد في بركة من الدم يرتدي غفارته ويبدو أنه يركع. على مبعدة عشر خطـــوات عنه يرقد جسد الأب جون مبقعاً بالدم. يبدو أن رأسه قد هُـــشم وقطع صغيرة من مخه تلتصق بالمصاطب. هو يرتدي الجلد. ثمة صور لثعابين داكنة على ذراعيه. يقبض على رشاش بيده اليمنى.

أرى المـــشهد، وأشعر أن النَفَس يختنق خارج رئتيَّ. أصرخ. إنها صرخة حادة، تهشم سكون الصباح كعيار ناري. صرخة تخيف الغربان الجالسة على أشجار الأوكاليبتوس. صرخة تجعل جوزيف، الذي ينفض الغبار عن التحف في قاعة الاستقبال، يتوقف عن العمل ويصيخ السمع.

صـــرخة ترغم السيدة غونـــزالفيس على أن تنهي استحمامها بسرعة. وتوقظ إيان، الذي يأتي راكضاً إلى دار العبادة.

أنا منحنٍ على الأب تيموثي، أنتحب كما ينتحب صبـــي في سن الثامنة حين يفقد كل شيء في حياته. يأتي إيان، ويجلس إلى جانبـــي. ينظـــر إلى جـــثة الأب تيموثي الهامدة، ويبدأ في البكاء أيضاً. نشبك أيديـــنا، ونبكـــي معاً على مدى ثلاث ساعات تقريباً، حتى بعد مجيء ســـيارة الشرطة الجيب ذات الضوء الأحمر الوامض، حتى بعد وصول الطبـــيب ذي المعطف الأبيض مع سيارة الإسعاف، حتى بعد أن غطوا الجثـــتين بقماش أبيض، حتى بعد أن حملوهما إلى سيارة الإسعاف، حتى بعـــد أن أخذنا جوزيف والسيدة غونـــزالفيس إلى المنـــزل وبذلا كل ما في وسعهما كي يواسيانا نحن الاثنين.

بعـــدها، بعدها بوقت طويل، يسألني إيان: "توماس، لماذا تبكي كثيراً جداً؟".

أجيـــبه: "لأنـــني اليوم حقيقةً أصبحتُ يتيماً. كان والدي، مثلما كـــان أباً لكل أولئك الذين جاؤوا إلى دار العبادة هذه. إنما لماذا كنتَ تبكي؟ هل بسبب ما فعلته مع الأب جون؟".

"كـــلا، كنتُ أبكي لأنني فقدتُ كل شيء أيضاً. أصبحتُ يتيماً مثلك".

أصرخ: "لكن والدك لا يزال حياً. إنه يقيم في دهرادون".

"كلا، كانت تلك كذبة". يشرع بالنحيب مجدداً. "الآن أستطيع أن أخبرك الحقيقة. كان تيموثي فرانسيس والدي".

يظهـــر علـــى وجـــه سميتا تعبير حزين. تقول: "يا لها من قصة تـــراجيدية. الآن فهمـــتُ ماذا كان الأب تيموثي يعني حين تكلم عن

عبء القس، أي قس. إنه شيء مذهل كيف عاش حياةً مزدوجةً طيلة تلك السنوات كلها، بوصفه قساً وكان كذلك رجلاً متزوجاً ووالداً. إذاً ماذا جرى لإيان في نهاية المطاف؟".

"لا أدري. عاد إلى بريطانيا. إلى أحد أعمامه، على ما أعتقد".

"وأنتَ؟".

"أرسلوني إلى ملجأ للأحداث".

"فهمت. الآن احكي لي عن السؤال الثاني"، تقول سميتا وتضغط زر التشغيل على جهاز التحكم عن بعد.

لا نـــزال في الفاصل الإعلاني.

يمـــيل بـــريم كومار إلى الأمام ويهمس لي: "دعني أقول لك ماذا ســـيكون السؤال التالي. سأسألك إلى ماذا ترمز أف بـــي آي. لا بد أنكَ سمعتَ بهذه المنظمة، أليس كذلك؟".

"كلا". أهز رأسي نفياً.

يبتسم ابتسامةً عريضةً. "عرفتُ ذلك. انظر، نحن نريد أن تربح على الأقل مزيداً من المال. يمكنني أن أغيّر السؤال إلى شيء آخر. قل لي بـــسرعة، هل ثمة أي اختصارات مماثلة أنتَ مطلع عليها اطلاعاً حسناً؟".

أفكـــر للحظـــة قبل أن أجيب. "لا أعرف ما يتعلق بالأف بـــي آي، لكنني أعرف ما يتعلق INRI".

"ما هو ذلك؟".

"إنه ما مكتوب على قمة الصليب، أي صليب".

"أو! جيد، دعني أدقق في بنك المعلومات خاصتي".

ينتهي الفاصل الإعلاني. يأتي اللحن الخاص بالبرنامج.

يلتفت إليّ بريم كومار. "أنا فضولي، سيد رام محمد توماس، في ما يـــتعلق بدينكَ. يبدو أنكَ تملك الأديان كلها في اسمكَ. قل لي، إلى أين تذهب كي تؤدي صلاتكَ؟".

"هل يجب على المرء أن يقصد مكاناً محدداً كي يؤدي الصلاة؟".

"أحسنتَ قولاً، سيد توماس. ما هي سلسلة الحروف المنقوشة بـــصورةٍ اعتيادية على الرمز الديني للنصارى؟ هل هي (أ) IRNI، (ب) INRI، (ج) RINI أم (د) NIRI؟ هـــل السؤال واضح، سيد توماس؟".

أرد: "نعم".

"جيد. إذاً دعنا نسمع جوابك".

"الجواب هو (ب). INRI".

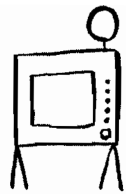
"هل أنت متأكد تماماً، مائة بالمائة؟".

"نعم".

ثمة تصعيد لقرع الطبول. يومض الجواب الصحيح.

"تماماً، صحيح مائة بالمائة! ربحتَ ألفي روبية".

أقول: "آمين".



5,000
وعد أخ

عليكَ أن تلقي نظرةً جيدةً على كل جوانب القضية، أي قضية، قــبل أن تــتخذ قراراً. أبعد شيئاً ما في حالة الطوارئ. سيجلب لك جيران جدد ابتهاجاً جيداً. ربما تحدث مشكلة صغيرة في أساس البيت، لكــنكَ ســتحلها بسرعة وبصورةٍ صائبة. لا تقدّم نصيحةً ذكيةً ما لم يُطلب منكَ حقيقةً أن تدلي بها.

هذا ما توقعت به خريطة الأبراج اليومية في مهاراشترا تايمز اليوم لأصــحاب بــرج الجدي من أمثالي، المولودين في الأسبوع الأخير من كانون الأول.

لا أطالع المهاراشترا تايمز. في الحقيقة، أنا لا أطالع أي صحيفة من الــصحف. لكنني غالباً أختلس نسخةً من صندوق النفايات العائد إلى الــسيد بــارفي. إنها مفيدة لإشعال النار في المطبخ، وأحياناً، حينما لا يكون عندي شيء آخر أفعله، أقلّب صفحاتها كنوعٍ من تمضية الوقت قبل أن تتحول إلى رماد.

أنا أيضاً لا أعتقد بخرائط الأبراج. لو فعلتُ ذلك، لكنتُ الآن في

عـــداد الأمـــوات، كمـــا حـــصل بحسب التوقع الذي قام به الأستاذ راماشانكار شاستري. إلا أن خارطة الأبراج اليومية لهذا اليوم يبدو أنها تحـــتوي على جوهر الحقيقة، أي حقيقة. انتقل جيران جدد إلى الغرفة المتاخمة وكانت هنالك حقيقةً مشكلة صغيرة في أساس البيت.

كـــنا عائـــدين تواً من عرض سينمائي نهاري في ريغال توليكز، وكان سالم في حالة غضب أعمى. يمزق كل ملصقات أرمآن علي التي زينت جدران حجرتنا الصغيرة طيلة ثلاث سنوات تقريباً. مُزق ملصق أرمآن علي وهو يرتدي سترة الجلد إلى قطع صغيرة. شُوه ملصق أرمآن وهو يركب دراجة بخارية بواسطة سكين. ملصق أرمآن نازعاً قميصه، مُعـــرّياً صدره كث الشعر، ملقى الآن في صندوق النفايات. أرمآن مع المـــسدس قُطع إلى قطع صغيرة، وتم شوي أرمآن وحصانه كليهما على الـــنار. مـــع زوال الملصقات كلها، فجأةً تبدو غرفتنا، بسريرين فقط، أكثـــر عُـــرياً من قبل، أما بقع العفن الفطري على الجدران المبيضة بماء الكلس فلم تعد مخفيةً عن الأنظار.

بالرغم من التحذير في خارطة الأبراج اليومية، لا أستطيع أن أمنع نفـــسي من تقديم نصيحة ذكية إلى سالم. "هل تدرك الآن الحقيقة التي أخبرتكَ بها قبل تسعة شهور خلت، حين كنتَ منشغلاً بمحاولة إصلاح علاقـــة أرمـــآن بأورفاشي؟ قلتُ لك لا تدس أنفكَ في شؤون الناس الآخـــرين، أو أن تجعـــل مشاكل الناس الآخرين مشاكلك. تذكر هذا كدرسٍ للمستقبل".

يـــسمعني ســـالم بكآبة وتجهم فيما هو يدوس بقوة على ملصق أرمآن في حوض سباحة، محاطاً بمجموعة من الحسناوات.

أسمع وقع أقدام وأصوات خارج الحجرة. يبدو أن النـــزلاء الجدد ينتقلون أخيراً إلى الغرفة الملاصقة لنا. أنا سعيد. إنه شيء جيد دوماً أن

تلتقـــي أشخاصاً جدداً. أتمنى أن يكون للنـــزلاء الجدد صبيان في سني. بوتـــول ودهيانيش رفيقان جيدان، إلا أنهما نادراً ما يأخذان الإذن من والـــديهما كي يأتيا ويلعبا معي في أيام الآحاد، فهو اليوم الوحيد الذي لا أذهب فيه إلى العمل. أجاي، المتباهي، هو الآخر يحطّم أعصابـــي. ضـــحك عليّ أمام كل سكان المبنى حين أخبرته أنني التحقتُ بمَسبك. أعرف أن العمل في مسبك لا يبلغ نصف إثارة العمل كنجم سينمائي، لكنه على الأقل أفضل من الجلوس في الشارع.

بعـــد الـــوقت الذي أمضيته مع الممثلة نيليما كوماري، مقيماً في شـــقتها، نسيتُ تقريباً الحياة في المبنى السكني. حزمة من الشقق ذات الغرفة الواحدة يشغلها أناس من أدنى الطبقات الوسطى، المباني السكنية هـــي إبـــط مومباي كريه الرائحة. أولئك الذين يقيمون هنا هم فقط هامشياً أفضل من أولئك الساكنين في أحياء الفقراء مثل دهارافي. كما أخـــبرني السيد بارفي ذات مرة، أن الأثرياء، أولئك الذين يسكنون في شـــققهم الـــرخامية والجرانيتية ذات غرف النوم الأربع، يتمتعون. أما الفقـــراء، الذين يسكنون في أكواخٍ قذرة، خربة، فهم يتعذبون. ونحن، الذين نقيم في المباني السكنية المزدحمة أكثر مما ينبغي، نحن ببساطة نحيا.

الإقامـــة في مـــبنى ســـكني لها حسنات معينة. ما جرى لنيليما كوماري لن يحدث هنا، لأنه في المبنى السكني، أي مبنى سكني، الجميع يعـــرفون كـــل ما يجري. المقيمون كلهم يملكون سقفاً مشتركاً فوق رؤوســـهم ومكاناً مشتركاً يذهبون إليه للتغوط والاستحمام. المقيمون في المـــبنى السكني ربما لا يلتقون أحدهم الآخر في مناسبات اجتماعية، لكـــنهم يجـــب أن يلـــتقوا فيما هم يقفون في طابور خارج المراحيض العمومية. في الحقيقة، إنها محض إشاعة أن السيد غوخالي التقى السيدة

غـــوخالي فـــيما كان ينتظر خارج المرحاض ووقع في حبها. تزوجا في غضون شهر.

لم تكن ثمة فرصة لوقوعي في غرام أي فتاةٍ في المبنى السكني. كن جمـــيعهن بدينات وقبيحات، ولم يكن يشبهن حتى ولو من بعيد ممثلتي الأثيرة، بريا كابور. فضلاً عن ذلك، إنهن أشبه بأشياء غبية كالدمى ولا يستطعن أن يلعبن أي ألعاب جديرة بالاحترام كالملاكمة والكابادي[1]. حتى أنا لم يكن لديّ متسع من الوقت كي أمارس هذه الألعاب. أعمل طـــيلة النهار في سبك المعادن، أعود فقط في السادسة مساءً. إن صهر المعـــادن مهـــنة عسيرة جداً. الحديد المصهور يخنقك برائحته، وتُعمى عيناك في كثير من الأحيان من جراء ألسنة اللهب البرتقالية الساطعة.

"توماس!"، أسمع صوتاً. يناديني السيد راماشانكار، المكلف بإدارة المـــبنى الـــسكني. إنه رجل مهم جداً. نقصد السيد راماشانكار حين ينطفـــئ المـــصباح الكهربائي أو حين ينخفض ضغط الماء. نتوسل إلى الـــسيد راماشـــانكار حين لا يكون بحوزتنا المبلغ الكافي لتسديد أجر الـــسكن الشهري. نكون وراء السيد راماشانكار كي يصلح جزءاً من درابزين الطبقة الأولى الخشبـــي الذي أصبح ضعيفاً ومتمايلاً وفي وضعٍ يعرّض فيه السلامة للخطر.

أخـــرجُ مـــن الحجرة وأشاهد السيد راماشانكار واقفاً مع رجل قصير القامة، متوسط العمر، يقطب جبينه ويبدو كما لو أنه لم يذهب إلى دورة المـــياه مـــنذ مدة طويلة. "توماس، التقِ السيد شانتارام. إنه

(1) الكابـــادي Kabaddi: لعبة يشارك فيها فريقان، كل منهما مؤلف من سبعة أعـــضاء. الفـــريقان يحتلان نصفين متقابلين من الملعب، ويتبادلان إرسال (مغيـــر) إلـــى النـــصف الثانـــي، كي يكسب النقاط من خلال مطاردة أو مـــصارعة أعـــضاء مـــن الفـــريق الآخر، بعدها يحاول العودة إلى نصفه الخاص، حابساً أنفاسه طول الغارة – م.

نـــــزيلنا الجديـــد، الذي سيمكث في الشقة المتاخمة لشقتك. أخبرت الـــسيد شـــانتارام أنـــك غلام جد موثوق به، لذا من فضلك ساعده وســـاعد زوجته وابنته على الاستقرار في الشقة. جيد، سيد شانتارام، الآن أستأذنك في الانصراف".

أفكر: "أوه، لا. ليس ثمة غلمان". أحاول أن أرى زوجته وابنته، لكنني لا أحصل إلا على نظرة خاطفة لامرأة ذات شعر أشيب، وفتاة، تكبرني سناً، ذات شعر أسود طويل مربوط من الخلف، جالستين على الـــسرير. يراني شانتارام أختلس النظر إلى شقته، فيغلق الباب الأمامي بسرعة.

أسأل شانتارام: "ما مهنتك؟".

"أنـــا عـــالم، عالم فضاء. لن تفهم. لكنني هذه الأيام في إجازة. أعمـــل حالياً بصفة مدير المبيعات في صالة عرض فيمال. حجرتي هذه ترتيب مؤقت جداً. سننتقل إلى شقة فاخرة في ناريمان بوينت في وقت قريب جداً".

أعرف أن السيد شانتارام يكذب. من يستطيع الإقامة في ناريمان بوينت لا يستوطن في المباني السكنية، ولا حتى مؤقتاً.

جدران الغرفة داخل المبنى السكني رقيقة جداً. إذا وضعتَ أذنكَ علـــى الجـــدار المشترك وركزتَ بقوة، أو بالأحرى، إذا وضعتَ كوباً مقلوباً على الجدار، ووضعتَ أذنكَ عليها، يمكنكَ أن تسمع تقريباً كل مـــا يجري في الحجرة المتاخمة. سالم وأنا نفعل هذا في كثير من الأحيان مـــع جيراننا من ناحية اليسار، الذين تلاصق حجرتهم مطبخنا. السيد والـــسيدة بابات لم يعودا ثنائياً شاباً. كانت هنالك إشاعة مفادها أن السيد بابات يضرب السيدة بابات، إلا أنهما بصورة واضحة يتصالحان

لـــيلاً لأن ســـالم وأنـــا نـــسمع في كثير من الأحيان أنفاسهما الثقيلة ولهاثهما، نسمع آهاقما، فنضحك ضحكات نصف مكبوتة.

أثـــبّتُ كوباً فولاذياً على الجدار الملاصق لحجرة السيد شانتارام، وأدفن أذني فيه، يمكنني سماع شانتارام يتكلم.

"هذا المكان ليس أقل من جحر أسود. إن المكوث هنا شيء دون مـــستوى كـــرامتي تماماً، إنما من أجلكما أنتما الاثنتين. سأتحمل هذا الإذلال إلى أن أحـــصل على مهنة مناسبة. اسمعا، لا أريد أن يدخل أي غـــلام من غلمان الشارع إلى المنـــزل. الله أعلم من أي جحور حقيرة أقبلوا. ثمة اثنان منهم يتاخماننا. وضيعان في أعلى مرتبة، على ما أعتقد. غوديا، إذا ضبطتك تتكلمين مع أي صبـــي في المبنى السكني، ستتلقين جلداً بحزامي الجلد، فهمتِ؟" يصرخ. أسقط الكوب مذعوراً.

علـــى مـــدى الأسبوعين التاليين، نادراً ما أرى شانتارام و لم أرَ كـــذلك زوجـــته أو ابنته. أغلب الظن تذهب إلى الكلية يومياً، إنما في الـــوقت الـــذي أعود فيه إلى البيت من المسبك، تكون هي في الداخل والباب دوماً مغلق بقوة.

ســـالم حتى لم يلاحظ أنه كان لنا جيران جدد. فقلما يكون لديه أي وقـــت فـــراغ من عمله كغلام مُسلّم لوجبة الغداء. يستيقظ عند الـــسابعة صباحاً ويرتدي ثيابه. يلبس قميصاً أبيض محلولاً، منامةً قطنيةً ويعتمـــر قبعة نهرو بيضاء على رأسه؛ القبعة هي شارة التعريف المميزة لموزعـــي وجبة الغداء في مومباي، وهنالك تقريباً خمسة آلاف شخص يمارسون هذه المهنة. على مدى الساعتين التاليتين يجمع وجبات الطعام، المعـــدة في البـــيت في علب الغداء، من خمس وعشرين شقة تقريباً، ثم يأخـــذها إلى محطـــة قطار جاتكوبار المحلية. هنا وجبات الغداء تصنف

بحسب مكانها المقصود، كل علبة لها نقاط ذات ألوان مشفرة، شارطات وصلبان على غطائها، ومن ثم يجري تحميلها في قطارات خاصة كي تُسلّم فوراً في وقت الغداء إلى موظفي الطبقة الوسطى وعمال الطبقة الكادحة في أرجاء مومباي كلها. يتسلم سالم وجبات الغداء بواسطة قطار آخر، يسلّمها في منطقة جاتكوبار بعد أن يفك مغالق النقاط والشارطات التي تشكل العنوان. عليه أن يكون حذراً جداً، لأن خطأً واحداً يمكن أن يكلفه مهنته. لا يجرؤ على أن يسلم علبة تحوي لحم بقر إلى هندوسي، أو واحدةً تحوي لحم خنزير إلى مسلم أو واحدةً تحوي ثوماً وبصلاً إلى نباتي ياني(1).

إنها التاسعة ليلاً. يقلّب سالم صفحات مجلة سينمائية. أجثو على سريري وأذني اليسرى ملتصقة بكوب فولاذ موضوع على الجدار. أسمع شانتارام يكلم ابنته قائلاً: "غوديا، انظري هنا، من خلال العدسة. ثَبّتُ التلسكوب الآن. هل يمكنكِ أن تشاهدي الشيء الأحمر الساطع في الوسط؟ ذلك هو المريخ".

أهمس قائلاً لسالم: "اجلب كوباً، بسرعة. يلزمكَ أن تسمع هذا".

سالم كذلك يلصق أذنه على الجدار. على مدى الثلاثين دقيقة التالية، نستمع إلى تعليق متواصل حول حالة السماء. نسمع ما يتعلق بالكواكب، والمجرات، والمذنبات. نسمع ما يتعلق بالدب الأكبر والدب الأصغر. نسمع عن شيء يدعى درب التبانة والنجم القطبي. نعرف ما يتعلق بحلقات زحل وأقمار المشتري.

أنا أصغي إلى شانتارام، يهيمن عليّ توق غريب. أتمنى أن يكون

(1) ياني Jain: أحد أتباع اليانية. وهي دين هندي نشأ في القرن السادس قبل الميلاد، قوامه تحرير الروح بالمعرفة والإيمان وحسن السلوك – م.

لي أنـــا أيـــضاً أب يعلمني ما يتعلق بالنجوم والكواكب السيارة. سماء الليل، التي كانتْ بالنسبة إليّ حتى الآن كتلة سوداء كبيرة، تصبح فجأةً مكانـــاً ذا معنى وتساؤل. حالما ينتهي درس شانتارام الخصوصي، أمد وسالم عنقينا خارج نافذة الطبقة الأولى خاصتنا كي نحاول العثور على المعالم السماوية التي أشار إليها. من دون مساعدة تلسكوب نرى فقط نقاطـــاً بيـــضاء صغيرةً في السماء المعتمة، لكننا نطلق صرخات طويلة حـــادة، نطلقهـــا بسرور، حين نميز النجوم السبع للدب الأكبر، وحتى معـــرفتنا أن الرقع الداكنة في القمر ليست عيوباً إنما حفر وبحار، هذه المعرفة تملأنا بإحساس بالقناعة كما لو أننا حللنا أسرار الكون.

تلـــك الليلة لم أحلم بامرأة بسارٍ أبيض هفهاف. حلمتُ بحلقات حول زحل وبأقمار حول المشتري.

بعـــدها بأسبوع، نبهني صوت جديد بكل معنى الكلمة آتٍ من حجـــرة شـــانتارام. "مـــياو!" أندفع مذعوراً إلى الجدار وفي يدي أداة الإصغاء الفولاذية خاصتي.

أسمـــع غوديا تتحدث قائلةً: "بابا، انظر، لديّ قط. أليس محبوباً؟ صـــديقتي روهيني أعطتني إياه من الولادات الجديدة لقطتها. هل يمكنني أن أحتفظ به؟".

تتذمر السيدة شانتارام قائلةً: "لستُ قادرةً على رعاية أي مدلل. قلما يوجد مكان في هذه الحجرة للبشر، أين يمكننا أن نحتفظ بحيوان؟".

"أرجـــوكِ، أماه، إنه كائن صغير جداً. بابا، وافق أرجوك"، تقول متوسلةً.

يقول شانتارام: "جيد، غوديا. احتفظي به. لكن ماذا ستسميه؟".

"أوه، شكراً، بابا. كنتُ أفكر في أن أمنحه اسم تومي".

"كلا، ذلك اسم مبتذل. هذا القط سيسكن في أسرة عالم فلك، لذا يجب أن نسميه باسم أحد الكواكب السيارة تيمناً به".

"أي كوكب منها؟ هل يمكننا أن ندعوه المشتري؟".

"كــلا. إنه أصغر فرد في الأسرة، لذا لا يمكننا أن نسميه سوى بلوتو".

"عظــيم، أحــب الاسم، بابا. الآن، بلوتو! بلوتو، تعالَ واشرب الحليب".

يموء بلوتو: "مياو!".

تــرغمني هــذه النــتف الــصغيرة على أن أعيد النظر في رأيي بــشانتارام. ربمــا هو ليس سيئاً جداً على كل حال. إنما، مرةً أخرى، أعــرف أن المظاهر يمكن أن تكون خادعةً وأن الخط الفاصل بين الجيد والسيئ هو في الواقع رفيع جداً.

أرى شانتارام يأتي إلى المنــزل ذات مساء، ثملاً تماماً. يفوح نَفَسه بــرائحة الــشراب الاســكتلندي. يسير بخطوات مترنحة. ويحتاج إلى المــساعدة كي يرتقي درجات السلم. يحدث هذا في اليوم التالي، وفي اليوم الذي بعده. وفي الحال يعرف جميع النــزلاء في المبنى السكني أن السيد شانتارام سكير.

الــسكارى في الأفلام الهندية شخصيات مضحكة بصورة ثابتة. فكــري في كريــشتو موكرجي يحمل زجاجةً عندئذ لا تستطيعين أن تتمالكــي نفــسك من أن تنفجري ضاحكةً. لكن السكارى في الحياة الواقعية ليسوا مضحكين، إنهم مخيفون. كلما يأتي شانتارام إلى منــزله ثملاً، لا نحتاج إلى وسائل إصغاء. يقذف الشتائم بأعلى صوته فأرتجف وســالم خــوفاً في حجرتنا كما لو أننا مَنْ توجه إلينا الشتائم. تصبح

شتائمه طقساً مستديماً إلى حدّ أننا ننتظر حقيقةً صوت غطيطه قبل أن يداهمـــنا النعاس. أصبحنا نرتعب من الفاصل الزمني بين عودة شانتارام مـــن العمل وتهالكه على الفراش. هذا الفاصل هو، بالنسبة إلينا، منطقة الخوف.

نعتقد أن هذا طور زائل وأن شانتارام سيصحو في نهاية المطاف. إنما في الواقع يصبح أسوأ. يبدأ شانتارام بشرب المزيد وبعدها يبدأ برمي الحاجـــيات. يبدأ برمي الأكواب البلاستيكية والكتب، صوب الجدار باشمئزاز. بعدها يبدأ بكسر القدور والمقالي. الضوضاء التي يثيرها تجعل الإقامـــة في الحجرة المتاخمة أمراً عسيراً جداً. لكننا نعرف أن التشكي للـــسيد راماشـــانكار أمـــر غير وارد. إن صوتي مستأجرين اعتياديين مـــزعجين أحدهما في الثالثة عشرة والآخر في الحادية عشرة لا يحملان وزناً كبيراً. لذا كنا ببساطة نندس في الفراش كلما نسمع صوت تحطم صحن أو تكسر طبق من الخزف الصيني.

حتى هذا الطور لا يستمر طويلاً. ففي الحال، يبدأ شانتارام برمي الأشـــياء نحـــو الناس. بصورةٍ رئيسة، نحو أفراد أسرته. يخصص أقصى غضبه لزوجته. "أنتِ أيتها الساقطة الحقيرة! أنتِ التي أنـــزلتني إلى أدنى مـــراتب الحـــياة. كان في وسعي أن أكتب مواد البحوث عن الثقوب السود، وبدلاً من ذلك ها أنذا أُري قطع القمصان وفساتين (الساري) لـــسيدات البـــيوت القذرات. أكرهك! لم لا تموتين؟" يصيح، ويرمي رجاجة فلفل، كوباً، صحناً. على زوجته، ابنته، قطتها.

ذات لـــيلة يـــتجاوز الحدود فيرمي كوب شاي حار جداً على زوجته. تحاول غوديا أن تحمي أمها فيسقط السائل الحار عليها، سافعاً وجههـــا. تزعق بألم مبرح. شانتارام في حالة سكر شديد بحيث إنه لا يـــدرك حتى ما فعله. أهرع إلى الخارج كي أحصل على سيارة أجرة

للسيدة شانتارام كي تأخذ ابنتها إلى المستشفى. بعدها بيومين، تأتي إليّ وتسألني أن أذهب معها لزيارة غوديا. "إنها تشعر بوحدة قاتلة. ربما يمكنكَ أن تتحدث إليها".

لذا أرافق السيدة شانتارام في أول زيارةٍ لي في حياتي إلى المستشفى، وأي مستشفى.

أول شيء يهاجم حواسك بعنف حين تدخلين مستشفى ما هو الرائحة. شعرتُ بالغثيان من جراء الرائحة المتخمة، المضادة للعفونة للمطهر، التي تتخلل كل زاوية من زوايا الردهات القذرة. الشيء الثاني الذي يلفت انتباهكِ أنكِ لا ترين أي إنسان سعيد. المرضى يرقدون على أسرّتهم الخضراء ينوحون ويئنون حتى الممرضات والأطباء يبدون متجهمين. إنما أسوأ شيء هو اللامبالاة. ما من أحد يقلق عليكِ فعلاً. تصوّرتُ أن الممرضات والأطباء يحتشدون حول غوديا من الجوانب كلها، لكنني وجدتها ترقد وحيدةً على سريرها داخل *وحدة الحروق* من دون أن تكون هنالك ممرضة واحدة تسهر على راحتها. كان وجهها قد غُطي تماماً بالضمادات؛ لا يمكنكِ أن تري سوى عينيها السوداوين.

"غوديا، انظري مَنْ الذي أقبل لزيارتك"، تقول السيدة شانتارام، مشيرةً إليّ.

أشعرُ أنني غير واثق من نفسي وأنا أدنو من الفتاة. من الجلي أنها أكبر مني بسنوات كثيرة. أنا مجرد مختلس سمع بعض النتف من حياتها؛ أكاد لا أعرفها. لم أرَ شفتيها، لكنني أستطيع أن أرى من خلال عينيها أنها تبتسم لي وذلك الأمر كسر الجليد بيننا.

أجلس معها ثلاث ساعات، متحدثاً عن هذا وذاك من الأمور. تسألني غوديا: "كيف نلتَ اسماً استثنائياً كهذا – رام محمد توماس؟".

"إنها قصة طويلة جداً. سأخبركِ عنها حين تتماثلين للشفاء".

تحـــدثني عن نفسها. أعرف أنها تكاد تنهي دراستها الثانوية كي تبدأ دراستها الجامعية. طموحها أن تصبح طبيبة. تسألني عن نفسي. لا أقـــول لها أي شيء عن الأب تيموثي أو ما حصل لي بعد ذلك، لكنني أروي تجاربـــــي في المـــبنى السكني. أروي لها عن الحياة كوني عامل سبك المعادن. تصغي إليّ بانتباه مستغرِق. وتجعلني أشعر أنني مهم جداً ومطلوب.

يأتي طبيب ويخبر السيدة شانتارام أن ابنتها محظوظة. لقد أُصيبتْ بحـــروق مـــن الدرجـــة الأولى ولـــن تترك أي ندوب دائمة. ستغادر المستشفى في هذا الأسبوع.

الـــساعات الثلاث التالية التي أمضيها مع غوديا تمكنني من معرفة الكـــثير عن والدها. تقول لي السيدة شانتارام: "زوجي عالم فضاء ذائع الصيت. بالأحرى، كان عالماً. اعتاد أن يعمل في معهد أريابهاتا لبحوث الفـــضاء، حيث كان يتحرى عن النجوم بمساعدة تلسكوبات ضخمة. اعـــتدنا أن نقيم في بيت فخم من طابق واحد يقع في حرم المعهد. قبل ثـــلاث سنوات خلت اكتشف نجماً جديداً. كان اكتشافاً علمياً مهماً جـــداً إلا أن عالم فلك زميلاً له هو الذي نُسب إليه الاكتشاف. هذا الأمـــر دمـــر زوجي تماماً. بدأ يدمن الشراب. بدأ يتخاصم مع زملائه وذات يـــوم استشاط غضباً من مدير المعهد بحيث إنه كاد يودي بحياته بعـــد أن أشبعه ضرباً وركلاً. طُرد من المعهد في الحال ووجب عليّ أن أناشد المدير كي لا يتم اعتقاله من قبل الشرطة. بعد تركه للمعهد، نال زوجـــي وظـــيفةً كمدرس فيزياء في مدرسة جيدة، إلا أنه لم يستطع الـــسيطرة علـــى عادته في الشرب أو على مزاجه العنيف. كان يجلد الـــصبيان بـــسبب هفوات طفيفة، وطُرد من المدرسة في غضون ستة

شـــهور لا غير. منذ ذلك الزمن صار يمارس مهناً غريبةً، يعمل بصفة مديـــر مطعم مؤقت في دائرة، ثم محاسب في مصنع، والآن بصفة عامل مبيعات في صالة عرض ثياب. ولأننا أنفقنا كل مدخراتنا، نحن مجبرون على الإقامة في مبنى سكني!".

أوجـــه إلـــيها ســـؤالاً: "ألا يستطيع السيد شانتارام التوقف عن الشراب؟".

"أقـــسم لي زوجي إنه لن يمس الشراب مجدداً وقد بدأ يراودني الأمل أن الأسوأ قد انقضى. لكنه لم يستطع الالتزام بوعده، وانظر ماذا جرى؟".

تقـــول غوديا: "أسدي إليّ معروفاً، رام محمد توماس. من فضلك اعتني ببلوتو إلى حين عودتي إلى المنـــزل".

أعدها قائلاً: "بكل تأكيد".

فجـــأةً تمد ذراعها وتأخذ يدي بيدها. "أنتَ هو الأخ الذي ليس لي أبـــداً. ألـــيس كذلك، أماه؟" تقول غوديا. تومئ السيدة شانتارام برأسها علامة الموافقة.

لا أعـــرف ماذا أقول. هذه علاقة جديدة بالنسبة إليّ. في الماضي، خـــيل إليّ أنني ابن إنسان ما، إنما لم يخطر ببالي أنني أخ إنسان ما. لذا أمسك فقط بيد غوديا وأحس بأن آصرة سرية تمر بيننا.

تلـــك الليلة أحلم بامرأة تتزيَّ بسارٍ أبيض تحمل طفلاً وليداً بين ذراعيها. الريح تعصف وراءها، فتجعل شعرها يطير على وجهها، مخفياً إيـــاه. تـــضع الطفل في صندوق للثياب المعدّة للغسل وتغادر. في ذلك الـــوقت تحديـــداً، تصل امرأة أخرى. هي أيضاً طويلة وجميلة، إلا أن وجههـــا ملفـــوف بالـــضمادات. تلتقط الطفل من الصندوق وتغطيه بالقـــبلات. "أخـــي الصغير"، تقول. "أ - خـــ - ت - ي"، يناغي الطفل الوليد رداً عليها. "مياو!" مواء مخنوق من قط يخترق الليل بغتةً.

أستيقظ من النوم وأحاول أن أحكم ما إذا كان الصوت الذي سمعتُه جاء من الحلم أو من الحجرة المجاورة.

أكتشف عرج بلوتو وجسده المشوه صباح اليوم التالي في صندوق النفايات نفسه الذي أودع فيه السيد بارفي نسخته من مهاراشترا تايمز. كُسر عنق القط ويمكنني أن أشم رائحة الشراب الاسكتلندي على جسمه المكسو بالفراء. يخبر شانتارام زوجته أن بلوتو فرَّ من المنزل. أعرف الحقيقة إنما لا جدوى من ذكرها. فعلاً هرب بلوتو. إلى عالم آخر، أفضل، على ما أعتقد.

أخبر سالم: "أحب غوديا حباً جماً. عليّ أن أضمن ألاّ يكرر شانتارام فعلته معها".

"لكن ما الذي يمكنكَ أن تفعله؟ إنها أسرته".

"إنها وظيفتنا أيضاً. على كل حال، نحن جيران".

"هل تذكر ما أخبرتني به ذات مرة؟ قلتَ ما مفاده أنها فكرة ليست جيدة أن تدس أنفك في قضايا الناس الآخرين، أو أن تجعل مشاكل الناس الآخرين مشاكلك الخاصة، صحيح يا محمد؟".

لم أجب على هذا.

تعود غوديا إلى البيت، لكنني لا أستطيع رؤيتها لأن شانتارام لا يسمح لأي صبي بدخول منزله. تخبرني السيدة شانتارام أن زوجها أدرك ما فعله. وسيصلح حاله الآن، مع أنها كانت تعرف في أعماق نفسها أن شانتارام غير قابل للإصلاح. لكنها حتى لا تعرف إلى أي حضيض يمكن أن ينحدر زوجها.

يكاد لا يمر أسبوع على عودة غوديا من المستشفى حتى يفعل لها شيئاً ما مجدداً. يحاول أن يلمسها إنما ليس بصفة أب. في البداية، لم

أفهـــم. كل ما أسمعه هو بعض الإشارات أن غوديا قمره ومن ثم تأخذ الـــسيدة شانتارام بالصراخ، وتزعق غوديا: "بابا، لا تلمسني! بابا، من فضلك لا تلمسني!".

يفـــرقع شيء ما في دماغي حين أسمع صرخة غوديا الكئيبة. أريد أن أقـــتحم حجرة شانتارام وأقتله بيديّ العاريتين. لكنني حتى قبل أن أتمكن من أن أستجمع شجاعتي، أسمع غطيط شانتارام العالي. لقد انهار. غوديا لا تزال تنشج. لا أحتاج إلى كوب كي أسمع بكاءها.

يؤثر فيَّ بكاؤها بصورة غريبة. لا أعرف ما هو رد فعل الأخ حين يـــصغي إلى بكاء أخته، لأنه ليست لديّ تجربة في أن أكون أخاً. لكنني أعـــرف أنـــه بشكلٍ من الأشكال يجب عليّ أن أواسيها. لسوء الحظ، لـــيس مـــن اليسير جداً أن يُواسى إنسان ما حين يكون هنالك جدار، مهمـــا كـــان رقيقاً، بينكما. ألاحظ عندئذ أنه في أسفل الجدار تماماً، حيث تلج أنابيب الماء الشقة الأخرى، ثمة فتحة صغيرة دائرية الشكل، تكفـــي لأن يدس المرء ذراعه عبرها. أثب من السرير، ومتمدد باسط ذراعـــيّ ورجلـــيّ على الأرض، أدس يدي عبر الفتحة. أصرخ قائلاً: "أختي، لا تبكي. الآن، أمسكي يدي". وشخص ما يقبض على يدي. أشعر بأصابع تعانق ذراعي، مرفقي، رسغي، مثلما يتلمس رجل أعمى وجـــه امـــرئ ما. ثم تشتبك الأصابع بأصابعي وأشعر بانتقال عجيب للقـــوة، للطاقـــة، للحب، سمها ما شئتِ. الحقيقة أنه في تلك اللحظة أتوحد مع غوديا، وأشعر بوجعها كما لو كان وجعي.

ســـالم، خلال ذلك، لا يزال جالساً على السرير، يراقب المشهد بذهـــول. "محمـــد، هل أنتَ مجنون؟ أتعرف ما الذي تفعله؟" يحذرني. "هذا الثقب الذي دسستَ عبره يدكَ هو الثقب نفسه الذي تدخل من خلاله الجرذان والصراصير إلى حجرتنا".

لكنني أنشغل عن سالم وعن كل شيء آخر. لا أدري كم من الـــوقت مـــرَّ وأنا أمسك بيد غوديا، لكنني حين أستيقظ من نومي صـــباح اليوم التالي أجد نفسي مستلقياً على الأرض ويدي لا تزال مندســـة عـــبر الثقب وعائلة من الصراصير تنام بسلام داخل جيب قميصي.

الليلة التالية، مجدداً يأتي شانتارام إلى المنـــزل وهو يترنح، ويحاول أن يتحـــرش بغـــوديا. يقول: "أنتِ أجمل من كل النجوم والكواكب الـــسيارة. أنتِ قمري. أنتِ غوديا خاصتي، دميتي. يوم أمس، تملصتِ مني، إنما اليوم لن أدعكِ تغادرينني".

"كـــف عـــن هكذا تصرفات!" تصرخ السيدة شانتارام، إلا أن زوجها لا يبالي بما تقول.

"لا تقلقـــي، غوديا، ليس ثمة شيء غير صحيح في حبـــي لكِ. حـــتى شـــاه جهان، الإمبراطور العظيم، وقع في غرام ابنته، جهان أرا. ومـــن يستطيع أن يحرم رجلاً من امتياز جمع الفاكهة من الشجرة التي زرعها هو نفسه".

"أنـــتَ مجنون"، تصيح السيدة شانتارام، ويضربها شانتارام. أسمع صوت قنينة تتكسر.

"لا!" أسمع زعيق غوديا.

أشـــعر كمـــا لو أن مشعلاً من الأوكسجين والأستيلين اخترق دماغي وأن المعدن المصهور انسكب على فؤادي. لا أستطيع أن أتحمله بعـــد الآن. أركـــض إلى حجرة السيد راماشانكار وأخبره بأن السيد شـــانتارام يفعل شيئاً رهيباً لزوجته وابنته. إلا أن راماشانكار يتصرف كما لو أنني أتحدث عن المناخ.

يقـول لي: "انظر، مهما يحدث داخل الجدران الأربعة لمنـزل ما هـو قضية خاصة بتلك الأسرة ولا يمكننا أن نتدخل. أنتَ غلام صغير يتـيم. أنـتَ لم ترَ الحياة بعد. لكنني أعرف القصص اليومية لضرب الزوجة وسوء المعاملة وسفاح القربى والاغتصاب، التي تجري في المباني السكنية بكل أنحاء مومباي. مع ذلك ما من أحد يفعل شيئاً إزاء ذلك. نحـن الهـنود نملك هذه القابلية السامية على رؤية الوجع والتعاسة من حولـنا، ومع ذلك نبقى غير متأثرين بهما. لذا، مثل مواطن أصلي من مومـباي، أغمـض عينيكَ، سد أذنيكَ، وأغلق فمك عندئذ ستكون سعيداً على غراري. اذهب الآن، فقد حان وقت نومي".

أعـود مـسرعاً إلى حجرتي. أسمع غطيط شانتارام وزعيق غوديا بكـونها قذرة. "لا تلمسني! لا أحد يلمسني! سأنقل العدوى لكل من يدنو مني".

أعتقد أنها تفقد عقلها. وأنا أيضاً أفقد عقلي.

أقـول: "انقلـي إليّ العدوى"، وأدس يدي عبر الثقب الكائن في الجدار.

تمسكها غوديا. تبكي قائلةً: "رام محمد توماس، لن أعيش طويلاً. سأنتحر بدلاً من أن أخضع لوالدي". يعوم وجهها عبر الثقب ويطوقني بعناقه.

أشـرع بالـبكاء: "لن أسمحَ لهذا أن يحدث". أقول لها. "إنه وعد أخ".

ينظـر إليَّ سـالم نظرةً قذرةً، كما لو أنني ارتكبتُ فعلاً إجرامياً بإعطـاء هـذا الوعد. لكنني بعيد عن الصواب والخطأ. أتلمس أصابع غـوديا، لحـم يـديها، وأعرف أن كلينا حيوانان تم قنصهما، كلينا شـريكان في الجريمة. كانت جريمتي أنني، غلام يتيم، تجرأتُ أن جعلتُ

مـــشاكل الناس الآخرين مشاكلي. لكن ما هي جريمة غوديا؟ ببساطة هي أنها ولدت بوصفها بنتاً وكان شانتارام والدها.

أحمـــل وعدي مساء اليوم التالي، حين يرجع شانتارام من العمل ويرتقـــي درجـــات الـــسلم المتداعية المؤدية إلى الطبقة الأولى. يمشي بخطـــوات بطيـــئة، مضطربة. حتى ملابسه تفوح منها رائحة الشراب الاسكتلندي. فيما كان يهم باجتياز ذلك الجزء من الدرابزين الذي لم يثبـــته بعـــد السيد راماشانكار، أهاجمه من الخلف. أضربه على ظهره بعنف، يرتطم بالدرابزين الخشبـــي. الدرابزين أصلاً ضعيف ومتمايل. لا يـــستطيع أن يتحمل وزنه. يتصدّع ويتشظّى. يفقد شانتارام توازنه وينقلب إلى الأرض في الأسفل.

في الأفـــلام الـــسينمائية، يـــروننا وغداً يهوي من سطح ناطحة ســـحاب ويـــبدو كما لو أنه يسبح في الهواء، يشبك ساقيه ويرفرف بذراعيه ويصرخ: "آ آ آ آ آ آ آ آ آ آ آ آ آ ه!" في الحياة الواقعية، لا يحـــدث الأمـــر بهذه الطريقة على الإطلاق. يهوي شانتارام كصخرة. ليـــست ثمـــة رفرفة يدين أو ساقين. يرتطم بالأرض وجهه إلى الأسفل ويرقد ممدداً، باسطاً ذراعيه ورجليه.

حين أرى جسد شانتارام الرخو على الأرض وقتئذ فقط أدرك ما فعلته. ومن ثم أتخيل العواقب الوخيمة لفعلتي.

يـــصل ضـــباط إلى موقع الجريمة في سيارة جيب ذات ضوء أحمر وامـــض ويـــرسمون مخططـــاً جميلاً، بارعاً بالطباشير. يأخذون الصور ويقولون، "هنا هوت الجثة". بعدها ينظرون إلى الأعلى ويشاهدونني في الطبقة الأولى. يشير إليّ ضابط الشرطة. "ذلك هو الغلام الذي دفعه إلى

الأسفل. ألقوا القبض عليه!" يأخذونني إلى السجن، حيث يجردونني من ثيابي ويضربونني. ثم يحضرونني إلى المحكمة، حيث يجلس قاضٍ ذو وجه صارم ورداء أسود، وفوق رأسه مروحة سقفية، ولافتة ذهبية مضمحلة يكسوها الغبار تشير كلماتها إلى: الحقيقة تسود دائماً، مثبتة على الجدار خلفه. ينظر إليّ القاضي نظرةً واحدةً ويعلن حكمه. "رام محمد توماس، أجدك مذنباً في ما يتعلق بالقتل المتعمد للسيد شانتارام. استناداً إلى المادة 302 من قانون العقوبات الهندي، ها أنذا أحكم عليك بالإعدام شنقاً حتى الموت".

"لا" أصرخ وأحاول الركض، إلا أن ساقيّ مصفدتان ورسغيّ مقيدان. أنا معصوب العينين ويقودونني إلى زنزانة الإعدام. يطوقون عنقي بأنشوطة، تُسحب عتلة ما. أصرخ ألماً فيما تتدلى ساقاي فجأةً في الهواء وينقطع النَفَس عن الرئتين. أفتح عينيَّ فأجد نفسي في الفردوس. لكن الفردوس تبدو شبيهة بالمبنى السكني وأتطلع إلى الأسفل، وأرى جثة شانتارام ترقد ممدةً على الأرض، الذراعان متباعدتان وكذلك الساقان. يتجمع الناس حولها الآن. يصيح أحدهم، "استدعوا الشرطة!".

لا أنتظر لحظةً أخرى. أندفع مذعوراً نازلاً درجات السلم وأبدأ بالركض. أركض ماراً بالبوابة وبكشك الحليب وبالمبنى ذي الطبقات المتعددة. أهرع إلى محطة القطار المحلية، وأستقل القطار السريع إلى محطة فيكتوريا الواقعة في نهاية الخط. أفتش كل رصيف من الأرصفة بحثاً عن قطار خاص. أجده في النهاية وأقفز إلى الداخل فيما هو يبدأ بالانسحاب.

غادرتُ مومباي، غادرتُ غوديا، غادرتُ سالم، وهربتُ إلى المدينة الأخرى الوحيدة التي أعرفها، دلهي.

خـــلال هذه القصة، تبقى سميتا صامتةً تماماً. يمكنني أن أرى الآن أنهـــا تأثرت بعمق. أكتشف أثراً من قطرة دمع في زاوية عينها. أغلب الظن، كونها امرأة، بوسعها أن تقيم علاقة منطقية مع عذاب غوديا.

ألتقط جهاز التحكم عن بعد. "دعينا نرى السؤال الثالث"، أقول وأضغط على زر تشغيل.

يـــستدير بريم كومار على كرسيه ويخاطبني قائلاً. "سيد توماس، لقـــد أجبتَ بصورة صحيحة عن سؤالين كي تربح ألفي روبية. الآن دعنا نرى ما إذا كنت تستطيع الإجابة عن السؤال الثالث بخمسة آلاف روبية. هل أنتَ جاهز؟".

أجيب: "جاهز".

"جيد. السؤال الثالث. هذا من حقل الـــ".

وقتذاك فقط ينطفئ ضوء الاستوديو المركزي، مُقحِماً بريم كومار وإياي في العتمة.

يقول بريم كومار: "أووبس! هيوستون، لدينا مشكلة".

يضحك الجمهور. لا أستوعب النكتة.

أسأل بريم كومار: "ماذا قلتَ؟".

"أوه، ذلك سطر شهير من فيلم **أبولو ثلاثة عشرة.** أنا متأكد من أنكَ لا تشاهد الأفلام الإنكليزية. أنتَ تستخدم هذا السطر حين تواجه فجـــأةً مـــشكلة كبيرة، ولدينا هنا مشكلة كبيرة. لا يمكن أن يتواصل البرنامج إلى أن نثبت ضوء الاستوديو".

فيما يبدأ التقنيون بفحص أسلاك ضوء الاستوديو، يصغي بريم كومار إلى صوت في سماعتي الرأس خاصته. بعدها ينحني إلى الأمام ويهمـــس في أذني، "جـــيد، يا غلام، دورك الذهبـــي استمر طيلة

السؤالين والآن يكاد ينتهي. السؤال التالي عسير جداً حقيقةً، خاصةً بالنسبة إلى نادل. أحب أن أساعدك كي تربح أكثر، إلا أن المخرج أبلغني تواً أنه يريد أن ينتقل إلى المتسابق التالي، بروفيسور الرياضيات. معذرةً، حظاً موفقاً!" يأخذ رشفةً من عصير الليمون المحلّى ويتمطق.

يتم الآن تثبيت ضوء الاستوديو. تتغير لافتة الاستوديو إلى *تصفيق*.

حينما يخفت التصفيق، ينظر إليّ بريم كومار. "سيد توماس، لقد أجبتَ بصورةٍ صحيحة عن سؤالين كي تربح ألفي روبية. الآن دعنا نرى ما إذا تستطيع الإجابة عن السؤال الثالث بخمسة آلاف روبية. هل أنتَ جاهز؟".

أجيب: "جاهز".

"جيد. سؤالنا التالي عن عالم علم الفضاء. قل لي، سيد توماس، هل تعرف كم عدد الكواكب السيارة في مجموعتنا الشمسية؟".

"ما هي الخيارات؟".

"ليس هذا هو السؤال، سيد توماس. أنا أسأل فقط ما إذا كنت تعرف عدد الكواكب السيارة في المجموعة الشمسية".

"كلا".

"كلا؟ أتمنى أن تعرف اسم الكوكب السيار الذي نحيا عليه".

يضحك الجمهور.

أجيب بحزن: "الأرض".

"جيد. أنت إذاً تعرف اسم الكوكب. جيد، هل أنتَ جاهز للسؤال الثالث؟".

أجيب: "جاهز".

"جيد. ها هو ذا السؤال الثالث: أي الكواكب السيارة في النظام الشمسي هو الأصغر؟ هل هو (أ) بلوتو، (ب) المريخ، (ج) نبتون أو (د) عطارد؟".

يفلت من بين شفتيّ صوت حتى قبل أن تبدأ الموسيقى، وهو "مياو!".

"عفواً؟" يقول بريم كومار بدهشة. "ماذا قلتَ؟ على مدى لحظة خيل إليّ أنني سمعتُ صوت مواء".

"ما قلته هو الجواب (أ)".

"(أ)؟".

"أجل. الجواب هو (أ). بلوتو".

"هل أنتَ متأكد، مائة بالمائة أن الجواب هو (أ)؟".

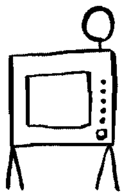
"أجل".

ثمة تصاعد تدريجي لقرع الطبول. يومض الجواب الصحيح.

"بالضبط، صحيح مائة بالمائة! بلوتو هو في الواقع أصغر الكواكب السيارة في مجموعتنا الشمسية. سيد توماس، لقد ربحتَ خمسة آلاف روبية!".

تركت معلوماتي العامة انطباعاً جيداً لدى الجمهور. يقف بعضهم ويصفقون بأيديهم.

لكن سميتا لا تزال صامتة.



10,000
فكرة للمعوقين

تبدو الشمس أضعف، الطيور أقل مرحاً، الجو أكثر تلوثاً، السماء أكثر دكنةً.

حين تُقتلعين من بيت جميل وفخم، ذي حديقة مضاءة بنور الشمس بصورة محببة إلى القلب، ويتم حشركِ في منزل منهار حيث تكونين مرغمةً على السكن في مهجع مزدحم مع دزينة من الأولاد الآخرين، أعتقد أنكِ تكتسبين وجهة نظر مصابة باليرقان عن الحياة[1].

لا ينفع إذا كنتِ مصابةً فعلاً باليرقان. اليرقان مرض غير مريح إلى حدٍّ ما، لكنه ذو نتيجة واحدة جيدة جداً. إذ يتم نقلكِ من المهجع فاسد الهواء وتوضعين وحدكِ في حجرة منعزلة. إنها حجرة واسعة ذات سرير معدني وستائر خضراء. تُسمى ردهة العزل.

بقيتُ طريح الفراش على مدى الأسبوعين المنصرمين. إنما يبدو لي أنني كنتُ عليلاً منذ أن التقطوني من دار العبادة بعد وفاة الأب تيموثي. لم يأتوا إليَّ في سيارة جيب ذات ضوء أحمر وامض. أقبلوا في شاحنة مقفلة زرقاء اللون ذات نوافذ مشبكة بالسلك. كالنوع الذي

(1) في النص jaundiced view of life: وتعني نظرة مشمئزة عن الحياة – م.

يستخدمونه لمهاجمة الكلاب الضالة. أما هذه فكانت مخصصة لمهاجمة الصبيان الضالين. لو كنتُ أصغر سناً فربما كانوا سيرسلونني إلى ملجأ للتبني وعلى الفور يعرضونني للبيع. لكن بما أنني كنتُ في الثامنة، أرسلوني إلى ملجأ أحداث دلهي للصبيان، عند البوابة التركمانية.

يتسع ملجأ الأحداث لخمسة وسبعين، فيما يبلغ عدد الأحداث مائة وخمسين. الملجأ ضيق، كثير الضوضاء وقذر. له دورتا مياه فقط ذات أحواض غسل تتسرب منها المياه ومراحيض قذرة. تعدو الجرذان عبر أروقته ومطبخه. له حجرة صف ذات مقاعد دراسية متداعية ولوح متشقق. ومعلمون لم يمارسوا مهنة التعليم على مدى سنوات طويلة. له ملعب مخصص للألعاب الرياضية حيث تنمو الحشائش بعلو عصي الكريكيت وحيث، إذا لم تكن حذراً، يمكنك أن تكشط نفسك على الأحجار التي بحجم كرات القدم. كان هنالك معلم للألعاب الرياضية بقميص بيضاء قطنية متغضنة وسروال مكوي بعناية حتى بدت كسراته أشبه بحافة السكين. يحفظ أجهزة لعبتي الكريكيت ومضرب الريشة في صندوق زجاجي جميل، إنما لا يسمح لنا أن نمسه. ردهة الطعام هي حجرة كبيرة ذات أرضية رخيصة ومناضد خشب طويلة. غير أن رئيس الطهاة الفظ يبيع اللحم والدجاج وكان يعني لنا ذلك أنه يخصصهما للمطاعم، ويطعمنا زاداً يومياً يتألف من خضار مدمسة وأرغفة خبز سميكة، مسوّدة. ينتف شعيرات أنفه باستمرار، ويوبخ كل من يطلب المزيد من الطعام. الناظر، السيد أغنيهورتي، رجل مسن، عطوف يرتدي منامة كورتا من قماش قطني مغزول ومُحاك باليد، لكننا جميعاً نعرف أن السلطة الحقيقية يستخدمها وكيله، السيد جوبتا، الملقب بمروِّع البوابة التركمانية. كان أسوأ الجميع، رجلاً قصير القامة، كثيف الشعر تفوح منه رائحة الجلد ويمضغ البآن طيلة ساعات النهار. يضع

سلسلتين سميكتين من الذهب حول رقبته تطلقان أصواتاً متنافرة كلما مـــشى، ويحمل خيزرانة بامبو قصيرة يضربنا بها بشدة كلما يرغب في ذلـــك. ثمة شائعات تفيد أنه يدعو الغلمان إلى حجرته ليلاً، إنما لا أحد يـــناقش هذا الأمر. نريد أن نتكلم عن الأشياء الجيدة. مثل السماح لنا بمـــشاهدة الـــبرامج التلفازية في الحجرة المشتركة ساعتين كل مساء. نحتـــشد حـــول جهاز التلفاز ماركة ديانورا ذي واحد وعشرين إنشاً ونـــشاهد أغاني الأفلام الهندية على القناة الخامسة وقطع صابون الطبقة الوسطى في دوردارشان. كنا نحب بصورة خاصة مشاهدة الأفلام يوم الأحد.

هذه الأفلام تدور حول عالم الفانتازيا. عالم فيه أولاد لهم أمهات وآبـــاء، وذكـــرى ميلاد. عالم يسكنون فيه في بيوت واسعة، يقودون سيارات ضخمة وينالون هدايا فاخرة. شاهدنا عالم الفانتازيا إلا أنه لم يجـــرفنا أبداً. كنا نعرف أنه ليس في وسعنا أن نعيش حياةً شبيهةً بحياة أميـــتاب باجاجـــان أو شاهروخ خان. أكثر ما كنا نطمح إليه هو أن نـــصبح من أولئك الذين يملكون السلطة علينا. لذا كلما يسأل المعلم أحـــدنا: "مـــاذا تريد أن تصبح حين تكبر؟" ما من أحد قال طياراً أو رئيس وزراء أو صاحب مصرف أو ممثلاً. كنا نقول طاهياً أو منظفاً أو معلم رياضة أو، في أفضل الأحوال، ناظر مدرسة. ملجأ الأحداث صغّر شأننا في عيوننا.

تعـــرفت على أولاد كثيرين في الملجأ بصورة حميمة جداً. بعضهم أصغر مني سناً، وغالبيتهم يكبرونني سناً. التقيتُ مونا، وكالو، وبياري، وبـــاوان، وجاشـــيم، وإيـــرفان. كان إرسالي إلى ملجأ الأحداث من منـــزل الأب تيموثي بالنسبة إليّ أشبه بالانتقال من النعيم إلى الجحيم. لكنني حين التقيتُ بالصبيان الآخرين عندئذ فقط أدركتُ أن هذا كان

بالنسبة إلى كثير منهم نعيمهم. أقبلوا من الأحياء الفقيرة في دلهي وبيهار ومن مدن الأكواخ في أوتار براديش وحتى من أمكنة بعيدة كالنيبال. سمعتُ قصصهم عن الآباء مدمني المخدرات والأمهات الساقطات. شاهدتُ ندوهم الناجمة عن الضرب على أيدي الأعمام الطماعين والعمات المستبدات. عرفتُ بوجود العمال المرهونين والمعاملة السيئة في نطاق الأسرة. وصرتُ أخشى الشرطة. كانوا مسؤولين عن إرسال معظم الأولاد إلى ملجأ الأحداث. يتم ضبط الأولاد وهم يسرقون الخبز من كشك على جانب الطريق أو ينادون على تذاكر السوق السوداء في مسرح ما، وهم غير قادرين على دفع الرُشى لموظفي الأمن. أو، في الغالب، تُلفق ضدهم التهم ببساطة لأن ضابط الشرطة لا يحب وجوههم.

كان كثير من هؤلاء الأولاد *عائدين*، وهي كلمة تعني أنهم عادوا إلى ملجأ الأيتام حتى بعد أن تولى رعايتهم شخص ما من هيئة إنعاش الأحداث. رجع مونا بعد أن أساءت معاملته زوجة أبيه. أما جاشيم فقد طارده شقيقه الفظ. ورجع باوان لأن قريبه الذي أُعيد إليه جعله يعمل في موتيل[1] سيئ السمعة، وقبض عليه رجال الشرطة. بالرغم من هذه التجارب، ثمة أولاد كثيرون لا يزالون يتوقون توقاً شديداً إلى أن تتم استعادتهم، وهم مستعدون لاستبدال جحيم معروف بآخر مجهول.

أصبحتُ قائدهم، حتى من دون أن أسعى إلى ذلك. ليس لأنني أكثر عدوانيةً، بل لأنني كنتُ أتكلم الإنكليزية. كنتُ الغلام اليتيم الذي في وسعه أن يتكلم اللغة العجيبة ويقرأها، وأن تأثيرها على الموظفين كان مُكهرِباً. رئيس المراقبين يسألني بين الحين والآخر كيف هي صحتي. كان معلم الرياضة يسمح لي أن أعدَّ ساحة كريكيت في الفناء الأمامي، حيث نلعب أربع أو خمس مباريات جديرة بالاحترام

(1) موتيل motel: فندق على الطريق العام يبيت فيه الرحالون ليلتهم – م.

قبل أن يكسر مونا نافذة الناظر، وتُمنع كل أنواع الألعاب الرياضية منعاً باتاً. كان الطاهي الصارم يتفضّل عليَّ أحياناً بحصة ثانية من الطعام. السيد جوبتا لم يدعوني إلى غرفته ليلاً. ويضعني الطبيب حالاً في حجرة العزل من دون تأخير معهود، وهكذا يمنعني من نقل العدوى إلى كل الساكنين في المهجع.

كنتُ أتمتع ببقائي الحصري في ردهة العزل مدةً تزيد على أسبوعين حين تم نقل سرير آخر إلى الغرفة. قيل لي، وصل غلام جديد، في حالة صحية سيئة جداً. جيء به على نقالة بعد الظهر، مرتدياً صدرة برتقالية ممزقة، وسروالاً قصيراً ملطخاً وبالياً، وواضعاً تابيزاً أصفر حول عنقه. وكان ذاك أول لقاء لي مع سالم إلياسي.

كان سالم يملك كل الأشياء التي ليست لدي. كانت له بشرة قمحية ووجه بريء. له شعر أسود مجعد وحين يبتسم تظهر له غمازتان في خديه. مع أن عمره لم يكن سوى سبع سنوات، كان له عقل قوي، مستفهِم. يروي لي قصته بجمل قصيرة، متلعثمة.

ينحدر من أسرة فقيرة جداً، اعتادت الإقامة في قرية بيهار. كان أغلب سكان القرية من الفلاحين الفقراء، إنما كان هنالك أيضاً عدد قليل من مالكي الأراضي الأثرياء. كان معظمهم من الهندوس، إنما كانت هنالك عائلتان مسلمتان أيضاً، على غرار عائلة سالم. كان والده عاملاً، وأمه سيدة منزل، عمل أخوه الأكبر في كشك لبيع الشاي. التحق سالم بمدرسة القرية. كانوا يقيمون في كوخ مسقف بالقش على حافة مجمع مالك الأرض الزامندار.

جرت الأسبوع الماضي، في شهر كانون الثاني البارد والصقيعي، حادثة في قرية معبد هانيومان. اقتحم المعبد، وادعى قس المعبد أنه شاهد

بعض الشبان المسلمين يختبئون قرب الأرض المخصصة للمعبد. ويا للهول! لحظةَ سمع الهندوس هذا ثارت ثائرتهم. مسلحين بالمديات الضخمة، والمعاول، والعصي، والمشاعل أغاروا على منازل كل العوائل المسلمة. كان سالم يلعب خارج الكوخ، وكان والده، والدته وأخوه يحتسون الشاي في الداخل حين هاجمهم الغوغاء. أمام عينيه، أشعلوا النار في الكوخ. سمع عويل أمه، صرخات أبيه، بكاء أخيه، إلا أن الغوغاء لم يسمحوا لأي فرد بالهرب. أفراد أسرته كلهم احترقوا حتى الموت. فرَّ سالم إلى محطة سكة الحديد وقفز داخل أول قطار رآه. أخذه القطار إلى دلهي من دون طعام، من دون ملابس وما من وجه واحد أليف. رقد على الرصيف يومين كاملين، عانى البرد والجوع، أُصيب بهذيان الحمى، وهيمن الحزن على روحه، قبل أن يكتشفه موظف أمن ويرسله إلى ملجأ الأحداث.

يقول سالم إن الكوابيس لا تنفك تهجم عليه ليلاً. يسمع أصوات الغوغاء. صرخات أمه لا يزال صداها يتردد في أذنه. يرتعد خوفاً حين يتصوّر أخاه يتلوى في ألسنة اللهب. يقول إنه بدأ يكره كل الهندوس ويخافهم. يسألني عن اسمي. أخبره: "محمد".

بمرور الوقت، صرت وسالم، صديقين حميمين جداً. نملك أشياءً كثيرةً مشتركةً. كلانا يتيمان، لا أمل لنا في أن يستعيدنا أحد من أقاربنا. كل منا يحب أن يلعب بكرات الرخام أو الزجاج. وكل منا يحب مشاهدة أفلام السينما. أستخدم تأثيري كي أجعل سريره إلى جانب سريري حين نعود إلى المهجع.

في الهزيع الأخير من إحدى الليالي استدعي سالم إلى حجرة السيد جوبتا. الأخير أرمل يقيم وحيداً على أرض المجمع. قَلِقَ سالم. يسألني: "لماذا يستدعيني؟".

أجيبه: "لا أدري. لم أدخل غرفته يوماً. لكننا نستطيع أن نكتشف اليوم".

لـــذا يـــسير سالم إلى حجرة السيد جوبتا وأنا أمشي وراءه على رؤوس أصابعي.

يجلـــس جوبـــتا في حجرته مرتدياً منامة كورتا مجعدة حين يقرع ســـالم الباب. "تعالَ... تعالَ، سالم"، يقول بصوتٍ غير واضح. بيده كـــوب مليء بسائل ذهبـــي. يقلبه في جوفه ويمسح فمه. تبدو عيناه أشـــبه بـــزرين كـــبيرين. كنتُ أراقب ما يجري من الحيز الصغير بين الـــستارتين في المدخل. يصفع وجه سالم، تاركاً آثار أصابعه على أنف سالم العظمي وعلى شفتيه الرفيعتين. بعدها بصورة مفاجئة يأمره قائلاً: "اخلع سروالك الداخلي".

اضطرب سالم لدى سماعه هذا الطلب.

"افعـــل ما أقول، يا ابن الساقطة، وإلا سأصفعكَ صفعةً شديدة"، يزمجر جوبتا.

يذعن سالم. يدفع سرواله الداخلي إلى الأسفل بتردد. أشيح عينيّ.

يقترب جوبتا من سالم من الخلف، سلسلتاه الذهبيتان تصدران صوتاً غـــير مستساغ. "جيد" يتمتم. أراه يحل حبل منامته، وينـــزل سروالها إلى الأســـفل. يمكـــنني أن أرى ظهـــره كثيف الشعر. لم يفهم سالم بعد ماذا يجري، إلا أن ضباباً شرع يتصاعد من دماغي. بجلاء مرعب أدرك فجأةً ما جرى في حجرة الأب تيموثي تلك الليلة. وما تبع ذلك في اليوم التالي.

أُطلـــق صرخةً حادةً تحطم سكون الليل كالطلقة. صرختي توقظ الأولاد النائمين بسلام في المهاجع؛ توقظ الطاهي الذي يغط في نومه في المطبخ؛ توقظ الناظر في حجرة نومه؛ لا بل توقظ حتى الكلاب الضالة، فتبدأ بالنباح بسُعر.

لا يـــدري جوبـــتا ما الذي أصابه. بسرعة يرفع سروال منامته ويحـــاول أن يطرد سالم بعيداً. إلا أن الطاهي، والناظر، والحراس كانوا في طريقهم إلى حجرة جوبتا. يكتشفون سره القذر تلك الليلة، مع أنهم لم يفعلـــوا شـــيئاً حـــياله. لكـــن جوبتا يكتشفني كذلك مختبئاً وراء الـــستارتين. مـــنذ ذلك الوقت يغدو عدوي اللدود. تعرّض سالم لهزة عنـــيفة، إنمـــا لم يلحقه أذى. تخلى عن عدائه للهندوس الذي دام زمناً طـــويلاً. إلا أن خوفاً من الإيذاء الجسدي ظل مطموراً في أغوار روحه على مدى السنوات المتبقية من حياته.

إنـــه يوم ربيعي جميل. ويبدو حتى أكثر جمالاً لأننا خارج حدود ملجـــأ الأيـــتام. أخذونا كلنا في رحلة نهارية نظمتها إحدى المنظمات العالمية غير الحكومية. تجولنا في حافلة مكيفة في كل أنحاء دلهي. نتناول غـــداءنا في حديقـــة الحيوان ونشاهد الحيوانات. لأول مرة نرى فرس النهـــر، والكناغر، والزرافات، والكسلان ضخم البدن. نرى البجعات والبشروسات والبلاتبوس ذات المنقار الشبيه بمنقار البطة. ثم أخذونا إلى مـــنارة القطـــب، أعلى برج في الهند. ضاحكين ومتدافعين بالمناكب، نرتقـــي درجـــات السلم، ونحدق إلى الخارج من شرفة الطبقة الأولى. النساء والرجال على الأرض يبدون أشبه بالنمل. نصيح "هووووووو"، ونرهف السمع للصوت وهو يتلاشى قبل أن يصل الأرض. في النهاية، أخذونا إلى بوابة الهند كي نرى كرنفالاً ضخماً. أعطوا كل واحد منا عـــشر روبيات كي ننفقها على أي شيء يفتن ألبابنا. أريد أن أركب العجلـــة العملاقـــة، إلا أن سالم يتشبث بكمي، ويسحبني إلى كشك آخـــر. يشير الكشك إلى *الأستاذ راماشانكار شاستري. قارئ الكف المشهور عالمياً. فقط عشر روبيات للقراءة الواحدة.* يجلس رجل عجوز

في داخـــل الكـــشك، يرتدي الزي التقليدي دهوتي كورتا. له شارب أبـــيض وعلامة قرمزية على جبينه، ومعه عدسات مكبرة سميكة. تبرز choti سوداء من الجزء الخلفي من رأسه.

يقول سالم: "أريد أن تقرأ كفي. إنها عشر روبيات لا غير".

أقـــول له: "لا تكن سخيفاً. هؤلاء الأشخاص مخادعون ويبتزون الـــناس. إنهم لا يستطيعون معرفة مستقبلك، وعلى كل حال، لا يوجد الكثير في مستقبلنا مما يستحق معرفته".

يصر سالم قائلاً: "أريد أن يقرأ كفي بالرغم من ذلك".

أستـــسلم قائلاً: "رائع. انطلق، لكنني لن أنفق روبياتي العشر على هذا الغائط".

يدفـــع سالم المال وبلهفة يمد يده اليسرى. يهز المعلم رأسه. "لا، ليس اليد اليسرى. هذه للبنات. الصبيان يجب أن تُقرأ كُفُّهم اليمنى".

بـــسرعة يمـــد سالم كفه اليمنى. يحدق فيها قارئ الكف بعدسة مكبرة، ويحلل الخطوط المخربشة كما لو كانت خارطة كنـــز مدفون تحـــت الأرض. في النهاية يخفض العدسة المكبرة ويطلق تنهيدة ارتياح. "لـــديك يـــد معتبرة، يا ولدي. لم أرَ خط مصير أفضل. أرى مستقبلاً زاهراً جداً لك".

"حقيقةً؟" يبتهج سالم. "ماذا سأصبح؟".

مـــن الواضح أن السيد شاستري لم يفكر في ذلك. يغمض عينيه على مدى عشر ثوان، ومن ثم يفتحهما. "لكَ وجه جميل. ستصبح ممثلاً مشهوراً جداً"، يعلن قائلاً.

"على غرار أرمآن علي"، يصرخ سالم صرخةً حادةً.

"بـــل حتى أشهر منه"، يقول المعلم. يلتفت إليّ. "هل تريد أنت أيضاً أن أقرأ لك كفك. إنها بعشر روبيات لا غير".

"لا، شكراً"، أقول وأبدأ بالتحرك مبتعداً، إلا أن سالم يسد طريقي.

"لا، محمد، يجدر بكَ أن تقرأ كفك. من أجلي أرجوك".

بنظرة مستسلمة، أدفع روبياتي العشر، وأمد كفي اليمنى.

يعبس المعلم بوجهي فيما هو يثبت عدستيه السميكتين ويتفحص راحتي. يحدق إليها على مدى أكثر من خمس دقائق. يدوّن بعض الملاحظات، يجري بعض الحسابات.

يسأل سالم، مذعوراً: "ما الخطب؟".

يقطب قارئ الكف وجهه بصورة طفيفة ويهز رأسه. "خط الرأس قوي، إلا أن خط القلب ضعيف. والأهم، خط الحياة قصير. النجوم لا تبدو صحيحة. اصطفاف الكواكب السيارة منحوس. جبل المشتري جيد، إلا أن جبل زحل يلغيه. هنالك عقبات ومآزق لا يسهل إدراكها. يمكنني أن أفعل شيئاً كي أسهل طريقك، لكن ذلك سيكلفك".

"كم يكلفني؟".

"نحو مائتي روبية. لماذا لا تطلب من والدك؟ أليس هو الرجل الذي يملك حافلةً كبيرةً؟".

أقهقه. "ها! يا معلمي، قبل أن تلفق هذه القصة المتعلقة بمستقبلي، عليك أولاً أن تتحقق من نكون نحن. نحن لسنا غلامين ثريين. نحن يتيمان من ملجأ أحداث دلهي عند البوابة التركمانية وهذه الحافلة حتى لا تعود إلينا. مع ذلك، لقد خدعتنا فتخلينا عن عشرين روبية". أجرُّ سالم. "تعالَ، لنذهب. لقد أضعنا وقتاً كافياً هنا".

بينما كنا نمشي مبتعدين، يناديني قارئ الكف. "اسمع! أود أن أعطيك شيئاً ما".

أعود إلى الكشك. يعطيني المعلم قطعة نقد من فئة روبية واحدة.

"ما هذه، يا معلمي؟".

"إنها قطعة نقد جالبة للحظ الحسن. احتفظ بها. ستحتاج إليها".

أمسكُ بها في قبضتي.

يـــريد سالم آيس كريم، لكننا لا نملك سوى روبية واحدة وبها لا نـــستطيع أن نـــشتري أي شـــيء. نشاهد الأولاد الآخرين يتمتعون بـــركوباتهم. أرمي قطعة النقد من دون هدف ما فتنـــزلق بين أصابعي وتتدحـــرج تحت مصطبة ما. أنحني كي ألتقطها. جاءت على وجهها. تـــرقد بجانبها ورقة مالية من فئة العشر روبيات، أسقطها شخص ما. اشتريت وسالم الآيس كريم. أدس قطعة النقد بحذر في جيبـــي. إنها في الحقيقة تعويذتي الجالبة للحظ السعيد.

ســـالم حزين فقد تبين أن مستقبلي ليس زاهراً كمستقبله، لكنه أيـــضاً مسرور جداً لأنه سيصبح نجماً سينمائياً. أمامنا لوحة إعلانات ضخمة لفيلم جديد. بألوان مثيرة، تُظهر لنا البطل يحمل مسدساً بيديه، الـــدم على صدره وحول رأسه منديل أسود كبير مزدان بالرسوم؛ كما تظهر نذلاً ترتسم على وجهه ابتسامة عريضة مشوّهة. يتطلع سالم إلى اللوحة، مشلولاً.

أسأله: "سالم، ما هذا الذي تنظر إليه؟".

يـــرد قائلاً: "أحاول أن أرى ما إذا كانت عصّابة الرأس السوداء تناسبني".

نجلـــس في حجـــرة الصف، إلا أن السيد جوشي، معلمنا البدين المتخـــصص بالتجـــشؤ ونتف شعيرات أنفه، لا يعطينا درساً. إنه يقرأ رواية، مخفية بعناية داخل الكتاب المنهجي الذي يحمله بين يديه. نمضي الـــوقت بـــصنع الطائرات الورقية، نحفر أشكالاً على المقاعد الدراسية الخـــشبية وننام نوماً خفيفاً. بغتةً، مونا الذي أُعطيت له التعليمات كي

يـــراقب المجـــاز، يدخل الصف راكضاً: "أستاذ، أستاذ"، يقول لاهثاً، "السيد الناظر آت".

يطلـــق السيِّد جوشي تجشؤاً عالياً وبسرعة يطرح روايته. يفرقع بأصـــابعه ويقف. "جيد، أيها الأولاد، إذاً ماذا كنا نناقش؟ نعم. أنتم جميعاً كنتم تقولون لي ماذا تحبون أن تصبحوا حين تكبرون. من الذين يريد أن يخبرني الآن؟".

يرفع سالم يده. كانت تلك أول مرة يفعل ذلك.

"نعم، سالم، ماذا تريد أن تصبح؟".

"سأصبح ممثلاً مشهوراً، أستاذ. أخبرني قارئ كف ذلك"، يقول بانتصار.

يضج الصف بالقهقهات العالية.

هـــنالك روايتان تتعلقان بموضوع من هو الرجل الضخم. يقول بعـــضهم إنه تاجر ألماس ثري جداً لا أحفاد له. لذا كان يأتي بين حين وآخر إلى ملجأ الأحداث كي يتبنى الأطفال، الذين يتم أخذهم بعدئذ إلى منـــــزله الفخم في مومباي. يقول آخرون إنه يملك حقيقةً مدرسة في مومـــباي، يأخـــذ إليها الأولاد الذين يجدهم واعدين لنيل تدريب مناسب. في كلتا الحالتين، ثمة شيء واحد واضح. إذا اختارك سيثجي، فإن حياتك تكون قد صُنعت.

لا يبالي سالم ما إذا كان سيثجي تاجر ألماس أم مالك مدرسة. إنه في الدرجـــة الأولى مهـــتم بالحقيقة التي مفادها أن الرجل الضخم من مومـــباي؛ مركز صناعة السينما. إنه مقتنع أن سيثجي أتى كي ينتزعه من هذا المكان، ويأخذه إلى عالم بوليوود البهي. فهذا العالم هو قدره. سيتحقق توقع قارئ الكف.

كــنا جميعاً نصطف في ردهة الطعام كي نخضع للتفتيش من قبل سـيثجي. استحم سالم. في الحقيقة، استحم ثلاث مرات، دعك نفسه المرة تلو المرة كي يزيل كل أثر من آثار القذارة. ارتدى أفضل ملابسه. سـرّح شعره بطريقة جميلة. هو أكثر الغلمان وسامةً في الملجأ. لكنني أقلق بشأن يأسه. إذا لم يتم اختياره، سيتحطم.

أخـيراً، وصل سيثجي، يرافقه رجلان. هو لا يشبه تاجر ألماس. يبدو أشبه بعضو عصابة لكننا وقتذاك لم نكن قد رأينا تجار ألماس. ربما هم يشبهون أعضاء العصابات. ذو بشرة داكنة جداً وله شارب أسود ثخـين أشـبه بـشارب عضو عصابة اللصوص فيرابان. يرتدي بذلة باندغالا بيضاء. تتدلى من عنقه، سلسلة ذهبية طويلة وسميكة، حتى زره الـثاني. أصابعه محمّلة بخواتم ذات أحجار كريمة مختلفة الألوان. بعضها أحمـر، بعـضها أخضر، بعضها أزرق. الرجلان التابعان معه يشبهان بالـضبط الـتابعين الأمـناء. في ما بعد عرفت أنهما يدعيان مصطفى وبـنووز. جوبتا معهم أيضاً، كي يرشدهم. سلسلتاه الذهبيتان تبدوان متواضعتين مقارنة بسلسلة سيثجي.

يخبره جوبتا قائلاً: "سيثجي، يبدو أنكَ نسيتنا، فأنتَ تأتي إلينا بعد وقت طويل جداً. وصل إلينا أولاد جدد كثيرون منذ زيارتك الأخيرة. أنا متأكد أنك ستجد كثيراً ممن تميل إليهم".

يبدأ التفتيش. رسمنا كلنا أفضل البسمات على وجوهنا. يتفحص سيثجي كل غلام، يثمنه من الرأس إلى إصبع القدم. لا أدري ما الذي يبحث عنه، لأنه لم يطرح علينا أي سؤال، إنه ينظر إلى وجوهنا فقط. يكمـل جولةً واحدةً من التفتيش. إنه حتى لم يُلقِ عليّ نظرةً مجدداً. ثم يفتش الصف مرةً أخرى. حين يصل إلى سالم يتوقف.

"ما اسمك؟" يسأل بلهجة هندية جنوبية ثقيلة.

"س... سالم إلياسي"، يتلعثم سالم بتأثر.

يسأل سيثجي جوبتا: "متى وصل؟".

"قبل أحد عشر شهراً تقريباً، من جهابرا في بيهار".

"كم عمره؟".

"ثمانية أعوام".

"هل لديه أحد؟".

"لا، سيثجي. مات أفراد أسرته كلهم في اضطراب طائفي".

يقول سيثجي: "يا له من أمر محزن! لكنه بالضبط نوع الغلام الذي أحتاج إليه. هل يمكنك أن تفرز لي العمل الورقي".

"عليك أن تخبرني فقط، سيثجي. كل من تريده من الأولاد سنعيده إليك في غفلة من الزمن. في ما يتعلق بهذا الصبي، سنري مصطفى بوصفه العم، هيئة الإنعاش لن تحدث أي مشاكل. الواقع، أنهم يريدون أن يتخلصوا من أكبر عدد من الصبيان".

"رائع. في ما يتعلق بهذه الزيارة، لنستقر على هذا الغلام فقط".

يتطلع جوبتا إلى سالم، ومن ثم يتطلع إليّ، كوني أقف إلى جانب سالم. "ماذا بشأنه؟" يشير إليّ.

يتطلع سيثجي في وجهي مباشرة، ويهز رأسه. "إنه كبير جداً".

"لا، سيثجي، إنه في العاشرة ليس إلا. اسمه توماس، يتكلم الإنكليزية الصحيحة".

"لا فرق بالنسبة إليّ. لا أحتاج إليه. أريد الصبي الآخر".

"إنهما على صداقة حميمة، هذان الاثنان. إن أخذت سالماً، فعليك أن تأخذ توماس كذلك".

ينزعج سيثجي. "قلتُ لكَ، جوبتا، إنني لا أريد أي توماس ووماس. إنني سآخذ فقط صبياً واحداً وهو سالم".

"معذرةً، سيثجي، لكنني أصر. إذا أردت أن تأخذ سالماً، فيجب عليك أن تأخذ توماس. إنها صفقة كاملة".

"صفقة كاملة؟".

"نعـــم. اشــــتري واحـــداً، تأخذ واحداً مجاناً. لن أتقاضى ثمناً على توماس". يبتسم جوبتا ابتسامةً عريضةً، كاشفاً عن أسنانه المصبوغة بالبآن.

يتشاور سيثجي مع تابعيه الأمينين.

يقـــول لجوبـــتا: "جيد. جهز أوراق الاثنين. سنأتي لأخذهما يوم الاثنين".

يندفع سالم بين ذراعيّ. إنه في ذروة السعادة. في السماء السابعة. تلـــك اللـــيلة، لم يغمض له جفن من جراء الفرح الخالص. كانت له أحــــلام سليولويدية شفافة عن الحياة في مومباي. عن غروب الشمس الذهبـــــي علـــى الطريق البحري، مارين درايف مع أميتاب والفجر الوردي في جاوباتي مع شاهروخ. أنا أيضاً لم يغمض لي جفن. أتقلب علـــى فراشي يميناً ويساراً. لكنني لم أحلم بنجوم السينما ولا وبغيرهم. أحلم أنني بائع متجول على الرصيف، أبيع الفاكهة، أن رجلاً ذا بشرة داكنة ينحني ليشتري بعض ثمار المانغا مني. أرى سلسلته الذهبية تتدلى. يدفـــع إليّ بعض الفكة. أضع ثمرة مانغا جميلة كثيرة العصارة في كيسه، ومن ثم أدس بهدوء موزةً متعفنةً مجاناً.

رحلـــة القطار إلى مومباي هادئة. أسافر وسالم في مقصورة النوم مـــن الدرجـــة الثانية مع التابعين الأمينين مصطفى وبنووز. قيل لنا إن سيثجي ذهب قبلنا في طائرة. كان مصطفى وبنووز يضعان لونجيين[1]

(1) لونجيـــيان lungis: مثنى لونجي وهو رداء يُوضع حول الخصر في الهند، وفي المناطق الحارة والرطبة، يسمى بالعامية العراقية (وزرة) – م.

ويدخنان بيديين[1] وينامان معظم الوقت. يخبرانا شيئاً قليلاً جداً عن سيثجي. يقولان إن اسمه الحقيقي هو بابو بيلاي، إلا أن الجميع يسمونه مامان، التي تعني عم في لغة مالايالام. كان ينحدر في الأصل من كولام في كيرلا، لكنه استقر في مومباي على مدى زمن طويل. إنه رجل عطوف جداً، يدير مدرسة للصبيان المعوقين، ويساعدهم على إعادة بناء حياتهم. يعتقد مامان أن الأطفال المعوقين محظوظون. إنه (أي سيثجي) ينقذ الأطفال من ملاجئ الأحداث، التي يعتقد أنها ليست سوى معتقلات تحمل اسماً آخر. لو لم ينقذنا مامان، لكانت الحال قد انتهت بنا إلى تنظيف حواجز الريح في السيارات عند إشارات المرور أو إلى كنس الأرضيات في المنازل الخاصة. سيعلموننا الآن مهارات مفيدة ويهيئوننا للنجاح. مصطفى وبنووز بائعان ممتازان. في نهاية الرحلة، حتى أنا كنتُ مقتنعاً أن التقاطي من قبل مامان هو أفضل شيء جرى لي حتى الآن وأن حياتي ستتحول الآن.

من آن إلى آخر، يمر القطار عبر مستعمرات فقيرة، تغطي حافات مسالك القطار كشريطٍ من القذارة. نرى أطفالاً أنصاف عراة ببطون منتفخة يلوّحون لنا، فيما تغسل أمهاتهم الأواني في ماء البالوعة. نرد على تلويحهم.

تربكنا مشاهد مومباي وأصواتها. تبدو محطة بوابة دار العبادة مثلما ظهرت بالضبط في فيلم **حب في مومباي**. سالم نصف متوقع أن يرتطم بغوفيندا وهو ينشد أغنيةً قرب دار العبادة. يشير مصطفى إلى الساحل الذي يقع عند الطريق البحري. أنا مفتون برؤيتي للمحيط

(1) بيديان bedis: مثنى بيدي، وهي سيجارة هندية رفيعة ذات نكهة، مصنوعة من التبغ الملفوف بورقة tendu، محكمة بواسطة خيط ملون في النهاية – م.

لأول مـــرة، حيث الأمواج العملاقة تتحطم وتلتطم بالصخور. لا يرى ســـالم المحـــيط المهيب. إنه ينظر إلى الأكشاك التي تبيع قناني المرطبات والوجـــبات الخفيفة. "في ذلك المكان تناول غوفيندا ورافينا طبق بهيل بيوري"[1]، يشير بتأثر. نمر بدرجة حاجي علي[2]. يرفع سالم يديه إلى الله حـــين يرى الضريح، بالضبط كما رأى أميتاب باجاجان يفعل في فـــيلم **كـــولي**[3]. نجتاز أحياء وورلي، دادار وماهيم. مصطفى وبنووز يلفتان أنظارنا إلى معالم رئيسة. في حصن ماهيم، يومئ سالم إلى سائق تاكسي كي يتوقف.

يسأل مصطفى: "ما الخطب؟".

"لا شـــيء. كـــنت أريـــد فقط أن أرى المكان الذي يفرّغ فيه المهربون وديعتهم كما في فيلم **مافيا**!".

بينما كنا نقترب من باندرا، جوهو، وأندهيري المنقطة بالمساكن المـــتألقة لنجوم السينما، ذات الأسيجة العالية وفصائل الحرس بالبذلات النظامية، يصبح سالم ثملاً. عبر نوافذ التاكسي المطلية، نفغر فاهينا لدى رؤيـــة البـــناغل[4] الممتدة في غير اتساق وبلوكات الشقق عالية المنشأ

---

(1) بهـــيل بيوري bhel puri: طبق من الأرز المنفوخ مع البطاطا وأرز التمر الهـــندي ذو النكهة المميزة، وهو من الأطباق الصغيرة لذيذة المذاق، يؤكل في سواحل مومباي وخاصة في جاوباتي – م.

(2) درجـــة حاجـــي علي Haji Ali's dargah: جامع وضريح يقع في جزيرة صغيرة بعيدة عن ساحل (وورلي)، في الجزء الجنوبـــي من مومباي – م.

(3) كولـــي coolie: اسم تاريخي يطلق على العمال اليدويين من آسيا. أما حالياً فيطلق كوصمة عار على الناس الذين ينحدرون من آسيا، خاصة من الهند، وأواســـط آســـيا إلخ. أُنتج فيلم كولي سنة 1983، ونال شهرة واسعة بسبب إصابة باجاجان في أمعائه في أثناء تمثيل مشهد قتال – م.

(4) البـــناغل bungalows: جمع بنغل، وهو بيت من طبقة واحدة (وبخاصة في الريف أو على شاطئ البحر) – م.

كالقرويين في أول رحلة لهم إلى المدينة. كما لو أننا نشاهد مومباي عبر عدسة ملوّنة. تبدو الشمس أكثر سطوعاً، يلوح الجو أكثر برودةً، يبدو الناس أكثر ازدهاراً، المدينة تنبض بالسعادة الناجمة عن تقاسمها المكان مع أبرز نجوم بوليوود.

نصل إلى غايتنا في غوريغاون. منزل مامان لم يكن البنغل الفخم الذي توقعناه. إنه مبنى ضخم متداعٍ شُيد في فناء ذي حديقة صغيرة ونخلتين. مطوّق بسياج عالٍ يعتليه سلك شائك. يجلس رجلان داكنا البشرة، قويا البنية على الشرفة يدخنان *بيدين* ويضعان *لونجيين* خفيفين ملونين. كانا يحملان بيديهما عصوي بامبو سميكتين. يلفان ساقاً على ساق. نلمح سرواليهما الداخليين المخططين. تشع منهما رائحة العرق القوية. يتحدث إليهما بنووز بلغة مالايالام سريعة. الكلمة الوحيدة التي أستطيع أن ألتقطها هي مامان. من الجلي أنهما حارسان في خدمة السيد بابو بيلاي.

حين ندخل المنزل، يلفت مصطفى أنظارنا إلى مجموعة من مباني الحديد المموّج تقع وراء ساحة المنزل، أشبه بسقائف ضخمة. "تلك هي المدرسة التي يديرها مامان الخاصة بالأطفال المعوقين. الأطفال يقيمون هناك أيضاً".

أسأل: "كيف هذا وأنا لا أرى أي طفل هنا؟".

"خرجوا كلهم من أجل التدريب المهني. لا تقلق، ستلتقيهم مساءً. تعالَ، دعني أريكَ حجرتكَ".

حجرتنا صغيرة وملتزة، ذات سريرين مدفونين في الجدار ومرآة طويلة مشيدة في الجدار أيضاً. يأخذ سالم السرير العلوي. هنالك حمّام في السرداب يمكننا أن نستخدمه. له حوض استحمام وستارة (دش). لم

تكن الحجرة مترفةً كمنازل نجوم السينما، غير أنها تفي بالغرض. يبدو كما لو أننا الولدان الوحيدان اللذان يقيمان في المنـــزل.

يـــأتي مامـــان للقائـــنا مساءً. يخبره سالم كم هو سعيد لأنه في مومـــباي، وكم يرغب في أن يكون نجماً سينمائياً شهيراً. يبتسم مامان حين يسمع هذا الكلام. "أولى المتطلبات كي تصبح نجماً سينمائياً هي القدرة على الغناء والرقص. هل يمكنك أن تغني؟" يسأل مامان سالماً.

يجيب سالم: "لا".

"حـــسن، لا تقلق. سأرتب الأمور لمعلم موسيقى من الصفوة كـــي يعطيك دروساً. في غفلة من الزمن ستغدو على غرار كيشور كومار".

يبدو سالم كما لو أنه يهم بمعانقة مامان، لكنه يكبح نفسه.

في الليل نذهب إلى المدرسة لتناول طعام العشاء. كانت للمدرسة ردهة طعام شبيهة بتلك التي في ملجأ الأحداث حيث كنا، ذات أرضية مشمع رخيصة، طاولات خشب طويلة، ورئيس طهاة هو نسخة طبق الأصـــل عن ذاك الذي تركناه في الملجأ. قيل لنا، سالم وأنا، أن نجلس إلى طاولة صغيرة مستديرة مع مصطفى. تم تقديم الطعام والشراب إلينا قـــبل دخـــول الأولاد الآخرين. الطعام ساخن وطيب المذاق، بصورة مؤكدة أحسن من الطعام الخالي من النكهة الذي كنا نتناوله في دلهي.

واحـــداً إثـــر واحد بدأ الأولاد بالمجيء، وفي الحال نعترض على تعـــريفنا للجحـــيم. أرى أولاداً من دون عيون، يتلمسون طريقهم إلى الأمـــام بمـــساعدة العـــصي؛ أولاداً بأطراف منحنية ومشوّهة، يجرون أنفـــسهم جـــراً إلى مائدة الطعام؛ أولاداً بجدعتين مشوهتين عوضاً عن ســـاقين، يمـــشون على عكازات؛ أولاداً بأفواه غريبة وبشعة وأصابع ملـــوية، يأكلون الخبز المحمول بين المرفقين. بعضهم يبدون كالمهرجين،

عدا أهم يدفعوننا إلى البكاء بدلاً من الضحك. إنه شيء جيد أن سالم وأنا كنا قد أهينا وجبتنا.

نرى ثلاثة أولاد في زاوية واحدة، يراقبون الآخرين وهم يأكلون، أما هم فلم يُقدم الطعام والشراب إليهم بعد. لعق أحدهم شفتيه. أسأل مصطفى: "من هؤلاء الأولاد؟ ولماذا لا يأكلون؟".

يقـــول مصطفى: "إنهم يتعرضون للعقاب. كونهم لم يقوموا بعملٍ كافٍ. لا تقلق، سيأكلون لاحقاً".

يأتي معلم الموسيقى في اليوم التالي. إنه صغير السن بعض الشيء، بوجه بيضوي حليق، وأذنين كبيرتين، أصابع عظمية، رفيعة. يحمل معه نـــوعاً مـــن الأرغن. يرشدنا قائلاً: "سمياني أستاذ. الآن أصغيا إلى ما أغنيه". نجلس على الأرض بانتباه مستغرق فيما هو ينشد: "سا ري غا مـــا با دها ني سا". ثم يشرح قائلاً: "هذه هي النوتات السبع الرئيسة الموجـــودة في كل مقطوعة موسيقية. الآن افتحا فكيكما، وأنشدا هذه الـــنوتات بصوت عالٍ. دعيا الصوت يخرج من شفاهكما، وليس من أنفيكما، إنما من أسفل حنجرتيكما".

يتنحـــنح سالم، ويبدأ بالغناء: "سا ري غا ما با دها ني سا". يغني بملء حنجرته، بحماسة. ترن الحجرة بصوت نوتاته الصافية. يغمر صوته الحجرة، النوتات ترن صافيةً وغير ملطخة.

"جـــيد جداً". يصفق المعلم. "لديكَ صوت طبيعي وهبكَ الله إياه. ليس لديّ شك في أنه مع التدريب المستمر، ستكون وفي وقت قريب جداً قادراً على إنجاز المدى الكامل للجوابات (جمع جواب) الـــثلاثة والنـــصف". من ثم يتطلع إليّ قائلاً: "جيد. الآن لم لا تغني النوتات نفسها؟".

"ســـا ري غــا مـــا با دها..." أحاول أن أنشد، إلا أن صوتي يتـــصدّع، وتتحطم النوتات، وتتشظى كحفنة من الكريات الرخامية هوت على الأرض.

يـــدخل المعلم إصبعاً في أذنه. "هاري رام... هاري رام... أنت تغني كالجاموس. يلزمني أن أشتغل عليك بجد".

يهـــب سالم لنجدتي. "لا، أستاذ، محمد له صوت جيد أيضاً. إنه يصرخ بصورة جيدة، حقيقة".

علـــى مـــدى الأسبوعين التاليين، يعلمنا الأستاذ أغاني عديدة، وكيف نعزف على الأرغن. الأستاذ معلم جيد. لم يكن يعلمنا الأغاني فحـــسب، لكـــنه يشرح لنا كذلك الحقائق المعقدة الموصوفة عبر هذه الأغاني باللغة البسيطة للناس العاديين.

إن حقـــيقة كـــون سالم يعتنق الدين الإسلامي ذات أهمية قليلة بالنـــسبة إلى *الأستاذ* فيما هو يلقنه البهاجانات الهندوسية. سالم نفسه قلما يبالي بهذا الأمر. إذا كان في وسع أميتاب باجاجان أن يلعب دور حمّـــال مـــسلم وإذا كان باستطاعة سلمان خان أن يمثل دور إمبراطور هندوســـي، فـــإن سالم إلياسي يستطيع أن يغني البهاجانات باستمتاع كبير.

إبـــان هـــذه الحقبة الزمنية، تمكنت وسالم من التعرف على بعض الأولاد الآخـــرين في مدرســـة المعوقين، بالرغم من المحاولات الماكرة لمـــصطفى وبنووز لمنعنا من الاختلاط كثيراً جداً بأولئك الأولاد الذين يخطـــئون في تلفـــظ صفتهم فيقولون "معلقين". نتعرف على التواريخ

الحـــزينة لهـــؤلاء الأولاد ونكتشف أنه حين نصل إلى الأقارب القساة والشرطة، فإن مومباي لا تختلف عن دلهي. لكننا فيما كنا نعرف المزيد والمـــزيد عـــن هـــؤلاء الأولاد، الحقيقة المتعلقة بمامان يبدأ لغزها هي الأخرى ينحل.

نـــصادق أشوك، وهو غلام ذو ثلاث عشرة سنة بذراع مشوّهة، ونتلقى صدمتنا الأولى.

يخـــبرنا: "نحن لسنا طلاب مدرسة. نحن متسولون. نستجدي في القطارات المحلية. بعضنا نشالون أيضاً".

"وماذا يحدث للنقود التي تكسبونها؟".

"مطلـــوب مـــنا أن نعطـــيها إلى رجـــال مامان، مقابل الطعام والسكن".

"تقصد أن مامان زعيم عصابة؟".

"مـــاذا تعتقد؟ هو ليس بالصالح، لكنه على الأقل يعطينا وجبتين مُشبعتين يومياً".

تحطمـــت ثقتي بمامان، إلا أن سالماً يستمر في وضع ثقته التامة في الطيبة الفطرية للرجل.

يكون لنا لقاء مع راجو، وهو صبـــي أعمى في العاشرة.

"كيف حصل أن عوقبتُ اليوم؟".

"لم أكسب ما يكفي من النقود".

"كم مطلوباً منك أن تعطي يومياً؟".

"كـــل ما نكسبه. لكنكَ إذا أعطيتَ أقل من مائة روبية، تتعرض للعقوبة".

"وماذا يحدث حينذاك؟".

"لا تحصل على الزاد. تنام جائعاً. الفئران تأكل بطنك".

"الآن، خذ رغيف الخبز هذا. احتفظنا به من أجلك".

نتحدث إلى رادهي، وهو صبي في الحادية عشرة، بساق مفقودة.

"كيف حصل أنك لم تعاقب؟ أنتَ تكسب دوماً ما يكفي من المال".

"شش... إنه سر".

"لا تقلق. المسألة مأمونة معنا".

"جيد. إنما لا تدعا أحداً من الأولاد الآخرين يعرف. كما تريان، ثمة ممثلة تسكن في جوهو فيلي بارلي. كلما يكون عندي نقص، أذهب إليها. لا تزودني بالطعام فقط، بل تزودني بالمال أيضاً كي تغطي النقص في الكسب".

"ما اسمها؟".

"نيليما كوماري. يقولون إنها كانت مشهورة جداً في وقت من الأوقات".

"كيف هو شكلها؟".

"لا بد أنها كانت جميلةً جداً في شبابها، لكنها الآن أصبحت هرمةً. أخبرتني أنها بحاجة إلى المساعدة المنزلية. لو لم تكن لي ساق مفقودة لركضتُ إليها من هنا كي أضطلع بمهنة خادم في منزلها".

أحلم تلك الليلة بالذهاب إلى منزل في جوهو فيلي بارلي. أقرع الجرس وأنتظر. تفتح الباب امرأة طويلة القامة. ترتدي سارياً أبيض. تبدأ ريح شديدة بالعصف، فتجعل شعرها الأسود الطويل يطير على

وجهها، حاجباً إياه. أفتح فمي كي أقول شيئاً ما، ومن ثم أكتشف أنها تخفض بصرها ناظرةً إليّ. أخفض بصري، وأكتشف مصدوماً أنني لا أملك ساقين.

أستيقظ من نومي، مبللاً بالعرق.

تم تقديمنا إلى موولاي، وهو غلام في الثالثة عشرة ذو ذراع مبتورة.

يقول: "أكره حياتي".

"لِمَ لا تهرب؟".

"إلامَ؟ هذه مومباي، وليست قريتي. ليس ثمة مكان تخبئ فيه رأسكَ في هذه المدينة الواسعة. أنت تحتاج إلى إقامة صلات اجتماعية حتى حين تنام في ماسورة مياه المجاري. وأنتَ تحتاج إلى الحماية من شرور العصابات الأخرى".

"العصابات الأخرى؟".

"نعم. هرب صبيان الشهر المنصرم. عادا في غضون ثلاثة أيام. لم يتمكنا من إيجاد عمل. لم تسمح لهما عصابة بهيكو بالعمل في منطقتها. هنا، على الأقل نحصل على الطعام والسكن، وحين نعمل لصالح مامان لا تزعجنا أي عصابة من العصابات الأخرى".

"لا نريد أن نكون متورطين مع أي نوع من العصابات"، أقول له وأتلو *دوحة*. "كبيرا خارا بازار مين، مانجي ما بكي خير، نا كاهو سي دوستي، نا كاهو سي بير". كبير في ساحة السوق يتمنى الرفاهية للجميع؛ هو لا يريد الصداقة ولا العداوة مع أي شخص على الإطلاق.

نلتقي سيكاندار، المستورَد من باكستان.

تـــدور مـــوجة صغيرة من الفرح في ردهة الطعام. وصل صبـــي جديد. يأتي مصطفى بالنـــزيل الجديد ونحتشد كلنا حوله. مصطفى هو الأكثـــر فـــرحاً. "حصلنا عليه هذا الصباح من وديعة (شاكيل رانا)"، يقول ويصفع فخذيه بابتهاج.

لم يكـــن الغلام قد تجاوز سنته الثانية عشرة. نلمسه كما لو أنه حـــيوان محـــبوس في قفـــص. إلا أنه لا يبدو كحيوان. إنه يشبه أكثر الأجنبـــــي الذي شاهدناه في الإعلان التجاري عن بسكويت بريطانيا في الـــتلفاز. ذو رأس بيضاوي، مستدق الطرف، عينان صينيتان، أنف غلـــيظ وشـــفتان رفيعتان. يقول مصطفى لبنووز، "إنه من ضريح شاه دولة في بنجاب الباكستانية. هؤلاء الصبيان يُدعون *أطفال الفأر*".

"كيف يحصلون على رأس كهذا؟".

"سمعـــتُ أنهم يضعون حلقات حديد على رأس الطفل الوليد كي يوقفـــوا نموه. بهذه الطريقة تستطيع أن تحصل على هذا التصميم الفريد للرأس".

يقـــول بـــنووز: "في اعتقادي أنه يملك طاقة كامنة كبيرة. سيُسر ماماں".

يتفق معه مصطفى. "أجل. عنصر ذو قيمة عالية حقيقية".

لـــسبب ما، يذكرني غلام الفأر بدب شاهدته ذات مرة مع الأب تيموثي في كوناوت بليس. كانت له ياقة ضيقة حول عنقه وقناع أسود يغطي فمه. يضربه مالكه بقوة بعصا مدببة، ويقف هو على كلتا قائمتيه الخلفيـــتين، محيياً الناس المتجمهرين من حوله. يرمون قطع النقد عليه. يلتقط المالك النقود، ويسحبه من أجل دور مسرحي آخر. أذهلتني عينا الـــدب، اللتان بدتا جد حزينتين بحيث إنني سألتُ الأب تيموثي: "هل تبكي الدببة؟".

أكتشف جيتو، مختبئاً في حجرة صغيرة.

يحمــل بيده كيساً من النايلون بداخله مادة بيضاء ضاربة إلى الإصــفرار. يفــتح نهاية الكيس فوق أنفه وفمه ويستنشق بعمق، ضــاغطاً قاعــدة الكيس صوب وجهه. تفوح من ثيابه رائحة صبغ ومــذيب. ثمة طفح جلدي حول أنفه. فمه مبلل بالعرق ولزج. بعد أن يــشم، تغــدو عيــناه نــصف المغمضتين كالزجاج وتبدأ يداه بالارتعاش.

أهزه: "جيتو!... جيتو! ما هذا الذي تفعله؟".

يقــول بــصوتٍ ناعس: "لا تقاطعني. أنا أعوم في الهواء. أنا أنام فوق السحاب".

أصفعه. يسعل بلغماً أسود اللون.

يخــبرني لاحقاً: "أنا مدمن على الغراء. أشتريه من الإسكافي. الغــراء يــزيل الجــوع، والوجع. أرى ألواناً ساطعةً، وغالباً أرى والدتي".

أطلب منه شيئاً من الغراء وأجربه. بعد أن أشمه أبدأ بالإحساس بشيء من الدوار، تبدو الأرض تحتي وكأنها تنتقل من مكان إلى آخر، وأبــدأ بــرؤية صور. أرى امرأةً طويلة القامة، ترتدي سارياً أبيض، تحمــل طفــلاً بين ذراعيها. تعصف الريح، فتجعل شعرها يطير على وجههــا، مخفــياً إياه. غير أن الطفل يمد يده الصغيرة جداً وبأصابع وديعــة يملّــس خصلات شعرها، فتكشف وجهها عنوةً. يرى عينين منهكــتين، غائرتين، أنفاً معقوفاً، أسناناً حادة مستدقة الرأس تتلألأ بالــدم الطــازج، ويرقات تزحف خارجةً من طيات جلدها المغطى والمتغضن الذي يتدلى على فكها. يصرخ بذعر ويتشقلب من حضنها. لا أجرب الغراء مجدداً.

في غـــضون ذلـــك، يـــصل تدريبنا الموسيقي إلى نهاية ما. أستاذ الموسيقى مسرور إلى أبعد حدّ بتقدّم سالم. "الآن أصبحتَ بارعاً في فنّ الغناء. بقي درس واحد فقط".

"وما هو؟".

"بهاجانات سورداس".

"من هو سورداس؟".

"إنـــه أشهر مغنّي البهاكتي جميعاً، والذي لحن آلاف الأغاني التي تمجـــد كريـــشنا. ذات يوم هوى في بئر مهجورة. لم يستطع الخروج منها. مكث هناك ستة أيام. راح يتضرع وفي اليوم السابع سمع صوت صـــبـــي يطلب منه أن يمسك بيده كي يستطيع أن يجره إلى الخارج. بمساعدة الصبـــي، خرج سورداس من البئر، إلا أن الصبـــي غاب عن الأنظـــار. لم يكن الصبـــي كريشنا. بعد ذلك كرس سورداس حياته كلها في تلحين الأغاني التي تمجد كريشنا. بآلة إيكتارا وحيدة الوتر في يـــده، شـــرع ينـــشد الأغاني التي تصف طفولة كريشنا. أخذ أستاذ الموســـيقى ينشد: أخيان هاري دارشان كي بياسي؛ عيناي تواقتان إلى حضورك، يا كريشنا".

أسأله: "لماذا عيناه قاحلتان؟".

"ألم أخبركَ؟ كان سورداس أعمى تماماً".

في الـــيوم الأخير من تدريبنا الموسيقى، راح أستاذ الموسيقى يمطر ســـالم بالمعانقـــات لأنه أنشد واحدةً من بهاجانات سورداس بصورة جـــيدة. أنـــا سريع الغضب وذاهل. لقاءاتي بطريق المصادفة مع صبيان مامـــان جعلتني ذاهلاً، شديد الاضطراب. يبدو لي أن صبيان مامان هم مجموعة من الأشخاص المحرومين بصورةٍ خاصة.

يأتي بنووز إلى الحجرة كي يتحدث إلى الأستاذ. يتكلمان بصوت منخفض، ومن ثم يخرج بنووز محفظته، ويبدأ بعد بعض النقود. يسلّم حزمةً من الأوراق المالية إلى أستاذ الموسيقى، الذي يدسها في جيب الكورتا خاصته. يبارحان الغرفة معاً، تاركين إياي وحيداً مع سالم والأرغن.

أقول لسالم: "ما كان يجدر بي مغادرة دلهي. أنتَ على الأقل أصبحتَ مغنياً جيداً، لكنني لم أنل شيئاً من هذه الرحلة".

حينذاك فقط ألاحظ ورقة مالية من فئة المائة روبية ملقاةً على الأرض. لا بد أن بنووز أسقطها بينما كان يحصي المال. كان حافزي الأول أن أنشلها، إلا أن سالماً يخطفها من يدي ويصر على القول إنه يجب علينا أن نعيدها. لذا نجتاز المجاز إلى الحجرة التي يستخدمها مامان مكتباً له، حيث يكثر تردد بنووز ومصطفى عليها.

فيما نحن نقترب من الباب، نسمع صوتاً آتياً من الداخل. يتحدث مامان إلى بنووز.

"وماذا قال الأستاذ بعد إنهائه دروسه؟ إنه يصبح أغلى فأغلى".

"قال إن الصبي الأكبر سناً عديم الفائدة، إلا أن الأصغر سناً يملك طاقةً كامنةً كبيرةً. يقول إنه لم يدرب غلاماً يفوقه موهبة من قبل".

"أنتَ تعتقد إذاً أن في وسعه أن يجلب لنا ثلاثمائة روبية على الأقل؟".

"ماذا ثلاثمائة روبية؟ حين يغني فإن ما تسمعه لحناً عذباً. ووجهه؟ من يستطيع أن يقاوم وجهه؟ يمكنني القول إن في وسعه أن يكسب أربعمائة إلى خمسمائة روبية. لقد اهتدينا إلى الكنز، مامان".

"وماذا عن الغلام الآخر؟ طويل القامة؟".

"مـــن يبالي؟ ابن الساقطة عليه أن يعيل نفسه. إما أن يكسب لنا مائة روبية كل ليلة أو عليه أن يبقى جائعاً".

"جـــيد. أرســـلهما معاً إلى القطارات بدءاً من الأسبوع المقبل. سننجز عملنا معهما الليلة. بعد العشاء".

تـــسري القشعريرة في عمودي الفقري حين أسمع هذه الكلمات. أمسك بيد سالم، ونعود مسرعين إلى حجرتنا. سالم مضطرب بخصوص الحـــوار الـــذي سمعناه، والإشارة إلى الأرقام. إلا أن منشار المنحنيات يخترق دماغي.

"سالم، يجب علينا أن نهرب من هذا المكان. الآن".

"لكن لماذا؟".

"لأن شيئاً سيئاً جداً سيحدث لنا الليلة، بعد العشاء".

"لا أفهم".

"أنـــا أفهـــم كـــل شـــيء. هـــل تعرف لماذا علّمونا بهاجانات سورداس؟".

"لأنه شاعر عظيم".

"كـــلا. لأنه كان ضريراً. وهذا ما سنصير عليه الليلة، كي نصبح مؤهلين للاستجداء في القطارات المحلية. أنا مقتنع الآن أن كل الصبيان المعوقين الذين التقيناهم هنا قد شُوهوا وبُترت أعضاؤهم من قبل مامان وعصابته".

إلا أن وحـــشيةً كهـــذه خارج نطاق إدراك سالم. إنه يرغب في البقاء.

يسألني قائلاً: "لِمَ لا تهرب وحدكَ؟".

"لا أستطيع الذهاب من دونك".

"لماذا؟".

"لأنني حارسك، وأنتَ جزء من صفقتي الكاملة".

يعانقني سالم. أخرج قطعة النقد من فئة الروبية الواحدة من جيبي. أقول له: "انظر، سالم. أنتَ تعتقد بالقدر، أليس كذلك؟ إذاً دع قطعة النقد هذه تقرر مستقبلنا. إذا جاءت على وجهها نغادر، أما إذا جاءت على قفاها نبقى، جيد؟".

يومئ سالم برأسه موافقاً. أنقر قطعة النقد باظفري فتنقلب في الهواء. تجيء على وجهها.

أخيراً، يذعن سالم لفكرة الهرب من وكر مامان، إلا أن عقله مليء بالريبة. "إلى أين سنذهب؟ ماذا سنفعل؟ لا نعرف أحداً في هذه المدينة".

أعرف إلى أين نذهب. هل تتذكر الممثلة نيليما كوماري التي حدثنا عنها رادهي؟ إنها تحتاج إلى خادم. لديّ عنوانها، وأعرف أيضاً أي قطار محلي يذهب إلى هناك".

"ما رأيك بالذهاب إلى الشرطة؟".

"هل فقدتَ عقلكَ؟ ألم تتعلم شيئاً منذ مغادرتك دلهي؟ مهما تفعل، أينما تذهب، لا تذهب إلى الشرطة. أبداً".

نحن داخل الحمّام الكائن في السرداب، نصغي إلى القرع المستمر للماء الذي يقطر من صنبور راشح. سالم على كتفي يحمل بيده سكيناً، يحاول أن يحل البراغي التي تثبت النافذة ذات المشبك السلكي في موضعها.

"أسرع"، أهمسُ عبر أسناني المطبقة بإحكام.

في الأعلى حرّاس مامان يتصرفون بقسوة عبر حجرتنا، يفتحون الخزانات والصوانات. نسمع صيحات وشتائم. تتهشم قنينة، فيؤذي

صـــوت قمشمها أعصابنا المنهكة ويزيد إنهاكها. سالم مذعور. يتنفس بسرعة بلهاثات قصيرة. تتعاظم نبضات قلبـــي إلى أن يكون في وسعي تقريباً أن أسمع خفقانه القوي. يقترب منا وقع أقدام.

يقـــول ســـالم: "بقي واحد. لكنه مثبت بإحكام. لا أعتقد أنني أستطيع أن أحله".

أحثه قائلاً: "أرجوك.. أرجوك حاول مجدداً! تعتمد حياتانا عليه".

يمـــسك ســـالم البرغي بإلحاح متجدد، يدس السكين داخله بكل قـــوته. في الـــنهاية يستـــسلم البرغي. ينـــزع البراغي الأربعة، ويرفع المـــشبك السلكي. يُمكننا رؤية النخلتين في الخارج تتمايلان برفق مع النـــسيم. ثمة حيز يكفينا فقط كي نـــزحف إلى الخارج. يكاد رجال مامـــان ينـــزلون درجات السلم إلى السرداب حين يناور سالم نفسه عـــبر الـــنافذة. بعدها يقبض على يدي ويساعدني على الانـــزلاق إلى الخـــارج. نتسلق بجهد إلى كوم من الحصى وكسارة الحجارة، لاهثين. القمـــر بـــدر، الليل هادئ. نعبّ جرعات عميقة من الهواء النقي. إنه يفوح برائحة جوز الهند.

نجلس الآن في قطار محلي مبتعدين عن غوريغاون متجهين صوب مركز هذه المدينة الواسعة. القطار غير مزدحم في هذه الساعة من الليل وهـــنالك فقط مسافرون قليلون في مقصورتنا. إنهم يطالعون الصحف، يلعـــبون الـــورق، ينتقدون الحكومة، يطلقون الريح. يدخل بائع قناني المـــشروبات الغازية إلى المقصورة حاملاً صندوقاً بلاستيكياً مبرَّداً مليئاً بالقناني ذات الألوان المتعددة. "كوكا، فانتا، ثومس آب، ليمكا، سفن آب"، يـــصيح بصوت ذي طبقة عالية. القناني باردة جداً، يمكننا رؤية قطـــرات صغيرة جداً من الرطوبة تكسو سطحها. يتطلع سالم إلى قناني

المـــشروبات الغازيـــة ويمرر لسانه على شفتيه المنفرجتين. يتلمس جيبه الأمامـــي، ويربت عليه بإعادة طمأنة. ينظر إليه البائع بأمل. يهز سالم رأسه ويتحرك الرجل مبتعداً.

في الحـــال يـــدخل بائع متجول آخر إلى المقصورة، رجل عجوز ملتحٍ يضع نظارة مستديرة العدستين. ثمة صينية كبيرة تتدلى من عنقه، مليئة بالعلب الصدئة، قناني زجاج غير شفاف وعلب بلاستيكية صغيرة تحـــوي تشكيلة من الجذور كثيرة العقد، أوراقاً نباتية يابسةً، مساحيق وبـــذوراً. يعلن قائلاً: "يوسف فاهم، حكيم متنقل. بحوزتي دواء لكل داء. مـــن الـــسرطان إلى الإمساك، سمي حالتك المرضية فقط". لسوء حظـــه، لـــيس ثمة مرضى في المقصورة، يغادر بعد مدة وجيزة، تاركاً وراءه رائحة لاذعة للكركم والزنجبيل.

نـــشاهد أضـــواء المدينة تومض ثم تخبو فيما يسرع القطار مجتازاً مستعمرات السكن والملاعب الرياضية المدرّجة. نرى بلمحات خاطفة الـــناس الجالـــسين في قاعات الاستقبال خاصتهم، يشاهدون التلفاز، يتـــناولون طعام العشاء، يهيئون الأسرّة. حين تكون غايتنا لا تبعد عنا سوى توقفين، نسمع وقع أقدام متثاقلة من الناحية البعيدة للمقصورة.

يظهـــر غـــلام ضـــئيل الحجم مغذى تغذية ناقصة في السابعة أو الثامـــنة. يلبس غطاءً أزرق وسروالاً قصيراً مغبراً. يمشي بمساعدة عصا ويحمل إيكتارا بيديه. لم نميزه: لم يكن واحداً من غلمان مامان.

يتوقف في نقطة لا تبعد عنا أكثر من خمس عشرة قدماً ويأخذ بالغناء بمـــلء حنجـــرته: "سونيري مايني نيربال كي بالارام - سمعتُ أن كريشنا يهب لمساعدة الضعفاء"، وهي واحدة من أشهر قصائد سورداس.

نـــنكمش حين يغمر المقصورة صوت المغني الشجي. تطفو عائدةً إلينا صور صبيان مامان. راجو، ورادهي، وأشوك، وموولاي. ينضغط

عليّ سالم، وأغوص إلى داخل زاوية مقعدي. إنما كالرادار يتعقبنا رأس المغني. يبدو أنه ينظر إلينا باتهام من خلال عينين لا تبصران. على مدى خمس دقائق معذبة نرهف السمع له وهو يكمل أغنيته. من ثم يخرج طاسة استجداء، ويطلب الصدقات. فقط مجموعة من المسافرين تُركوا في المقصورة و لم يكن ثمة أحد يبالي بالتفتيش عن فكة.

فيما كان المغني خالي اليدين يهم بالمرور إلى جانبنا، يأخذ سالم شيئاً ما من جيبه الأمامي. يمسك به في قبضة مضمومة، وينظر إليّ شاعراً بالإثم. أومئ برأسي صامتاً. بتعبير أسيان، يفتح سالم قبضته فوق يد المغني الممدودة. تنجرف ورقة مالية مجعدة من فئة مائة روبية إلى طاسة المتسول.

ترتعد سميتا بصورةٍ لاإرادية. "لا أستطيع أن أتصوّر أنه لا يزال هنالك أناس في يومنا وعصرنا هذا يمكنهم أن ينزلوا عملاً وحشياً كهذا بأطفال أبرياء".

أجيب: "إنها قصة حزينة، إنما واقعية. لو لم أفر وسالم تلك الليلة، فربما كنا لا نزال حتى الآن ننشد الأغاني في القطارات المحلية، على غرار ذلك المغني الأعمى".

"هل وصلتَ أخيراً إلى تلك المهنة مع نيليما كوماري؟".

"نعم، وصلت".

"وماذا جرى لسالم؟".

"رتبت نيليما كوماري حجرةً مستأجرةً له في مبنى سكني في جاتكوبار".

"إنما في القصة الأخيرة، ألم تكن تعمل في سبك المعادن وتقيم في المبنى السكني؟".

"كان ذلك بعد أن غادرتُ نيليما كوماري - أو بالأحرى، بعد أن غادرتني هي".

"ماذا تعني؟".

"ستكتشفين ذلك حالاً".

تهز سميتا رأسها، وتضغط زر تشغيل جهاز التحكم عن بعد.

يـــواجه بـــريم كومار آلة التصوير. "الآن ننتقل إلى السؤال الرابع بقـــيمة عشرة آلاف روبية. هذا السؤال دقيق أيضاً، إنما فقط إذا كنتَ تعـــرف مغنيكَ. أخبرنا السيد توماس أنه يعتقد بالأديان كلها. دعونا نأمل أنه يعرف البهاجانات خاصته". يلتفت إليّ. "هل أنتَ جاهز؟".

أجيب: "جاهز".

"جـــيد. الـــسؤال الرابع. سورداس، الشاعر الضرير، كان تابعاً متحمساً لمن: (أ) رام، (ب) كريشنا، (ج) شيفا أو (د) براهما؟".

تبدأ الموسيقى.

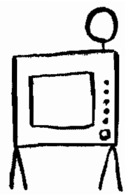
"(ب) كريشنا".

"هل أنتَ متأكد تماماً، مائة بالمائة؟".

"أجل".

هنالك تسارع لقرع طبول. يومض السؤال الصحيح.

"صحيح تماماً، مائة بالمائة! ربحتَ الآن عشرة آلاف روبية!" يعلن بريم كومار. يصفق الجمهور. يبتسم بريم كومار ابتسامةً عريضةً. أما أنا فلا.



50,000
كيف تتكلم الأسترالية

"الاســـم، الجـــنس، العمـــر، من فضلك، سيدي"، يقول رجل الإحـــصاء الرسمي ذو المظهر الجبان الواقف في الرواق المسقوف واضعاً نظـــارة سمـــيكة العدستين بإطار أسود. يحمل حزمةً من الاستمارات ويعبث بقلم أزرق من اللباد.

يرتـــسم علـــى وجـــه الكولونيل تايلور تعبير ساخط حين يبدأ التقديمات. يرتدي بذلة كتان بيج. يرتدي البذلات طيلة الوقت، صيفاً وشـــتاءً. إنها تناسب قامته الطويلة. له وجه بيضوي ذو شارب ثخين بلـــون الفلفـــل، شفتان رفيعتان وخدان متوردان. شعره رملي اللون مـــسرّح إلى الخلف. أسرة تايلور كلها وجميع الخدم تجمعوا في الرواق المسقوف الأمامي كما لو أنهم يرومون أخذ صورة فوتوغرافية جماعية. "أنـــا الكولونيل تشارلز تايلور، ذكر، ست وأربعون سنة. هذه زوجتي ربـــيكا تايلـــور، أنثى، أربع وأربعون سنة". يشير إلى السيدة تايلور، شقراء، نحيفة العود ترتدي تنورة طويلة. "هذا ابننا روي، ذكر، خمسة عـــشر عامـــاً". يحرك روي الجهاز النقال خاصته بعصبية. غلام طويل وهـــزيل ويلبس سرواله الجينـــز ذا العلامة التجارية، وقميصاً قطنية تي

شيرت وينتعل حذاءً خفيفاً من قماش غليظ ونعل مطاطي. "هذه ابنتنا ماجي، أنثى، سبع عشرة سنة". ماجي ليست طويلةً جداً، لكنها جميلة المظهـــر بكـــل معنى الكلمة، ذات وجه مدوّر، عينين زرقاوين وشعر ذهبـــي. ترتدي تنورةً قصيرةً حقيقةً.

يجر الكولونيل تايلور نفسه إلى أطول ارتفاع له ويزوّد صوته بمزيد مـــن القوة. "أنا الملحق العسكري الأسترالي. نحن دبلوماسيون، لذا لا أعتقد أنكَ تحتاج إلى أن تعدنا في إحصائك. الناس الوحيدون من هذا المنـــــزل الذين يجب أن تدونهم في تقريرك هم خدمنا. ذاك هاغواتي، الواقـــف قرب البوابة، هو السائق والبستاني معاً، ذكر، اثنتان وخمسون سنة. لدينا خادمة، شانتي، أنثى، ثمانية عشر عاماً على ما أعتقد، وهي ليـــست في المنـــزل هذه اللحظة. ذلك هو رامو، طاهينا، ذكر، خمسة وعـــشرون عاماً، وهذا توماس، ذكر، أربعة عشر عاماً. هل هذا كل شيء؟".

"كـــلا، ســـيدي، أحـــتاج إلى أن أسأل خدمك بعض الأسئلة، ســـيدي. في مـــا يتعلق بآخر إحصاء رسمي قدّموا استبياناً طويلاً. كل أنـــواع الأشياء العجيبة مثل أي من البرامج التلفازية تشاهده، أي لون من ألوان الطعام تتناوله، أي من المدن زرتها، وحتى؛" يضحك ضحكةً نصف مكبوتة، "كم عدد المرات التي تقيم فيها علاقة حميمة؟".

همـــس الـــسيدة تايلور لزوجها. "أوه تشارلز، لا نريد أن يضيع رامـــو وتـــوماس وقتـــيهما في هذا التمرين السخيف. ألا تستطيع أن تتخلص من طائر الدرونغو[1] هذا؟".

يسحب الكولونيل علبة سجائر من جيبه. "انظر، سيد مهما كان اسمـــك، خدمي حقيقةً ليس لديهم وقت كي يجيبوا عن أسئلتك كلها.

(1) الدرونغو drongo: طائر أسود مشقوق الذيل – م.

إذاً لم لا تقبل علبة سجائر المارلبورو هذه وتنتقل إلى منــزل آخر؟ أنا متيقن من أنك تقدر أن تستثني أربعة أشخاص من تقريرك".

ينظـر رجل الإحصاء إلى العلبة، بعدها يلعق شفتيه. "حسن... سـيدي، أنتَ عطوف جداً، لكن، كما ترى، أنا لا أدخن السجائر، سيدي. على كل حال، إذا كان لديك بعض من الشراب الاسكتلندي سأكون سعيداً في تقبل هذا الجميل، سيدي. على كل حال، ما هو الفـارق إذا مـا أخـذنا أربع قطرات من أحد المحيطات؟ ما من أحد سيفتقد أربعة أشخاص من بليون!" يقهقه بعصبية.

يلقـي الكولونـيل تايلور نظرة اشمئزاز على رجل الإحصاء. ثم يـدخل إلى قاعة الاستقبال ضارباً الأرض بأخمص قدمه ويعود مع قنينة شراب. "الآن، خذ هذه وانصرف بسرعة. لا تزعجنا مجدداً".

يحيـي موظف الإحصاء الكولونيل تايلور. "لا تقلق، سيدي. لن أزعجك طيلة السنوات العشر المقبلة". يمشي مبتعداً والفرح يملأ كيانه.

الـسيدة تايلور سعيدة أيضاً. تبتسم قائلةً: "هؤلاء الهنود الحقراء. أعطهم قنينة شراب اسكتلندي وسيعملون كل شيء".

يبتـسم بهاغواتي الواقف عند البوابة ابتسامةً عريضةً. ليست لديه أدنى فكـرة عما يجري. لكنه يبتسم كلما يبتسم *الصاحب*[1] وزوجة *الصاحب*. رامو هو الآخر يبتسم ابتسامةً عريضةً. يبتسم كلما يتمكن من رؤية ماجي بتنورتها القصيرة.

أنـا الوحيد الذي لا يبتسم. مؤكد، نحن الخدم أناس غير مرئيين، لا يـسمعنا أحد خلال الحفلات والمناسبات العائلية، أما أن نُهمل حتى من التعداد السكاني لبلدنا فهو شيء مسخط جداً! وأود أن يكف أفراد

(1) الـصاحب sahib: لقـب بمعنى "سيد" يخاطب به الهنود شخصاً أوروبياً ذا مكانة اجتماعية أو منصب رسمي – م.

أســـرة تايلـــور عن إشاراتهم المتكبرة إلى *الهنود الحمراء*. لا بد أنها المرة الخامـــسة التي أسمعهم فيها يستخدمون هذا التعبير منذ أن كنتُ معهم. في كل مرة، أسمع فيها هذا التعبير، يغلي دمي. جيد، إذاً ساعي البريد، وجابـــــي الكهـــرباء ومـــصلح الهواتف وموظف الأمن، والآن حتى موظـــف الإحصاء يضعفون أمام الشراب الاسكتلندي. غير أن هذا لا يعني أن الهنود كلهم مدمنون على الشراب. أود أن أشرح هذا للسيدة تايلـــور ذات يوم. لكنني أعرف أنني لن أفعل. حين تقيم في موقع ممتاز من دلهي في بيت جميل، تحصل على ثلاث وجبات طعام مُشبِعة في اليوم وراتـــباً قـــدره ألف وخمسمائة روبية في الشهر، نعم، ألف وخمسمائة روبـــية في الـــشهر، تـــتعلم أن تبتلع كبرياءك. وتبتسم كلما ابتسك *الصاحب* وزوجته.

كـــي أكـــون منـــصفاً مع أسرة تايلور، بالرغم من ذلك، كانوا عطوفين جداً معي. ليس هنالك أناس كثيرون يستخدمونك بأجر إذا ما حـــضرتَ إلى عتـــبة دارهم ذات يوم بصورة مفاجئة آتياً من مومباي. الأكثـــر مـــن ذلـــك، أعطـــيتُ كل الإشارات غير الصحيحة. كان الكولونيل ووغ هو سلف الكولونيل تايلور، وقد غُيِّر مقر عمله مرتين. وأســـرة تايلور، كونهم تابعين للكنيسة الإنغليكانية، لم تكن لهم علاقة بالكنيـــسة الكاثوليكـــية الرومانية التي ينتمي إليها الأب تيموثي. كان حظـــاً خالصاً أنهم كانوا يحتاجون إلى خادم بصورةٍ ملحة، فقد طردوا تواً المساعد المنـــزلي السابق.

في الشهور الخمسة عشر التي كنتُ فيها مع الأسرة، خمسة خدم آخـــرون صرفوا من الخدمة. بسبب الكولونيل تايلور. إنه *الرجل الذي يعـــرف*. البستاني، سرق سماداً من السقيفة وعرف الكولونيل تايلور. النتيجة: صُرِف البستاني في اليوم التالي. شيلا، الخادمة، التقطت سواراً

مــن حجرة السيدة تايلور وعرف الكولونيل تايلور. النتيجة: صُرفت شيلا في اليوم التالي. راجو، الطاهي، فتح خزانة المشروبات وجرع شيئاً مــن الشراب الاسكتلندي ليلاً. النتيجة: ضُرِب وصُرف من الخدمة في الــيوم التالي. أجاي، الطاهي الجديد، دبر خطةً كي يسرق المال وذكر هــذا لأحد أصدقائه عبر الهاتف. النتيجة: صُرِف من الخدمة في اليوم التالي، واعتقل هو وصديقه من قبل الشرطة. بيزانتي: الخادمة الجديدة، ارتدت أحد فساتين ماجي لترى مقدار ملاءمته لجسمها. النتيجة: نعم، صُرفت من الخدمة في اليوم التالي. أما كيف يستطيع الكولونيل تايلور معــرفة هــذه الأشياء التي تجري وراء الأبواب المغلقة، في جوف الليل البهــيم، أو عــبر الهاتــف، حيث لا يوجد أحد في الجوار، فهذا لغز حقيقي.

أنــا الشخص الوحيد الذي بقيت. أعترف، بين الحين والآخر أنا كذلك تعرضتُ لإغواء نشل فكة سائبة ملقية حول منضدة زينة السيدة تايلــور أو أخــذ شوكولاته سويسرية واحدة من الثلاجة الكهربائية، لكــنني أبقي حوافز كهذه مكبوحةً. لأنني أعرف أن الكولونيل تايلور هــو *الرجل الذي يعرف*. والأسرة تثق بــي. حقيقة كوني أملك اسماً مــسيحياً وأتحدث الإنكليزية شيء يساعدني، أيضاً. فضلاً عن شانتي، الــتي استخدمت بأجر منذ شهرين خلت، أنا الشخص الوحيد الذي أســتطيع أن أدخل حصرياً إلى المأوى الخاص للعائلة. يمكنني أن أدخل حجرات النوم كلها وأنا الشخص الوحيد المسموح له بمشاهدة التلفاز وغالباً ألعب النينتندو[1] مع روي في حجرة المعيشة. إنما حتى أنا لم يكن مــسموحاً لي بدخول حجرة مكتب الكولونيل تايلور، المسماة *الوكر*. إنها الحجرة الصغيرة المجاورة لحجرة النوم الرئيسة. لها باب خشب قوي

(1) النينتندو Nintendo: ألعاب إلكترونية – م.

بني اللون، محمي بقضبان حديد متصالبة لها ثلاثة أقفال: اثنان صغيران وواحد ضخم ذهبـــي، على الجدار المجاور للقفل الضخم توجد لوحة إلكتـــرونية بيـــضاء صغيرة عليها صورة لجمجمة وعظمين وأعداد من صـــفر إلى تسعة كما كُتب على منصة مفاتيح الهاتف، إذ لا يمكنك أن تفـــتح القفل الضخم إلا بعد أن تدخل الأرقام الصحيحة، وإذا حاولت أن تفـــتحه عنوةً تحصل على تيار كهربائي بقوة 440 فولت وتهلك في الحـــال. ثمـــة ضوء صغير في اللوحة يشير إلى أحمر حين تكون الغرفة مغلقـــة، كلمـــا يـــدخل الكولونيل تايلور الغرفة، يتحول الضوء إلى الأخضر. ما من أحد من أفراد الأسرة مسموح له بدخول هذه الغرفة. ولا حتى السيدة تايلور، ماجي أو روي.

الوقت الذي أمضيته مع أسرة تايلور ساعدني على نسيان الوقائع المـــؤذية في مومباي. شانتارام ونيليما كوماري أصبحا ذكريات موجعة إنمـــا بعيدة. على مدى الشهور القلائل الأولى عشتُ في فزع مستمر، أنكمـــش خوفاً كلما تجتاز سيارة شرطة جيب ذات ضوء أحمر وامض المجمع. بمرور الوقت، بدأ يتبدد إحساسي بأنني مطارد. كنتُ أفكر في كـــثير من الأحيان بغوديا، أيضاً، وأسائل نفسي ماذا جرى لها، إنما من العـــسير أن تستبقي ذكرى ما إذا لم يكن لديك وجه ما كي ترفقه مع الاســـم. شـــيئاً فشيئاً، اختفت غوديا في صندوق قمامة ماضي حياتي. لكنني لم أستطع نسيان سالم. في كثير من الأحيان كنتُ أشعر بالذنب لأنني تركته ومضيت. ساءلتُ نفسي كيف يتغلب هو على المشكلات والمـــصاعب، ومـــا إذا كـــان لا يزال يعمل بصفة (دابا والا – موزع وجـــبات الغداء)؟ لكنني أحجمتُ عن الاتصال به، خشية أن يكشف هذا – ربما – مكان وجودي للشرطة.

خلال إقامتي مع عائلة تايلور، تعلمتُ أن أزخرف دمى باربي وأصنع المذوَّبة[1]. أصبحتُ ضليعاً في مزج المشروبات وفي قياس الشراب الاسكتلندي بالجرعة. تذوقتُ شرائح لحم الكنغر وزُلابيات التمساح المستوردة مباشرةً من كانبيرا. أصبحتُ هاوياً في ألعاب الركبي، وكرة المضرب، وشيء ما يدعى قواعد أوسي، التي أشاهدها مع روي. إنما حتى بعد هذا الوقت كله، ما زلتُ أكافح مع اللهجة الأسترالية. أجلس، كل مساء، في غرفتي وأتمرن على التكلم بلهجة مواطن أسترالي.

"نهار طيب، زميل، أراكَ ليلاً عند بوابة الهند"، أقول وأنفجر ضاحكاً.

أستمتع بصورة خاصة بالذهاب للتسوّق مع السيدة تايلور. إنها تحصل على معظم مؤنها من أستراليا. إنما من حين إلى آخر نشتري المنتوجات المستوردة من سوبر بازار وخان ماركت. نشتري الكوريزو[2] الإسباني، وجبن روكفورت، والخيار الصغير في الماء المالح والفلفل الحار في زيت الزيتون. أفضل الأيام هي حين تأخذ معها ماجي وروي إلى كَدِز مارت، أكبر مخازن الأطفال في العالم كله. يعرضون فيه الملابس والدراجات الهوائية والكاسيتات. ماجي وروي يشتريان الكنزات الفضفاضة وسراويل الجينز وأستطيع التمتع بدوامة الخيل.

تحصل ماجي وروي على مجلة شهرياً. تُسمى الجغرافيّة الأسترالية. أعتقد أنها أفضل مجلة على سطح الأرض. إنها متخمة بصفحة فوق صفحة بصور فوتوغرافية لأكثر الأمكنة بهاءً في العالم، جميعها في أستراليا. ثمة سواحل ذات أميال من الرمل الذهبي. جزر تحفها

(1) المذوَّبة foudun: طعام من جبن مذوَّب وزبدة وبيض إلخ – م.

(2) الكوريزو chorizo: سجق من لحم مقدد، ذو أنواع مختلفة – م.

أشـــجار نخيل محببة إلى القلب. محيطات مليئة بالحيتان وأسماك القرش. مـــدن تعـــج بناطحات السحاب. براكين تقذف حمماً مُهلِكة. جبال مكللـــة بالـــثلج تحضن ودياناً خضراء ساكنة. في سن الرابعة عشرة، طموحـــي الوحيد هو أن أرى هذه الأمكنة الجميلة، الآسرة. أن أزور كوينـــزلاند وتاسمانيا والحيد المرجاني الكبير قبل أن ألفظ أنفاسي.

حـــياتي مع أسرة تايلور مريحة، أيضاً، لأنني لا أملك عملاً كثيراً كـــي أؤديه. على خلاف منـــزل المثلة، حيثُ كنتُ الخادم الوحيد، هنالك ثلاثة آخرون هنا أتقاسم معهم العمل. رامو هو الطاهي والمطبخ كله من مسؤوليته. شانتي تهيئ الأسرّة وتقوم بغسل الثياب. عليّ فقط أن أنظـــف بالمكنسة الكهربائية ومن دونها. من وقت إلى آخر، أصقل أيضاً سكاكين المائدة الفضية، أكدس الكتب في مكتبة الكولونيل تايلور وأساعد بهاغواتي في تشذيب الأسيجة المؤلفة من الشجيرات. نقيم كلنا في مسكن الخدم الملاصق للمنـــزل الرئيس. لدينا حجرة واحدة كبيرة وحجرتان صغيرتان. يقيم بهاغواتي في الحجرة الكبيرة مع زوجته وابنه. تقيم شانتي في الثانية، وأتقاسم الثالثة مع رامو. للحجرة سريران معلقان في الجدار. أنام على السرير الذي في الأعلى.

رامـــو رجل لطيف. التحق بأسرة تايلور قبل أربعة شهور خلت وهو طاهٍ ممتاز. الادعاء الرئيس لشهرته هو أنه يعرف الطبخ الفرنسي، كـــونه عمـــل في وقـــت سابق لأسرة فرنسية. يمكنه أن يصنع كعكة السلمون، فطيرة حلوى تضاف إليها نكهة شراب، والجمبري مع فتات الخبـــز، وهو طبقي الأثير. رامو قوي البنية، ووجهه، إذا تجاهلت بثور الجـــدري، جميل المنظر. يحب مشاهدة الأفلام السينمائية الهندية. أفلامه المفـــضلة هي تلك التي تهرب فيها البطلة الثرية مع البطل الفقير. لديّ شك في أن شانتي تحب رامو. الطريقة التي تنظر بها إليه، تغمز له بعينيها

أحـــياناً، تجعلني أعتقد أنها تحاول أن تعطي رامو إشارةً ما. غير أن رامو لا يـــبالي بشانتي. كان مغرماً بامرأة أخرى. جعلني أقسم ألا أذكر هذا لأي شـــخص، لـــذا لا أستطيع أن أكشف الاسم. لكنني أحسب أنني أستطيع أن أذكر أنها فتاة جميلة ذات عينين زرقاوين وشعر ذهبـــي.

مع أنني أقيم في مسكن الخدم، تعاملني أسرة تايلور بوصفي جزءاً من الأسرة. كلما يذهبون في نـــزهة إلى مطعم ماكدونالد، يتذكرون أن يبتاعوا لي وجبة أولاد. حين يلعب روي وماجي سكرابل[1] فإنهما يضمانني إليهما دوماً. حين يشاهد روي مباريات الكريكيت في حجرة التلفاز، يدعونني دوماً إلى الالتحاق به؛ مع أنه يغدو مقرفاً حينما تخسر أستراليا المباراة. في كل مرة تسافر فيها أسرة تايلور إلى أستراليا لتمضية عطلـــة ما هناك، يصرون على أن يجلبوا لي هديةً صغيرةً؛ حلقة مفاتيح مكـــتوب علـــيها أحـــب سيدني أو قميص قطني تي شيرت ذو رسالة مضحكة. غالباً يدفعني هذا العطف كله إلى البكاء. حين أتناول شريحةً من جبن آدم أو أشرب علبة شراب الجذور[2]، أجد أنه من الصعب أن أصـــدّق أنني نفس الغلام اليتيم الذي كان يتناول أرغفة الخبز الثخينة المـــسوّدة والطعـــام المطبوخ بالغلي البطيء غير القابل للهضم في ملجأ أحـــداث قذر قبل مدة زمنية لا تزيد على خمس سنوات خلت. يحدث لي في بعـــض الأحـــيان أن أبـــدأ بتصوّر نفسي جزءاً من هذه الأسرة الأسترالية. رام محمد تايلور. لكن حين يتم تأنيب أحد الخدم أو صرفه مـــن الخدمة أو حين يهز الكولونيل تايلور إصبعاً ويقول: "أنتم الهنود

(1) ســـكرابل Scrabble: لعبة كلمات تُلعب بأقراص ذات حروف مخمنة على لـــوحة لغرض تكوين كلمات مجاورة لتلك المكشوفة أصلاً وذلك باستخدام أقصى التخمينات – م.

(2) شراب الجذور Root beer: شراب غازي أو فوّار مُنكّه بخلاصات الجذور والأعشاب – م.

الحقـــراء"، يتهـــشم عالم الحلم خاصتي، وأبدأ بتصور نفسي كهجين يختلس النظر عبر نافذة مسدودة إلى عالم غريب لا أنتمي إليه.

إنمـــا ثمـــة شـــيء واحد يعود إليّ، وهو المال الذي يتكدّس من راتبـــي، مع أنني حتى الآن لم أرَه و لم ألمسه. بعد تجارب سيئة مع قافلة من الخدم، قرر الكولونيل تايلور ألاّ يهبني راتباً شهرياً استناداً إلى حقيقة كـــوني قاصراً. يهبني فقط خمسين روبية شهرياً كمصروف جيب. من المفـــروض أن أتـــسلم بقية راتبـــي كمدخرات متراكمة فقط في حالة إنهاء خدماتي. في حال كنتُ قد تصرفتُ بصورة جيدة، بخلاف ذلك، علـــى غـــرار راجـــو وأجاي، تكون الحال مع السلامة من دون دفع الـــراتب. بصورة مختلفة عني، يتسلم رامو راتباً شهرياً، عبارة عن ألفي روبـــية بالتمام. كان قد كدّس حتى الآن مبلغاً قدره ثمانية آلاف روبية يحفظها مخبئةً بأمان في حيز فارغ في فراش سريره. لديّ فقط مائة روبية في جيبـــــي، إنمـــا لديّ دفتر يوميات أحمر صغير أحفظ فيه راتبـــي شهرياً. حتى اليوم، أسرة تايلور مدينة لي باثنين وعشرين ألفاً وخمسمائة روبية. مجرد فكرة كوني أملك كل هذا المال تجعلني أشعر بالدوار.

أحلـــم ليلياً بزيارة الأمكنة التي أشاهدها في الجغرافيّة الأسترالية. لـــرامو طموحات أكبر. إنه يحلم بالزواج بفتاة بيضاء جميلة وأن يمضي شـــهر العـــسل في ســـيدني، وأن يباشر بالعمل في سلسلة من المطاعم الفرنسية حيث يقدّم لحم الغزال وقشدة كراميل.

جارنـــا تاجر السلع المستعملة، أو كاباريوالا، موجود هنا. تبيعه السيدة تايلور كل الصحف والمجلات التي ادخرناها على مدى الشهور الـــستة الماضية. لا بد أن شراءها كلّف على الأقل عشرة آلاف روبية. لكنـــنا نبيعها بسعر خمس عشرة روبية للكيلوغرام الواحد. نجلب رامو

وأنا رزماً ثقيلةً من تايمز أوف إنديا، إنديان إكسبرس، البايونير والهندو. نسحب النسخ المكدّسة من إنديا تودي، فمينا، كوزموبوليتان وذا أوستراليان. يزنها الكاباريوالا في ميزانه المغبر. يظهر روي في المشهد فجأةً. يسأل أمه قائلاً: "ما الذي يجري؟".

تجيبه: "لا شيء. نحن فقط نتخلص من كل الصحف المستعملة في المنزل".

"أوه، هل ذلك صحيح؟" يقول ويختفي في المنزل. يظهر بعد خمس دقائق مسلحاً بثلاثين نسخة من الجغرافيّة الأسترالية. يتدلى فكي بسبب صدمتي. كيف يستطيع روي حتى أن يفكر في بيع هذه المجلات؟

إنما قبل أن أقول أي شيء، كان الكاباريوالا قد وزن المجلات الثقيلة. "هذه يصل وزنها إلى ستة كيلوغرامات سأعطيكَ تسعين روبية ثمنها"، يقول لروي. يومئ الغلام برأسه. انتهت الصفقة. أعود مسرعاً إلى حجرتي.

حالما يغادر الكاباريوالا المنزل، أدنو منه في الطريق وأخاطبه قائلاً: "أنا آسف جداً، لكن زوجة *الصاحب* تريد أن تعيد إليها تلك المجلات".

يهز كتفيه استهجاناً. "شيء غاية في السوء. لقد اشتريتُها الآن. هي ذات ورق ممتاز ستعود عليّ بثمن ممتاز". في النهاية وجب عليَّ أن أعطيه روبياتي المائة، لكنني استعدتُ أعداد الجغرافيّة الأسترالية. هي الآن ملكي. ذلك المساء، أنشرها كلها في حجرتي الصغيرة جداً، وأشاهد صور الجبال والسواحل، قنديل البحر وجراد البحر، القاوند الضحاك[1] والكناغر تطفو أمام عينيّ. بشكلٍ من الأشكال، هذه

(1) القاوند الضحاك Kookaburras: طائر مائي أسترالي بحجم الغراب يشبه صوته الضحك العالي – م.

الأمكنة الغريبة يبدو اليوم الوصول إليها أسهل. ربما حقيقة كوني أملك المجـــلات الآن يعـــني أنني أملك أيضاً جزءاً صغيراً جداً من محتوياتها في قلبـــي.

ثمة شيء آخر جدير بالذكر يحدث هذا الشهر هو الظهور الأول **للقـــابض علـــى الجواسيس**. هذا المسلسل كان له تأثير العاصفة على أستراليا. تجري أحداثه في ثمانينيات القرن العشرين، ويدور حول حياة ضـــابط الـــشرطة الأســـترالي المدعو ستيف نولان الذي يقبض على الجواســـيس. أصبح الكولونيل تايلور مدمناً كلياً على مشاهدته. تقريباً كـــل مساء يختفي في وكره ولا يخرج منه إلا لتناول طعام العشاء. إنما تـــأتي لـــيلة الأربعاء، يجلس في حجرة التلفاز ثملاً من شراب الشعير، ويشاهد ستيف نولان يقبض على الأجانب القذرين يُدعون *الشيوعيين* يبـــيعون الأســـرار إلى مـــنظمة روسية تُدعى الكيه جي بـــي. أحب المسلـــسل بـــسبب مطاردات السيارات، الأعمال الجريئة التي تتحدى الموت والأدوات الهادئة، من مثل قلم الحبر الذي يتحول إلى آلة تصوير مـــصغرة، ومُسجِل الشريط الذي يصبح مسدساً. كنتُ مفتوناً بسيارة ســـتيف نـــولان؛ فـــيراري حمراء ساطعة تندفع بسرعة عبر الشوارع كالصاروخ.

حفلـــة حديقـــة أسرة تايلور هي موعد محدد ومنتظم إبان موسم الـــصيف، إنما حفلة اليوم شيء خاص. إنها على شرف جنرال زائر من أســـتراليا وحتى المندوب الأعلى للحكومة سيحضر. رامو وأنا، لأول مـــرة، وحتى بهاغواتي، نقف ثابتين؛ نرتدي بذلات نظامية بيضاء نظيفة ذات أزرار ذهبية مدورة، ونضع قفازات بيضاء، وننتعل أحذية سوداء، ونعتمـــر عمامـــات بيضاء كبيرة ذات أذيال صغيرة تجلس بصورة غير

مـــريحة علـــى رؤوسنا الصغيرة. إنها من النوع الذي يلبسه العرسان في احـــتفالات الزواج. عدا أننا لا نبدو كالعرسان على صهوات الجياد. نبدو أشبه بنُدُّل ممتازين في حفلة حديقة فاخرة.

يـــبدأ الضيوف بالوصول. يرحب بهم الكولونيل تايلور في المرج الخلفـــي جـــيد التـــشذيب، وهو يرتدي بذلة بلون أزرق فاتح. رامو مشغول بشي أسياخ: لحم الدجاج، والسمك، ولحم الضأن على حفرة الشوي. يقدّم بهاغواتي الكوكتيلات للضيوف على صينية فضة. أما أنا فأقوم بالخدمة في المشرب. شانتي مشغولة بتقديم الخدمة في المطبخ. حتى هي ترتدي تنورةً أنيقةً بدلاً من الساري المألوف خاصتها.

الـــضيوف معظمهـــم بيض البشرة ومن سفارات أخرى. هنالك أيـــضاً عدد ضئيل من الهنود؛ صحافيان وموظفون من وزارة الدفاع. يحتـــسي البيض شراب شعير والكوكتيلات. الهنود، كالعادة، يطلبون فقـــط شـــراباً اسكتلندياً. الحوار في حفلة الحديقة يقع في فئتين. يتكلم الهـــنود حـــول الـــسياسة والكريكيت. أما الدبلوماسيون والمغتربون فيتـــبادلون الأحاديث غير المتكلفة حول خدمهم وزملائهم وينتحلون أقوال الغير في ما يتعلق بالحر. "إنه حر لاذع جداً. أتمنى أن يعلنوا عطلةً مـــا". "هربت خادمتي قبل مدة ما مع البستاني بعد أن رقيتهما". "من الـــصعب جـــداً أن تحصل على خدمة جيدة هذه الأيام. معظم هؤلاء الخدم الحقراء لصوص".

أحدث وصول المندوب الأعلى للحكومة مع رجل يرتدي ملابس فاخـــرةً وأنـــيقةً هو - كما قيل لي - الجنرال، غمغمةً مختلطةً. كادت الـــسيدة تايلـــور أن تسقط عندما أسرعت الخطى للترحيب بالمندوب الأعلـــى. هـــنالك كـــثير مـــن القبلات والمصافحات بالأيدي. يبدو الكولونيل تايلور مسروراً. الحفلة تسير سيراً حسناً.

عـــند الـــساعة الحاديـــة عشرة ليلاً، يغادر جميع الضيوف. فقط الصحافيان الهنديان والموظف من وزارة الدفاع المدعو جيفان كومار لا يـــزالون جالسين يرضعون جرعتهم العاشرة من الشراب الاسكتلندي. تتطلع إليهم السيدة تايلور بازدراء. تخاطب زوجها قائلةً: "تشارلز، لماذا وجـــب عليك أن تدعو هذين الصحفيين الدعيين الحقيرين؟ إنهما دوماً آخر من يغادر".

يثير الكولونيل تايلور ضوضاءات عاطفية. موظف وزارة الدفاع، رجـــل داكـــن البـــشرة، ممتلئ الجسم، يطوف خلسةً داخل المنـــزل. يـــصيح: "هـــل يمكنني أن أتحدث إليك بكلمة، سيد تايلور؟" يسرع الكولونيل تايلور خلفه.

كـــان الـــوقت قد تجاوز منتصف الليل ورامو لا يزال مستيقظاً. أسمعه يتقلب في سريره المثبت في الجدار "ما الخطب، رامو؟ ألا تستطيع أن تنام الليلة؟" أسأله.

"كيف يمكنني أن أنام، توماس؟ حبيبتي تعذبني".

"أنتَ أحمق. كم مرة قلتُ لكَ ألا تفكر في هذا الأمر الوهمي؟ إذا اكتشف الكولونيل تايلور الأمر سيذبحك".

"علـــى العشاق أن يكونوا مستعدين للتضحية بأنفسهم من أجل عشقهم. إنما على الأقل معي الآن قطعة من حبـــي".

"ماذا؟ ماذا لديك؟" أنـــزلُ من سريري.

"شـــشـــش... سأريك إياها فقط إذا أقسمتَ لي ألا تريها لأحد".

"حسن، حسن، أقسم. الآن أرني ماذا لديك".

يدس رامو يده تحت وسادته ويخرج قطعةً من قماش أحمر. يقرّبها من منخريه ويستنشق بعمق. حتى أنا في وسعي أن أشم عطراً خفيفاً.

"ما هي؟ يلزمك أن تريها لي".

ينـــشرها رامـــو كالعَلَم. إنها حمالة صدر حمراء. أثب مصدوماً، وأضرب رأسي على الدرابزين الخشبـــي.

"أوه، من أين حصلتَ عليها؟ لا تقل لي إنها خاصتها".

"الآن، شاهدها بنفسك". يسلمني رامو حمالة الصدر.

أقلّب حمالة الصدر. تبدو أشبه بقطعة ثمينة جداً، مليئة بتطريز الدانتيل. لها رقعة[1] صغيرة بيضاء قرب الكلابين تشير إلى: "فيكتوريا سيكرت".

أسأله: "من هي فيكتوريا؟".

"فيكتوريا؟ لا أعرف أي فيكتوريا".

"حمالة الصدر هذه تعود لفيكتوريا. إنها حتى تملك اسمها. من أين حصلتَ عليها؟".

رامـــو مـــضطرب ومشوش. "لكنني... لكنني سرقتها من حجرة ماجي".

"أوه رامو! أنتَ تعرف أنه غير مسموح لك الذهاب إلى حجرتي نوم الطفلين. الآن ستواجه مشكلةً حقيقيةً".

"انظر، توماس، وعدتني ألا تخبر أحداً. من فضلك، أتوسل إليكَ، لا تكشف هذا السر".

أرسم إشارة على قلبـــي فيما أتسلّق عائداً إلى سريري. في الحال يـــبدأ رامـــو يغط في نومه. أعرف أنه يحلم بفتاة ذات عينين زرقاوين وشعر ذهبـــي. لكنني أحلم بسيارة جيب ذات ضوء أحمر وامض. أنا مقتنع أن رامو يتجه صوب مشكلة ما. لأن الكولونيل تايلور هو *الرجل الذي يعرف*.

---

(1) رقعـــة label: رقعة تثبت على شيء ما، لتدل على محتوياته أو أوصافه أو حجمه أو علامته التجارية – م.

من دون ريب، بعدها بيومين تأتي سيارة جيب ذات ضوء أحمر وامض، تأتي صارخةً إلى المنــزل. ضابط شرطة يضع نظارة شمسية يمــشي متباهياً في ردهة الاستقبال. هو ضابط الشرطة نفسه تياغي الذي ألقى القبض على أجاي. يسأل عن رامو، ويجر موظفو الأمن الطاهــي مــن المطــبخ ويأخذونه إلى حجرته. أعدو وراءهم. إنها حجرتي أيضاً. ينقبون في سرير رامو. يجدون المال في داخل فراشه. يكتشفون كذلك قلادة ألماس تستكن تحت وسادته. كيف وصلت إلى هناك لا أدري، لكنني أعرف أن رامو ليس لصاً. ثم راح موظفو الأمــن يفتــشون في حاجياتي. يجدون مجلات الجغرافيّة الأسترالية خاصــتي، مكدّسة بصورة مرتبة في أحد الأركان. يجدون حلقات المفاتيح خاصتي وقميصي القطنيةً. ومن ثم يجدون حمالة صدر حمراء مجعدة تحت فراشي. كيف وصلت إلى هناك ليست لديّ أدنى فكرة، لكــنني أعرف أنها حمالة الصدر نفسها التي سرقها رامو من حجرة ماجي.

أحضروني أمام عائلة تايلور كمحكوم سيئ السمعة. "أيها *الصاحب* تايلور، كنتَ تتكلم فقط عن لص واحد في المنــزل، وجدنا قلادة ألماس وكثيراً من الأوراق المالية المسروقة في سريره. إنما ماذا وجدنا في ســرير ابن الساقطة الصغير هذا. وجدنا هذه المجلات، التي لا بد أنــه سرقها من الأولاد -" يُسقط كدس الجغرافيّة الأسترالية على الأرض، "ووجدنا هذه". ينشر ضابط الشرطة حمالة الصدر الحمراء كالعَلَم.

تشرع ماجي بالبكاء. يبدو رامو كما لو أنه على حافة الإغماء. تلوح في عينيّ الكولونيل تايلور ومضة قاتلة.

"يـــا سلام! أنتَ أيضاً، توماس؟" تقول السيدة تايلور، مصدومةً تماماً. تستبد بها ثورة غضب، وتصفعني أربع أو خمس مرات. تتحدث بطريقة مسرحية: "أنتم الهنود الحقراء! كلكم سواء. لستم سوى كسالى عـــاقين. نغـــذيكم ونكسوكم وهذا ما تبادلوننا به، تحاولون أن تنهبوا ممتلكاتنا الشخصية؟".

يأتي الكولونيل تايلور لإنقاذي. "لا، ربيكا"، يقول لزوجته. فرقعة معتدلة للسوط. "توماس فتى طيب. ابن الساقطة رامو هو الذي أخفى هذا في سريره. صدقيني، أعرف ذلك".

يبرهن الكولونيل تايلور مرةً أخرى أيضاً على أنه *الرجل الذي يعـــرف*. تنقذني معرفته غير المحدودة ذلك اليوم، وأسترجع مجموعتي من الجغرافيّة الأسترالية. إلا أن سواحل كوينـــزلاند والحياة البرية في تاسمانيا لم تعودا تغريني بعد الآن. ينتحب رامو ويعترف بنشل حمالة الـــصدر، إلا أنه يستمر في توكيده على أنه لم يسرق القلادة. يشير بإصـــبع الابهـــام إلى شانتي. إنما هذا كله بلا جدوى. يأخذه ضابط الشرطة في سيارته الجيب. يأخذ كذلك زجاجة شراب اسكتلندي مـــن الكولونيل تايلور، ويبتسم كاشفاً عن أسنانه. "شكراً جزيلاً، أيها *الصاحب* تايلور. في أي مرة تحتاج فيها إلى خدمتي، فقط اتصل بـــــي هاتفياً. إنها لسعادة قصوى أن نقدّم لك خدمةً ما. هي ذي بطاقتي".

يأخذ الكولونيل تايلور البطاقة بشرود ذهن، ويتركها على الطاولة الجانبية في ردهة الاستقبال.

هـــنالك كـــثير من الهرج والمرج في المنـــزل. تحصل أسرة تايلور علـــى كلـــب مدلل لماجي. يأتي به الكولونيل إلى المنـــزل بطوق. هو

صـــغير ومكسو بالفراء، ذو خطم ندي صغير جداً، وذيل طويل. يبدو أشبه بدمية ويعوي بدلاً من أن ينبح. تقول ماجي أنه أبسو[1]. تقرر أن تسميه روفر.

مجدداً ثمة هياج في المنـــزل. وصل طاه جديد، اسمه جاي، إنه لا يعـــرف نصف الأشياء التي كان يعرفها رامو. لا بأس بكونه لا يعرف أسلوب الطبخ الفرنسي، إنه لا يستطيع حتى لفظ كلمتي au gratin[2]. لكنه يحصل على المهنة لأنه إنسان ناضج، متزوج، وله ابنتان يقيمون في قـــرية قريبة. لم أكن سعيداً جداً بمشاركته حجرتي مجدداً. كنتُ أتمتع بالنوم وحيداً على السريرين المثبتين في الجدار. في بعض الليالي أنام على السرير العلوي وفي ليالٍ أخرى على السفلي.

كـــرهت جـــاي على الفور، له عينان مراوغتان. يدخن سراً في الحجـــرة؛ التدخين في مقر إقامة أسرة تايلور ممنوع، ويعاملني كما لو كنتُ خادماً. "ما هو طموحك في الحياة؟" يسألني على غرار المعلم في ملجأ الأحداث.

أكـــذب قائلاً: "أن أملك سيارة فيراري حمراء. ما هو طموحك أنتَ؟".

يـــشعل ســـيجارةً أخرى، ويجعل حلقات الدخان تدوّم خارجةً من فمـــه. "أريد أن أفتح مرأباً، لكنه يكلّف مالاً. لي صديق ثري جداً، عمّار، وعـــدني أنـــني إن اســـتطعت أن أرتب مائةً وخمسين ألفاً، سيجمع المبلغ المتبقي. كم تعتقد أن هؤلاء الغربيين يملكون من المال في المنـــزل؟".

(1) أبسو Apso: صنف من الكلاب الصغيرة، غير الرياضية، ذو غطاء طويل، سبط. أصله من التيبت. تعني كلمة أبسو في اللغة التيبيتية: الملتحي – م.

(2) au gratin بالفرنسية: مطهو مع طبقة من كسر الخبز أو الجبن المبشور – م.

التزمتُ الصمت. لذا من الأسبوع الأول تحديداً، بدأ السيد جاي يـــضع خطـــةً للسرقة. إنه شيء جيد كونه لا يعرف عن *الرجل الذي يعرف*. سيكتشف ذلك حالاً.

يبدأ الكولونيل تايلور بالتنـــزه مشياً على الأقدام في ساعة مبكرة من الصباح بصحبة روفر إلى حديقة لودهي، القريبة من المنـــزل. إلى أن تسن حكـــومة دلهـــي قانوناً جديداً يلزم الناس ذوي الكلاب المدللة أن يجرفوا فضلات الكلب المبعثرة وإلا عليهم أن يواجهوا غرامات ضخمة، من ذلك الـــوقت فصاعداً أُعطيت إليّ التعليمات أن أرافق السيد والكلب وأن أقوم بوظيفة كناس لروفر. أمقتُ هذا العمل الروتيني. تخيلي أنه يجب عليك أن تنهضي من السرير عند الخامسة والنصف صباحاً وأن تذهبـــي مسرعةً مع مجرفة خلف كلب قذر وغبـــي يتبرز كل دقيقتين. حديقة لودهي، بالرغم مـــن ذلك، مكان جميل لنـــزهة صباحية مشياً على الأقدام. لها كم كبير مـــن النباتات الخضراء وتمثال منهار موغل في القدم يدعى بارا غومباد في الوســـط. صباحاً يكون المتنـــزه مليئاً بممارسي العدو الوئيد. أرى سيدات عجائـــز بدينات يمارسن اليوغا وفتيات فاقدات الشهية إلى الطعام يمارسن الـــتمارين الرياضية في الهواء الطلق. أبدأ أيضاً بملاحظة أن الكولونيل تايلور يـــتوارى غالـــباً عن الأنظار لحظات طويلة من الزمن حين أكون منشغلاً بجـــرف مخلفات روفر. هذا الأمر أثار اهتمامي، لذا أترك روفر ذات صباح لمـــشيئته الخاصة، وأقرر ملاحقة الكولونيل تايلور. أراه يجتاز بارا غومباد، ويتحـــرك صوب أجمة صغيرة. أختلس النظر من وراء شجرة كثيفة وأراه يحيي الهندي من وزارة الدفاع نفسه الذي حضر إلى حفلة الحديقة.

"هل تعرف، سيد كومار، أنني تبعتك ليلة أمس من منـــزلك في ساوث إكس إلى مخزن بيع الحلويات، و لم يكن لديك أي فكرة؟" يقول الكولونيل تايلور.

يتعـــرق جـــيفان كومار بغزارة وهو قلق ومتململ بصورة جلية. يـــبدو نادماً جداً. "أوه، أنا متأسف حقيقةً، أيها *الصاحب* الكولونيل. سأكون حذراً أكثر في المستقبل. أعرف أنه يجب ألا يرانا الناس معاً".

"بالطبع، سيد كومار، هذا لا يحتاج إلى القول. لكنك إذا تواصل تساهلكَ في ما يتعلق بسلامتكَ أخشى أنه ينبغي لنا أن نضع نهايةً لهذه اللقاءات وجهاً لوجه. تذكر القاعدة البسيطة CYTLYT"[1].

"CYTLYT؟".

"نعـــم. إنهـــا فعلاً بسيطة تماماً. ما تعنيه هو أن عليكَ ألا تسلك طـــريقاً مباشراً إلى غايتك. بدّل الطرقات، بدّل السيارات، اغطس في مخـــزن، اخرج من آخر، افعل ما شئتَ كي تشوش أثرك. حين تفعل ذلـــك، تغـــدو ملاحقـــتك شيئاً عسيراً جداً. كل من يتعقبكَ سيقر بعجزه".

"حسن، أيها الصاحب الكولونيل، سأتذكر ذلك. إنما دعني أروي لـــك الأنباء الجيدة. أعتقد أنني سأكون قادراً على أن أعطيكَ ما كنتَ تريده مني طيلة هذه المدة. التقيني يوم الجمعة الرابع عشر من هذا الشهر في موقـــف الـــسيارات خلف بلسونـــز في ساوث إكس. إنه مكان مهجور تماماً. الساعة الثامنة مساءً. جيد؟".

"جيد".

"ينتهـــي اللقـــاء. أُسرعُ عائداً إلى روفر قبل أن يرجع الكولونيل تايلور.

عيـــناي مفتوحـــتان على وسعهما في يوم الجمعة الرابع عشر من الـــشهر وأذنـــاي حساستان بصورة خاصة. يكشف الكولونيل تايلور

---

(1) CYTLYT بالإنكليـــزية اختصار لـــ Confuse Your Trail, Lose Your Tail ومعناها: شوّش أثرك، ضيّع ذيلك – م.

خططه لزوجته في وقت مبكر من الصباح. "ميكغيل، الملحق التجاري الجديـــد، يريد أن أريه مكانين في المدينة بعد العمل. لذا سأتأخر قليلاً، ربيكا. لا تنتظريني على الغداء".

"هـــذا رائـــع. دعتني زوجة المندوب الأعلى إلى حفلة على أحد الجسور، لذا فأنا أيضاً سأكون خارج المنـــزل؟" تقول السيدة تايلور.

يمكـــنني أن أستنتج من الوقائع. لماذا كذب الكولونيل تايلور على زوجـــته في مـــا يتعلق بلقائه؟ يومذاك تدّنت منـــزلته في نظري. أشعر بحزن رهيب نحو السيدة تايلور.

بعد رامو، جاء دور روي. ضبطه الكولونيل تايلور يقبل شانتي في حجرة نومه. أقسمت شانتي بروح أمها المتوفاة أنه ليس ثمة شيء بينها وبـــين بابا[1] روي وهذه هي أول مرة يقبلها فيها روي، وذلك، أيضاً، بطريق الخطأ. إنما كل توسلاتها بلا طائل. النتيجة متوقعة تماماً: الصرف الفـــوري من الخدمة. لكنها على الأقل تحصل على رواتبها. ربما يتلقى روي الـــضرب بسبب تقربه الشديد من الهنود الحقراء، وسيتم إيقاف كـــل تـــسوقه من كدز مارت. أقرر عدم القيام بأي أعمال تنظيف في حجرة نوم ماجي على مدى الأيام العشرة المقبلة كإجراء احترازي.

لـــو كنتُ فعلتُ ذلك، فلربما كان في وسعي أن أنقذها. لأنه ما يكـــاد يمر أسبوعان على فعلة روي، حتى كانت أخته في قفص الاتهام. إذ حصل *الرجل الذي يعرف* على دليل لا يقبل الجدل على أنها كانت تدخن السجائر في غرفتها، بالرغم من التعليمات الصارمة بهذا الشأن. تحـــاول ماجي أن تنكر التهمة، إلا أن الكولونيل تايلور يخرج كرتون

(1) بابـــا baba: لقـــب تـــشريف أو تبجيل، يستخدم في ثقافات آسيوية وشرق أوسطية عديدة – م.

السجائر الذي أخفته في داخل خزانة الثياب خاصتها وحتى أعقاب السجائر التي نسيت أن تتخلص منها. كانت تلك أيضاً نهاية رحلات تبضع ماجي إلى كدز مارت.

صدق أو لا تصدق، بعد مرور شهرين يضبط الكولونيل تايلور شخصاً آخر يخدع. زوجته هو، السيدة ربيكا تايلور. فقد تبين أن لها علاقة غرامية مع شخص ما في السفارة. "أنتِ الكلبة الحقيرة!" يصرخ بوجهها في حجرة نومهما. "سأنتقم منكِ ومن عشيقكِ اللامبالي". أسمع صوت صفعة وصوت تكسر شيء ما، أشبه بمزهرية. لم تنزل السيدة تايلور لتناول العشاء ذلك المساء. ماجي وروي أيضاً يحافظان على مسافة دالة على الاحترام عن أبيهما. لا أتمالك نفسي عن مواساة السيدة تايلور. اكتشف زوجها علاقتها الغرامية الصغيرة غير أنها لا تملك أدنى فكرة عن سرّه القذر. أريد أن أفشي سرّ الكولونيل تايلور. كيف يلتقي بالعجوز جيفان كومار في موقف سيارات مهجور. إنما أولئك الذين يقيمون في بيوت زجاج لا يستطيعون أن يرموا الآخرين بأحجار والخوف المستمر الذي ما انفك يزعجني هو أن *الرجل الذي يعرف* ربما يكتشف كيف دفعتُ شانتارام عبر الدرابزين. وربما يعرف عني أشياءً حتى أنا لا أعرفها.

فيما كانت تحدث كل هذه الأشياء المجنونة في أسرة تايلور، يدمّر جاي أعصابي. تحول طهوه من سيئ إلى أسوأ. حساءاته الشفافة خالية من أي طعم، أطعمته المنكهة بالكاري[1] تجعلني أقلق، وحتى روفر لا يأكل شرائح اللحم خاصته. يجعلني أشعر بالضجر حتى الموت بحديثه عن مرأبه الغبي والحصول على مائة وخمسين ألفاً. كنتُ قد

(1) الكاري curry: بهار هندي – م.

قــررتُ تقريباً أن أشكوه إلى الكولونيل تايلور حين تضرب التراجيديا العائلة. تتوفى أم الكولونيل تايلور في أديلايد. يحزن الجميع حزناً شديداً علـى مفارقتها الحياة. لأول مرة نرى الجانب الأرق من ضابط الجيش "سـنذهب كلنا بعيداً مدة أسبوع"، يقول لجاي بنبرة مخففة. "سيُغلق المنـزل. أنـت وتوماس يمكنكما أن تأكلا خارج المنـزل". ماجي وروي يبكـيان. عيـنا السيدة تايلور حمراوان. بطبيعة الحال، بهاغواتي ينشج كذلك. حتى عيناي يغشاهما الدمع. ثمة شخص واحد يبتسم سراً خلف جدار المطبخ. إنه جاي.

ليلتـئذ يقتحم جاي منـزل أسرة تايلور. لم يذهب إلى حجرتي الـولدين أو حجرة النوم الرئيسة. يذهب مباشرةً إلى *الوكر*. في البداية يفـصل التيار الكهربائي من النقاط الرئيسة. بعدها يقصر دائرة اللوح الكهربائي، يقطع القفل الضخم بمنشار قيد، يدفع المشبك الحديد جانباً ويركل الباب الخشبـي فينفتح فوراً.

أستيقظ من نومي على زعيق شديد آتٍ من مسكن تايلور. عند الساعة الثالثة فجراً أندفع مسرعاً إلى المنـزل وأكتشف فعلة جاي. هو داخل *الوكر*، يضرب رأسه بالجدار. يزبد قائلاً: "أولاد الساقطة هؤلاء. إنهم يعيشون كالملوك ولا يملكون قرشاً واحداً في المنـزل".

أجـراس الإنذار ترن في دماغي. أنا مقتنع أن *الرجل الذي يعرف* سيكتـشف خيانة جاي حتى وهو يحضر جنازة على بعد عشرة آلاف ميل. وإنني سأكون أيضاً متورطاً بمرافقتي له.

أصرخ به: "جاي، أيها المغفل، ماذا فعلتَ؟".

"لا شـيء أكثـر ممـا جئت إلى هنا من أجله. أنا لص محترف، توماس. أمضيت ثمانية أعوام في سجن تيهار. اعتقدتُ أنه مع كل هذا الأمـن، ابن الساقطة تايلور كان يحفظ جواهر الأسرة في هذه الحجرة.

إنما ليس ثمة قرش واحد هنا. ستة شهور من الجهد ضاعت كلها سدىً. جيد، إنني أعيد التيار الكهربائي وبعدها ستنتهي مهمتي. سآخذ مشغل الــدي في دي والأم بــي ثري في حجرة التلفاز. إنها فُتات، إنما ينبغي لي أن أحتــرم مهــنتي. يمكنك أن تنظف بعد رحيلي. وإذا حاولت أن تستدعي الشرطة سأكسر كل عظم من عظام جسمك".

بعد مغادرة جاي، أجيل بصري في أنحاء الغرفة. إنها مليئة بأدوات غــريبة المظهــر: ميكروفونات أشبه بأزهار دوار الشمس صغيرة جداً وآلات تصوير مصغرة كعيون منتزعة من الأجساد. ثمة إضمامات ورق تشير إلى: "صفر" مع مجموعات مؤتلفة لا معنى لها من الأعداد والحروف. هــنالك بعض الكتب: **فن الجاسوسية، مبادئ العنصر المضاد الجيد، التجــسس للدمى.** ثمة أوراق تحمل رقع *ليبلات* مثل: *سري جداً ومن أجــل عينيك فقط*، ورسوم من شتى الأنواع، أحدها يشير إلى: *وعاء التكنولوجيا المتقدمة تصميم المفاعل النووي*، وآخر يشير إلى: *مخططات تحــت سطح البحر*. وثمة دُرج مليء بأشرطة VHS مصغرة. أنظر إلى الرقع الملصقة على الأشرطة، مرتبة بحسب الأبجدية الإنكليزية: أجاي، بهاغــواتي، HC (المندوب الأعلى)، جيفان، جونــز، ماجي، ميكغيل، راج، رامــيش، ربيكا، روي، شانتي، ستيوارت، وتوماس. وفي داخل الــدُرج الــثاني ثمــة مشغل فيديو متنقل مخفي. بيدين مرتعشتين أجرّ شــريطي وأُدخلــه في المشغل. تصبح الشاشة متقدةً بصور من غرفتي. أرى نفــسي مــضطجعاً على سريري؛ أكتب في دفتر يومياتي الأحمر؛ أتحدث إلى رامو؛ نائماً في فراشي. أسرّع الشريط كي أرى ما إذا كان هــنالك أي صــور لشانتارام. من ثم أدخل الشريط الذي يحمل اسم الــسيدة تايلور. هي جالسة على سريرها. يدخل رجل خلسةً ويطوّقها بذراعــيه. أســتطيع أن أرى ظهره فقط. يقبلها قبلةً طويلةً ومتأججةً.

فجـــأةً هـــنالك قرع على الباب والرجل يدور حول نفسه وينظر إليّ مباشـــرةً. أكاد أموت من الرعب. إنه المندوب الأعلى. بسرعة أخرج الـــشريط، وأطفئ مشغل الفيديو. على مدى دقيقتين أقف جامداً بلا حـــراك، قلقـــاً من أن آلة تصوير سرية ربما تكون فاعلةً حتى في هذه الحجرة. بعدها أتنفس بعمق. الآن أعرف كيف أصبح الكولونيل تايلور *الـــرجل الذي يعرف*. لقد زرع المنـــزل كله وربما المدينة كلها بآلات التـــصوير وأجهزة تنصت. إنه جاسوس. لكنني لستُ ستيف نولان من مسلـــسل **القابض على الجواسيس**. أحصل على ألف وخمسمائة روبية شـــهرياً، وبلغ مجموع ما كسبته ثلاثة وأربعين ألفاً وخمسمائة روبية، حفظـــتها في دفتر يومياتي الأحمر. ولا أريد أن يبقى هذا المال كله في دفتـــر يوميات فقط. أريد أن ألمس حزم الأوراق المالية، أتلمس السطح الـــناعم لـــلأوراق النقدية الجديدة المجعدة. لذا سأبقي فمي مسدوداً. وابتسم في كل مرة يبتسم فيها *الصاحب* وزوجته.

أتصل بالكولونيل تايلور على رقم هاتفه النقال. "أنا متأسف جداً لإزعاجـــك، سيدي، إنما كانت هنالك حادثة سرقة في المنـــزل. أخذ جاي مشغل الدي في دي والأم بـــي ثري وقد اقتحم *الوكر* أيضاً".

"ماذا؟".

"نعم، سيدي. أنا متأسف، سيدي".

"انظـــر، تـــوماس، أريـــدك أن تصون *الوكر* حالاً. انتزع القفل الـــضخم المكسور. لا يلزمك أن تدخل الغرفة. فقط ضع أي قفل من الأقفال على الباب ولا تسمح لأي شخص بدخوله. إنه شيء مهم جداً ألاّ تستدعي الشرطة. إذا رن جرس الإنذار، فقط اضغط بشدة الشيفرة الآتية على دثار المفاتيح على الباب: 0007. فهمت؟ 0007 وسيتوقف عن العمل. سأعود بالطائرة حالاً وسأكون في دلهي بعد ظهر غد، إنما

حتى وقت وصولي أريد منكَ أن تتأكد من عدم دخول أي فرد إلى *الوكر*. هل فهمت؟".

"أجل، سيدي".

يعود الكولونيل تايلور إلى دلهي حتى من دون حضور جنازة أمه. يندفع مسرعاً إلى الوكر حالما تنسحب سيارة الأجرة خارج المنزل. يخرج وقد لاح عليه الارتياح. "حمداً لله، لم يؤخذ شيء من الغرفة. أحسنتَ صنيعاً، توماس. كنتُ أعرفُ أنني أستطيع الاعتماد عليك".

* * *

على مدى الشهور الستة التالية، انزلقتْ حياتي عائدةً من جديد إلى العمل النمطي الرتيب نفسه كالسابق. ثم استخدام طاهٍ جديد لم يكن في نطاق الأميال الألف لسجن تيهار. صُرِفَ هاغواتي من الخدمة لأنه يأخذ السيارة من دون موافقة إلى حفلة عرس في أسرته. يتم اكتشاف صديق ماجي الجديد المدعو جيمس، ويمنع من دخول المنزل. يُضبط روي وهو يتناول العقاقير المخدرة ويُضرب بالسوط. السيدة تايلور وزوجها يواصلان التكلم أحدهما مع الآخر برسميات جليدية. أفترض أن الكولونيل تايلور يتابع لقاءاته مع جيفان كومار في الأزقة المنعزلة ومرائب السيارات المهجورة.

ماجي وروي يلعبان السكرابل في حجرة المعيشة. يطلبان مني أن أنضم إليهما. تعلمتُ كلمات جديدة كثيرة فيما أنا أمارس معهما هذه اللعبة، مثل بنغيل، وبريكي، وجولكي، ودوش، وسكايت، وسبانك. تفوز ماجي دوماً في هذه الألعاب. مفرداها جيدة حقيقةً. هي الشخص الوحيد الذي يعرف كلمات بثمانية حروف وذات مرة كوّنت كلمة من تسعة حروف. أنا الأسوأ بينهما. أكوّن كلمات مثل يذهب،

ويأكـــل، ويغني، ويبقى. ذات مرة في مدة طويلة جداً، حصلتُ على كلمات من ستة أو سبعة حروف، لكنني مع ذلك أنال أدنى النقاط في نهاية المطاف. غالباً يدور في خلدي أن روي يدعوني بوصفي لاعباً ثالثاً كي لا يأتي هو في الأخير. اليوم، لم تكن حروفي جيدة. فثمة الكثير من حروف (x) وحروف (j) وحروف (k) وحروف (l). تكاد المباراة أن تـــصل إلى نهايتها. ماجي لديها (203) نقاط، روي لديه (175) نقطة وأنا لـــديّ (104) نقاط. آخر سبعة حروف عائدة لي هي: G,P,E,E,S,A,I. أفكـــر في أن أكوّن كلمة page أو see. بعدها يستخدم روي حرف (o) من إحدى كلمات ماجي كي يكوّن كلمة "on" وأمسك بها في ومضة خاطفـــة. أضع الحروف E,S,P وحرف I قبل O وG وA بعد حرف N. Espionage (تجـــسس). هذه الحروف كلها تجمع سبع عشرة نقطة، وثلاثة أضعاف هذا العدد لوضعها على مربع أحمر وإضافة خمسين نقطة لاستخدام الآجرات السبع كلها. (101) نقطة. خذيها، ماجي!

كنتُ أحوم حول الهاتف طيلة النهار. تتوقع ماجي اتصالاً هاتفياً مـــن جيمس وقد أعلمتني أن أرفع سماعة الهاتف قبل أن يرفعها والدها من الوكر. يرن الهاتف أخيراً عند السابعة والربع مساءً. أرفع السماعة بومضة خاطفة. إلا أن الكولونيل تايلور سبقني إليه. يقول: "هالو".

ثمـــة أنفاس ثقيلة في الطرف الآخر من الخط. ثم يطفو صوت جيفان كومار على التشوش. "التقيني غداً، الخميس، عند الساعة الثامنة مساءً عند مخزن كوالتي لبيع الآيس كريم قرب بوابة الهند. لديّ مادة الديناميت".

"جيد"، يقول الكولونيل تايلور، وينهي الاتصال.

يجلس الكولونيل تايلور حاملاً عقب سيجارته في حجرة المعيشة، يـــشاهد آخـــر أحداث مسلسل **القابض على الجواسيس**. هذه المرة

ستيف نولان في أزمة حقيقية. اكتشف أن أفضل أصدقائه، الصديق الذي ذهب معه إلى الكلية، الصديق الذي كان أفضل رجل في حفل عرسه، هو جاسوس شيوعي. إنه حزين جداً. لا يدري ماذا يفعل. يجلس في مشرب في حالة مزرية ويحتسي كميات كبيرة من الشراب الاسكتلندي. عندئذ يقول له الساقي: "إنه عالم قذر، إنما لا أحد يوافق على القيام بالغسل، البلد بأكمله يهبط إلى منزل البراز". يسمع ستيف نولان هذا ويغدو مشحوناً تماماً. يسرع إلى منزل الجاسوس الشيوعي بسيارته الفيراري الحمراء. "أنتَ إنسان طيب، تقوم بوظيفة سيئة"، يقول لصديقه، قبل أن يستل مسدسه. "الصداقة مهمة. غير أن البلد يأتي أولاً. أنا متأسف"، ويطلق عليه النار فيرديه قتيلاً في الحال.

* * *

الليلة التالية تأتي سيارة جيب تابعة للشرطة وسيارة سفير كلتاهما ذات ضوء أحمر وامض، تأتيان لتفتيش المنزل عند الساعة العاشرة مساءً. ضابط الشرطة نفسه الذي اعتقل رامو يخرج، مع مفوَّض الشرطة. الكولونيل تايلور معهما، يبدو شبيهاً بستيف نولان في المشرب. في غضون عشر دقائق، يصل المندوب الأعلى أيضاً، يبدو شديد التجهم. "ما هذا كله؟" يسأل هو (رئيس الشرطة). "لماذا أُعلن أن الكولونيل تايلور دبلوماسي غير مرغوب فيه وتطلب منه وزارة الخارجية مغادرة البلد في غضون أربع وعشرين ساعة؟".

"حسن، سيادتك، لدينا دليل على أن ضابطك يتدخل في فعاليات لا تتوافق مع منزلته الدبلوماسية. أنا متأسف، عليه أن يغادر البلد"، يرد رئيس الشرطة.

"لكن ما هي التهمة الموجهة ضده؟".

"ضبطناه متلبساً بجريمة أخذ وثائق حساسة وسرية جداً من رجل يحمل اسم جيفان كومار، الذي يعمل في وزارة الدفاع".

يبدو الكولونيل تايلور شاحباً كشحوب الموتى. لم يقل إن هؤلاء الهنود كاذبون حقراء. إنه فقط يقف في وسط ردهة الاستقبال ورأسه مطأطأ.

يطلق المندوب الأعلى تنهيدةً. "يلزمني أن أقول أن هذه أول مرة في مسيرتي الطويلة يكون أحد ضباطي ضالعاً في التجسس. وصدقني، تشارلز ليس جاسوساً. إنما إذا وجب أن يذهب، فليذهب". ثم يأخذ رئيس الشرطة جانباً. "سيد جوبرا، لقد بعثتُ إليك صناديق عديدة من الشراب على مدى سنوات كثيرة. هل يمكنك أن تسدي إليّ خدمةً أن تجيبني عن سؤال واحد؟".

"مؤكد".

"لمعلومتي فقط، هل يمكنكَ أن تخبرني كيف استطعتَ أن تعرف عن لقاء تشارلز اليوم؟ هل أرشدك هذا الشخص كومار إليه؟".

"سؤالك مضحك. لم يكن جيفان كومار. على العكس تماماً، كان أحد شبانك. اتصل هاتفياً بضابط الشرطة تياغي هذا الصباح وأخبره أن يذهب إلى بوابة الهند عند الساعة الثامنة مساءً كي يضبط الكولونيل تايلور وهو يتسلم بعض الوثائق السرية".

"لا أصدق. كيف يمكنك أن تكون متيقناً جداً من أنه أسترالي الجنسية؟".

يتدخل ضابط الشرطة تياغي. "حسن، أيها السيد السفير، كانت اللهجة إفشاءً غير مقصود بكل معنى الكلمة. قال الرجل شيئاً من قبيل، (طبتَ صباحاً، أيها الرفيق، اذهب إلى بوابة الهند، الليلة عند الثامنة.) أعني، أن الأسترالي وحده يتكلم هكذا، أليس كذلك؟".

في اليوم التالي، يغادر الكولونيل تايلور دلهي وحيداً على متن طائرة تابعة لخطوط كانتاس. السيدة تايلور والولد والبنت سيتبعونه لاحقاً. أنا، كذلك، أغادر أسرة تايلور. مع ثلاث حلقات مفاتيح، ست قمصان قطنية، ثلاثين عدداً من مجلة الجغرافيّة الأسترالية التي سأبيعها إلى كاباريوالا، واثنين وخمسين ألف روبية. بأوراق مالية جديدة هشة.

أقول وداعاً لأفراد أسرة تايلور. يتصرف روي كالأحمق. منذ أن بدأ يتناول العقاقير المخدرة أصبح مغفلاً. ماجي تقبل جيمس قبلات متأججة. ولا أكترث للسيدة تايلور. مع المندوب الأعلى إلى جوارها، أعرف أنها ستكون على ما يرام. أما بالنسبة إليّ، فقد كنتُ بعيداً عن سالم المقيم في مومباي، ويتعذر عليّ لقاؤه. سيكون ذلك أشبه بقارب ركوب الأمواج المتكسرة!

تتطلع سميتا إلى ساعتها اليدوية. تُظهر أن الوقت هو الواحدة والنصف بعد منتصف الليل. أسألها: "هل أنتِ متأكدة أنكِ تريدين الاستمرار؟".

ترد قائلةً: "هل لدينا خيار آخر؟ سيرتبون لكَ غداً تهماً رسمية ويحفظونها لكَ في إضبارة". تضغط على زر التشغيل مجدداً.

نحن في فاصل إعلاني آخر. يضرب بريم كومار على مكتبه ضرباً خفيفاً. "أنتَ تعرف الأمر، سيد توماس، إن حظك قد هرب أخيراً. أنا مستعد للمراهنة على أنك لن تستطيع الإجابة عن السؤال التالي. إذاً استعد لاستخدام أحد قاربي النجاة[1] خاصتك".

(1) قاربا النجاة: أي وسيلتي المساعدة – م.

يبدأ اللحن المميز للبرنامج.

يلتفت إليّ بريم كومار. "ننتقل الآن إلى السؤال الخامس بخمسين ألف روبية. إنه يتعلق بعالم الدبلوماسية حين تعلن الحكومة أن دبلوماسياً أجنبياً Persona non grata[1]، ماذا يعني هذا؟ هل هو (أ) أن الدبلوماسي يجب أن يُعامل باحترام، (ب) أن مدة الدبلوماسي يجب تمديدها، (ج) أن الدبلوماسي مقر بالجميل أم (د) أن الدبلوماسي غير مرغوب فيه؟ هل فهمتَ السؤال، سيد توماس؟".

أجيب: "نعم".

"جيد. إذاً دعنا نسمع جوابك. تذكر، لا يزال قاربا النجاة متوفرين لكَ. يمكنكَ أن تحصل على فكرة مفيدة من صديق، أو يمكنك أن تطلب مني حذف إجابتين وسأحذف لكَ إجابتين غير صحيحتين، وأتركك مع خيارين فقط. ماذا تقول؟".

"أقول (د)".

"عفواً؟".

"قلتُ (د) إن الدبلوماسي غير مرغوب فيه".

"هل ذلك حدس؟ تذكر، أنكَ ستخسر العشرة آلاف روبية التي ربحتها إذا أعطيت الجواب غير الصحيح. لذا إذا رغبت، يمكنك أن تترك المسابقة الآن".

"أعرف الجواب. إنه (د)".

ثمة لهاثات من جمهور الاستوديو.

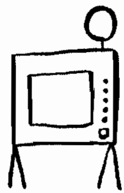
"هل أنتَ متأكد تماماً، مائة بالمائة؟".

"نعم".

ثمة تسارع لقرع الطبول. يومض الجواب الصحيح.

(1) Persona non grata بالفرنسية: شخص غير مرغوب فيه – م.

"صحيح تماماً، مائة بالمائة! ربحتَ الآن خمسين ألف روبية!" يعلن بـــريم كومار. يقف الجمهور ويهتف مشجعاً. يمسح بريم كومار العرق عـــن حاجـــبه. يقول بصوت مرتفع: "لا بد لي أن أقول أن هذا لافت للنظر. الليلة يبدو السيد توماس حقيقةً أنه *الرجل الذي يعرف*!".



100.000
حافظ على أزرارك

"خلاص، انتهى"، أقول، متحدثاً بكلمات ذات مقطع واحد. "ما مـــن شـــراب اســـكتلندي بعد الآن. يغلق المشرب الآن. اذهب إلى منـــزلك".

"لا ا ا ا. مـــن فاضـــلللك لا تقول ذلك. أعطيني كأساً أخرى". يتوســـل الـــزبون ويعرض كأسه الفارغة. أنظر إلى ساعتي اليدوية. إنها الثانـــية عـــشرة وخمس وأربعون دقيقة بعد منتصف الليل. من الناحية العملـــية، لا تُغلق المشارب قبل الواحدة بعد منتصف الليل. باشمئزاز، ألـــتقط زجاجـــة شراب. أطلب منه: "مائة روبية، من فضلك". يأخذ الرجل ورقة مالية مجعدة من جيب قميصه، وأسكب له كأساً أخرى.

"أشكرررك، يا سسسساقي"، يقول الرجل، ويأخذ رشفةً كبيرةً من الشراب، وينهار على الطاولة، تتهشم كأسه على الأرض، تنسفح زجاجـــة الشراب، وتنقلب طاسة صلصة النعناع. في غضون ثوان يغط في نـــوم سريع. الآن لا يجدر بـــي فقط أن أرتب الفوضى الكبيرة التي أحدثها الزبون، إنما يجب عليّ أيضاً أن أستدعي سيارة أجرة، وأساعده على الوقوف على قدميه وبطريقة ما أرسله إلى منـــزله. ومع أنني كنتُ

ذكياً بما يكفي كي أطلب منه ثمن المشروبات مقدّماً، أستطيع أن أنسى ما يتعلق بأي بقشيش من هذا الزبون.

أغلب الظن أنا الذي يقع عليّ اللوم لأنني أضع نفسي في هذا الموقف. كان الزبون يُبدي كل العلامات المحذرة للانهيار في أي دقيقة. غير أنني كنتُ أعتقد أن في وسعه أن يتحمل جرعةً واحدةً إضافيةً. كالعادة، كنت على خطأ.

حتى بعد مرور شهرين على عملي في مشرب ومطعم جيمي، لم أكن قادراً على تخمين قابلية الشارب بدقة. استطعتُ، بالرغم من ذلك، أن أُنشئ نظاماً للتصنيف التقريبي للسكيرين. في أعلى لائحتي هم الخيل؛ إنهم يستطيعون أن يتحملوا ثماني كؤوس من دون أن يغدو كلامهم غير واضح. من بعدهم يأتي الحمير؛ الذين يبدأون بالنهيق والثرثرة بعد كأسين أو ثلاث لا غير، أو يصبحون جياشي العاطفة ووجدانيين ويشرعون بالبكاء. بعدهم يأتي الكلاب؛ كلما أفرطوا في الشرب يرغبون في دخول جدال ما أو ينزعون إلى الشجار. بعضهم أيضاً يغدون مرحين مع روزي. إلى الأسفل منهم يأتي الدببة؛ الذين يشربون وبعدها ينجرفون إلى النوم. وفي القاع يأتي صنف الحيوانات القذرة؛ هم أولئك السكيرين الذين يتقيأون بعد جرعتهم الأخيرة. هذا التصنيف ليس من النوع الذي لا بأس فيه. فقد شاهدتُ زبائن يبدأون كالخيل وينتهون كالحيوانات القذرة. وثمة كلاب يتحولون إلى دببة. بصورة رحيمة، هذا الزبون انتهى كدب بدلاً من أن يتحول إلى حيوان قذر.

أتخلص من السكير الأخير، وأنظر إلى الساعة الجدارية. تشير إلى الواحدة وعشر دقائق بعد منتصف الليل. منذ أن رحلت روزي وأبوها إلى غوا لتمضية العطلة هناك، أعود إلى جحري الصغير في المبنى السكني

في دهارافي بعد منتصف الليل كل ليلة تقريباً. هذا خطأي إلى حدٍّ ما. لــو لم أقل للمدير إنني أعرف كيف أمزج المشروبات، وأقيس الشراب الاســكتلندي، وأنه في وسعي أن أعرف الفارق بين أنواع المشروبات، ما كان ليُطلب مني أن أتولى مهمة الساقي في غياب ألفريد.

لمــشرب ومطعــم جيمــي في كولابا صور مطبوعة باهتة على الجــدران، مرايا خلف المشرب، أثاث خشبــي متين، وأفضل لائحة أطعمة ومشروبات في جنوب مومباي. لأن الطعام جيد جداً والأسعار رخيــصة جداً، يجتذب الزبائن من كل الطبقات والشرائح الاجتماعية. في أي يــوم يمكنكَ أن تجد موظفاً إدارياً رفيع المستوى يرضع مشروبه عــند المــشرب إلى جانب عامل مصنع متواضع. يصر المدير على أن نــستهل الحــوارات مع الزبائن عند المشرب، لأن الناس يشربون أكثر حــين يكونون بصحبة الآخرين. والد روزي، الساقي الخرفان ألفريد دسوزا، ماهر في التحدث من دون كلفة مع الزبائن الدائمين. إنه يعرف غالبية الروّاد المنتظمين بالاسم، ويجلس معهم على مدى ساعات طويلة، مــصغياً إلى حكايــات محــنهم ومُضيفاً باستمرار إلى لائحة حساب مــشروباتهم. تغدو روزي نفسها فتاة مشرب ضليعة تماماً. تجلس عند المــشرب تــرتدي بلــوزةً مقوّرة الصدر وتنورةً ضيقةً جداً، في بعض الأحــيان تنحني وتغري الزبائن كي يطلبوا شراباً اسكتلندياً مستورداً غــالي الــثمن بــدلاً من الأنواع الهندية الرخيصة. غالباً، ما يوصلها ســلوكها إلى مــشاكل مع الزبائن الأجلاف الذين يتصورون أنها فتاة رخيــصة. عــندئذ يلــزمني أن ألعــب دور رجل يُستخدم لإخراج الأشخاص غير المرغوب فيهم، هذا الدور ألعبه بصورة غير رسمية.

يعتقد السيد ألفريد دسوزا أن هنالك شيئاً يحدث بين روزي وبيني ويــراقبني كصقر حينما تكون قريبة مني. إنه غير مصيب البتة. روزي

فتاة جميلة، قصيرة القامة ومكتنــزة الثديين. الطريقة التي تميل بها رأسها نحــوي وغالباً تغمزني بعينها، تشعرني أنها ربما تحاول أن تعطيني إشارةً ما، إلا أن دماغي الآن غير قادر على تسلمها. إنه متخم بذكريات فتاة واحــدة فقط: نيتا. قال الأطباء في أغرا أن نيتا تحتاج إلى أربعة شهور علــى الأقــل كي تتعافى من إصاباتها. وأعرف أن شيام لن يسمح لي بلقائها. لذلك عدتُ إلى مومباي: كي أتخلص من أشباح أغرا، أشباح الأحــياء والموتى على السواء. لكنني لا أستطيع أن أهرب من تاريخي الشخــصي في هــذه المدينة. تهاجمني ذكريات الماضي عند كل نقطة تقاطــع. شانتارام، عالم الفضاء الفاشل، يهزأ مني في الشوارع. نيليما كوماري، الممثلة، تصيح عليّ في القطار المحلي. وسالم، صديقي، يخفض بــصره ناظراً إليّ من كل لوحة إعلانات. لكنني اتخذتُ قراراً واعياً ألاّ ألتقي سالماً. لا أريد أن تمتصه دوامة حياتي المجنونة وخططي المجنونة.

أقــيم في ركن من أركان مومباي يُدعى دهارافي، في كوخ ضيق بمساحة مائة قدم مربع ليس له فتحة للتهوئة ولا للنور، ذي لوح معدني مــتموج يقــوم بوظيفة السقف فوق رأسي. إنه يهتز بعنف كلما يمر قطــار. لــيس ثمة ماء جارٍ وليس ثمة نظام للصرف الصحي. هذا كله أســتطيع أن أتحملــه. لكنني لستُ وحدي في دهارافي. هنالك مليون شخص على غراري، محشورون في مثلث من الصحراء المدينية السبخة تبلغ مساحته مائتي هكتار، حيث نحيا كالحيوانات ونموت كالحشرات. مهاجــرون عاطلون عن العمل من كل أرجاء البلد يتدافعون بالمناكب مع بعضهم بعضاً في أكبر حي للفقراء في آسيا. ثمة نــزاعات يومية – علــى إنشات من المكان، على دلو من الماء – تتحول أحياناً إلى قتال مميت. يقبل نــزلاء دهارافي من المواضع الخلفية المنعزلة والمغبرة لبيهار،

وأندرابـــراديش، وتامـــيل نادو، وغوجرات. إنهم يقبلون إلى مومباي، مديـــنة الـــذهب، وفي أفئدتهم أحلام إحراز الغنى وأن يحيوا الحياة التي يحياها ذوو المرتبة العليا من الطبقة الوسطى. إلا أن ذلك الذهب تحوّل إلى رصـــاص مـــنذ زمن طويل جداً، تاركاً وراءه أفئدةً أكلها الصدأ وعقولاً مصابةً بالغنغرينا. كفؤادي وعقلي.

ليـــست دهارافي مكاناً لسريعي الغثيان. ملجأ أحداث دلهي حط مـــن قيمتـــنا، إلا أن صورة دهارافي المتجهمة المتسمة بالقذارة المدينية أضـــعفت حيويتنا، وحطت من قدرنا. مجاريها المفتوحة تعج بالبعوض. مراحيـــضها العمومـــية، ذات الـــرائحة النتنة، المكسوة بالغائط، مليئة بالجرذان، التي تجعلك تصرف التفكير عن الرائحة وتفكر أكثر في حماية مؤخـــرتك. توجد أكوام من النفايات القذرة في كل زاوية من الزوايا، يـــستطيع جامعو الخرق والنفايات أن يجدوا فيها شيئاً نافعاً. وفي بعض الأحـــيان يلزمك أن تحبس نَفَسك كي تنضغط عبر أزقتها الضيقة التي تـــورثك رهـــاب الأماكن الضيقة. إنما بالنسبة إلى النـــزلاء الجياع في دهارافي، هذا هو المنـــزل.

تقبع دهارافي وسط ناطحات السحاب الحديثة ومجمعات التسوّق المـــضاءة بالنـــيون في مومـــباي، شبيهةً بورم سرطاني في قلب المدينة. وتـــرفض المديـــنة أن تعترف بها. لذا فقد عُدت دهارافي خارجةً على القانـــون. كـــل المنازل في دهارافي هي *مُشيّدات غير شرعية*، معرّضة للهدم في أي وقت. إنما حين يكافح النـــزلاء ببساطة كي يبقوا أحياءً، فـــإنهم لا يـــبالون بالأشياء الأخرى. لذا فإنهم يسكنون في منازل غير قانونية ويستخدمون تياراً كهربائياً غير قانوني، يشربون ماءً غير قانوني، ويـــشاهدون تلفازاً يعمل عبر *وصلات* غير قانونية. يعملون في مصانع ومتاجر دهارافي التجارية العديدة غير الشرعية، وحتى يسافرون بطريقة

غير قانونية - من دون تذاكر - في القطارات المحلية التي تمر مباشرةً عبر المستعمرة.

ربما شاءت المدينة أن تتجاهل النمو القبيح لدهارافي، إلا أن السرطان لا يمكن إيقافه ببساطة من خلال الإعلان بكونه غير قانوني. إنه لا يزال يقتل بسُمه البطيء.

أقوم برحلة يومية من دهارافي إلى مشرب ومطعم جيمي. الشيء الجيد الوحيد في ما يتعلق بالعمل في مؤسسة جيمي هي أنني غير ملزم بالمجيء إلى مقر عملي قبل منتصف النهار على الأقل. غير أن هذا أكثر من تغيير مفاجئ مقارنةً بالليالي المتأخرة التي أمضيها في خدمة الأجلاف السكارى الآتين من كل أنحاء المدينة، وأرهف السمع إلى حكاياتهم المثيرة للشفقة. إن أول استنتاج توّصلتُ إليه مفاده أن الشراب الاسكتلندي هو المساوي الأكبر بين الناس. ربما تكون مديراً بارعاً لمؤسسة إعلانات أو عامل سبك معادن متواضعاً، لكنكَ إذا لم تكن قادراً على الإمساك بمشروبك، فأنتَ مجرد سكير.

بعد تجربتي المؤذية مع شانتارام، فكرتُ في أنني لن أكون قادراً على تحمل سكير. إلا أن مشرب ومطعم جيمي هو المؤسسة الوحيدة التي منحتني عملاً. واسيتُ نفسي بالفكرة القائلة إن رائحة الشراب الاسكتلندي لاذعة أقل من الرائحة النتنة المنبعثة من المرحاض العمومي القريب من كوخي، والإصغاء إلى سكير أقل إيلاماً من الإصغاء إلى القصص الفاجعة للاغتصاب، والتحرش الجنسي، والمرض والموت التي تفيض يومياً من أكواخ دهارافي. لذا فقد تعلمتُ الآن أن أبدي ولعاً ما وأقول *أوم م م م ونعم وحقّاً؟ ويا سلام!* لحكايات خداع الزوجات وحكايات رؤساء العمال البائسين الذين كانوا يستنشقون الهواء كل ليلة في مشرب ومطعم جيمي، وفي الوقت نفسه أشجع الزبائن على

طلب طبق آخر من الدجاج المقلي وطاسة أخرى من جوز البلاذر الأميركي المملح كي يأكلوه مع مشروباتهم. وأنتظر يومياً رسالةً من أشخاص W3B، كي يخبروني ما إذا اختاروني للمشاركة في البرنامج التلفازي. إلا أن ساعي البريد لا يسلمني شيئاً.

بدأ إحساس بالهزيمة يغشي عقلي. أشعر أن الغرض الخاص الذي أتيت من أجله إلى مومباي لا يزال بعيداً عني. إنني أسبح ضد التيار. تلك التيارات القوّية فعالة وهي التي لا أستطيع قهرها. لكنني بعدئذ أسمع صراخ محبوبتي نيتا ونشيج نيليما كوماري فأستعيد قوة إرادتي. يجب عليّ أن أصل إلى ذلك البرنامج التلفازي. وحتى حصول هذا الأمر، سأواصل الإصغاء إلى قصص السكارى في هذه المدينة. بعضها جيد، بعضها الآخر سيئ، بعضها مضحك، وبعضها الآخر حزين. وثمة قصة غريبة بكل ما للكلمة من معنى.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، إلا أن الزبون الوحيد الجالس عند المشرب يرفض أن يتزحزح. كان قد جاء بمرسيدس يقودها سائق، توقفت في باحة في الخارج. كان يشرب باستمرار منذ العاشرة مساءً وهو الآن يحتسي كأسه الخامسة. سائقه الذي يرتدي بذلة نظامية يغط في نومه في السيارة. ربما يعرف أن مستخدمه لن يخرج بسرعة. الرجل في مطلع عقده الثالث، ويلبس بذلة داكنة أنيقة ذات ربطة عنق حريرية، وينتعل حذاءً جلدياً لامعاً.

"أخي العزيز، أخي العزيز". يكرر هذه العبارة كل دقيقتين، بين رشفات الشراب وقضمات من طبق الكباب.

يفرقع لي المدير بأصابعه. "توماس، اذهب واجلس معه، اسأله عن أخيه. ألا تستطيع أن ترى أن الرجل المسكين شديد الاضطراب؟".

"لكـــن... أيها *الصاحب* المدير، لقد تجاوز الوقت منتصف الليل. علينا أن نخبره أن يغادر المكان وإلا سيفوتني قطار الساعة الثانية عشرة والنصف".

"لا تجـــادلني وإلا سأكسر فكك"، يزمجر بوجهي. "اذهب الآن، اشـــغل الـــزبون بحوار ما، اجعله يطلب الشراب الذي وصل إلينا يوم أمس، لقد أقبل في مرسيدس".

أحملق في المدير كطالب مدرسة يحملق في مستأسِد. أرجع، على مضض، إلى المشرب، وأمشي خلسةً مقترباً من الزبون.

"آه، أخـــي العزيز، أتمنى أن تصفح عني"، ينوح، ويقضم الكباب بـــرفق. إنـــه يتصرف كحمار، لكنه على الأقل في طور الصفاء، مع جرعتين في جسمه وكلمات تزبد خارجةً من فمه.

أسأله: "ماذا جرى لأخيك، سيدي؟".

يـــرفع الرجل رأسه، ويتطلع إليّ بعينين نصف مغمضتين. يقول: "لِمَ تسأل؟ لن تفعل سوى مضاعفة ألمي".

"أخبرني عن أخيك، سيدي. فربما يساعد ذلك في تقليل ألمك".

"كـــلا. ما من شيء يقلل ألمي. ولا حتى الشراب الذي تقدمه إليّ".

"رائع، سيدي. إذا كنتَ لا تريد أن تتكلم عن أخيك، لن أسألك عنه. لكن ماذا عنكَ؟".

"ألا تعرف من أكون؟".

"لا، سيدي".

"أنا براكاش راو، مدير شركة صناعات، أكبر مصنع للأزرار في الهند".

"أزرار؟".

"أجل. كما تعرف. أزرار في القمصان، والسراويل، والسترات، والتنانير، والبلوزات. نحن نصنعها. نحن نصنع كل أنواع الأزرار من كل أنواع المواد. نستخدم في الأعم الأغلب البولستر، لكننا صنعنا أيضاً أزراراً من القماش، والبلاستيك، والجلد وحتى عظم الجمل. ألم ترَ إعلاناتنا التجارية في الصحف؟ أنا متأكد تماماً أن القميص التي تلبسها الآن لها أزرار مصنوعة من قبل شركتي".

"وأخوك، ما اسمه؟".

"أخي؟ أرفند راو. آه، أخي المسكين. آه، أرفند"، يبدأ بالعويل مجدداً.

"ماذا جرى لأرفند؟ ماذا كانت مهنته؟".

"كان صاحب الشركة إلى أن حللتُ مكانه".

"لماذا حللتَ مكانه؟ الآن، دعني أسكب لك كأساً من الشراب الذي وصلنا مباشرةً من اسكتلندا".

"شكراً. رائحته طيبة. أتذكر أنني ذهبتُ إلى موريشيوس لتمضية شهر العسل، قصدتُ بورت لويس، وهناك تذوقتُ أول مرة هذا الشراب".

"كنتُ تذكر أنكَ حللتَ محل أخيك".

"آه، نعم. كان أخي رجلاً طيباً جداً. إلا أنه كان يجب أن يحل محله شخص ما بوصفه مديراً للشركة لأنه أصيب بالجنون".

"بالجنون؟ كيف؟".

"إنها قصة طويلة".

أستخدم واحداً من أبيات روزي. "الليل يافع. الزجاجة مملوءة. لم لا نبدأ إذاً؟".

"هل أنتَ صديقي؟" يقول، ناظراً إليّ بعينين كأنهما من زجاج.

"بطبـــيعة الحـــال أنا صديقك"، أجيبه بابتسامة عريضة تكشف أسناني.

"إذاً ســـأحكي لـــكَ قصتي، أيها الصديق. أنا ثمل، كما تعرف، والرجل الثمل يقول الحقيقة دوماً. صحيح، أيها الصديق؟".

"صحيح".

"إذاً، صديقي، كان أخي، أخي العزيز، العزيز أرفند، رجل أعمال كـــبيراً. بنى شركة جراء العمل الشاق والتوفير الشديد. اعتدنا أن نبيع الخرز في سوق لآدبازار في حيدرآباد القديمة. كما تعرف، تلك السوق القريبة من جارمينار. إنه هو الذي بنى بالمثابرة والجد الإمبراطورية التي ورثْتُها".

"لكنكَ حتماً ساعدتَ أخاكَ في مهنته؟".

"نـــادراً ما حصل ذلك. كنتُ إنساناً فاشلاً. لم أستطع حتى أن أكمل امتحان القبول في الجامعة. يعود الفضل إلى عظمة شقيقي الذي أخـــذني تحت جناحه، واستخدمني في قسم المبيعات في شركته. بذلتُ قصارى جهودي، وبمرور الوقت، تعززت ثقة أخي بقابلياتي. في النهاية ســـلمني وظيفة مدير المبيعات الدولية، وأرسلني إلى نيويورك حيث يقع مكتبنا الدولي".

"نيويورك؟ يا سلام! لا بد أنها كانت عظيمة!".

"أجـــل، نيويورك مكان عظيم. إنما مهنتي كانت عسيرةً، أخرج يومياً، ألتقي التجار والموزعين، أعالج الطلبات التجارية، أضمن التسليم في الوقت المناسب. كنتُ مشغولاً من الصباح حتى الليل".

"جـــيد. إذاً ماذا جرى بعدئذ؟ فقط توقف دقيقةً فيما آتيك بطبق آخر من الكباب".

"شكراً، صديقي. في نيويورك تحديداً التقيتُ جولي".

"جولي؟ من هي جولي هذه؟".

"كـــان اسمها الحقيقي إرزولي دي رونكيراي، إنما الجميع يسمونها جـــولي. كانـــت داكنة البشرة، مثيرة، ذات شعر سميك مجعد وشفتين بـــارزتين وخـــصر نحيل. كانت تعمل منظفةً في المجمع السكني الذي اســـتأجرتُ فيه مكتبـــي. كانت مهاجرة غير شرعية من هاييتي. هل سمعتَ بهاييتي؟".

"كلا. أين تقع؟".

"إنها بلد صغير جداً في البحر الكاريبـــي، بالقرب من المكسيك".

"جيد. إذاً التقيتَ جولي".

"حسن، في بعض الأحيان كنتُ أبادلها التحية. ذات يوم ضبطتها دائـــرة الهجرة والتجنيس تعمل من دون بطاقة خضراء. توسلت إليّ أن أثبت أنها مستخدمتي كي تكون إقامتها في الولايات المتحدة قانونية. في نـــوبة كرم وافقتُ على أن أكون كفيلها. مقابل ذلك، منحتني الحب، والاحتـــرام، وأموراً أخرى لم أعتدها طيلة سنواتي الماضية. صدّقني، أنا ثمل، والرجل الثمل يقول الحقيقة دوماً. صحيح؟".

"صحيح. لماذا لا تشرب؟".

"شـــكراً، صديقي. أنتَ رؤوف جداً. أكثر رأفةً من جولي. كما تعـــرف، أثـــرت فيَّ، حقيقةً، بأساليب ملتوية. استغلت ضعفي. كنتُ رجـــلاً وحـــيداً في مدينة كبيرة. شيء ما أدى إلى آخر وانتهى بـــي المطاف أخيراً إلى الزواج بها".

"وبعدها ذهبتَ لتمضية شهر العسل في بورت لويس، صحيح؟".

"صـــحيح. لكنني حين عدت من شهر العسل، اكتشفتُ أن ثمة جانـــباً مخـــتلفاً، أكثر غموضاً في جولي. زرت شقتها أول مرة بعد أن تزوجنا ووجدتُ أنها مليئة بأشياء غريبة".

"أول مـــرة اكتشفتُ أن ثمةَ شيئاً في جولي، أكثر مما يظهر عليها كــان حــين هُوجمتُ في برونكس من قبل سفاح يحمل سكيناً. كنتُ محظــوظاً كــي أهرب حياً، لكنني جرحت جرحاً بليغاً في ذراعي. لم تسمح لي جولي بالذهاب إلى المستشفى. بدلاً من ذلك وضعت بعض الأعــشاب على ذراعي، وتلت بعض التعابير وفي غضون يومين فقط اختفــى الجرح كلياً، حتى من دون أن يترك ندبةً. وبعدها أخبرتني أنها ودونية".

"ودونية. ما هي هذه الودونية؟".

"الودونـــية مذهب في هاييتي. يعتقد أتباعه أن العالم كله مترابط. كل شيء يؤثر في شيء آخر. ما من شيء يحدث بالمصادفة، وكل شيء محـــتمل. لهـــذا السبب فإن الناس الذين يعرفون الودونية يستطيعون أن يقوموا بكل الأشياء العجيبة".

"لا بد أنكَ تمزح!".

"لا، أبـــداً. قلتُ لكَ إنني ثمل. والرجل الثمل يقول الحقيقة دوماً، صحيح؟".

"صحيح". الآن أصبحتُ منجذباً كلياً إلى قصته. نسيتُ أن أزوده بمزيد من الشراب وجوز البلاذر الأميركي.

"جـــولي قلـــبت حـــياتي رأساً على عقب. كانت امرأةً منظفةً مسكينةً، لكنها الآن تريد أن تصبح جزءاً من المجتمع الراقي، نسيت أنها كانت متزوجة بأخ صناعي ثري، وليس الصناعي نفسه. كانت تطلب المال طيلة الوقت. المال الذي لم أستطع أن أهبه إياها لأنه ليس لي. إنه يعود لأخي، للشركة".

"أرغمـــتني على السرقة. بدأت المسألة مع أشياء تافهة؛ دولارات قليلة أختلسها من طلب وهمي لسيارة أجرة. ومن ثم تحولت إلى أشياء

أكبر، مال يتم استلامه من زبون ولا يتم إظهاره في سجل الكشوفات. يُوقــع عقد ما، يتم استلام السلفة ولا ترسل إلى المكتب الرئيس. بمرور الــزمن، أصبح المبلغ المختلس نصف مليون دولار. بعد ذلك اكتشف أخي المقيم في مومباي، ذلك".

"آه! وماذا حدث بعدها؟".

"حــسن، ماذا تعتقد؟ استشاط أخي غضباً. لو كان يريد، لجعل الــشرطة تعتقلني. لكن الدم لا يصبح ماءً. توسلتُ إليه كي يعفو عني، فــسامحني علــى غلطتي. بطبيعة الحال، نقلني من أميركا، ووضعني في مكــتب صــغير في حــيدرآباد، وأصر على أن أعيد دفع نصف المبلغ المختلس على مدى عشرين سنة من راتبــي الخاص".

"كــنتُ ســعيداً جداً في قبول هذه الشروط. أي شيء كي أتجنب السجن. إلا أن جولي كانت تتميز غيظاً. حثتني قائلة *كيف يستطيع أخوك أن يــتعامل معــكَ هكذا؟ أنتَ تملك حصة مساوية لحصته في الشركة. يلزمكَ أن تقاتل من أجل حقوقك*. بمرور الزمن، بدأ إلحاحها المستمر يؤثر فيَّ. بــدأتُ أحسب أرفند رجلاً منحرفاً وماكراً عقد معي صفقةً ظالمةً. ثم أقــبل أرفــند يوماً إلى حيدرآباد كي يزور مكتبــي الصغير. وجد مجدداً دلــيلاً علــى سرقة صغيرة، فنفد صبره. شتمني أمام كل كادر المكتب، أهــانني، قال إنني شخص ميؤوس منه ولا أصلح لشيء ما، وهددني بإنهاء ارتباطــي بالشركة. دُمرتُ، لأول مرة شعرتُ بالرغبة في ضرب أخي من الخلــف. رويتُ الحادثة إلى جولي، فغدت متوهجةً بالغضب. قالت لي *آن الأوان كــي تلقــن أخاك درساً. هل أنتَ مستعد الآن كي تقوم بالانتقام مــنه؟* أجبتها، *أجل، لأن إهاناته شلت دماغي*. فقالت *جيد، آتني بزر من إحدى قمصان أخيك غير المغسولة وقصاصة صغيرة من شعره*. سألتها *من أين آتيك بخصلة من شعره؟* فقالت *ذلك هو شأنك*".

"هيا، لماذا لا تعطيني جرعةً أخرى؟".

بسرعة أملأ كأسه من جديد. "إذاً كيف حصلتَ على شعر أخيك وزر من قميصه؟".

"شيء سهل. زرته يوماً ما في مومباي، بقيتُ في منزله، وانتزعتُ زراً من قميص كان قد وضعها تواً في سلة الثياب المعدّة للغسل. بعدها وجدتُ الحلاق الذي اعتاد أن يحلق شعره كي يعطيني خصلةً من شعره حين يحلق له في المرة القادمة. قلتُ له إنني أحتاج إليها كي أقدمها قرباناً إلى فينكا تشوارا في تايروباتي. هكذا في غضون شهر أتيتُ لجولي بالزر والشعر معاً. ما فعلته جولي لاحقاً كان مدهشاً. أخذت دمية ذكر مصنوعة من القماش بكل ضروب الخطوط السود المضحكة عليها. خاطت الزر على صدر الدمية، وألصقت الشعر على رأس الدمية. في ما بعد ذبحت ديكاً، وأفرغت دمه في مقلاة، غمست رأس الدمية في دم الديك، بعدها أخذتها إلى حجرتها، وتفوهت بعبارات متنوعة، ووضعت أعشاباً وجذوراً ذات مظهر غريب على الدمية، ثم أخرجت دبوساً أسود وقالت *دمية الودونية جاهزة. لقد نفختها بروح أخيك. الآن، كل ما تفعله للدمية بهذا الدبوس الأسود سيحدث لأخيكَ في مومباي. على سبيل المثال، إذا غرست هذا الدبوس في رأس الدمية، سيشكو أخوك من صداع يفلق الرأس. وإذا ما غرزته عميقاً في الزر، سيشكو أخوك من وجع شديد في صدره. الآن، جربه*. ظننتُ أنها تمزح، إنما كي أسايرها ضغطتُ الدبوس الأسود في الزر الأبيض على صدر الدمية. في غضون ساعتين تلقيتُ اتصالاً هاتفياً من مومباي يفيد أن أرفند أُصيب بذبحة صدرية خفيفة، وقد أُدخل مستشفى بريج كاندي".

أصيح: "ذلك شيء مدهش!".

"أجـــل. يمكنك أن تتصور صدمتي. ليس لأن أرفند أصيب بنوبة قلبـــية، بل لأنني عرفتُ الآن أن جولي قد أنتجت حقيقةً دميةً ودونية سيئة".

طـــيلة الـــشهرين التاليين، أصبحت الدمية بالنسبة إليّ لعبة السر الصغير. سكبتُ كل إحباطي، كل استيائي المستتر من أخي فيها. أشعر بـــسعادة شريرة في أن أسبب له الوجع والعذاب. أصبحت بالنسبة إليّ مـــصدر تسلية مجنونة. آخذ الدمية إلى مومباي، وأشاهد أرفند يتلوى فيما كنتُ أغرس الزر المثبت على الدمية، أعذبه برفق، بالدبوس. شيئاً فـــشيئاً بـــدأتُ أســـتخدم الدمية في مناسبات حينما يكون الآخرون حاضـــرين أيضاً. أخذتها معي إلى فندق بخمس نجوم حيث كان أرفند يستـــضيف بعـــض الزبائن اليابانيين. جلستُ بصورة غير فضولية إلى طاولـــة في أحـــد الأركـــان. سمعتُ أخي يتحدث قائلاً... *نعم، سيد هارادا، لدينا خطط في فتح شركة تابعة في اليابان، إلا أن الاستجابة من شـــركة نيبون للأزرار لم تكن إيجابية جداً. نحن أيضاً* - بغتةً أدخلتُ الدبـــوس الأســـود في رأس الدمية. *أوووووو!* صرخ أخي وقبض على رأسه بكلتا يديه. غادر زبائنه الأجانب من دون أن يتناولوا طعامهم.

أخـــذتُ الدمية إلى حفل زواج عائلي في بنغالور دُعيت له مع أخي. حيـــنما كان أرفند يهم بتهنئة العروسين، استخدمتُ الدبوس. *ليباركَكما الله أنـــتما الـــ أوووووووووووووووووووووووووووووووووو!* صرخ، ونطـــح العـــريس، الأمـــر الذي كدّر الضيوف كلهم. واساني أشخاص كثيرون ذلك المساء، قائلين كم كانوا متأسفين لأن أرفند يسير نحو الجنون ببطء.

أخـــذتُ الدمية إلى حفل رسمي حيث كان من المزمع أن يتسلم أخي جائزة أفضل مقاول. كان أرفند يلقي كلمته لدى تسلمه الجائزة،

وتـــذكار الكريستال الوامض بين يديه. *أصدقائي، أشعر حقيقةً بفخر عظيم وأنا أحمل هذا التذكار الجميل. طيلة سنوات حياتي كنتُ أعتقد بالشعار القائل إن العمل الشاق وأووووووووووووووووووووووو!* انسل التذكار الزجاجي من بين يديه، وتهشم إلى مليون قطعة.

ذهب أرفند إلى أحد الأطباء، وأجرى مسحاً بالرنين المغناطيسي، و لم يجد أي خلل في رأسه. نصحه الطبيب أن يستشير طبيباً نفسانياً.

في الخـــتام، أخـــذتُ الدمـــية إلى الاجـــتماع السنوي للمساهمين، وجلستُ في آخر صف. كان أرفند يتلو تقرير المدير. أعزائي المساهمين، *أنا ســـعيد كـــي أعلـــن رسمـــياً أن أربـــاح شـــركتنا غـــير الـــصافية أووووووووووووووووووووووووووووووووووووو!* كانـــــــت هنالك جلبة تامة بعد ذلك، مع مطالبة المساهمين المهتاجين بالتخلي الفوري عن المدير المخبول. أُجبر على الاستقالة في غضون أسبوع. أصبحتُ المدير الجديـــد، وحُـــبس أخي في مصح عقلي. لبث فيه مدة سنتين. خلال هذا الـــوقت أصبحتُ غنياً وتجاوزت ثروتي خيالي. نالت جولي أخيراً كل ما رغـــبت فـــيه. استدعت أمها وأخاها من بورت - أو - برنس كي يأتيا ويقـــيما معنا في مومباي. لكن بينما امتلكتُ كل حلي رجل غني، بدأتُ أيـــضاً أتأمـــل حـــياتي، الوسائل التي تبنيتها كي أكسب كل هذه الثروة. وبعدها التقيتُ جيوتسنا".

"من تكون هذه؟".

"كانـــت رسمـــياً سكرتيرتي الجديدة فقط، لكنها في واقع الحال كانـــت خليلتي. كانت بيننا أشياء مشتركة كثيرة لن أملكها مع أجنبية مثل جولي. كانت النقيض لجولي. جيوتسنا هي التي جعلتني أدرك الظلم الـــرهيب الـــذي اقترفته بحق أخي الأكبر. قررتُ أن أخرج أرفند من مصح الأمراض العقلية".

"هل كنت قادراً على إخراجه؟".

"كــلا. كان قد فات الأوان. لقد عذبوا أخي في مصح الأمراض العقلية، أعطوه صدمات كهربائية. مات قبل أسبوعين".

"ماذا؟".

"نعــم. أخــي المسكين صار في عداد الأموات"، ينتحب. "توفي أخي العزيز". يمسك رأسه بين يديه. "وأنا الذي قتلته".

أفــرقع بأصابعي تعبيراً عن ذهولي. ينحط السيد راو بسرعة من حمار إلى كلب.

"تلك الكلبة جولي، سأفضحها الآن. سأرمي أمها البدينة خارج المنـــزل، وأتخلــص مــن أخيها الميؤوس منه. سأقتل قطها الخبيث، وســأركل جــولي إلى خارج مومباي. دعها تفسد أخلاقياً في جحيم هاييتي!".

"لكن كيف تخطط لتنفيذ ذلك؟".

كانــت ثمة ومضة مختلسة في عينيه. "أنتَ صديقي، وأنا ثمل. الرجل الثمل يقول الحقيقة دوماً. لذا يلزمني أن أخبرك أنني التقيتُ محامياً في وقت سابق ورتبتُ أوراق الطلاق. إذا توافق جولي، فخير على خير، بخلاف ذلك لديّ شيء آخر أيضاً. انظر". يخرج شيئاً من جيب سرواله. إنه مسدس صغير، أفطس الأنف، متراص جداً، ليس أكــبر مــن قبــضتي. "المعــدن أملس ولماع من دون خدوش على الإطــلاق. انظر إلى هذا الجمال. سأستخدم هذا كي أنسف رأسها. عــندئذ سأتزوج جيوتسنا. أنتَ صديقي. أنا ثمل. والرجل الثمل يقول الــ أووووووووووووووووووووووووووووووووووو!!!" فجأة يصرخ في ألم مــبرح، يقــبض على قلبه وينهار على الطاولة ووجهه إلى الأسفل، يقلب زجاجة الشراب ويبعثر جوز البلاذر الأميركي على الأرض.

يبدو أن بقشيشي أفلت مني مجدداً.

تـــصل سيارة الجيب التابعة للشرطة ذات الضوء الأحمر الوامض بعـــد نصف ساعة. تأتي سيارة إسعاف مع طبيب يرتدي معطفاً أبيض اللـــون، يعلـــن الأخير أن براكاش راو مات بسبب نوبة قلبية شديدة. يفتشون جيوبه. يكتشفون محفظة جيب مليئة بأوراق مالية، صورة فتاة هندية جميلة، رزمة من الأوراق تشير إلى طلاق. لم يجدوا أي مسدس. على كل حال، الأموات، لا يحتاجون إلى المسدسات.

تـــتطلع إليّ سميتا وعلى وجهها يلوح تعبير مسلٍّ. "أنتَ لا تتوقع مني أن أصدّق هذا الهراء الخالي من المعنى، أليس كذلك؟".

"لا أطلق حكماً. إنني حصراً رويتُ لكِ ما قاله لي براكاش راو. ما سمعتُه، ما شاهدتُه".

"مؤكد لن تكون ثمة حقيقة في أشياء كهذه؟".

"حـــسن، كل ما أستطيع أن أقوله إنه غالباً تكون الحقيقة أغرب من الخيال".

"لا أســـتطيع أن أصـــدق أن راو قُتل من خلال شخص ما يغرز دبوساً في دمية ودونية. أعتقد أنكَ اختلقتَ هذه القصة".

"رائـــع، لا تصدقي القصة، إنما كيف تفسرين إجابتي عن السؤال التالي".

تضغط سميتا على زر التشغيل في جهاز التحكم عن بعد.

يـــربت بريم كومار على مكتبه. "سيداتي سادتي، ننتقل الآن إلى سؤالنا التالي، السؤال السادس بمائة ألف روبية. هذا هو السؤال المفضل

الــدائم في كل البرامج التلفازية الخاصة بالمسابقات. نعم. أنا أتكلم عن الــبلدان والعواصــم. ســيد تــوماس، ما مدى اطلاعك على المدن والعواصم؟ على سبيل المثال، أنتَ تعرف عاصمة الهند؟".

يــضحك الجمهــور ضحكات نصف مكبوتة. إنهم مستعدون للاعتقاد أن النادل، أي نادل، ربما لا يعرف عاصمة بلده.

"نيودلهي".

"جيد جداً. وما هي عاصمة الولايات المتحدة الأميركية؟".

"نيويورك".

يقهقــه بــريم كومار. "كلا. هذا ليس صحيحاً. جيد، ما هي عاصمة فرنسا؟".

"لا أعرف".

"وعاصمة اليابان؟".

"لا أعرف".

"وماذا عن عاصمة إيطاليا؟ هل تعرفها؟".

"كلا".

"حسن، إذاً لا أفهم كيف يمكنك أن تجيب عن السؤال التالي من دون الاســتعانة بأحد قاربــي النجاة خاصتك. إذاً يأتي الآن السؤال الــسادس بمائة ألف روبية. ما هي عاصمة بابوا غينيا الجديدة؟ هل هي (أ) بورت لويس، (ب) بورت – أو – برنس، (ج) بورت موريسبــي أو (د) بورت أديلايد؟".

تبدأ موسيقى الترقب.

"هل لديك أي فكرة مهما كانت، سيد توماس، في ما يتعلق بهذا السؤال؟".

"أجل. أعرف الإجابات غير الصحيحة".

"تعرف؟" يقول بريم كومار بصورة تنم عن الشك. يبدأ الجمهور بالتهامس في ما بينهم.

"نعـــم. أعرف أن الجواب ليس بورت - أو - برنس، التي هي عاصمة هاييتي، أو بورت لويس، التي هي عاصمة موريشيوس، وكذلك هـــي ليست بورت أديلايد، لأن أديلايد في أستراليا. إذاً إنها يجب أن تكون (ج). بورت موريسبـــي".

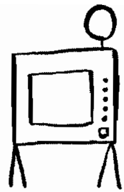
"هذا مدهش. هل أنتَ متأكد تماماً، مائة بالمائة؟".

"نعم، أنا متأكد".

ثمة تسارع لقرع الطبول. يومض الجواب الصحيح.

"تمامـــاً، صحيح مائة بالمائة! إنها بورت موريسبـــي. لقد ربحتَ الآن مائـــة ألف روبية، أنتَ الآن مالك المائة ألف!" يعلن بريم كومار. يقف الجمهور ويهتف مشجعاً. يمسح بريم كومار مزيداً من العرق عن حاجـــبه. "أقـــسم إن الطـــريقة التي تعطي بها هذه الأجوبة، تبدو غير منطقية".

تـــضحك سميتا. "كلا إنها ليست غير منطقية أيها الأبله"، تقول لبريم كومار على الشاشة. "إنها المذهب الودوني!" فجأة تتحرك عيناها بـــسرعة إلى الأســـفل ناظرةً إلى شيء مُلقى على سجادة غرفة النوم. تـــنحني لتلـــتقطه. إنه زر صغير بأربعة ثقوب صغيرة. من النوع الذي يُـــستعمل في القمصان. تنظر إلى قميصي. الزر الثالث مفقود حقيقةً. تسلمني إياه. "الآن، خير لك أن تحافظ على أزرارك".



200,000

جريمة قتل في الإكسبرس الغربي

تـــضج محطة سكك حديد فارغانج في نيودلهي بالصوت وتغص بالـــناس. تـــستحم الأرصفة الرمادية بالضوء الأبيض. تقذف محركات القطار الدخان بقوة وتصفّر كثيران فاقدة الصبر.

إذا كان يجدر بك البحث عني في هذه المتاهة المزدحمة فأين يمكنكِ أن تنظـــري؟ ربما تحاولين أن تجديني وسط دزينات من أطفال الشوارع الممـــددين على الأرض الكونكريتية الملساء في مراحل شتى من الراحة والسبات. ربما حتى تتصورينني بائعاً متجولاً مراهقاً، يبيع متجولاً قناني البلاستيك التي تحتوي على ماء الصنبور من دورات مياه المحطة بوصفه ماءً معدنياً صافياً من همالايا. يمكنك أن تتخيليني كواحد من الكناسين بقمـــيص قذرة وسروال ممزق يمشي متثاقلاً عبر الرصيف، مع مكنسة طويلة مهسهسة ناقلاً الأوساخ من الرصيف إلى الطريق. أو ربما تفتشين عـــني وسط أفواج الحمالين بالبذلات النظامية الحمراء ينطلقون بسرعة واهتياج هنا وهناك وعلى رؤوسهم أحمال ثقيلة.

حـــسن، فكري من جديد، لأنني لستُ بائعاً متجولاً، ولا حمالاً، ولا حتى كناساً. أنا اليوم مسافر صادق، أسافر إلى مومباي، في درجة

عـــربة الـــنوم، ليس أقل من ذلك، وبحجز مناسب. أنا أرتدي قميصاً بيـــضاء منشاة متغضنة مصنوعة مائة بالمائة من القطن وسروال جينـــز علامـــة *ليفي* – نعم سروال جينـــز *ليفي*، تم شراؤه من سوق التيبت. أســـير بعـــزم صـــوب الرصيف رقم خمسة كي أركب متن باسجيم إكسبرس المتجه إلى مومباي. ثمة حمال يمشي مجهداً إلى جانبـــي حاملاً حقيـــبة سفر بنية فاتحة على رأسه. أنا الذي استخدمت الحمال وحقيبة الـــسفر الـــتي فوق رأسه تعود إليّ. إنها تحتوي على القليل من الثياب، وبعـــض اللُعـــب القديمة، ورزمة من مجلات الجغرافيّة الأسترالية ولعبة إلكتـــرونية لـــسالم. لا تحتوي الحقيبة على أي مبلغ من المال. سمعتُ قصـــصاً كـــثيرةً جـــداً عن لصوص القطارات. يخدرونك بمخدر ليلاً وينهـــبون حاجـــياتك بسرعة كي يغتنموا فرصة حفظ أثمن حمولة في حياتي في حقيبة السفر؛ راتبـــي من أسرة تايلور. لذا فإن مغلف المانيلا المليء بالأوراق المالية المجعدة من فئة الألف روبية – وعددها خمسون – معـــي، مخفي في مكان لا يستطيع أحد أن يراه. في سروالي الداخلي. اســـتخدمتُ الألفين المتبقية كي أغطي التكاليف المالية للرحلة. ومنها دفعـــت ثمـــن ثيابـــي، وتذكرتي، وثمن اللعبة الإلكترونية لسالم، والآن ســـأدفع أجرة الحمال وأشتري بعض الطعام والشراب. ألقي نظرةً سريعةً علـــى الأوراق المالـــية في جيبـــي الأمامي. أحسب أنه سيكون لديّ ما يكفـــي من المال كي آخذ جنركشة[1] آلية من باندار ترمينس بعد هبوطي من القطار إلى المبنى السكني الذي يقيم فيه سالم والواقع في جاتكوبار. ألـــن يندهش سالم حين يراني أصل بعربة ذات ثلاثة دواليب بدلاً من القطار المحلي؟ وحينما يرى اللعبة، أتمنى ألاّ يغمى عليه من السعادة.

(1) جنركـــشة jinrikisha (في النص rick shaw): عربة صغيرة بدولابين أو أكثر تتسع لشخص واحد – م.

الرصـــيف رقـــم خمـــسة مـــزدحم أكثر من سوبر بازار. الباعة المـــتجولون في الخـــارج بقـــوة منظمة كبيرة تضاهي قوة الباحثين عن الـــزبائن خارج دائرة حكومية. الركاب يفتشون عن أسمائهم في لوحة الحجز بالحماسة نفسها التي يفحص بها الطلبة بدقة نتائج الامتحانات. أجد أن قسم سكة الحديد شوّه اسمي كلياً، جاعلاً إياه تي. أم. رام. أنا سعيد، بالرغم من ذلك، كي أشاهد أنهم خصصوا لي المضجع السفلي الثالث في الحافلة أس 7.

تقع الحافلة تقريباً في نهاية القطار الطويل، والحمال متعب وينضح عـــرقاً في الوقت الذي دخلناها فيه. أجلسُ في المضجع المخصص لي، وهـــو المتاخم للباب، وأرتب حقيبة السفر بصورة متقنة في الحيز الواقع في الأســـفل. أدفع للحمال عشرين روبية. يجادلني كي أدفع له المزيد، يـــشير بإصـــبعه إلى المـــسافة الطويلة التي قطعها من مدخل المحطة إلى الحافلـــة، فأعطـــيه روبيتين أخريين. بعد أن أصرف الحمال، أتفحص المشهد من حولي.

يـــبلغ مجمـــوع المضاجع في مقصورتي ستة. أحدها فوقي، اثنان أمامـــي واثـــنان إلى جانبـــي. تجلس على المضجع السفلي قبالتي عائلة مكوّنة من أربعة أفراد؛ أب، وأم واثنان من الأولاد - غلام، في عمري تقـــريباً، وفتاة، أكبر قليلاً. الأب رجل أعمال مارواري[1] في منتصف العمـــر، يـــرتدي صـــدرة سوداء ذات علامة تجارية رفيعة سوداء. له حاجبان كثان، وشارب مرسوم بالقلم، يلوح على وجهه تعبير متجهم. زوجـــته في سن مشابهة لسنه وذات تعبير متجهم بالقدر نفسه. تلبس

(1) مـــارواري Marwari: الماروارـــون هم أناس من راجاستان في الهند. إن كلمة مارواري تشير إلى المنطقة المحيطة بجودهبور، إلا أن معظم التجار الماروارـون هم عملياً من شيخواتي - م.

ســـارياً أخضر اللون وبلوزة صفراء وتتطلع إليّ بعينين مرتابتين. الغلام طـــويل القامـــة ونحيل ويبدو ودوداً، غير أن الفتاة الجالسة إلى جانب النافذة هي التي تجذب انتباهي كالمغناطيس. هي نحيفة وصافية البشرة، تـــرتدي قميـــصاً وسروالاً أزرقين مع وشاح مسحوب فوق صدرها. عيـــناها المعـــبرتان مكـــسوتان بالكحل. لها بشرة صافية لا عيب فيها وشـــفتان مُحببتان إلى القلب. إنها أجمل فتاة شاهدتها منذ فترة طويلة. فـــتاة من النوع الذي يلزمكِ أن تنظري إليها ثانيةً، وثالثةً، في اعتقادي أنـــني أستطيع أن أضيع في عينيها الساحرتين. إنما قبل أن أتأمل جمالها الأخـــاذ إلى مـــدى أبعد، تشتت انتباهي بفعل طفل وليد يبدأ بالبكاء بـــصوت عالٍ. إنه وليد ذكر، بعمر شهور قلائل، يجلس على المضجع الجانبـــي في حضن أمه. أمه امرأة في مقتبل العمر، ذات مظهر كئيب، تـــرتدي ســـارياً أحمـــر مجعداً. يبدو كما لو أنها تسافر وحيدةً. تحاول جاهـــدةً أن تهـــدئ الطفـــل بمصاصة مطاطية، إلا أن الوليد يستمر في النحيب. في الختام ترفع بلوزتها إلى الأعلى وتقدّم ثديها لشفتي الطفل. يمـــص برضا وتؤرجحه كي ينام. من مقعدي أنظر إليها نظرةً خاطفةً ويجـــف فمـــي، إلى أن ألمح رجل الأعمال المارواري ينظر إليّ مباشرةً فأحول عينيّ إلى النافذة خلفها.

يـــدخل إلى المقصورة بائع شاي متجول. أنا الوحيد الذي يطلب كوباً منه. يسكب شاياً فاتراً في وعاء خزفي، ذا طعم أشبه بطعم الطين. تبعه صبـــي يبيع الصحف. يشتري رجل الأعمال نسخةً من تايمز أوف إنـــديا. يشتري ابنه كتاب آرشي[1] الهزلي. أشتري آخر عدد من مجلة ستار بيرست من فكتي التي راحت تتضاءل بسرعة.

(1) كتاب آرشي الهزلي: Archie comic: يصوّر الشخصيات المراهقة ومن ضمنها آرشي (آرشيبالد) أندروس، طُبع الكتاب لأول مرة سنة 1941 – م.

يصفر القطار صفيراً أخيراً، ويبدأ بالحركة، بعد ساعة ونصف من الموعد المقرر في الجدول. ألقي نظرةً على ساعتي اليدوية، مع أنني أستطيع أن أرى بوضوح 18:30؛ السادسة والنصف عصراً، معروضاً على ساعة الرصيف الرقمية. أهز معصمي وألويه، أملاً من الآخرين، بالأخص الفتاة، أن يلاحظوا أنني أضع ساعة رقمية كاسيو جديدة، مصنوعة في اليابان، يظهر فيها اليوم والتاريخ، كلفني شراؤها مائتي روبية في بازار باليكا.

ينهمك الأب في قراءة الصحيفة، والغلام في مطالعة كتابه الهزلي. تبدأ الأم بالترتيبات اللازمة لعشاء الأسرة. الأم الشابة الأخرى غطت في نوم عميق، الطفل لا يزال ملتصقاً بثديها. أتظاهر بقراءة المجلة السينمائية. إنها مفتوحة عند الثنية الوسطية، التي تعرض صورة لبونام سنغ بالبكيني. أواصل إلقاء نظرات مراوغة على الفتاة التي كانت تتطلع بشرود ذهن إلى المشاهد المدينية التي تندفع بسرعة وراء النافذة. لم تلقِ عليَّ حتى نظرةً واحدةً.

عند الساعة الثامنة مساءً يدخل إلى المقصورة فاحص تذاكر بصدرة سوداء. يطلب منا جميعاً أن نظهر تذاكرنا. بسرعة أنتزع تذكرتي بحركة شبه مسرحية، لكنه حتى لم يقرأها. ببساطة يضغط بشدة عليها ويعيدها إليّ. حالما يذهب تفتح الأم علباً كرتونيةً مستطيلةً تحوي طعاماً. ثمة كميات كبيرة منه. أرى أرغفة بيوري[1] متغضنة، حبات بطاطا صفراء، فليفلة حمراء مخللة، وعقبة[2]. تفوح رائحة غولاب جمون[3] وحلوى بارفي

(1) بيوري puri: خبز غير مخمر يُعد في بلدان عديدة في جنوب آسيا، ومنها الهند. يستخدم في الفطور، أو كوجبة خفيفة – م.

(2) عقبة dessert: حلوى أو فاكهة يُختم بها الطعام – م.

(3) غولاب جمون golap jamun: حلوى شائعة في شبه القارة الهندية، شبيهة بحلوى لقمة القاضي في بلاد العرب – م.

المصنوعتين في البيت في المقصورة. أبدأ بالإحساس بالجوع أيضاً، إلا أن غلام حجرة المؤن لم يتلقَ بعد الأوامر التي تطلب منه تناول العشاء. أغلب الظن كان ينبغي لي أن أختار شيئاً ما من المحطة.

يأكل أفراد عائلة الماروراي بحماسة. الأب يلتهم رغيف بيوري بعد رغيف بيوري. الأم تأتي بسرعة على حبات البطاطا الصفراء - الذهبية، تتناول الفليفلة الحمراء المخللة كثيرة العصارة بعد كل قضمة. الولد ينشئ أقرب المسالك نحو غولاب جمون اللينة ويلوث العصير السكري. الفتاة وحدها التي تأكل برفق. ألعق شفتيَّ بصمت. بغرابة كافية، يقدّم إليّ الغلام رغيفي بيوري، لكنني أرفض بأدب. سمعتُ قصصاً كثيرةً عن لصوص يتنكرون بصفة مسافرين يقدّمون طعاماً مضافاً إليه المخدر إلى زملائهم المسافرين وبعدها ينهبون ما لديهم. وليس ثمة سبب يجعل الأولاد الذين يطالعون هزليات آرشي لا يلجأون إلى النهب. مع ذلك لو قدّمت إليّ الفتاة الطعام فربما كنتُ قبلته.

بعد أن يفرغا من تناول العشاء، يبدأ الغلام والفتاة بممارسة لعبة على ورق كرتوني تُدعى المونوبولي. الأب والأم يجلسان جنباً إلى جنب ويتحدثان من دون كلفة. يناقشان آخر أنواع الصابون التي يعرضها التلفاز، وشيئاً ما حول شراء عقار والسفر إلى غوا لتمضية عطلة ما هناك.

أضرب على بطني برفق حيث الخمسين ألف روبية بأوراق مالية مجعدة تستكين داخل حزام سروالي الداخلي، وأتحسس قوة كل تلك النقود تتسرب بصورة مغرية إلى معدتي، أمعائي، كبدي، رئتي، قلبي ودماغي. الجوع الذي ينخر معدتي يختفي بصورة عجائبية.

أتطلع إلى منظر أفراد الأسرة النموذجية المنتمية إلى الطبقة الوسطى الجالسين قبالتي، لم أعد أشعر أنني أشبه بمتطفل، لم أعد دخيلاً يختلس

النظـــر إلى عالمهم الغريب، إنما أصبحتُ أحس أنني مطلع يمكنه أن يقيم علاقـــات معهم بوصفه مساوياً لهم، أن يتحدث إليهم بلغتهم الخاصة. علـــى غـــرارهم، أنا أيضاً يمكنني الآن أن أشاهد أنواع صابون الطبقة الوســطى، أمـــارس ألعـــاب النينتندو، وأزور كدز مارت في نهايات الأسابيع.

رحلات القطار مليئة بالاحتمالات. إنها تدّل على تغيّر في الحالة. حـــين تـــصل، لن تكون الشخص نفسه الذي غادر. يمكنك أن تقيم علاقـــات صداقة جديدة في الطريق، أو تجد أعداءً قدامى؛ ربما تصاب بالإســـهال مـــن جـــراء تناول سمبوسات سيئة الطعم بسبب قِدَمها أو بالكـــوليرا مـــن جراء شرب ماء ملوّث. وأجرؤ على القول، ربما حتى تكتشف حباً جديداً. وأنا جالس في المضجع رقم ثلاثة في الحافلة أس 7 الـــتابعة للقطـــار 2926 أ، مع خمسين ألف روبية محشورة في سروالي الداخلـــي، الاحتمال المعذِب الذي دغدغ حواسي وأثر تأثيراً قوياً في فـــؤادي هـــو أنني ربما، فقط ربما، أكون على وشك أن أقع في حب مـــسافرة جميلة ترتدي سروالاً وقميصاً أزرقين. وحين أقول حب، لا أعـــني الحـــب غـــير المقابَل، غير المتكافئ الذي نكنّه لنجوم السينما والمشاهير. أعني تحديداً الحب الحقيقي، العملي، الممكن. حب لا ينتهي بـــسكب العبرات على الوسادة، إنما ذلك الحب الذي يستطيع أن يثمر زواجاً، وأولاداً. وأيام عطل تمضيها الأسرة في غوا.

لـــديّ خمـــسون ألـــف روبية فقط، إنما لكل روبية حلم مصوَّر بالألـــوان مكـــتوب عليها، وهذه الأحلام مبسوطة على شاشة سينما ســـكوب في دماغي كي تغدو خمسين مليوناً. أحبس نَفَسي وأتمنى أن تـــدوم تلك اللحظة أطول مدة ممكنة، لأن حلم اليقظة هو دوماً أسرع زوالاً من حلم المنام.

بعد لحظة من الوقت، يتعب الأخ والأخت من لعبتهما على الورق المقوّى. يأتي الغلام ويجلس إلى جانبي. نبدأ الحديث. أعرف أن اسمه أكشاي واسم أختهميناكشي. يقيمون في دلهي وذاهبون إلى مومباي لحضور عرس أحد أعمامهم. أكشاي مسرور في ما يتعلق بلعبة بلي ستيشن 2 خاصته وألعاب الحاسوب خاصته. يسألني عن MTV وخدمة الإنترنيت، ويذكر بعض المواقع غير المحتشمة. أقول له إنني أتكلم الإنكليزية، أقرأ الجغرافيّة الأسترالية، ألعب السكرابل ولديّ سبع صديقات، ثلاث منهن أجنبيات. أقول له إن لديّ بلي ستيشن وحاسوب بنتيم 5 وأستخدم الإنترنيت ليلاً ونهاراً. أقول له إنني ذاهب إلى مومباي للقاء أعز أصدقائي، سالم، وسآخذ سيارة أجرة من باندرا ترميناس إلى جاتكوبار.

كان يجب عليّ أن أعرف أن المزاح مع غلام ذي ستة عشر عاماً أصعب من المزاح مع عجوز ذي ستين عاماً. يدرك أكشاي حقيقة خداعي. "ها! أنتَ لا تعرف شيئاً عن الحاسبات. بلي ستيشن 3 حتى لم يُطلق بعد. أنتَ مجرد كذاب كبير"، يهزأ مني.

لا أستطيع أن أقاومه. "آه، أنتَ إذاً تعتقد أنها كلها كذبة كبرى، إيه؟ حسن، سيد أكشاي، دعني أقول لك هنا حصراً، الآن حصراً، لديّ خمسون ألف روبية في جيبي. هل رأيتَ من قبل مبلغاً مالياً كبيراً جداً كهذا في حياتك؟".

يرفض أكشاي أن يصدقني. يتحداني في إظهار النقود، والتوقع بالتأثير فيه هو شيء مغرٍ جداً بالنسبة إليّ. ألتفت حولي، أدس يدي في سروالي الداخلي وأخرج المغلف المصنوع من ورق المانيلا، الرطب قليلاً والذي تفوح منه نوعاً ما رائحة البول. خلسةً أنتزع حزمة الأوراق المالية المجعدة من فئة الألف روبية، وأرفرفها أمامه

بانتصار. بعدها أعيدها بسرعة، وأودع المغلف في موضع استراحته السابق.

كـــان لا بـــد لكِ أن تري عينيّ أكشاي. لقد جحظتا بكل معنى الكلمة من محجريهما. كان نصراً من المفترض أن أستمتع به إلى الأبد. لأول مـــرة في حـــياتي، كان لديّ شيء محسوس أكثر من حلم يدعم ادعاءً. ولأول مرة في حياتي، أرى شيئاً جديداً انعكس في العينين اللتين تـــريانني؛ الاحترام. علمني ذلك درساً ثميناً جداً، أن الأحلام لها سلطة فقـــط على عقلكِ أنتِ، إنما مع النقود يمكنكِ أن تتسلطي على عقول الآخـــرين. ومـــرةً أخـــرى أشعر أن الخمسين ألف روبية في سروالي الداخلي هي أشبه بخمسين مليوناً.

* * *

الـــوقت الآن العاشرة ليلاً والجميع يتهيأون للنوم لأن الليل حلّ. تسحب أم أكشاي ملاءة سرير كتان من حقيبة سفر قماشية خضراء، وتـــبدأ بتـــرتيب المضاجع الأربعة التي سيستخدمها أفراد أسرتها. الأم الـــشابة ذات الطفـــل الولـــيد تنام في المضجع الجانبـــي، من دون أن تكتـــرث للوسائد أو ملاءات الأسرّة. ليست لديّ عدّة السرير ولستُ مـــن الـــنوع المحب للنوم، لذا أجلس إلى جانب النافذة، وأشعر بالريح الـــباردة تعانق وجهي، أشاهد القطار وهو يشق نفق الظلام. المضجع الـــسفلي الـــذي يقـــابلني مباشـــرةً تشغله أم أكشاي، العلوي تشغله ميناكـــشي. يتـــسلق الأب إلى المـــضجع الذي فوقي ويشغل أكشاي المضجع العلوي في الجانب، فوق الأم والطفل.

يـــنام الأب في الحـــال؛ يمكنني أن أسمع شخيره. تنقلب الأم على جنـــبها وتـــسحب ملاءتهـــا. أتلع عنقي كي ألقي نظرةً خاطفةً على ميناكشي، لكنني لا أستطيع سوى أن أرى يدها اليمنى، مع سوار ذهب

في معـــصمها. بغـــتةً تجلس في سريرها وتنحني في اتجاهي كي تُسقط حـــذاءها. انـــــزلق وشاحها ويمكنني أن أرى بجلاء أعلى صدرها عبر فـــتحة عنق قميصها الزرقاء التي تتخذ شكل V. هذا المشهد يرسل رعشة لاإراديـــة من السعادة في ظهري. أعتقد أنها تلمحني وأنا أنظر إليها، لأنها بسرعة تعدّل وشاحها فوق صدرها وترسل إليّ نظرةً مستنكرةً.

بعد هنيهة، أنا، أيضاً، أنجرف إلى النوم، حالماً أحلام الطبقة الوسطى المتعلقة بشراء مليون شيء مختلف، بما في ذلك فيراري حمراء وعروس جميلة ترتدي قميصاً وسروالاً أزرقين. هذه الأشياء كلها بخمسين ألف روبية.

أســـتيقظ مـــن النوم على شيء ينخس معدتي. أفتح عينيّ وأجد رجـــلاً داكن البشرة ذا شارب أسود ثخين يخزني بعصا خشبية رفيعة. ليـــست العـــصا هي التي تقلقني. إنه المسدس بيده اليمنى، الذي كان مـــوجهاً إليّ بالأخص. "هذا لص" يعلن بهدوء، بالنبرة ذاتها التي يقول فـــيها شخص ما، "اليوم هو الأربعاء". يرتدي قميصاً بيضاء وسروالاً أسود وله شعر طويل. إنه في مقتبل العمر ويبدو أشبه بروميو شارع أو طالـــباً جامعـــياً. لكنني يومذاك لم أكن قد شاهدتُ لصاً خارج صالة الـــسينما. ربما هم يشبهون الطلاب الجامعيين. يتكلم من جديد: "أريد منكم جميعاً أن تنـــزلوا من مضاجعكم، ببطء. إذا لم يحاول أي منكم أن يتـــصرف كبطل، لن يصاب أي منكم بأذى. لا تحاولوا أن تهربوا، لأن شـــريكي يغطي الباب الآخر. إذا تعاونتم كلكم، سينتهي هذا في عشر دقائق لا غير".

أكشاي، ميناكشي ووالدهما نُخسوا بصورة مشابهة، وأُجبروا على النـــــزول من مضاجعهم. إنهم مترنحون ومربكون. حين يتم إيقاظكِ فجأةً عند منتصف الليل، يستغرق الدماغ بعض الوقت كي يستجيب.

نجلس جميعاً على المضاجع السفلية. أكشاي ووالده يجلسان إلى جانبي، ميناكشي وأمها والمرأة مع الطفل يجلسون قبالتنا. يتململ الطفل الوليد من جديد ويشرع بالبكاء. تحاول الأم أن تهدئه إلا أن الطفل يبدأ بالبكاء بصوت أعلى من السابق. "أعطِه حليبكِ"، يقول لها اللص بفظاظة. ترتبك الأم، وترفع بلوزتها. يبتسم لها اللص ويقوم بحركة مسرحية وكأنه يقبض على أحد مصدري الحليب، تصرخ وتغطيه بسرعة، يقهقه اللص. هذه المرة لا يدغدغني المشهد. إن مسدساً محشواً موجهاً إلى رأسكِ يجذب انتباهكِ أكثر من أي مصدر حليب مكشوف.

الآن وقد نال اللص الانتباه غير المقسّم للجميع، يركز تفكيره على الشغل، يرفع عالياً كيساً بنياً من الخيش بيده اليسرى، والمسدس بيده اليمنى. "جيد. الآن أريد منكم أن تسلموا حاجياتكم الثمينة كلها. ضعوها في هذا الكيس. أريد من الرجال أن يسلموني محفظات الجيب خاصتهم وساعاتهم اليدوية وأي مال في جيوبهم، ومن النساء أن يعطينني أكياس النقود العائدة إليهن، أساورهن وقلائدهن الذهبية. إذا كان هنالك أحد لا يذعن لتعليماتي، سأطلق عليه نار مسدسي وأرديه قتيلاً في الحال". تصرخ أم ميناكشي والأم الشابة في الوقت نفسه حين تسمعان هذه الكلمات. نسمع صرخات آتية من الناحية البعيدة للمقصورة. من المفترض أن شريك اللص يصدر تعليمات مشابهة للمسافرين في ناحيته.

يمرر اللص الكيس المفتوح على الجميع واحداً واحداً. يبدأ بالأم والطفل. بتعبير مروّع تأخذ حقيبة يدها الجلدية البنية، تفتحها بسرعة كي تنزع مصاصةً وقنينة حليب، ثم تُسقط الحقيبة في الكيس. طفلها الوليد، الذي انقطعت رضاعته من ثدي أمه لحظةً، يبدأ بالبكاء من

جديـــد. تـــبدو ميناكشي مذهولةً. تنـــزع سوارها الذهبـــي، إنما فيما كانـــت تهـــم بوضـــعه في الكيس، يسقط اللص الكيس ويقبض على معـــصمها. "حبيبتي، أنتِ أكثر جمالاً من أي سوار"، يقول فيما تسعى ميناكـــشي يائـــسةً إلى الإفلات من قبضة الرجل الشبيهة بملزمة. يفلت اللص معصمها، ويقبض على قميصها، يمسك قميصها من الياقة، تتراجع الفتاة إلى الخلف، وخلال هذه العملية تتمزق القميص تقريباً إلى نصفين، وتنكـــشف حمالـــة صدرها. نحن كلنا نشاهد هذا مروَّعين. لم يعد والد ميناكـــشي يطيق هذه القسوة. "أنتَ يا ابن الساقطة!" يصرخ ويحاول أن يلكـــم اللـــص، إلا أن الرجل يملك رد فعل نمر، يحرر قميص ميناكشي ويـــضرب والدها بعقب مسدسه. ينفتح فوراً جرح بليغ في جبين رجل الأعمال، ويبدأ الدم بالسيلان منه. أم ميناكشي تبدأ بالنواح مجدداً.

"اخرسي"، يهدر اللص، "وإلا قتلتكم جميعاً".

لهـــذه الكلمات تأثير وقور كلنا نغدو جامدين بلا حراك. تتكوّن كـــتلة مـــن الخوف في حنجرتي وتصبح يداي باردتين. أصغي لأنفاس الجمـــيع المرهقة. ميناكشي تنشج بهدوء، تسقط أمها أساورها وحقيبة يـــدها في الكـــيس، يضع أبوها ساعته اليدوية ومحفظة الجيب خاصته بأصابع مرتعشة. يسأل أكشاي هل عليه أن يضع كتاب آرشي الهزلي. هـــذا الـــسؤال يغيظ اللص. "أتعتقد أن هذه مزحة؟" يهمس ويصفع الغـــلام. يعـــوي أكـــشاي بألم ويبدأ بمداراة خده. لسبب ما أجد أن المقايضة مضحكة نوعاً ما. كفاصل كوميدي في فيلم من أفلام الرعب، يوبخني اللص بقسوة. "ما الشيء الذي تبتسم له هذه البسمة العريضة؟ ومـــاذا لديك؟" يفرقع بإصبعه. أُخرجُ الأوراق المالية والفكة المتبقية من جيبـــــي الأمامي وأسقطها في الكيس، تاركاً فقط قطعة النقد الجالبة للحظ خاصتي وهي من فئة روبية واحدة. أبدأ بفك ساعة معصمي، إلا

أن اللـــص يتطلع إليها ويقول: "إنها مقلدة. لا أريدها". يبدو أنه مقتنع بالغنيمة التي حصل عليها من مقصورتنا وكان يهم بالحركة حين يصيح أكشاي: "انتظر، لقد نسيتَ شيئاً".

أراقـــب المشهد وهو يتجلى للعيان تدريجياً كما لو بحركة بطيئة. يستدير اللص على عقبيه. يشير أكشاي بإصبعه ناحيتي ويخاطب اللص قائلاً: "هذا الغلام لديه خمسون ألف روبية!" يقول هذه الكلمات برقة، إنما يبدو لي أن القطار بأكمله سمعها.

ينظر اللص بتهديد إلى أكشاي. "هل هذه مزحة أخرى؟".

يقول أكشاي: "كـــ - كلا. أقسم".

يتطلع اللص إلى أسفل مضجعي. "هل هي في حقيبة السفر البنية هذه؟".

"لا، لقـــد أخفاها في سرواله الداخلي، في مغلف". يرد أكشاي، متكلفاً الابتسام.

"أها ها!" يزفر اللص.

أنـــا أرتجف - لا أدري هل أرتجف من الخوف أم الغضب. يدنو مـــني اللص. يسألني: "هل تعطيني النقود بهدوء أم أجعلك تتعرى أمام هؤلاء كلهم؟".

"لا! هـــذه نقـــودي!" أصـــرخ، وفطرياً أحمي أعضائي التناسلية كلاعب كرة قدم يسدّ مسار ركلة حرة. "لقد كسبتها من عملي، لن أعطيها لكَ، إنني حتى لا أعرف اسمك".

يطلق اللص ضحكةً خشنةً. "ألا تعرف ماذا يفعل اللصوص؟ نحن نأخـــذ النقود التي لا تعود إلينا، من أناس لا يعرفون حتى أسماءنا. الآن هل تعطيني المغلف أم يلزمني أن أسحب سروالك الداخلي إلى الأسفل وآخذها بنفسي؟" يلوّح بالمسدس في وجهي.

كمحـــارب مهـــزوم، أستـــسلم أمام قوة المسدس. بتؤدة أدخل أصـــابعي في حزام سروالي الداخلي وأجر مغلف المانيلا، اللزج بالعرق والـــذي تفوح منه رائحة الذل. يلتقطه اللص من يدي ويفتحه. يصفر حين يرى الأوراق المالية الجديدة المجعدة من فئة الألف روبية. "من أي لعنة نلتَ هذه النقود كلها؟" يسألني. "لا بد أنكَ نهبتها من شخص ما. على كل حال، لا أبالي بهذا الأمر". يُسقطه في كيس الخيش. "الآن لا أحد منكم يتحرك فيما أنا ألتقي الناس الآخرين في مقصورتكم".

فقـــط أحـــدّق بخرس وأشاهد الخمسين مليون حلم التي خُطفت مـــني، وأُسقطت في كيس الخيش حيث تحتك بأساور ومحفظات جيب الطبقة الوسطى.

ينـــتقل اللص إلى القسم المجاور من المقصورة، إلا أن أحداً منا لم يجرؤ على شد حبل الطوارئ. بقينا ثابتين في مقاعدنا، كالمفجوعين في جنازة. يعود بعد عشر دقائق وكيس الخيش على ظهره، فمه مشدود، المـــسدس في يده اليمنى. "جيد"، يقول، يشد الكيس كي يظهر لنا أنه مملـــوء وثقيل. يتطلع إليّ ويبتسم بسمةً عريضةً، كمستأسد خطف تواً لعـــبة شخص ما. بعدئذ ينظر إلىميناكشي. كانت قد غطت صدرها بوشـــاحها، إلا أنـــه عبر القماش الشفاف يظهر بجلاء القماش الأبيض لحمالة الصدر خاصتها.

يصيح شريك اللص: "أنا جاهز. هل أنتَ جاهز؟".

"نعم"، يهتف لصنا راداً على سؤاله. فجأةً يبدأ القطار بالتباطؤ.

"أسرع!" يقفز اللص الآخر من القطار.

"أنـــا آتٍ في غـــضون ثانـــية. الآن، خذ الكيس". يرسل لصنا الكـــيس – والخمـــسين ملـــيون حلمـــاً – مدوّماً خارج الباب. يهم بالوثـــوب، لكـــنه يغيّـــر رأيه في الثانية الأخيرة. يعود إلى مقصورتنا.

"بسرعة، امنحيني قبلة الوداع"، يقول لميناكشي، ملوّحاً بالمسدس نحوها. ميناكشي مذعورة. تنكمش مرتعدةً في مقعدها.

"أنتِ لا تريدين أن تهبيني قبلة؟ حسن، اخلعي وشاحكِ إذاً. دعيني أرى..."، يأمرها. يمسك بالمسدس بكلتا يديه ويزمجر بوجه ميناكشي. "تحذير أخير. بسرعة، أريني شيئاً من بشرتك وإلا أطيّر رأسكِ قبل مغادرتي". يغمض والد ميناكشي عينيه. ويُغمى على والدتها.

باكيةً ومنتحبةً، تبدأ ميناكشي بنشر وشاحها. لا يوجد تحته سوى قطعة من القماش الأبيض. مع رباطين وكوبين.

إلا أنني لا أرى هذه الواقعة. بل أرى امرأةً طويلة القامة ذات شعر محلول. الريح تعصف وراءها، فتجعل شعرها الأسود الفاحم يطير على وجهها، حاجباً إياه. ترتدي سارياً أبيض قماشه الخفيف يرفرف ويهتز كطائرة ورقية. تحمل طفلاً وليداً بين ذراعيها. رجل ذو شعر طويل وشارب كثيف، يلبس سروالاً أسود اللون وقميصاً بيضاء يدنو منها. يصوّب مسدساً نحوها ويبتسم بسمةً عريضةً. يعوي قائلاً: "افتحي ساريكِ" تشرع المرأة بالبكاء. يومض البرق، يتبعثر الغبار، تطير أوراق الأشجار. على حين غرة يقفز الطفل الوليد من حجر أمه ويثب على الرجل، يخمش وجهه. يصرخ الرجل ويتخلص من الطفل، إلا أن الطفل يندفع بقوة نحو وجهه من جديد. يتدحرج الرجل والطفل على الأرض فيما تبكي المرأة ذات الساري في الخلفية. يلوي الرجل يده ويصوّب مسدسه نحو وجه الطفل، لكن اليوم بورك الطفل بطاقات فوقبشرية. بأصابع صغيرة جداً يسحب ماسورة المسدس، عاكساً اتجاهه. يتصارع الرجل والطفل من جديد، يذهبان يميناً وشمالاً، يتدحرجان على الأرض. إنهما محبوسان في قتال مميت. تارةً يهيمن

الـــرجل وطـــوراً يبدو الطفل هو الفائز. يستطيع الرجل أخيراً أن يحرر ذراعـــه الـــتي تحمل المسدس. تتقوس أصابعه حول الزناد. صدر الطفل الولـــيد أمام ماسورة المسدس مباشرةً. يهم الرجل بالضغط على الزناد، إنمـــا في اللحظة الأخيرة يتمكن الطفل من أن يحرف المسدس بعيداً عنه ويـــوجهه صوب صدر الرجل. ثمة انفجار يصمّ الآذان ويتراجع الرجل كما لو ضربته عصفة ريح قوية. يظهر صبغ قرمزي اللون على قميصه البيضاء.

"آه!" أسمع صوت أكشاي، كصدى في كهف. اللص راقد على أرضية القطار، على مبعدة بوصات قليلة من الباب، وفي يدي مسدس، يتصاعد منه ذيل خفيف من الدخان إلى الأعلى. يبدأ القطار باكتساب السرعة تدريجياً.

لا أزال لا أفقـــه تماماً ما جرى. حين يتم إيقاظكِ فجأةً في وسط حلمٍ ما، يستغرق الدماغ بعض الوقت كي يستجيب. إنما حين يكون في يدكِ مسدس يرسل دخاناً وثمة رجل ميت عند قدميكِ، هنالك حيز صـــغير لـــسوء الفهم. قميص اللص مشبعة بالدم، الصبغ يزداد قتامةً وتوســـعاً طـــيلة الوقت. إنه ليس بالصورة التي يرونكِ إياها في الأفلام الـــسينمائية، حـــيث يسفر الطلق الناري عن بقعة حمراء صغيرة فورية وتبقـــى هكـــذا إلى أن ينقلوا الجثة في سيارة إسعاف. لا. الدم حتى لا ينـــبجس في بادئ الأمر، يبدأ بالتسرب تدريجياً وببطء شديد. في البدء تكون هنالك نقطة حمراء متناهية الصغر، ليست أكبر من مسمار صغير عريض الرأس يُدفع بالإبهام، بعدها تصبح رقعةً دائريةً بحجم قطعة نقد، ثم تنمو لتغدو بحجم الصحن الذي يوضع أسفل الفنجان، ثم تتوسع إلى حجـــم طـــبق طعام، وتواصل نموها شيئاً فشيئاً إلى أن يصبح الجريان ســـيلاً. أبدأ باللهاث والمقصورة كلها تكاد تغرق في نهر أحمر حين يهز

والـــد أكـــشاي كتفيَّ بعنف. "أقول، غيّر موقفك!" يصيح، ويرتفع الاحمرار.

أجلـــس علـــى مضجعي، ويتحلق حولي حشد من الناس. عملياً جـــاءت المقـــصورة كلها كي ترى ما الذي جرى بالضبط. الرجال، النساء والأطفال يمدون أعناقهم إلى الأمام. إنهم يشاهدون لصاً ميتاً، لا أحـــد يعرف اسمه، مسجىً على الأرض ببقعة حمراء داكنة على قميصه البيضاء، يشاهدون أباً ذا جرح بالغ في جبينه، أماً مذعورةً عصر طفل جائـــع كل قطرة حليب من صدرها، أخاً لن يطالع هزليات آرشي في القطـــار مجدداً، أختاً ستلازمها الكوابيس طيلة حياتها. وغلام شارع، علـــى مدى لحظة موجزة، امتلك بعض النقود، ولن يملك مجدداً أحلام الطبقة الوسطى.

يبدو الضوء الأصفر في المقصورة مزعجاً بصورة غير مألوفة. أفتح عينيّ وأغمضهما بصورة متكررة، وأحمل المسدس برخاوة في يديّ. إنه صـــغير وملتز ذو بدن معدني ومقبض أسود. يشير إلى كولت بحروف منقوشـــة ولـــه صورة حصان واثب في كلتا جهتي النقش. أقلبه. على الجهة الثانية من فوهة المسدس يشير إلى وزن خضيف، إلا أن المرء يشعر أنـــه ثقيل بصورة مضحكة. للمسدس بعض الحروف والأرقام منقوشة عليه أمست باهتةً. أكتشف: "Conn USA" و"DR24691".

تنظـــر إليّ ميناكـــشي خلسةً. تنظر إليّ كما ينظر سالم إلى نجوم الـــسينما. أعرف أنها في هذه اللحظة مغرمة بـــي. إذا تقدّمتُ لخطبتها الآن ستقبل بـــي زوجاً لها. إنه لشيء مفرح أن يكون لي أطفال. حتى مـــن دون الخمسين ألفاً. إلا أنني لا أبادلها النظرات لأن الأشياء كلها تغـــيرت. أنظر فقط إلى المسدس في يدي وإلى وجه اللص الميت، الذي أجهل اسمه.

كـــان مـــن المحتمل أن يموت بأي طريقة من الطرائق. كان من المحـــتمل أن يُقـــتل بالرصـــاص في وسط سوق مزدحمة في مناوشة مع الـــشرطة. كـــان من الجائز أن تذبحه عصابة منافسة فيما هو يرتشف الـــشاي عند كشك على جانب الطريق. كان من الجائز أن يتوفى في مستشفى من جراء الكوليرا، السرطان أو الإيدز. إنما لا، هو لم يمت من جراء أي طريقة أو سبب مما سبق. لقد مات بسبب رصاصة أطلقتُها أنا بنفسي. و لم أكن حتى أعرف اسمه.

رحـــلات القطار حافلة بالاحتمالات. إنما ثقب في القلب يضع نهايةً معينةً لها. ما من سفر آخر للجثة. ربما ثمة سفر إلى محرقة الجنازة، لكنها بالتأكيد لن تلتقي بعد الآن بأي بائع متجول أو فاحص تذاكر. أنـــا، على كل حال، من المرجح أن ألتقي ليس فقط البائعين المتجولين وفاحصي التذاكر، إنما الشرطة كذلك. كيف سيعاملونني؟ كبطل صان حياء فتاة وخلّص العالم من لص سيئ السمعة، أم كقاتل وحشي أطلق النار على رجل فأرداه قتيلاً حتى من دون أن يعرف اسمه؟ أعرف شيئاً واحـــداً لا غـــير: لا أستطيع أن أقامر في ما يتعلق بإلقاء القبض عليَّ بـــسبب الجرم الذي اقترفته. ومن ثم راحت كلمات الكولونيل تايلور تضج في وعيي كصاعقة نازلة من السماء: "CYTLYT، شوّش أثرك، ضيّع ذيلك". أعرف بالضبط ما يجب عليّ أن أفعله.

فـــيما كان القطار يتأهب للتحرك نحو المحطة التالية، حيث، من دون ريب، ينتظرني حشد من رجال الشرطة، أقفز من الباب والمسدس لا يـــزال في يدي. أعدو عبر المسلك، وأقفز إلى قطار ثانٍ يكاد ينطلق من الرصيف. لا أجلس في أي مقصورة؛ بل أبقى عند الباب. فيما يمر القطـــار فوق جسر مشيد على دعامة من طرف واحد، أقذف المسدس مدوّماً في النهر المعتم. بعدها، حينما يقف القطار في المحطة التالية، أثب

وأجـــد قطاراً آخر ذاهباً إلى جهة أخرى. أفعل هذا طيلة الليل، متنقلاً من محطة إلى محطة، ومن قطار إلى قطار.

المـــدن تمر بجانبـــي ضبابية. لا أدري ما إذا كنتُ أسافر شمالاً أم جـــنوباً، شرقاً أم غرباً. إنني حتى لا أعرف أسماء القطارات. إنني فقط أستمر في تغييرها. الشيء الوحيد الذي أعرفه بصورة مؤكدة هو أنني لا أستطيع الذهاب إلى مومباي. ربما أخبر أكشاي الشرطة عن سالم وربما يستطيعون أن يعتقلوني في جاتكوبار. إنني أيضاً لا أرغب في النـــزول إلى محطـــة حقيرة، مهجورة وأخطف الانتباه الذي لا ضرورةَ له. أنتظر محطةً مليئة بالضوء، بالصوت والناس.

عـــند التاســـعة صباحاً، القطار الذي كنتُ أسافر فيه يصل إلى رصـــيف ذي نـــشاط صاخب، مزدحم. أترجل مرتدياً قميصاً مغضنة قطنـــية مائة بالمائة والتي كانت ممزقة ولها ثلاثة أزرار مفقودة، سروال الجينـــز علامة ليفي المكسو بالسخام، وساعةً يدوية رقمية مقلدة. تبدو هـــذه المديـــنة مكاناً جيداً كي يختبئ فيه المرء مدةً وجيزةً. أرى لوحةً صـــفراء كـــبيرةً عند حافة الرصيف تحمل اسمه. تعلن بحروف سوداء ثخينة: "أغرا. ارتفاعها 169 متراً فوق مستوى سطح البحر".

تضع سميتا يدها على فمها. تقول: "كنتَ إذاً طيلة هذه السنوات تحيا بشعور بالذنب كونكَ قتلتَ رجلاً؟".

أرد علـــيها: "رجلـــين. لا تنـــسي كيف دفعتُ شانتارام عن السلّم".

"لكـــن مـــا جرى في القطار هو حادثة. ويمكنكَ أن تبررها على أســـاس الـــدفاع عـــن النفس. على كل حال، سأكتشف أولاً ما إذا سُـــجلت دعوى. لا أعتقد أن المسافرين الآخرين كانوا يرغبون في أن

يورطـــوك. لقد أنقذهم، بالرغم من ذلك. بالمناسبة، ماذا جرى لتلك الفتاة،ميناكشي؟ هل رأيتها مجدداً؟".

"كلا. أبداً. لنعد الآن إلى البرنامج".

في الاستوديو، تخفت الأضواء من جديد.

يلتفت إليّ بريم كومار. "ننتقل الآن إلى السؤال السابع بمائتي ألف روبية. هل أنتَ جاهز؟".

أجيب: "جاهز".

"جيد. هو ذا السؤال السابع. من الذي اخترع المسدس؟ هل هو (أ) صـــموئيل كولت، (ب) بروس بروننغ، (ج) دان ويسون، أم (د) جيمس رفولفر؟".

تبدأ الموسيقى. أستغرق في تفكير عميق.

يسألني بريم: "هل سمعتَ بأي اسم من هذه الأسماء؟".

"أحدها يبدو مألوفاً لي".

"هل ترغب إذاً في الانسحاب من البرنامج أم أنك تريد أن تغتنم فرصةً؟".

"أعتقد أنني سأغتنم فرصة".

"فكّـــر مـــن جديد. ربما تفقد المائة ألف روبية التي ربحتها حتى الآن".

"ليس لديّ ما أفقده. أنا مستعد للعب".

"حسن. ما هو جوابك النهائي؟".

"(أ). كولت".

"هل أنتَ متأكد تماماً، مائة بالمائة؟".

"نعم".

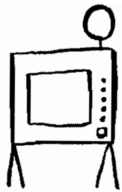
ثمة تسارع لقرع الطبول. يومض الجواب الصحيح.

صـــحيح تمامـــاً، مائة بالمائة! إنه في الواقع صموئيل كولت الذي اختـــرع المـــسدس سنة 1835. لقد ضاعفتَ أرباحك إلى مائتي ألف روبية!".

لا أستطيع أن أصدق ذلك. لقد ربحتُ من جديد الخمسين ألف روبـــية العائدة إليّ مع فائدة بثلاثة أضعافها. شكراً للص داكن البشرة، الذي أجهل اسمه.

هـــنالك آهات صادرة من الجمهور. يتكرر نغم البرنامج، إلا أن الـــصوت الوحيد الذي لا ينثي يتردد في أذنيّ هو صوت حركة المكبس الذي لا يرحم العائد لقطار يسافر من دلهي إلى مومباي، مروراً بأغرا.

على حين غرة يقفز بريم كومار عن كرسيه كي يصافحني، لكنه يجـــد يدي رخوةً وغير مستجيبة. إذا باغتتكِ مفاجأة في وسط برنامج مسابقات، يستغرق الدماغ بعض الوقت كي يستجيب.



500,000
حكاية جندي

كآلـــية الساعة، صفارة إنذار الغارة الجوية تنتحب في تمام الساعة الثامـــنة والنـــصف مساءً، فتؤدي إلى نشاط مسعور في المبنى السكني. النـــــزلاء يتـــبعون التعلـــيمات التي أُعلنت في مكبرات الصوت طيلة الأســـبوع المنصرم في توقع لنشوب العداوات. أطفئوا المصابيح كلها، افـــصلوا التـــيار الكهربائي عن الأجهزة، أحكموا إقفال قوارير الغاز، أغلقـــوا المـــبنى السكني، انتظموا في طابور، وتقدّموا إلى الغرفة المحصنة تحت الأرض.

تقع الغرفة المحصنة تحت مبنى المدرسة. هي ردهة واسعة، مستطيلة الـــشكل ذات إنارة مخففة. تكسو أرضيتها سجادة حمراء باهتة ومغبرة، والأثـــاث الوحيد يتألف من كرسيين متداعيين وطاولة معدنية عتيقة، علـــيها جهـــاز تلفاز بأربع عشرة بوصة. الغرفة المحصنة حارة، خانقة، وتورث الخوف المرضي من الأمكنة المقفلة، لكنها مخصصة لحمايتنا، لذا لا يمكنـــنا حقيقةً أن نتشكى. مع أن هنالك شائعات تفيد بأن للغرفة المحـــصنة في تـــل بالي جهازاً تلفازياً ذا اثنتين وثلاثين بوصة، وأفرشةً دونلوبيلو وهواءها مكيف.

يتجمع النـــزلاء أمام جهاز التلفاز المضبط على قناة الأخبار. أجول ببصري في أنحاء الردهة. تقريباً المبنى السكني كله هنا. أسرة غوخالي، أسرة نينيس، أسرة بابات، السيد واغل، السيد كولكارني، الـــسيدة داملي، السيد شيركي، السيدة باروي... فقط السيد راما شـــانكار المديـــر غائـــب. لا بد أنه مشغول بعدّ إيصالات الإيجار خاصته، وإصلاح المصابيح التي انقطع عنها التيار الكهربائي بسبب انصهار السلك، وتصليح الصنابير التي يخرّ منها الماء، والدرابزينات المكسورة.

أولاً هـــنالك الإعلانـــات التجارية. هذه الحرب يرعاها معجون الأسنان الأم الهند وشاي ممتاز. بعدها نرى ونسمع حديثاً تلفازياً لرئيس الوزراء. القوات الهندية تكسب الحرب، يخبرنا بجد، وما هي إلا مسألة أيـــام حتى يستسلم العدو كلياً. هذه الحرب ستكون قتالاً حتى النهاية، يقـــول بصوت ذي طبقة عالية. ستكون ثمة نهاية للإرهاب، والجوع، والفقر. يحثنا قائلاً: *ساهموا بسخاء في صندوق مساعدة الجنود.*

بعـــد حديث رئيس الوزراء، تظهر ممثلة شابة على شاشة التلفاز وتقول الأشياء ذاتها، إنما بأسلوب سينمائي. تفغر النساء أفواههن لدى مشاهدتهن الممثلة. كم تبدو يافعةً، يقلن، كم هي جميلة. هل أن ساريها من الحرير أم الشيفون، تسأل كل واحدة منهن الأخرى. كيف تستطيع أن تجعـــل بشرتها ناعمةً جداً؟ أي نوع من الصابون تستعمل؟ إنها جد صافية البشرة. إنها لا تحتاج إلى الكريم الذي يجعل البشرة صافيةً ومحببةً إلى القلب.

الـــرجال يتميزون غيظاً. يقولون: أبناء الساقات أولئك سببوا لنا مقـــداراً كافياً من المشاكل. المقدار الكافي هو المقدار الكافي. هذه المرة ينبغي لنا أن ندّمر باكستان كلياً.

السيد واغل هو النزيل الخبير في شؤون الحرب. هو محاضر في الجامعة، هو أكثر نزلاء مبنانا السكني ثقافةً. يقول لنا إن باكستان تملك صواريخ وقنابل ذرية. لهذا السبب نأتي إلى هذه الغرفة المحصنة؛ كي نكون محميين من الإشعاع. إنما ليس ثمة حماية حقيقية من القنبلة الذرية. يقول، حين تسقط القنبلة سيصبح الماء هواءً. سيصبح الهواء ناراً. ستختفي الشمس. سترتفع إلى عنان السماء سحابة هائلة أشبه بالفطر. وسنهلك كلنا، هكذا يختتم كلامه بوقار.

إلا أنه يشق عليكِ أن تتصوّري الموت حين تكونين غلاماً في الثانية عشرة على غراري وعلى غرار بوتول أو صبياً في العاشرة على غرار سالم ودهيانيش وهذه هي أول حرب عرفتها في حياتك. كنا جميعاً مليئين بالحماسة وحب الاستطلاع. نعسكر أمام جهاز التلفاز، نتسمر في أمكنتنا لدى رؤية صور الحرب.

نحن لا نعرف ما هو الإشعاع ولا نبالي به. نحن مهتمون بأشياء أهم. مثل:

حجم الضوضاء التي تحدثها القنبلة الذرية؟

هل نستطيع أن نرى الطائرات النفاثة فوق منازلنا؟

هل ستكون شبيهة بديوالي؟[1].

ألن يكون الأمر جميلاً إذا سقط صاروخ على اليابسة إلى جانب مبنانا السكني؟

إنها الليلة الثالثة للحرب. حياتنا في الغرفة المحصنة تتحول إلى رتابة متوقعة. النسوة بدأن يأتين بخضرواتهن وحياكتهن إلى الردهة. يجلسن في

(1) ديوالي Diwali: أحد الأعياد الرئيسة عند الهندوس. يُسمى عيد الضوء، ويرمز لانتصار الخير على الشر. هذه الكلمة في السنسكريتية ترمز لانتصار النور على الظلام – م.

مجموعة، يقطعن الطماطم والبطاطا، يصنعن البلوزات السميكة، يفصلن القش عن حبيبات العدس، يستخلصن الأوراق السليمة من السبانخ وباقات الكزبرة، يتبادلن آخر الإشاعات. هل تعرفين أن السيدة غوزوامي اشترت جهاز تلفاز جديداً بخمس وعشرين بوصةً؟ الله أعلم من أين يأتي زوجها بهذه النقود كلها! يبدو أن السيد بابات وزوجته قد تشاجرا شجاراً قوياً قبل ليالٍ معدودات. عملياً كان في وسع المنطقة كلها أن تسمعه! هل شاهدت آخر عدد من انفجار نجم؟ إنهم يقولون إن أرمآن علي ربما يكون شاذاً!

يصغي الرجال بتركيز إلى الأنباء ويناقشون آخر الإشاعات. هل حقيقة أنهم يوشكون أن يعلنوا حالة الطوارئ؟ يقولون إن باثانكوت دُمرت كلياً بالقنابل؟ مات مدنيون كثيرون. يملك ميهيتا معلومةً معوّلاً عليها، مباشرةً من الوزارة، من المزمع أن يتم تقنين البترول. البصل والطماطم اختفت عملياً من السوق. خير لنا أن نبدأ بتخزين الحليب.

نحن الصغار لنا عصابتنا الخاصة. ندور حول الردهة الواسعة نصيح ونزعق ونقفز أحدنا فوق الآخر، مما يثير ذعر النساء. نلعب أنا أتجسس إلى أن يهدنا الإعياء. وقتذاك يخترع بوتول لعبةً جديدةً. تُسمى، بصورة كافية على نحو مناسب، الحرب والسلام. اللعبة سهلة جداً. نقسم أنفسنا إلى فريقين، أحدهما بقيادة جنرال هندي والآخر بقيادة جنرال باكستاني. الفريقان يجب أن يطارد أحدهما الآخر. أي شخص يتم القبض عليه أولاً يصبح أسيراً، ويتم تحريره فقط في مقايضة مع أسير آخر من الفريق المقابل. مطاردة الجنرال تساوي أسيرين. الفريق ذو العدد الأكبر من الأسرى المعتقلين هو الذي يربح المباراة. هنالك مشكلة واحدة فقط: ما من أحد يرغب في أن يكون الجنرال الباكستاني. في النهاية أمسكوا بسالم. يقولون له: "أنتَ مسلم. إذاً أنتَ

من سيلعب دور الجنرال الباكستاني. لا يوافق سالم في بداية الأمر، إلا أن الدور تم شراؤه بوعد بعلبتين من العلكة الفقاعية. ألتحقُ بفريق سالم وهزم الهنود.

بعد أن نمارس ألعابنا كلها، نجتمع في ركن، نستريح من مجهودنا الجسدي، ونناقش الحرب.

أقول: "أنا أحب هذه الحرب. إنها مثيرة جداً. ومستخدمتي نيليما كوماري أعطتني إجازة مدة أسبوع، بسبب حظر التجوال".

يقول بوتول: "نعم. أغلقت مدرستي أبوابها مدة أسبوع".

يقول دهيانيش: "أتمنى أن تكون هناك حرب كل شهر".

يصرخ رجل خلف ظهورنا: "أقول لكَ، كف عن هذا الهراء!".

نلتفت مذعورين في ما حولنا كي نرى عجوزاً سيخياً، على عكازتين يقف وراءنا. هو نحيل وطويل، ذو شارب صغير ممتد إلى الجانبين على وجه مسفوع بالشمس. يعتمر عمامةً خضراء كالزيتون كي تضاهي بذلته العسكرية كثيرة الجيوب وذات الحزام العريض. ينظر إلينا بجد ويرفع إصبعاً باتهام. "كيف تجرؤ على جعل الحرب شيئاً تافهاً؟ الحرب أمر خطير جداً. إنها تذهب بأرواح الناس".

حينذاك فحسب نلاحظ أن له ساقاً مفقودة.

نعرف أنه نائب العريف المتقاعد بونام سنغ، أنه انتقل حديثاً إلى مبنانا السكني، وأنه يقيم وحيداً، وأنه فقد ساقه في إحدى المعارك.

بعد أن أدبنا، يعرج بونام سنغ إلى الأمام على عكازتيه، ويجلس على الكرسي قبالة جهاز التلفاز مباشرةً.

يبث التلفاز صوراً حيةً للحرب، الشاشة مخفية بضوء أخضر ضبابي. يروننا مطلقة صواريخ محملة بصاروخ. يضغط جندي على زر فينطلق الصاروخ بوهج ناري. بعد نصف دقيقة، نرى وميضاً من

ضوء أصفر؛ مخضر في مكان قصي ونسمع صوت انفجار. "لقد أصبنا الهدف بصورة صحيحة"، يعلن ضابط جيش يقف إلى جانب مطلقة الصواريخ. يبتسم ابتسامة عريضةً. تبدو أسنانه خضراء بشكل غير طبيعي. في غضون عشر ثوان يُطلق صاروخاً آخر. يلتفت المراسل الصحفي ويقول في آلة التصوير مباشرةً، "هذه هي تغطيتنا الحية والحصرية للحرب في قاطع راجاستان. أنا سونيل فياس من ستار نيوز، مطمور مع الفرقة العسكرية الخامسة، نعود بكم الآن إلى الاستوديو". لم يقولوا لنا ماذا كان الهدف، ما إذا تم ضربة أم لا، كم عدد الناس الذين قتلوا في الهجوم، وكم بقيوا أحياءً. يظهر مطرب مشهور ويبدأ بإنشاد أغانٍ وطنية قديمة بحيوية بالغة.

ينهض نائب العريف المتقاعد بونام سنغ عن كرسيه. يقول باشمئزاز: "هذه ليست حرباً حقيقية. إنها مزحة. إنهم يروكم الأوبرا الصابونية"[1].

يسأل السيد واغل: "حسن، ما هي الحرب الحقيقية؟".

ينظر بونام إلى واغل بازدراء جندي لرجل مدني. "الحرب الحقيقية مختلفة جداً عن فيلم الأطفال هذا. للحرب الحقيقية دم وأحشاء. للحرب الحقيقية جثث وأيدٍ قطّعتها حراب العدو وسيقان نسفتها شظية قنبلة".

يسأل السيد واغل: "أي حرب قاتلتَ فيها؟".

يقول بونام سنغ بفخر: "قاتلتُ في الحرب الحقيقية الأخيرة، تلك التي جرت سنة 1971".

تقول السيدة داملي: "إذاً لماذا لا تخبرنا كيف تبدو الحرب الحقيقية".

نطالب بصخب: "نعم، أخبرنا، يا عم".

(1) الأوبرا الصابونية: مسرحية إذاعية أو تلفازية مسلسلة تعالج مشكلات الحياة المنزلية – م.

يجلـــس بـــونام سنغ. "أنتم حقيقةً ترغبون في معرفة كيف تبدو الحرب الحقيقية؟ حسن، إذاً سأروي لكم قصتي. أحكي لكم عن تلك الأيـــام الأربعـــة عـــشر المجـــيدة حين كسبنا نصرنا الشهير جداً على باكستان".

نحتشد حول الجندي العجوز كأطفال مشدوهين أمام جدهم.

يبدأ بونام سنغ الكلام. تكتسب عيناه تلك النظرة الحالمة، البعيدة الـــتي يحـــصل عليها الناس حين يتحدثون عن أشياء في الماضي البعيد. "ســـأعود بكم الآن إلى سنة 1971. إلى الحقبة الزمنية الحاسمة جداً في تاريخ الأمة الهندية".

يهـــيمن السكون على الجمهور في الغرفة المحصنة. يخفض السيد واغل الصوت في جهاز التلفاز. لا أحد يحتج. التقرير الحي الثانوي على التلفاز لا يضاهي الوصف الأولي لجندي حقيقي.

"بدأت الحرب الحقيقة الأخيرة في الثالث من كانون الأول 1971. أتذكـــر تاريخ اليوم جيداً لأنه في اليوم الذي أُعلنت فيه تلك الحرب، تلقـــيتُ رســـالةً من باثانكوت، من زوجتي المحبوبة، تخبرني أنها أنجبت صـــبياً، طفلـــنا الأول. كتبت زوجتي في رسالتها: (لستَ معي، لكنني أعـــرف أنـــك تحـــارب مـــن أجل وطنكَ، وهذا يملأ فؤادي بالزهو والسعادة. سأدعو من أجل سلامتك ومع ابنك، سأنتظر عودتك المكللة بالنصر).

بكيتُ حين قرأتُ تلك الرسالة، إنما كانت تلك دموع السعادة. لم أبكِ لأنني كنتُ بعيداً جداً عن أسرتي في وقت كهذا. كنتُ سعيداً لأنني مضيتُ إلى المعركة مع بركات زوجتي وشجعني مجيء ابني حديث الولادة إلى العالم".

تسأل السيدة داملي: "ماذا أسميتَ ابنك؟".

"حـــسن، كـــنا قد قررنا قبل الولادة بزمن طويل إذا كان الطفل بنتاً سنسميها دورغا، وإذا كان صبياً سنسميه شير سنغ. لذا كان اسمه شير سنغ".

يسأل السيد شيركي: "كيف بدأت الحرب؟".

"في ليلة الثالث من كانون الأول كان ثمة قمر جديد. تحت جنح الظـــلام بدأ العدو الجبان بضربات جوية وقائية على عدد من مطاراتنا على طول القاطع الغربـــي - سريناغار، أفانتيبور، باثانكوت، أوتارلي، جودهبور، أمبالا، أغرا - كلها قُصفت. أعقب الضربات الجوية هجوم واسع على قاطع جهامب الاستراتيجي في الشمال".

يسأل السيد واغل: "أين كنت حين اندلعت الحرب؟".

"هـــناك في جهامب، مع فرقة المشاة الثالثة عشرة. أنا انتسب إلى فوج السيخ وكتيبتي - أم 3 سيخ - انتشرت في جهامب وسط مجموعة مـــن مجموعات اللواء. الآن عليكم أن تفهموا لماذا هاجمتنا باكستان في جهامـــب. جهامـــب ليست مجرد قرية على الضفة الغربية لنهر مناور تـــاوي. إنها أيضاً الطريق الحيوية المؤدية إلى مقاطعتي أخنور وجوريان. إذا استوليتَ على جهامب فتهدد الدولة بأسرها.

تلك الليلة إذاً بدأت باكستان بهجوم ثلاثي علينا. دخلوا مع وابل كثيف من النيران. مدافع ومدافع هاون. كان إطلاق النيران كثيفاً جداً بحيث إنه في ساعات قليلة لا غير تقريباً كل غرفنا المحصنة تحت الأرض دُمرت، وتم أسر ثلاث دوريات حدود تابعة لنا.

كـــنتُ أتـــولى قيادة موضع أمامي مع ثلاثة رجال حين بدأ الهجوم. هـــاجم العدو موضعي بقوة شديدة جداً. عليكم أن تتذكروا أن لدينا فقط ثـــلاث كـــتائب عـــبر الموناور تاوي، الذي يواجه فرقة مشاة من الجيش الباكـــستاني، فـــرقة المـــشاة الثالثة والعشرون، مع لواء مدّرع، نحو مائة

وخمـــسين دبابـــة، ونحو تسعة إلى عشرة أفواج من سلاح المدفعية. كانت باكستان تملك مدفعية في جهامب أكثر من كل المواقع في الجبهة الشرقية.

كـــان الرجال الثلاثة تحت إمرتي في ذلك الوقت هم سوخفندر سنغ من باتيالا، راجيشوار من هوشياربور وكارنيل سنغ من لودهيانا. كان كارنيل هو أفضل الكل، رجل طويل القامة، مفتول العضلات ذو صـــوت هادر وبسمة مُعدية، لم يكن يخاف الموت، إنما كان ثمة خوف واحد يلحّ عليه في كل يوم".

يسأل السيد كولكارني: "وما هو ذلك الخوف؟".

"الخـــوف مـــن أن يدفـــنوه. كمـــا تعـــرفون، سمعنا أن هؤلاء الباكـــستانيين، إذا ما عثروا على أي جثة من جثث الجنود الهنود، لن يعيدوها إلينا. إنهم، بدلاً من ذلك، يدفنوها بصورة متعمدة وفق الشرع الإســـلامي، حتى وإن كان الجنود الهنود هندوساً. كان كارنيل رجلاً وورعـــاً، وكان مذعوراً من أنه إذا مات في المعركة، فإن جثته ستُدفن ست أقدام تحت الأرض بدلاً من أن تُحرق. قال لي قبل نشوب الحرب بأســـبوع: *عدني، سيدي، أنكَ ستضمن حرق جثتي بصورة مناسبة إذا مـــتُّ. بخلاف ذلك فإن روحي لن تجد السلام وستكون مجبرةً على أن تطـــوف أعماق العالم السفلي بلا هوادة على مدى ستـ وثلاثين ألف سنة أخرى*. أحاول أن أعيد طمأنته، قائلاً له إنه لن يموت، بيد أنه كان عنيداً. لذا، ببساطة كي أوقف إلحاحه، أخبرته قائلاً: حسن، كارنيل، إذا متَ، أعدكَ أن تُحرق جثتك وفق الشعائر الهندوسية الكاملة.

"إذاً في ليلة الثالث من كانون الأول، كنا في غرفة محصنة أمامية – كارنيل، سوخفندر، راجيشوار، وأنا – حين بدأ إطلاق النار...".

قاطعـــه بوتول قائلاً: "عماه، هل كانت غرفتكم المحصنة مزوّدة بجهاز تلفاز كغرفتنا هذه؟".

يقهقه الجندي. "لا، يا بني. لم تكن غرفتنا المحصنة مترفةً كهذه. لم تكن مزودة بسجادة أو جهاز تلفاز. كانت صغيرةً وضيقةً. أربعة أشخاص فقط يمكنهم أن يزحفوا إليها. كانت تعج بالبعوض وحتى الثعابين تأتي لزيارتنا".

تغدو نبرته جادةً أكثر. "الآن لا أعرف ما إذا لدى أي منكم اطلاع على طبوغرافية جهامب. إنها منطقة مستوية، لكنها معروفة بصخورها الرمادية والساركاندا - عشب الفيل - طويل وسميك جداً وفي وسعه أن يموّه دبابةً. عبر هذا العشب الثخين، أقبل العدو إلينا تحت جنح الظلام. قبل أن نعرف بالأمر، كانت المدفعية تطلق نيرانها. كانت العتمة شديدةً ولم يكن في وسعي رؤية أي شيء على الإطلاق. أُطلقت قنبلة يدوية نحو غرفتنا المحصنة، غير أننا كنا قادرين على أن نزحف إلى الخارج قبل أن تنفجر. حين غامرنا بالخروج من الغرفة المحصنة، استقبل رذاذ من النار من رشاش خفيف كل خطوة من خطواتنا. بهدوء، بدأنا نتقدم على الأقدام، سائرين بخط مستقيم، محاولين أن نحدد مصدر إطلاق النار. أحرزنا تقدماً جيداً إلى الأمام، ووصلنا تقريباً إلى الغرفة المحصنة الباكستانية التي كانت تنطلق منها النار، حين انفجرت قذيفة مدفع هاون خلفي مباشرةً. قبل أن أعرف بالأمر، كان سوخفندر وراجيشوار قد قُتلا وكان كارنيل ينزف من جراء جرح تسببت به شظية قذيفة أصابت معدته. كنتُ الشخص الوحيد الذي أفلتَ بأضرار طفيفة نوعاً ما. بسرعة أعلمتُ آمر مجموعتي بالإصابات. أخبرته كذلك أن ثمة موضعاً لرشاش كان يقذف بقوة ناراً قاتلةً من غرفة محصنة للعدو وإذا لم يتم إسكاته سيسبب ضرراً كبيراً للمجموعة. أخبرني الضابط الآمر أنه لا يستطيع أن يوفر وحدةً فرعيةً أخرى، وطلب مني أن أحيّد بطريقة ما موقع الرشاش.

قلـــتُ لكارنيل: *أنا ذاهب صوب غرفة العدو المحصنة. وفر غطاءً ناريًا لي.*

لكـــن كارنـــيل سدَّ الطريق دوني. قال لي: *هذه مهمة انتحارية، سيدي.*

أجبته: *أعرف، كارنيل. إنما يجب على المرء أن يقوم بها.*

قال كارنيل: *دعني إذًا أقوم بها، سيدي. أنا أتطوّع بتحييد رشاش العـــدو.* ثم قال لي: *إنه شيء صعب، لكَ زوجة. وقد رزقت تواً بابن. لـــيس لديّ أحد في أسرتي. ما من أحد ورائي. ما من أحد أمامي. ربما أموتُ من جراء هذا الجرح. دعني أمضي وأفعل شيئًا ما لخدمة وطني. إنمـــا لا تنسَ وعدكَ، سيدي.* وقبل أن أطلق حتى كلمة واحدة، خطف البندقـــية من يدي واندفع مسرعاً إلى الأمام. *بهارات ماتا كي جاي – عِـــش أبـــداً يا وطني الهند*، صاح وهاجم حجرة العدو المحصنة، طعن بالحربة ثلاثة جنود من العدو حتى الموت، وأسكت الرشاش. لكنه فيما كـــان واقفـــاً والبندقية بيده، تلقى سلسلة طلقات نارية مهلكة أخرى صـــادرة مـــن بندقية أصابته في صدره، وأمام عينيّ تهاوى على الأرض والبندقية لا تزال في يده.

تغدو الردهة هادئة جداً فيما كنا نحاول أن نتصوّر المشهد العنيف للمعـــركة. يبدو أن صوت إطلاق المدفع والمدفع الهاون يتردد صداه في أرجاء الغرفة. يستطرد بونام في كلامه.

وقفـــتُ جامـــداً بلا حراك في البقعة ذاتها قرابة الساعتين. كانت لديّ تعليمات أن أعود إلى مجموعتي، إلا أن الوعد الذي قطعته لكارنيل ظـــل يرن في أذنيّ. جثته الآن ترقد في أرض العدو وليست لديّ أدنى فكرة عن عدد الجنود الباكستانيين الذين لا يزالون هناك. كنتُ الوحيد الذي بقي من قسمي.

عند الساعة الثالثة توقف إطلاق النار كلياً وكان ثمة سكون مميت. عصفت ريح مفاجئة خشخشت الأشجار على مقربة مني. سرتُ ببطء صوب الغرفة الباكستانية المحصنة، على بعد مسافة لا تزيد عن مائتي قدم. بغتةً، أمامي، سمعتُ وقع خطى مكتوم. توترتُ كي أسمع بعناية ضربات قلبي فيما رفعتُ بندقيتي. أرد زناد البندقية إلى الوراء استعداداً للرمي، إنما آمل ألا أضطر إلى استخدامها. إطلاق النار في الظلام ينتج وميضاً ساطعاً من فوهة البندقية يكشف موقعي للعدو. حاولتُ أن أكبت حتى صوت تنفسي، دب شيء خفيف وزلق فوق ظهري، كان يبدو أشبه بأفعى. كان لديّ حافز يائس أن أهزها كي تسقط، غير أن الخوف من تنبيه العدو جعلني أغمض عينيَّ وأتمنى ألا تلسعني. بعد مدة بدت طويلة كالأبدية، انزلقتْ إلى أسفل ساقي وأطلقتُ تنهيدة ارتياح. كان ظهري مبللاً بالعرق وكانت ذراعاي تؤلمانني. بدت لي بندقيتي وكأنها مصنوعة من الرصاص. بدأ وقع الخطى من جديد، وشرع يقترب رويداً رويداً. حدّقتُ خلسةً في العتمة، ساعياً إلى فك مغالق الخط الخارجي للعدو، إلا أنه تعذر عليّ أن أرى شيئاً على الإطلاق. كنتُ أعرف أن الموت يختبئ قريباً مني. إما أن أقتل أو أُقتل. سُحق غصين بجلبة ويمكنني حتى أن أكتشفَ نَفَساً ضعيفاً. كان انتظاراً مُعذباً. فكرتُ هل يجب عليّ أن أطلق النار أم أنتظر العدو كي يقوم بأول حركة؟ فجأةً، رأيتُ نور عود ثقاب وقفا رأس طفا في المشهد، كشبح تحرر من الجسد، لا يبعد عني أكثر من عشر أقدام. قفزتُ فوراً خارج العشب، واندفعتُ إلى الأمام بحربة مفتوحة. كان هنالك جندي باكستاني، يهم بالتبوّل. كدتُ أصرعه حين التفت حوله، أسقط بندقيته، وتوسل إليّ قائلاً بيدين مشبكتين، *أرجوك لا تقتلني. أناشدك*.

سألته: *كم بقي منكم في المنطقة؟*

لا أدري. لقـــد انفصلتُ عن وحدتي العسكرية. كنتُ أحاول أن أرجع. أرجوك. أتوسل إليك، لا تقتلني، قال باكياً.

سألته: *لماذا لا أقتلك؟ على كل حال، أنتَ العدو.*

قـــال: *لكنني إنسان أيضاً، على غرارك. لون دمي هو نفس لون دمـــك. لديّ زوجة تنتظرني في ميربور. وبنت صغيرة جاءت إلى الدنيا قبل عشرة أيام فقط. لا أريد أن أموت من دون حتى رؤية وجهها.*

رق قلبـــــي لدى سماعي هذه الكلمات. أخبرت الجندي العدو: *أنا أيضاً لديّ زوجة وولد صغير لم أر وجهه بعد.* بعدها طرحتُ عليه ســـؤالاً: *مـــاذا كـــنتَ ستفعل لو كنتَ مكاني؟* بقي صامتاً برهةً من الوقت، بعدها أجاب متلعثماً: *كنتُ سأقتلكَ.*

قلتُ له: *هل رأيت. نحن جنديان، علينا أن نكون مخلصين لمهنتنا، لكـــنني أعـــدك، سأدفن جثتك بصورة مناسبة.* وبعدها، من دون أن يطرف لي جفن، غرزتُ حربتي في قلبه".

"أوخ... جي جي..." تغمض السيدة داملي عينيها باشمئزاز.

السيد شيركي مستثار الأعصاب أيضاً. "حقيقةً ما كان ينبغي لـــكَ أن تصوّر الحرب تصويراً فوتوغرافياً"، يقول بونام فيما كان (أي السيد شيركي) يحاول عبثاً أن يغطي أذنيّ بوتول براحتيه. "كل هذا القتل والدم، أنا قلق من أن ابني ربما سيرى الكوابيس في الأيام المقبلة".

يـــشخر بـــونام ساخطاً: "ها! الحرب ليست لسريعي الغثيان. في الحقيقة، هي جيدة لهؤلاء اليافعين كي يفهموا ما هي بالضبط. يجدر بهم أن يعرفوا أن الحرب غاية في الجد. إنها تذهب بالأرواح".

يسأل السيد واغل: "ماذا حدث بعد ذلك؟".

"لم تحـــدث أشياء كثيرة. مضيتُ إلى غرفة العدو المحصنة، حيث كانـــت جـــثامين ثلاثـــة جنود باكستانيين مسجاةً إلى جانب جثمان كارنـــيل. التقطته، وعدتُ مجهداً إلى قاعدة مجموعتي وجثته ملقاة على كتفـــيّ. صباح اليوم التالي أحرقنا جثته". تخضلت عينا بونام بالدموع. "أخبرت الضابط الآمر بالعمل الباسل الذي قام به كارنيل، وبتزكية منه مُنح كارنيل سنغ وسام MVC بعد مقتله".

يسأل دهيانيش: "ما هو وسام MVC؟".

"ماها فير جاكرا. إنه واحد من أعلى الأوسمة العسكرية في بلدنا"، يجيب بالوانت.

"وما هي أعلى الأوسمة؟".

"وســـام PVC أو بارام فير جاكرا. إنه يُمنح للمرء على الأغلب بعد وفاته".

يسأل دهيانيش من جديد: "أي وسام هو الذي نلته؟".

يلـــوح على محيا بونام تعبير مؤلم. "لم أحصل على أي وسام عن هـــذه العملية. لكن هذه ليست نهاية قصتي. يجب عليَّ الآن أن أروي لكم عن معركة جسر مانديالا ذائعة الصيت".

ينظر السيد واغل إلى ساعته اليدوية. "لقد تجاوز الوقت منتصف اللـــيل. "لـــنذهب. أعتقد أننا نلنا كفايتنا من الإثارة في ما يتعلق بهذا اليوم. حظر التجوال انتهى. يجب علينا الآن أن نعود إلى منازلنا".

نتشتت على مضض.

في الـــيوم التالي، نكون في الغرفة المحصنة مجدداً. أجاي ابن السيد بابـــات حاضـــر هنا أيضاً. لا بد أنه عاد من منـــزل جدته. إنه متباهٍ كـــبير، يتفاخر دوماً بلُعبه، وبحاسوبه، وبمزاجه، وصديقاته العديدات.

كلنا نكرهه، إنما نضمر شعورنا هذا في بواطن نفوسنا. لا نرغب في أن نتخاصم مع غلام في الخامسة عشرة يبدو في السابعة عشرة. اليوم لديه دفتر يوميات صغير يسميه دفتر التواقيع. إنه يُري الأولاد الآخرين بعض الخربشات. "هذا توقيع أميتاب باجاجان، هذا توقيع أرمآن علي، وهذا يعود لرافينا، وهذا توقيع ضارب كرة الكريكيت الشهير ساجين مالفانكر".

"وماذا عن هذا؟" يستفهم دهيانيش. يشير إلى خربشة غامضة يتعذر تماماً حل رموزها. يفكر فيها أجاي، ومن ثم يقول بخجل، "هذا توقيع أمي. كانت تختبر قلم الحبر".

يحمل بوتول أيضاً شيئاً ما معه، إنما ليس دفتر تواقيع. إنه دفتر كتابة. قال له والده إن عدم وجود مدرسة لا يعني عدم الدرس. الآن يومياً عليه أن يجلس في الغرفة المحصنة تحت الأرض، ويكتب. موضوع اليوم هو: بقرتي، مع أن بوتول لا يملك بقرة.

يظهر على شاشة التلفاز ناطق عسكري ملخصاً لمجريات الحرب. "ضربات جوية باكستانية على القواعد الجوية الهندية في أمبالا، غوراخبور وغواليور حيث تم تحييدها بنجاح. القوات الهندية احتلت باغلا وراهيمار خان. القواعد الباكستانية المتقدمة في بهاوالبور، سوكور ونوابشاه دُمرت كلياً. وشاكارغاره تحت سيطرتنا. في قاطع جهامب، صدّ جنودنا هجوماً باكستانياً كبيراً لاحتلال جسر مانديالا".

هتف مشجعين، بوحشية. كان هنالك كثير من التصفيق والمصافحات بالأيدي.

يجلس بونام سنغ، كالسابق، أمام جهاز التلفاز، يقول: مع هزة من رأسه: "لقد هاجموا إذاً جسر مانديالا من جديد. هؤلاء الباكستانيون لن يتعلموا من أخطائهم".

يــبدو لي أن بــونام ينتظـــر شخصاً ما كي يسأله حول جسر مانديالا، إنما ما من أحد يأخذ الطُعم.

يــتحول بــرنامج التلفاز إلى نقاش في الاستوديو. بعض الخبراء يناقـــشون الحـــرب. رجـــل ملتحٍ يضع نظارة يقول: "كلنا نعرف أن باكـــستان تملك ما يقارب الأربعين رأس نووي. إن انفجار قنبلة ذرية واحـــدة ذات قوة انفجارية قدرها خمسة عشر كيلو طن[1] فوق منطقة مدينية ذات كثافة سكانية قدرها خمسة وعشرون ألف نسمة في الكيلو متـــر المربع الواحد كافية لقتل ربع مليون إنسان. الآن إذا قدرتم هذه المعلومة على مومباي، حيث -".

يقـــول واغل: "الماء سيصبح هواءً. الهواء سيغدو ناراً. ستنبجس سحابة شبيهة بالفطر نحو السماء. سنموت جميعاً".

يطفـــئ السيد كولكارني جهاز التلفاز. يقول: "هذا شيء يوقع الكآبـــة في النفس. لم لا نصغي بدلاً من ذلك إلى القصة الملهِمة لبطل الحـــرب خاصـــتنا. بونام سنغ، كنتَ تذكر معركة جسر مانديالا يوم أمس. من فضلك احكي لنا عنها".

يمـــد بونام رأسه بغطرسة، يمد ذراعيه، ويرفع كميه إلى الأعلى. يدعك جدعة ساقه، يدير كرسيه كي يواجه المجموعة، ويبدأ كلامه.

"ثمة جرف عالٍ جداً عبر نهر مناور تاوي يُدعى مانديالا نورث. هذا هو الموقع الذي هاجمنا فيه العدو في ليلتي الثالث والرابع من كانون الأول، ولأنـــنا عملـــياً لا نملك قوات تمسك ذلك المعَلَم الخاص، فقد سُـــحقت مواقعنا. ثم بدأ الباكستانيون يتقدمون إلى الأمام مع الدبابات وقوات المشاة صوب معبر مانديالا حيث نشروني مع 35 سيخياً.

(1) كـــيلو طن Kiloton: ألف طن؛ قوة انفجارية تعادل تلك التي لألف طن من مادة TNT - م.

وقـــتذاك أدركـــنا أن الهـــدف الرئيس للفرقة الباكستانية الثالثة والعشرين هو الاستيلاء على جسر مانديالا. ما إن يحدث ذلك، نكون مـــرغمين على أن نترك جهامب وكل المنطقة الواقعة غرب تاوي. لذا عـــند منتـــصف النهار في الرابع من كانون الأول بدأنا بتعزيز موقعنا. موقع كتيبة 31 فرسان تم تعزيزه بسرية خيالة من الفوج المدرع السابع والعشرين، و37 كوماون[1] أُرسل من أخنور كي يبدأ هجوماً معاكساً لاسترداد مانديالا نورث. إلا أن المأساة صدمتنا حين قُتل الضابط الآمر لكتيـــبة 37 كوماون فوراً من جراء قصف المدفعية الباكستانية قبل أن ينـــضم إلينا. لذا بقيت الكتيبة من دون قائد ووصلت تاوي مع غروب آخـــر أشعة شمس. لذلك حُولت إلى الضفة الشرقية، المطلة على معبر مانـــديالا. لـــذلك حين حلّ الليل فقط 35 سيخياً ومجموعة 19 وهي قـــوات خاصة كانتا تحرسان معبر مانديالا، فضلاً عن قوات الدبابات التابعة لكتيبة 31 فرسان، التي كانت تمسك مانديالا ساوث.

كتيبـــتان باكستانيتان - POK، وPOK 13 - بدأتا هجوماً ضارياً علـــى تـــاوي في نحو الساعة ثلثمائة الثالثة فجراً من يوم الخامس من كانـــون الأول. أقـــبلوا بدباباتهم باتون الأميركية ودباباتهم تي - 59 الـــصينية، المدافـــع تدوي. الطائرات النفاثة من سلاح الجو الباكستاني زعقـــت فوق رؤوسنا، مهاجمةً المنطقة بعنف، مُسقطةً قنابل تزن كل واحـــدة مـــنها ألف رطل على مواضعنا. شاهدتُ المركبات تحترق في الأمكـــنة كلـــها، قذائـــف المدافـــع تنفجر، والدبابات تتحرك نحونا كحـــشرات فـــولاذية عملاقـــة في عشب الفيل الطويل. كانت نيران

(1) كـــوماون Kumaon: موطن لكتيبة شهيرة من الجيش الهندي. وهي واحدة مـــن منطقتـــين وقسمين إداريين من أوتارخاند. ذات طبيعة جبلية وتقع في شمال الهند - م.

المدفعـــية كثيفةً جداً بحيث إنه في بحر خمسين دقيقة تغلغلت عبر كامل عمق مواقعنا. POK 13 دخلت إلى وحدة 29 الجاتية[1] وفرقتها. فيما كانـــوا يتقدمون، استولوا على النقطة 303 بعد أن قتلوا الضابط الآمر. كـــان الدفاع عن هذا المعَلَم قد عهد به أيضاً إلى 35 سيخياً، إنما لسوء الحـــظ بعض زملائي لم يستجيبوا لنداء الواجب. إنهم فقط هربوا من مواجهة وابل من نيران مدفعية العدو. بعد أن ضمنوا النقطة 303، أمر الباكـــستانيون قواهم الاحتياطية في أن يتقدموا إلى الأمام وأن يعززوا رأس الجـــسر. مع أول شعاع للشمس، اجتاحوا جسر مانديالا. بدا لنا أن الأعجـــوبة وحدها تستطيع أن تنقذنا الآن. هل يستطيع أحدكم أن يأتيني بقدح ماء؟".

بـــونام ســـنغ راوٍ بـــارع. إنه يشدد على الكلمات الصحيحة، يتوقف، عند الأمكنة الصحيحة ويطلب قدح ماء في الوقت الصحيح، حينما يصبح الترقب لا يطاق.

يجلب شخص ما بسرعة كوب ستيروفوم مملوء بالماء. نبرز أعناقنا إلى الأمام. يستأنف بونام حديثه بعد أن يأخذ جرعةً من الماء.

"في هذه اللحظة تحديداً التحق بنا آمر اللواء 368 شخصياً آتياً من أخـــنور. حين وصل رأى مشهد الدمار الشامل والفوضى. ذاق الجنود الويلات بسبب مشهد المعركة. الأرض أمست قفراً مليئاً بالحفر، مندّبة بالجثث، بكسارة الحجارة وحطام دباباتنا المحترقة. كانت هنالك نيران تندلع في كل الأرجاء. مياه نهر التاوي استحالت قرمزيةً من جراء دماء الجـــنود. كـــان جحيماً بكل ما للكلمة من معنى. لا يشبه ذاك الذي يرونكم إياه عبر التلفاز، حيث تضغط على زر، تطلق صاروخاً وبعدها ترتشف الشاي.

(1) الجاتي Jat: أحد أبناء شعب هندي أوروبـــي مقيم في بنجاب – م.

قـــال لي الضابط الآمر الذي عرفني: *بونام سنغ، ما الذي يجري؟ أيـــن اختفى رجالنا*؟ فأجبته بفؤاد مُثقل بالهم: *أنا متأسف لأن أبلغك، سيدي، أن كثيرين هجروا ميدان المعركة وفروا بجلودهم. لم يستطيعوا أن يـــتحملوا القوة العسكرية الساحقة التي نشرها العدو*. كنا قد فقدنا ثلاث دبابات ورجالاً كثيرين.

قال الضابط الآمر: *إذا فكرنا جميعاً بهذه الطريقة كيف سنكسب هـــذه الحرب*؟ بعدها تنهد. *أعتقد أن هذا الوضع ميؤوس منه. علينا أن نتراجع.*

اعترضتُ فوراً. قلتُ له: *سيدي، إن شعار فوجنا هو نسجي كار أبني جيت كارون؛ أقاتل لأنني متأكد من كسب المعركة. لن أستسلم من دون قتال.*

هذه هي الروح، بونام. ربت الضابط الآمر على ظهري، وأخبرني أن أجمع الرجال الباقين وأحثهم على القتال. قائد فصيلي فرَّ أيضاً، لذا عيـــنني الـــضابط الآمر مسؤولاً عن الفصيل. أُسندت إلى كتيبتنا مهمة الـــتقدّم إلى الأمام فوراً لاسترداد الجسر. كانت مجموعة الدلتا من حملة بـــنادق غـــورخا مستعدين أيضاً للانقضاض، مع ما تبقى من دبابات الكتيبة 31 فرسان.

انفجـــر الـــصبح بنار المدفعية والرشاشات. أصبح معبر مانديالا جحيماً، مرجلاً من النار، رجات وانفجارات. مع طلقات القناص التي تئز مارةً برؤوسنا، تتقيأ الرشاشات ناراً مستمرةً ومميتةً، طائرات العدو تـــزعق فـــوق رؤوسنا والقنابل تُحدث جلبةً صاخبةً في كل الجهات المحـــيطة بـــنا، انطلقنا من موقعنا مسلحين بحراب ثابتة، هاتفين بصيحة المعـــركة الخاصـــة بالسيخ. هاجمنا العدو المتقدّم، وطعنّا بالحراب حتى الموت كثيرين منهم في قتال دموي متلاحم. هذا الفعل الجريء أضعف

معـــنويات العـــدو كلياً. المدّ أخذ يتحول لصالحنا. أجبرنا العدو على التقهقر.

في تلـــك اللحظة، قرر الأعداء أن يجلبوا دباباتهم عبر نهر تاوي. حـــتى ذلك الوقت، كانوا قد بقيوا عند الجانب الآخر. لحظة عبورهم الجسر ووصولهم إلى ناحيتنا، سنكون مكشوفين لهم تماماً. كان ضرورياً أن نمـــنعهم من عبور الجسر. الآن دباباتنا تي - 55 العائدة للكتيبة 31 فرسان والفوج المدرع السابع والعشرين جاءت لتشارك في المعركة. في الـــبداية صدت دباباتنا بصورة حسنة الهجوم الضاري للعدو، إنما حين بـــدأت دبابـــات باتون الباكستانية تترنح على الجسر، هجر اثنان من رجالنا دبابتيهما وفرا.

لا أدري مـــا الـــذي جـــرى لي. ركضتُ إلى إحدى الدبابتين المهجـــورتين، فتحتُ البويب، وانـــزلقتُ إلى الداخل. كنتُ أعرف ما يتعلق بالدبابات، إلا أنني لم أقد واحدةً من قبل. مع ذلك، لم يستغرق الأمر مني سوى دقيقتين كي أفهم جهاز القيادة وفي الحال وضعتُ دبابة تي- 55 في حالة الحركة. حين انطلقت دبابتي، أمست تحت نار كثيفة من العدو الذي كان مختبئاً في غرف محصنة. لذا حركتُ دبابتي صوب خندق العدو. ظنوا أنني سأستسلم بوجه نارهم القوية، لكنني واصلتُ الحـــركة مـــن دون شفقة صوب الغرفة المحصنة، إلى أن قفزوا وهربوا. حـــاول أحـــدهم أن يصعد على دبابتي. وفي الحال وضعتُ البرج على مـــصدر الطاقة الجانبـــي، أدرتُ المدفع - البندقية من عيار 100 ملم وأبعدتـــه بـــضربة قوية كما يبعد المرء ذبابةً عن كوب الحليب. خلال ذلـــك، كانت دباباتنا الأخرى قد بدأت تستهدف العدو، وفي غضون عشرين دقيقة بقي للعدو دبابة باتون واحدة فقط. لاحقتها فيما كانت تحـــاول الهرب. تلقت دبابتي ضربةً مباشرةً منها، فاندلعت فيها النيران.

إلا أن مدفعـــي كان لا يزال يعمل. واصلتُ مطاردة الباتون، وأطلقتُ النار عليها، وهي لا تبعد عن موضعي أكثر من خمسين ياردة. توقفت دبابـــة العـــدو فجأةً، انقلبت على عقبها، برجها يدوّم كالسكران. في النهاية كف عن الدوران، وانفجرت الدبابة، واستحالت كرةً من نار. تقدمت إلى جهاز برافو الذي يوصلني بالضابط الآمر خاصتي وقلتُ: *تم تدمير ثمان دبابات للعدو، سيدي. الوضع تحت السيطرة.*

تقـــريباً صار الآن جسر مانديالا في قبضتنا. تفرق العدو. دباباته دُمـــرت، إنمـــا لا تزال ثمة جيوب معزولة للمقاومة. وضع العدو بعض المدافع الأوتوماتيكية، ومُطلقات الصواريخ حول الجسر والتي كانت لا تـــزال فاعلة. والأهم من كل شيء، العلم الباكستاني لا يزال يرفرف فـــوق الجسر. وجب عليَّ أن أمزقه. بعد أن دوخني الارتجاج ومزقتني قطـــع المعـــدن المتطايـــر وجـــرحتني، بدأتُ أسيرُ ببطء صوب الغرفة الباكـــستانية المحـــصنة. في كل حدب صوب، رأيتُ حولي جثثاً على الأرض المـــزبدَة والموحلة. واصلتُ التحرك إلى الأمام، وتقدمتُ داخل العـــشر ياردات لغرفة العدو المحصنة، التي كانت تطوقها كتلة متشابكة مـــن الأسلاك الشائكة. عندئذ رميتُ قنبلةً يدويةً دخانيةً داخل الغرفة المحصنة فسقط ثلاثة جنود باكستانيين أرضاً، أمواتاً. بقي هنالك جندي واحـــد فقـــط. حين رفعتُ بندقيتي كي أطلق عليه النار، أدركتُ أنها تعطلت. الجندي العدو فهم ذلك أيضاً. ابتسم، رفع مسدسه، وضغط علـــى الزناد. وابل من الطلقات النارية أصاب ساقي اليسرى، وهويتُ أرضـــاً. ســـدد المسدس إلى قلبـــي، وضغط على الزناد مجدداً. تهيأتُ للموت. إنما بدلاً من الانفجار الذي يصم الآذان، كانت هنالك طقطقة فارغة. نفد مخزن العتاد خاصته. صاح وهجم عليّ بحربة مجرّدة. قاومته وأنا أصيح *النصر للهند*، وببراعة تجنبتُ هجومه المفاجئ. بعدها شرعتُ

أضـــربه حـــتى الموت بعقب بندقيتي. في النهاية، قفزتُ إلى عَلَم العدو، مزقته وأبدلته بالعَلَم ذي الألوان الثلاثة. حين رأيتُ عَلَمنا يرفرف على جسر مانديالا، كانت تلك أسعد لحظة في حياتي، مع أنني عرفتُ أنني فقدتُ إحدى ساقيّ".

يتوقف بونام سنغ عن الكلام، ونرى أن عينيه غارقتان بالدمع.

لا يتحرك أحد قيد أنملة على مدى دقيقة تقريباً. ثم يذهب بوتول إلى بونام سنغ، ويحمل دفتر التمارين الخاص به.

يمـــسح الجندي عينيه. "معذرةً، ما هذا؟ لا أستطيع أن أحل لك واجبك البيتي في درس الرياضيات".

يقول بوتول: "لا أريد منك أن تحل واجبـــي البيتي".

"إذاً لماذا قدّمتَ إليّ هذا الدفتر؟".

"أريد توقيعكَ. أنتَ بطلنا".

يصفق الجميع.

يطرح دهيانيش السؤال نفسه من جديد. "إذاً ما هي الجائزة التي منحوك إياها عن هذه المعركة؟".

يلتزم بونام الصمت، كما لو أننا لمسنا عصباً مسلوخاً عنه الجلد. ثم يقـــول بمرارة: "لا شيء. أعطوا وسامين من نوع MVC ووسامين مـــن نوع PVC إلى 35 سيخياً. ثلاثة من زملائي نالوا ميداليات سينا وشيد نصب تذكاري في جوريان. بيد أنهم لم يمنحوني شيئاً، ولا حتى ذكـــروا اسمـــي في التقاريـــر العسكرية العاجلة. لم يكن هنالك تقدير لبسالتي".

يطلـــق تنهـــيدة. "إنما لا تقلقوا. أشعر بالرضا حين أرى اللهب يشتعل فوق النصب التذكاري للجندي المجهول. أشعر أنه يشتعل لأناس مـــن أمـــثالي". استحال كلامه فلسفياً، وراح يلقي قصيدة بالأوردية.

"نـــأتي إلى العالم من دون إعلان، نغادره من دون إعلان. لكن خلال وجودنا في هذا العالم، نقوم بتلك الأعمال التي حتى إذا لم يتذكرها هذا الجيل، فالجيل القادم لا يستطيع أن ينساها".

يسكت الجميع مجدداً. بغتةً، تشرع السيدة داملي بالغناء:

"أنـــا فخور أن أكون هندياً...". وفي الحال ينضم إليها الجميع في إنـــشاد الأغنية الوطنية. لا أدري ما الذي حل بنا نحن اليافعين، لكننا نظمـــنا عرضـــاً تلقائـــياً للجند أمام رجل عظيم. شكّلنا صفاً أحادياً، ومـــررنا بمحاذاة بونام سنغ، قبضاتنا اليمنى مضمومة بإحكام في إيماءة تحية لهذا الجندي الشجاع.

كانت هذه حربنا. كان هو بطلنا.

هكـــذا هيمـــنت العاطفة على بونام سنغ. يبدأ بالبكاء. يصيح: *النصر للهند!* ويجر قدميه بتثاقل إلى خارج الغرفة، تاركاً إيانا وحيدين مع خشخشة عشب الفيل، صوت انفجارات القنابل، الرائحة اللاذعة للكوردايت[1]، والموت.

يأتي السيد واغل إلى المنصة ويلقي إعلاناً: "أصدقائي الأعزاء، لي الشرف أن أعلمكم أنه سيزورنا غداً فريق من صندوق مساعدة الجنود، اختـــصاراً (صمج). رئيس وزرائنا المحبوب ناشد كل الهنود أن يساهموا بسخاء من أجل مساعدة جنودنا، الذين يضحون بحياتهم كي نحيا بحرية وشرف وكرامة. آمل منكم جميعاً أن تنقبوا في جيوبكم كي تساعدوا (صمج)".

"ولكـــن ماذا عن الجندي الذي بيننا؟ ألا ينبغي لنا أن نقوم بشيء ما كي نساعده أيضاً؟" يصيح السيد شيركي.

كانت هنالك صيحات: "اسمع! اسمع!".

(1) الكوردايت Cordite: متفجر لا دخان له يُصنع على شكل حبال – م.

"أجـــل أنـــتَ محق تماماً. لكنني أعتقد أن أكبر خدمة يمكننا أن نقدمها لبونام سنغ هي أن يتم تقدير إنجازاته في حرب 1971. سنعطي مذكرة لفريق (صمج) الذي سيزورنا هنا غداً".

كلنا في حالة فرح. يبدو كما لو أننا أخيراً نساهم أيضاً في المجهود الحربـــي.

أقبل ثلاثة منهم؛ رجل طويل، رجل قصير، ورجل بدين. الثلاثة كلـــهم ضباط سابقون؛ الطويل من القوة البحرية، القصير من الجيش، والـــبدين مـــن القـــوة الجوية. يلقي القصير خطبةً طويلةً. يقول لنا إن جـــنودنا يقومون بعمل جبار. بلدنا عظيم، رئيس وزرائنا عظيم، نحن عظمـــاء، وتـــبرعاتنا يجب أن تكون عظيمة أيضاً. يمررون سلةً، يضع الـــناس النقود فيها، بعضهم يضع خمس روبيات، بعضهم الآخر عشراً، وفـــريق ثالث يضع مائة. إحدى السيدات تضع أساورها الذهبية، سالم لا يملك أي مبلغ من المال، يضع علبتين من العلكة الفقاعية. بونام سنغ غير حاضر. أرسلَ خبراً مفاده أنه مصاب بزكام خفيف.

بعـــدها يـــبدأ الاســـتجواب. "هل قاتلتَ أنتَ نفسك في أي حرب؟".

يسأل كولكارني رجل الجيش، وهو كولونيل متقاعد.

"نعم، بالطبع. قاتلت في حربين كبيرتين، حرب 65 وحرب 71".

"وأين خدمتَ خلال حرب 71".

"في جهامب التي ربما شهدت أكبر المعارك".

"وأي وحدة عسكرية كنت تنتسب إليها يومذاك؟".

"أنا من المشاة. كتيبة السيخ العظيمة".

"هل نلتَ أي وسام خلال حرب 1971؟".

"حـــسن، الواقـــع، نلتُ وسام ماهافير جاكرا. كان ذلك شرف عظيم".

"عن ماذا نلتَ هذا الشرف العظيم؟".

"عن المعركة الكبيرة لمعبر مانديالا التي أَبلت فيها 35 سيخياً بلاءاً حسناً".

"أي نوع من البشر أنتَ؟ أنتَ تأخذ الأوسمة لنفسكَ وتحرم منها الآخـــرين، الـــذين من دون دعمهم ما كان في وسعكم أن تسترجعوا ذلك الجسر".

"أنا متأسف. لا أفهم ما تقوله. من هذا الذي تشير إليه؟".

"نحن نتكلم عن جندينا، الذي كان بطلاً خلال حرب 1971 في قاطع جهامب، الذي فقد ساقاً. الذي كان يجب أن يحصل على وسام بـــارام فير جاكرا، إلا أنه لم ينل سوى الدموع. انظر، أيها *الصاحب* الكولونـــيل، نحـــن مدنـــيون. نحن لا نعرف ما يتعلق بقواعد وأنظمة جيشك، إلا أن ظلماً مهلكاً تم اقترافه هنا. هل تستطيع أن ترى ما إذا بالإمكان القيام بعمل ما حتى ولو الآن؟ لن يكون الأمر متأخراً جداً أن تكرّم الجنود الشجعان".

"أين هو هذا الشخص العظيم؟".

"إنه هنا في مبنانا السكني".

"حقاً؟ ذلك شيء عظيم. أحبّ أن أقدّم احتراماتي إليه".

لـــذا نرافقه إلى حجرة بونام سنغ. نشير إلى غرفته ونراقب فيما يـــدخل الكولونـــيل. نتوانى في مكان قريب، غير قادرين على أن نمنع أنفسنا من الاستطلاع بتطفل.

نـــسمع أصـــواتاً عالية، أشبه بجدال. ثم نسمع صوتاً مدوياً. بعد عشر دقائق أو نحو ذلك، يخرج الكولونيل مسرعاً، يتميز غضباً. "أهذا

هـــو الرجل الذي كنتم تشكون أنه لم ينل وسام PVC؟ إنه أكبر نذل رأيته في حياتي كلها. أتمنى أن أستطيع أن ألوي عنقه هنا والآن".

"كـــيف تجرؤ على التكلم عن بطل حربنا بهذه الطريقة!" تحذره السيدة داملي.

"هـــو، بطل حرب؟ إنها أكبر نكتة في العالم. إنه هارب حقير من الجـــندية. فـــرَّ عند أول لمحة لمشكلة في قاطع جهامب. أقول لكِ، إنه وصـــمة عـــار في وحدة السيخ. كان يجب أن ينال عقوبة الحبس مع الأشـــغال لمدة أربعة عشر عاماً. لسوء الحظ أُغلقت حالات الهرب من الجـــندية بعـــد خمس سنوات، بخلاف ذلك كنتُ سأبلّغ عنه حتى ولو الآن".

ذُهلـــنا. "مـــا هذا الذي تقوله، أيها الكولونيل؟ لقد وصف لنا بتفصيل كبير مآثره في جهامب. حتى إنه فقد ساقه في المعركة".

"تلك كذبة بكل معنى الكلمة. دعوني أروي لكم قصته الواقعية، وهـــي حقيقةً محزنة تماماً". يثبت الكولونيل حزامه. "لم يكن بونام سنغ في كامـــل قـــواه العقلية حين اندلعت الحرب، لأن زوجته كانت قد انجبت طفله الأول في باثانكوت. كان يائساً من عودته إلى أسرته، كان اشـــتياقه كبيراً جداً عند أول علامة من علامات المشكلة في جوريان، حـــين هاجمـــت باكستان بالمدفعية بكل قوتها، هجر موقعه وفرَّ هارباً. استطاع أن يصل إلى باثانكوت وأن يختبئ في منـــزل أجداده. لا بد أنه ظن أنه ترك الحرب وراءه، إلا أن الحرب لم تتركه. بعد وصوله بيومين قصفت القوة الجوية الباكستانية قاعدة باثانكوت الجوية. لم يضربوا أياً مـــن طائراتنا، إنما سقطت قنبلتان بوزن ألف رطل على منـــزل قريب من المطار. اتضح أن المنـــزل كان لبونام. زوجته وطفله هلكا حالاً في الهجوم وفقد هو ساقه بشظية قنبلة".

"لكـــن... كـــيف استطاع أن يلفق مشهد المعركة في مثل هذا التفصيل الكبير؟".

يكشر الكولونيل اشمئزازاً. "لا أعرف أي قصص تلك التي رواها لكـــم، غير أن ستةً وعشرين عاماً زمن طويل كي نقرأ معارك كبيرة. ابـــن الـــساقطة تـــسلل خارج الأشياء المصنوعة من الخشب بعد هذه الـــسنوات كلها كي يخدعكم أنتم الناس المدنيين وكي يكسب بعض الإثـــارات الرخيصة عبر حكاياته المزيفة عن البسالة. إن لقائي به أفسد مزاجي كلياً، لم يكن يوماً عظيماً، مع السلامة".

يهـــز الكولونـــيل رأسه ويمشي مبتعداً عن المبنى السكني، محاطاً بالرجل الطويل والرجل البدين. نعود إلى الحجرة المحصنة تحت الأرض. حـــتى بالنسبة إلينا، لم يكن يوماً عظيماً. نسائل أنفسنا ماذا يفعل بونام سنغ. لم يخرج هو ذلك المساء.

وجدوه صباح اليوم التالي، في مسكنه ذي الغرفة الوحيدة في المبنى الـــسكني. علبة صفيح من الحليب وصحيفة ترقدان على عتبة بابه من دون أن يمـــسهما. عكازتاه مستندتان بصورة مرتبة إلى الجدار. السرير الخشبـــي دُفع إلى أحد الأركان. هنالك كوب فارغ على منضدة ليلية يحتوي على أوراق شاي بني. الكرسي الوحيد في الغرفة يرقد مقلوباً في الوسط، يتدلى من مروحة السقف مع قطعة قماش وردية مربوطة حول رقبته، مرتدياً نفس البذلة النظامية الخضراء كالزيتون، رأسه منحنٍ فوق صـــدره. فيما كانت جثته الرخوة تتمايل ببطء من جانب إلى جانب، المروحة السقفية تصدر صريراً ضعيفاً.

تصل سيارة الشرطة الجيب، يومض ضوؤها الأحمر. رجال الأمن ينقـــبون في حاجياته، يتحدثون مع الجيران ويومئون إليهم، ويسألونهم

بفظاظة، مصور فوتوغرافي يأخذ صوراً، يصل طبيب بمعطف أبيض مع سيارة إسعاف. حشد كبير من الناس يتجمعون أمام غرفة بونام.

يأخذون جثته على نقالة، مغطاة بملاءة بيضاء مجعدة. يقف نزلاء المبنى السكني صامتين وهادئين. بوتول ودهيانيش وسالم وأنا نختلس النظر بحياء من وراء ظهورهم. ننظر بصورة عويصة إلى جثة الرجل الميت ونخفض رؤوسنا، بخوف وحزن وذنب، بالنسبة إلينا نحن الذين كانت هذه أول حرب لنا، عرفنا يومذاك. أن الحرب قضية جدية جداً. إنها تأخذ الأرواح.

سميتا تبدو كئيبةً وجادةً.

أسألها: "أين كنتِ خلال الحرب؟".

"هنا تحديداً. في مومباي"، ترد وبسرعة تغير الموضوع.

"لنرَ السؤال التالي".

يدور بريم كومار على كرسيه، ويخاطبني قائلاً: "سيد توماس، لقد أجبتَ عن سبعة أسئلة بصورة صحيحة كي تكسب مائتي ألف روبية. الآن لنرَ ما إذا كان في وسعكَ أن تجيب عن السؤال الثامن، بخمسمائة ألف روبية. هل أنتَ جاهز؟".

أرد: "جاهز".

"حسن. السؤال الثامن. ما هي أعلى جائزة للبسالة تُمنح للقوات المسلحة الهندية؟ هل هي (أ) ماها فير جاكرا، (ب) بارام فير جاكرا، (ج) شوريا جاكرا أم (د) أشوك جاكرا؟".

تبدأ موسيقى الترقب. قنبلة الوقت تبدأ بالتكتكة بصوت أعلى.

ثمـــة غمغمة مختلطة وسط الجمهور. إنهم يتطلعون إليّ بتعاطف، مستعدين ليقولوا وداعاً للنادل الحار الودود.

أجيب قائلا: "(ب) بارام فير جاكرا".

يـــرفع بـــريم كـــومار حاجبيه. "هل تعرف الحل، أم أنكَ تخمن فقط؟".

"أعرف الحل".

"هل أنتَ متأكد تماماً، مائة بالمائة؟".

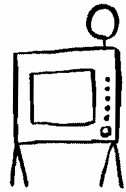
"أجل".

صوت الطبول يصل مرحلة تسارع. يومض الجواب الصحيح.

"صحيح تماماً، مائة بالمائة!" يصيح بريم كومار. الجمهور مبتهج. هنالك تصفيق مشجع وصرخات "برافو!".

أبتسم. أما بريم كومار فلا.

تومئ سميتا برأسها عن فهم.



1.000,000
رخصة للقتل

هـــنالك مخاطر كثيرة في المشي بطريقة شاردة الذهن في طرقات مومـــباي. من المرجح أن تزل قدمك بصورة غير متعمدة بقشرة موزة، وتـــسقطين بـــسرعة، ويمكنكِ أن تَحدي أن قدمكِ من دون تحذير قد غاصـــت في كومة من براز كَلب لين، كما يمكن أَن تنطح بقرة ضالة آتـــية من الخلف مؤخرتكِ، أو أن صديقةً منسيةً من زمن طويل كنتِ تتحاشين اللقاء بها تظهر بصورة مفاجأة وسط حركة المرور وعلى حين غرة تعانقكِ.

هـــذا ما جرى لي يوم السبت السابع عشر من حزيران، أمام مضمار مهالاكسمي، حين التقيتُ صدفة بسالم إلياسي. بعد خمسة أعوام.

حـــين وصلتُ مومباي آتياً من أغرا قبل ثلاثة شهور، قررتُ ألا أتـــصل بسالم. كان قراراً صعباً. افتقدته خلال سنواتي التي أمضيتها مع أسرة تايلور في دلهي وعذاباتي في أغرا، وأن أكون في المدينة نفسها التي يقيم فيها وألا أراه كان حقيقةً عبئاً ثقيلاً. لكنني صممتُ ألا أورطه في خطتي المتعلقة بالمشاركة في برنامج المسابقات.

"محمد!" صاح سالم لحظةَ رآني. "ما الذي تفعله في مومباي؟ متى أتيتَ؟ أين كنتَ طيلة هذه السنوات؟".

اللقاء بصديق منسي من زمن طويل أشبه، على ما أعتقد، بتناول طبق مفضل بعد دهر طويل. أنتِ لا تعرفين كيف سيكون رد فعل براعمك الذوقية بعد هذه المدة كلها، وما إذا سيبقى طعم الطبق لذيذاً كما كان في السابق. التقيتُ سالم بعد خمس سنوات طويلة بمشاعر مختلطة. هل سيكون لمّ شملنا دافئاً كما اعتادت صداقتنا أن تكون؟ هل سنبقى صادقين أحدنا مع الآخر؟

لم نتكلم كثيراً في بادئ الأمر، إنما جلسنا على مصطبة قريبة. لم نصغِ إلى أصوات النوارس التي كانت تدور حول رأسينا، ولم ننتبه للأولاد الذين يلعبون كرة القدم في الطريق، ولم نرَ حشد الذاهبين إلى ضريح حاجي علي. كل منا عانق الآخر وبكينا. بكينا على الزمن الذي أمضيناه معاً، على الزمن الذي ضيعناه معاً، ومن ثم تحدثنا عن كل ما حدث بين الزمنين. بالأحرى، تحدث سالم وأنا أصغيت.

أصبح سالم أطول وأكثر وسامةً. إنه في السادسة عشرة، يبدو جذاباً كأي نجم من نجوم بوليوود. الحياة القاسية للمدينة لم تفسده كما أفسدتني. لا يزال يعشق الأفلام الهندية ونجوم بوليوود مع وضع استثنائي لأرمآن علي. لا يزال يقصد ضريح حاجي علي كل جمعة والأهم من كل ذلك، أن توقع قارئ الكف يكاد يتحقق. لم يعد يعمل بصفة داباوالا، يسلم وجبات الغداء إلى أفراد الطبقة الوسطى في مومباي، إنما سجل اسمه في مدرسة التمثيل باهضة التكاليف حيث يتعلّم كي يصبح ممثلاً.

"أتدري من يدفع تكاليف دروس التمثيل خاصتي؟" يسألني.

"لا".

"إنه عباس رضفي".

"المخرج الشهير الذي صنع كل أولئك النجوم والنجمات؟".

"أجـــل، هـــو بنفـــسه. أعطاني دور بطل في فيلمه القادم، الذي سينطلق خلال سنتين، حين يصبح عمري ثمانية عشر عاماً.

"لكن هذا شيء رائع، سالم. كيف جرى هذا كله؟".

"إنها قصة طويلة جداً".

"ســـالم، ما من قصة يمكن أن تكون طويلةً بصورة كافية بالنسبة إليّ. بسرعة، الآن، أخبرني من البداية".

هذه إذاً القصة التي رواها سالم، بكلماته هو شخصياً.

"بعـــد أن ذهـــبتَ بعيداً بصورة مفاجئة جداً، بقيتُ وحيداً في المبنى الـــسكني. واصلتُ حياتي كداباوالا على مدى أربع سنوات أخرى، أجمع وجبات الغداء وأقوم بتسليمها، لكنني أيضاً بقيتُ أحلم أن أصبح ممثلاً.

ذات يـــوم، فيما كنتُ أجمع وجبة غداء من زوجة زبون يُدعى موكـــيش راوال لاحظـــتُ أن جدران منـــزله مزينة بصوره مع نجوم الـــسينما المشهورين. سألتُ السيدة راوال ما إذا كان زوجها يعمل في صناعة السينما، فقالت إنه مجرد موظف مبيعات في شركة صيدلة، لكنه يعمل بدوام جزئي في الأفلام السينمائية، ككومبارس.

"دُهـــشتُ لدى سماعي هذا. ذهبتُ مسرعاً إلى مكتب موكيش راوال بعـــد ظهـــيرة الـــيوم نفسه، وسألتُه هل بإمكاني أن أصبح على شـــاكلته. نظر إليّ موكيش وضحك، قال إنني لا أزال يافعاً جداً كي أغدو ممثلاً، لكن في بعض الأحيان تكون لديهم أدوار لطلاب المدارس وأولاد الـــشوارع، التي ربما تكون مناسبةً لي، وعدني أن يحيلني إلى بابو ماستر الذي يزود الأفلام بالكومبارس الذي كان هو يعمل معه، وطلب

مني أن أزوده بعدد من الصور الفوتوغرافية الصقيلة قياس ثمانية في ستة لي بوضعات مختلفة. إذا أعجبت صوري بابو، ربما يختارني لدور صغير في أحـــد الأفلام. أخبرني موكيش أنه بالنسبة إلى الكومبارس، المهارات التمثيلـــية ليست مطلوبةً، إنما يجب أن أبدو أنيقاً في بذلة ما، مهدداً، في المـــؤهلات الجسمانية لشخص وحشي، وجذاباً في زي مدرسي. أكد على أن آخذ صوراً فوتوغرافية لدى استوديو محترف.

"تلـــك الليلة لم أستطع النوم. ذهبتُ إلى مصور فوتوغرافي في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، وسألته عن كلفة الصور. طلب مني المصور الفوتوغـــرافي مـــبلغاً كبيراً إلى حدٍّ لا يصدق، يكاد يساوي دخلي على مـــدى شـــهر كامل. قلتُ له: "معذرةً، لا أستطيع أن أدفع مبلغاً كبيراً كهـــذا". وهكـــذا نصحني أن أشتري إحدى آلات التصوير الرخيصة، الخمـــرية اللون وآخذ صوراً لنفسي، يمكنه بعدئذ أن يكبّرها. فعلتُ ما نصحني به. اشتريتُ كاميرا، وطلبتُ من عابر سبيل أن يأخذ صورةً لي. جلـــستُ علـــى دراجـــة نارية تعود لشخص ما أمام بوابة دار عبادة، وحاولتُ أن أبدو بارد الأعصاب على غرار أميتاب باجاجان، توضعتُ ممتطـــياً صـــهوة حصان على ساحل جاوباتي، على غرار آشاي كومار، وقفتُ أمام فندق شمس ورمل، متوضعاً مثل هريثيك روشان في فيلم **قل هذا حب**. ابتسمت ابتسامة عريضةً أمام نافورة فلورا كما يفعل غوفيندا في جمـــيع أفلامه. أُخذت لي نحو عشرين صورة فوتوغرافية، إلا أن بكرة الفـــيلم الفوتوغرافي تأخذ ستاً وثلاثين صورة ويلزمني أن أنهيه قبل أن يتم تحمـــيض الصور. لذا قررتُ أن آخذ صوراً لأبنية وأناس. أخذتُ صوراً لفيكـــتوريا تيرميناس وبوابة الهند، أخذت صورةً لفتاة حسناء في مارين درايف، أخذتُ لقطةً لرجل عجوز في باندرا وحتى أخذتُ صورةً مقرّبة لحمـــار في كـــولابا. كانـــت صورتي الأخيرة لرجل داكن البشرة، في

منتصف العمر، في ماهيم، يجلس على مصطبة ويدخن سيجارةً. كانت أصابعه مزينةً بخواتم ذات ألوان شتى. بعد أن ضغطتُ على زر مصراع الكاميرا[1] أدركتُ لمن أخذت الصورة، وجمدتُ.

أسأل سالم: "ماذا تعني؟ هل كان نجماً سينمائياً شهيراً؟ هل كان ذلك أرمآن علي؟".

"لا، محمد، كان رجلاً أنتَ أيضاً تعرفه معرفةً جيدةً. كان السيد بابو بيلاي، المدعو مامان. الرجل الذي جاء بنا إلى هنا من دلهي والذي كاد أن يعمي عيوننا".

"هل ميزكَ؟".

"نعم، ميزني. *أنتَ سالم، أليس كذلك؟ أنت الغلام الذي هرب مني. لكنك لن تستطيع أن تهرب مني هذه المرة*، صرخ واندفع نحوي بقوة".

"حتى إنني لم أفكر في الأمر. درتُ على عقبيّ، وركضتُ صوب الطريق الرئيس. كانت ثمة حافلة تنسحب مبتعدةً، فقفزتُ إليها في الوقت المناسب، تاركاً مامان يلهث ورائي على الطريق.

"كنتُ جالساً في الحافلة، معتقداً أنني فررتُ فراراً محظوظاً، عندما، خمن ماذا جرى؟".

"ماذا جرى، قل؟".

"توقفت الحافلة عند إشارات المرور الضوئية، ودخلت مجموعة من الأشخاص المتوحشين يضعون عصابات رأس ومسلحين بالسيوف، والرماح، والرماح ذات الشعب الثلاث".

"لا تقل لي إنها كانت عصابة إجرامية".

---

(1) مصراع الكاميرا Shutter bukton: أداة تنفتح وتنغلق أمام عدسة الكاميرا لإدخال النور أو صده – م.

"كانـــت عصابية إجرامية. أدركتُ عندها أننا وصلنا إلى معمعة شغب طائفي. شاهدنا أمامنا مباشرةً حطام مركبة تحترق، وتدخن من دون لهـــب. ثمـــة متاجر مدمرة، رذاذ الدم يمكن رؤيته على الرصيف. الحجـــارة، والعصي، والخفاف كلها كانت تفترش الشارع. السائق فرَّ حـــالاً من الحافلة. تخدّر عقلي من الخوف. ظننتُ أنني لن أرى مشهداً مرعباً مجدداً. سمعتُ أصواتاً حسبتُ أنني نسيتها. صرخات أمي وبكاء أخي تردد صداها في أذنيّ. أخذتُ أرتجف. قال الأشخاص المتوحشون لجمـــيع الركاب في الحافلة إن عصابة مسلمة أشعلت النيران في منازل الهـــندوس، وقـــد خرجوا هم للانتقام، عرفتُ لاحقاً أن المشكلة كلها بدأت بسبب شجار طفيف حول صنبور ماء في حي من أحياء الفقراء. غـــير أن عقول الناس مليئة جداً بالبغضاء بحيث إنه في غضون ساعات قلـــيلة أُحرقت الحافلات، وأُشعلت النيران في المنازل، وذبح الناس من الوريد إلى الوريد.

كل واحد منكم يقول اسمه. كل الركاب الهندوس مسموح لهم أن يتـــرجلوا مـــن الحافلـــة، وكل الركاب المسلمين يجب أن يبقوا جالسين. أعلن الأشخاص المتوحشون. واحداً تلو الآخر قال الركاب المرتعشون أسماءهم. أرفند، يوشا، جاتين، آرون، فسانتي، جاغديش، نـــرمادا، غانغـــا، ميليند. بدأت الحافلة تفرغ. راقب المتوحشون كل واحـــد من الركاب بعيون صقرية. فحصوا اللون القرمزي في مفارق شـــعر النسوة، سألوا الرجال بعض الأسئلة الإضافية كي يتأكدوا من ديانـــتهم، وحتى أجبروا غلاماً صغيراً على نـــزع سرواله الداخلي. أصابني الغثيان لدى رؤيتي هذا العرض البربري، غير أنني كنتُ أيضاً أرتجف في مقعدي. في النهاية، بقي راكبان فقط في الحافلة: أنا ورجل آخر يجلس ورائي بمقعدين.

أنـــتَ تعرف، محمد، في أفلام السينما حين يحدث مشهد كهذا، يقـــف البطل ويناشد إنسانية العصابة الإجرامية. يقول لهم إن لون دم الهـــندوس والمـــسلمين هو نفسه. وإن وجوهنا لا تشير إلى الديانة التي ننتمـــي إلـــيها. إن المحبة مفضلة على الكراهية. عرفتُ حوارات كثيرة جـــداً، كان في وسعي أن أتلو أي واحد منها أمام أولئك المتوحشين، لكـــنكَ حـــين تقـــف فعـــلاً وجهاً لوجه مع هؤلاء الهمجيين، تنسى الكلمـــات كلـــها. تفكـــر في شيء واحد فحسب. الحياة. أردتُ أن أعـــيش، لأنـــني يجب أن أحقق حلمي في أن أغدو ممثلاً. والآن الحلم والحالم كلاهما ستُضرم فيهما النار في حافلة من حافلات مومباي.

سألني قائد المجموعة: *ما اسمك؟*

كان في وسعي أن أقول رام أو كريشنا، إلا أنني أصبحتُ معقود اللـــسان. أحد المهاجمين أشار إلى اللفاع حول عنقي، وحثهم قائلاً *ابن الساقطة هذا مسلم حتماً. لنقتله.*

لا، إن قتله أمر سهل جداً. سنحرق ابن الساقطة هذا حياً في هذه الحافلة. عندئذ هو وطائفته سيتعلمون ألا يمسوا منازلنا أبداً، قال القائد وضـــحك. رجـــل آخر فتح علبة صفيح مملوءة بالبترول، وأخذ يرشه داخـــل الحافلـــة. اعتدتُ أن أحب رائحة البترول، إنما منذ ذلك اليوم أربطها ذهنياً مع اللحم البشري المحترق.

الرجل الجالس ورائي بصفين هب واقفاً على حين غرة وقال: *لم تسألوني عن اسمي. دعوني أخبركم. إنه أحمد خان. وأريد أن أرى ابن الساقطة الذي سيحرق هذا الصبـــي.*

هيمن سكوت مؤقت على المتوحشين، قبل أن يتكلم قائدهم: *إذاً أنـــتَ مـــسلم أيضاً. جيد جداً إذاً، ستُحرق أنتَ أيضاً مع هذا الغلام.*

لم يكــن الرجل مضطرباً. *قبل أن تحرقوني، انظروا إلى هذا*، قال، وأخرج مسدساً. وجهه نحوهم.

كــان يجــب علــيك أن ترى وجوههم، عيونهم جحظت من محاجــرها، تركوا سيوفهم ورماحهم ذات الشُعب الثلاث في الحافلة، وفــروا. حــياتي أُنقــذت، ترقرقت في عينيّ دموع العرفان بالجميل، شاهدني الرجل أبكي وسألني قائلاً: *ما اسمك؟*

سالم... سالم إلياسي، أجبتُ، وكنتُ لا أزال أنشج.

قال لي: *ألا تعرف كيف تكذب؟ لكنني أقدّر الناس الذين يقولون الحقيقة حتى حين يواجهون الموت.*

أخــبرني أنه يعمل في الاستيراد والتصدير، ويقيم وحيداً في محلة بــيكولا. قال إنه يحتاج إلى شخص يقوم بالطهي والتنظيف، وعموماً يعتني بالمنــزل كلما يلزمه أن يسافر لأغراض العمل. أسأل نفسي لماذا يحمــل رجــل أعمال مثله مسدساً في الحافلة، لكنه وعدني أن يعطيني ضعف الأجر الذي أتقاضاه كناقل وجبات غداء داباوالا، وعلى الفور وافقت على أن أصبح خادمه المقيم في مسكنه.

كــان أحمــد يملــك شقةً كبيرةً، واسعةً ذات ثلاث غرف نوم، ومطــبخ جيد المساحة، وحجرة استقبال مزودة بجهاز تلفاز ذي ست وثلاثــين بوصة. كنتُ أقوم بالطبخ، والتنظيف، وإزالة الغبار لكنني لم أنــسَ طموحــي في أن أصبح ممثلاً. بشكل من الأشكال، كان العمل لــصالح أحمد جيداً، لأنه يكون غائباً عن المنــزل معظم ساعات اليوم وغالــباً حتى على مدى أسبوع أو أسبوعين. خلال ذلك الوقت أقوم بجــولات علــى الاستوديوهات. ظهّرت الفيلم الفوتوغرافي خاصتي، وحــصلتُ علــى صور مكبرة بحجم ثمانية في ستة. أعطيتها لموكيش راوال، الــذي بــدوره أراهــا لــبابو ماستر، الذي يزود المخرجين

بالكومبارس. صدقني أو لا، بعد مرور ثلاثة شهور فقط تسلمتُ أول عرض للعمل كممثل سينمائي.

أصيح: "حقاً؟ أي دور نلته وفي أي فيلم؟".

"كان دور طالب جامعي في فيلم المخرج عباس رضفي المعنون **أولاد سيئون** تمثيل سونيل ميهرا".

"دعنا إذاً نذهب ونراه الآن. أحب أن أشاهدك على الشاشة وأسمع حواراتك".

"حسن..." يتأتئ سالم. يخفض بصره ناظراً إلى حذائه. "كما ترى، قصوا دوري في الدقيقة الأخيرة. لذا على الشاشة تراني لمدة ثلاث ثوان لا غير، جالساً إلى مقعد دراسي في غرفة الصف مع ثلاثين طالباً آخرين. الحوارات الوحيدة في ذلك المشهد تدور بين البطل سونيل ومدرس الصف".

"ماذا؟" أصرخ بخيبة أمل. "ثلاث ثوان فقط! أي نوع من الأدوار هذا؟".

"يفترض بالكومبارس أن يؤدوا فقط تلك الأنواع من الأدوار. نحن لسنا أبطالاً وبطلات. نحن حصراً جزء من المشهد. أتتذكر مشاهد تلك الحفلات الضخمة في الأفلام؟ الكومبارس هم الأشخاص الإضافيون الذين يقفون هنا وهناك يرتشفون مشروباتهم فيما يرقص البطل والبطلة في باحة الرقص. نحن عابرو السبيل في الشارع حين يطارد البطلُ الوغدَ، نحن الشبان والشابات الذين يصفقون في ناد للديسكو حين يفوز البطل والبطلة في مسابقة الرقص. إنما لا مانع لديَّ من أن أعمل كومبارس. إنه يسمح لي أن أحقق حلمي في أن أرى ما وراء المَشاهد. ومكنني من اللقاء بالمخرج، عباس رضفي، ووعدني أن يمنحني دوراً أطول في فيلمه القادم.

علـــى مدى الشهور الستة التالية، اكتشفُ أشياءً كثيرةً في ما يتعلق بأحمد. على العموم، كان رجلاً غريب الأطوار نوعاً ما. كان لـــه ولعـــان في الحياة. تناول الطعام اللذيذ ومشاهدة التلفاز. على الـــتلفاز كان يشاهد برنامجين فقط؛ الكريكيت **ومراقبة الجريمة في مومـــباي**. كـــان متعصباً للكريكيت. كلما كانت هناك مباراة في الكـــريكيت، بمشاركة الهند أو من دونها، يجب عليه أن يشاهدها. ينهض من نومه عند الساعة الثالثة بعد منتصف الليل إذا كانت ثمة مـــباراة في الهند الغربية وعند منتصف الليل إذا كانت في أستراليا. كـــان يـــشاهد حـــتى المباريات بين فريقين غير مهمين مثل كينيا وكندا.

كـــان يحـــتفظ بدفتر يوميات سجل فيه إحصائية كل مباراة من مـــباريات الكـــريكيت، كان يحفظ عن ظهر قلب معدّل ضربات كل ضارب من ضاربـــي كرة الكريكيت، أعداد الكرات المرمية لكل رامٍ مـــن رمـــاة كرة الكريكيت، عدد مسكات كل لاعب يوقف الكرة ويـــردها، عـــدد الأجذال التي يحاول أن يشذبها حارس الوكت[1]. في وسعه أن يخبرك بأعلى النقاط المسجلة وأدناها في أي مباراة، أعلى عدد دورات في الأوفر[2]، أكبر فوارق النصر وأضيقها.

بـــيد أنه كان يحفظ هذه المعلومات كلها لغرض ما؛ كي يراهن علـــى مـــباريات الكركيت. اكتشفتُ هذا خلال الدوري الهندي - الإنكليزي. كان أحمد يشاهد المباراة على شاشة التلفاز، ويحاول جاهداً

(1) حـــارس الـــوكت wicket-keeper: الـــوكت إحدى مجموعتين من العصي يحاول فريق الكريكيت إصابتها بالكرة - م.

(2) الأوفـــر over: جزء من لعبة الكريكيت يتم خلاله دحرجة ست كرات نحو ضـــارب الكـــرة بواسطة لاعب من الفريق الآخر من النهاية نفسها لرمية الكرة - م.

أن يتصل بشخص عبر هاتفه النقال. لذا طرحتُ عليه سؤالاً: *ما الذي تفعله، سيد أحمد.*

رد عليَّ: *أنا بصدد أن ألعب الساتا.*

ساتا؟ ما هي تلك الساتا.

إنها اسم آخر للرهان اللاقانوني. تُنظم الساتا من قبل نقابات عالم الرذيلة والإجرام القوية في مومباي بمبيعات يومية تبلغ ملايين الروبيات. ملايين البشر يراهنون على كل مباراة من مباريات الكريكيت، على آلاف على كل كرة. أنا واحد من كبار المقامرين. هذا المنزل الذي تراه، جهاز التلفاز الثمين هذا، المايكروويف في المطبخ، مكيف الهواء في حجرة النوم، كلها نتيجة ربحي المتكرر من الساتا. قبل ثلاث سنوات مضت، قمتُ بمغامرة قاتلة في مباراة الهند - أستراليا. أنتَ تتذكر المباراة الشهيرة في الوقت الذي كانت فيه الهند 232 مقابل 4، وكنتُ أحدّق إلى جولات الهزيمة، وكانت الأفضلية ألف مقابل واحد في صالح الهند، راهنتُ على لاكسمان والهند وربحت مليون روبية!

مليون روبية! جحظت عيناي.

نعم. اليوم أراهن فقط بمبلغ عشرة آلاف على الهند. كنتُ أحاول أن أسأل وكيل المراهنات خاصتي عن الأفضلية، لكن رقم هاتفه كان مشغولاً باستمرار. ضرب هاتفه النقال مرتين، نظر بنفاد صبر إلى ساعته اليدوية، وضغط بشدة على الرقم من جديد. هذه المرة نجح الاتصال الهاتفي. *هالو، سيد شاراد؟ أنا أ. خ. شيفرة 3563. ما هي النسبة على المباراة؟* سمعتُ صوت وكيل المراهنات عبر سماعة الهاتف مع كثير من التشوش. كان في وسعي أن أسمع التعليق في الخلفية: *الهند متقدمة 175 على إنكلترا. ما إن يعبر التقدّم 250، ستتحول الأفضلية بصورة حادة في صالح الهند. بتقدم أقل من 250 تكون نسبة الفوز*

خمساً وخمسين بالمائة لكلا الطرفين، إنما عبور علامة الـ 250 سيغير ذلك إلى ثلاثة مقابل واحد في صالح الهند.

وما هي الأفضلية في نصر إنكلترا؟ سأله أحمد.

رد عليه وكيل المراهنات: *هل جننت؟ ليس ثمة فرصة لفوز إنكلترا، إن رهانهم الأفضل هو أن يعرضوا الانسحاب. هل تريد أن تسجل على الرهان الآن؟*

نعم. دوّن مراهنتي بمبلغ عشرة آلاف على خسارة الهند، قال أحمد.

دُهشتُ حين سمعتُ أحمد يضع هذا الرهان، لأن الهند كانت في الطليعة. إنما من الجلي أن أحمد كان يعرف أكثر من وكيل المراهنات، لأنه في نهاية اللعبة كسبت إنكلترا المباراة، وكانت أعلام بريطانيا على كل ملعب لورد للكريكيت، وكان أحمد يضرب قبضته بشدة في الهواء ويصيح متهللاً: *نعم! نعم! نعم!*. اتصل هاتفياً بوكيل المراهنات خاصته مجدداً. *حضرة السيد شاراد، ألم أكن على صواب؟ كم ربحتُ؟ ثمانية آلاف؟ ها! فائدة لا بأس بها عن عمل دام ساعات قليلة!*

خرج أحمد وابتاع زجاجةً مليئة بسائل مزبِد، وفي ذلك المساء أخذتُ رشفتي الأولى منه.

شغف أحمد الثاني في الحياة هو برنامج **مراقبة الجريمة في مومباي**. هل سبق لكَ أن شاهدته؟".

هززتُ رأسي نفياً. "لم يكن يعرض على التلفاز حين كنا في دلهي.

حسن، إنه برنامج ممل جداً. إنه يشبه نشرة الأخبار، سوى إنهم يخبرونكَ فقط عن الجريمة العنيفة. من الذي قُتل، من التي أغتصبت، أي مصرف تم نهبه، من الذي فرَّ من السجن، ذلك النوع من الأشياء.

يجلس أحمد قبالة جهاز التلفاز مع طبق من أسياخ الكباب، ويقهقه بأعلى صوته كلما يسمع النشرة المتعلقة **بمراقبة الجريمة في مومباي**. لسبب ما، كان يجدها مسليةً جداً.

بين الحين والآخر، يتسلم أحمد مغلفات صفراء كبيرة ينقلها إليه شخص. كانت لدي تعليمات صارمة ألا أمس بريده وأن أتركه على مائدة الطعام له. بعد ظهيرة أحد الأيام، جلب الغلام الذي يوزع الرسائل مغلفاً أصفر كبيراً حين كنتُ أحتسي الشاي، بطريق الخطأ سفحتُ الشاي على المغلف وأصابني الذعر، كنتُ أعرف أن أحمد إذا رأى أنني أفسدتُ مغلفه سينتابه الغضب. ربما كان يحتوي على وثائق تجارية ثمينة من المحتمل أنها تضررت. لذا جلستُ وبعناية فتحتُ لسان المغلف الملصق بالصمغ. أدخلتُ أصابعي وسحبتُ الوثائق... وصفّرتُ مندهشاً".

"لماذا صفرت؟ ماذا كان هنالك؟".

"ما من شيء كثير. كان المغلف يحتوي فقط على صورة فوتوغرافية بقياس ثمانية في ستة لوجه رجل ونصف صفحة من التفاصيل المطبوعة بأناقة. حتى أنا كنتُ قادراً على قراءتها. كانت تشير إلى:

الاسم: فيثالبهي جوربادي

العمر: 56

العنوان: 4/73 طريق ماروفي، مالاد.

كان ذلك كل شيء.

خيل إليّ أن تلك تفاصيل رجل أعمال معين كانت لأحمد تعاملات معه، ولم أفكر كثيراً في الموضوع. بعناية أغلقتُ من جديد

اللسان، ووضعتُ المغلف على مائدة الطعام. مساءً، جاء أحمد إلى المنزل وفتح المغلف. بعدها بوقت قصير تلقى اتصالاً هاتفياً. كل ما قاله هو: *نعم، لقد تسلمتُ المغلف.*

بعد قرابة أسبوعين، كان أحمد جالساً أمام شاشة التلفاز، يشاهد **مراقبة الجريمة في مومباي**. كنتُ في المطبخ، أقطّع الخضار، إنما كان في وسعي أن أسمع مقدم البرنامج يتحدث قائلاً: *... في حادثة رهيبة أخرى في مالاد، لا يزال رجال الشرطة يبحثون عن مفاتيح لحل لغز جريمة قتل رجل أعمال بارز يُدعى فيثالبهي جوربادي، الذي وُجد مقتولاً في منزله الواقع في طريق مارفي*. دوّى الاسم في أذنيّ. نظرت إلى التلفاز، وكدتُ أقطع إصبعي، لأنه ظهرت على الشاشة الصورة نفسها التي كانت في المغلف الأصفر. تابع المقدم كلامه قائلاً: *السيد جوربادي، في السادسة والخمسين من عمره، قُتل بالرصاص الذي سُدد إليه من مسافة قريبة فيما كان وحيداً في منزله. إنه يعيش مع زوجته وابنه. وفق شرطة مالاد، يبدو أن النهب كان الباعث الرئيس للجريمة طالما أن المنزل قد فُتش تفتيشاً دقيقاً وثمة أشياء نفيسة كثيرة كانت مفقودة.*

لاحظتُ أحمد يقهقه حين سمع هذا. هذا، أيضاً، أذهلني. لماذا يضحك أحمد على موت زميل له في المهنة؟

بعد مرور شهر، كان هنالك مغلف أصفر آخر. كان أحمد في الخارج و لم أستطع أن أتمالك نفسي من اختلاس النظر إلى محتوياته. هذه المرة فتحته بواسطة البخار، كي لا أترك أي علامة. فتحتُ اللسان، وسحبتُ صورةً فوتوغرافية أخرى. هذه المرة كانت تُظهر وجه شاب ذي شارب سميك وندبة طويلة تمتد من عينه اليسرى إلى أسفل ذقنه. أشارت الصفحة المطبوعة من الورق إلى ما يلي:

الاسم: جميل قيداوي
العمر: 28
العنوان: 35 شقق شيلاجيت السكنية، كولابا.

حفظتُ عن ظهر قلب الاسم، وأعدتُ الصورة.

جـــاء أحمد مساءً إلى المنـــزل ونظر إلى المغلف. كان ثمة اتصال هاتفي، كما في المرة السابقة، وأكد تسلم المغلف. بعدها بأسبوع على وجه الدقة، سمعتُ الأخبار في **مراقبة الجريمة** تفيد أن محامياً شاباً يُدعى جمـــيل قيداوي قُتل رمياً بالرصاص فيما كان يخرج من سيارته بالقرب من مقر إقامته في شقق شيلاجيت السكنية. قال مقدّم البرنامج: *الشرطة تـــشك بـــباعث إجرامـــي منظم في جريمة القتل هذه، طالما أن السيد قيداوي احتج على رؤساء كثيرين لعصابات المافيا في المحكمة. انطلقت التحريات، إنما ليس ثمة أدنى فكرة في الوقت الحاضر.* كان أحمد يجلس وبيده كأس شراب اسكتلندي، قهقه حين سمع هذا الخبر.

الآن أنا قلق بصورة جدّية. لماذا يتسلم أحمد صور الأشخاص عبر الـــبريد ولماذا يموت أولئك الأشخاص بعدها مباشرةً؟ هذا لا يزال لغزاً بالنسبة إليّ. هكذا حين تم تسليم المغلف الأصفر التالي بعد مضي ثلاثة أســـابيع، لم أخـــتلس النظر فقط إلى الصورة الفوتوغرافية، التي كانت لرجل عجوز، بل دوّنت العنوان. كان عنوان منـــزل في طريق بريميير في كورلا. اليوم التالي، تبعتُ أحمد. أخذ قطاراً محلياً إلى كورلا، ومشى إلى طـــريق بـــريميير لكنه لم يدخل المنـــزل. مرَّ به فقط ثلاث أو أربع مـــرات، كما لو أنه يتفحصه بدقة. بعدها بأسبوعين، أعلن في **مراقبة الجريمة** أن الرجل العجوز نفسه وُجد مقتولاً في منـــزله الواقع في طريق بريميير في كورلا.

لستُ غبياً. عرفتُ هناك ووقتذاك أن أحمد قتل الرجل وإنني كنتُ أقـــيم مع قاتل مأجور. لكنني لم أكن أعرف ماذا أفعل. لقد أنقذ أحمد حـــياتي ذات مـــرة ولم أكن حتى أعتزم أن أفشي سرّه للشرطة. خلال ذلـــك، دعاني عباس رضفي كي يقدّم إليّ عرضاً سينمائياً يتعلق بإسناد دور في فيلمه المقبل. حين سمعتُ بذلك ركضتُ طيلة المسافة المؤدية إلى ضـــريح حاجـــي علي. مسستُ جبيني بالقماش الذي يغلف الضريح ودعوت بطول العمر لرضفي.

على مدى الشهرين التاليين عشتُ حياةً مزدوجةً صعبةً. إذا كان أحمد قاتلاً مأجوراً يتخفى بصفة رجل أعمال، كنتُ ممثلاً أتنكر بصفة خادم. كان أحمد يملك رخصةً للقتل، غير أنني كنتُ أعرف أنه سيأتي يوم هو نفسه سيُقتل".

"ماذا جرى؟".

"جرى ذلك قبل أربعة شهور خلت؛ في العشرين من شباط، إذا توخيـــنا الدقـــة. أتذكـــر التاريخ بصورة جيدة جداً، لأن الهند كانت تلاعـــب أستراليا في المباراة الأخيرة من الدوري وكان أحمد قد وضع رهانـــاً آخر. كان من دأبه أن يراهن على كل شيء: ليس فقط على الفـــريق الـــذي سيفوز، بل أول مجموعة جدعات تسقط، رامي الكرة الـــذي يستحوذ على أول مجموعة من الجدعات، من الذي سيفوز في القرعة عندما تقذف القطعة النقدية بالظفر، هل ستمطر خلال المباراة؟ غالباً كان يراهن عملياً على كل كرة في المباراة - ما إذا ستكون الكرة رقـــم أربعة، أو ستة، أو صفر. صباح ذلك اليوم، كان أحمد قد تحدث مع وكيل مراهناته. *سيد شاراد، أ. خ. الشيفرة 3563. ما هي فكرتك عـــن وســـط الملعب؟ يوم أمس كان اللعب فاتراً، إنما هل تبدأ الكرة بالدوران بدءاً من هذا اليوم؟ التوقعات الجوية جيدة، لكن هل تعتقد أن*

مــــن المحتمل أن يهطل المطر في وقت متأخر من هذا اليوم؟ بعدها وضع رهانـــه. *راهـــن لي على ساجين مالفانكر، وهو يضع مئويته السابعة والثلاثين اليوم. ما هي النسبة؟* قال وكيل المراهنات. *إنه الآن في الثامنة والـــسبعين والجمـــيع يـــشعرون أن القرن هو تخمين مؤكد، لذا فإن الأفضلية ليست واعدةً جداً. أفضل شيء يمكن أن أفعله هو ثلاثة عشر إلى عـــشرة.* قال أحمد: حسن، *إذاً أدرجني على اللائحة بمليون روبية. بهذه الطريقة سأربح ما لا يقل عن ثلاثمائة ألف روبية.*

طـــيلة مـــا بعد ظهيرة ذلك اليوم جلس أحمد أمام جهاز التلفاز وراقـــب لعب مالفانكر، وشجعه لدى كل دورة يحرزها بصفير عالٍ. فيما كان مالفانكر يسير ببطء نحو مئويته، كان أحمد يغدو أكثر هيجاناً شـــيئاً فشيئاً. في الوقت الذي دخل فيه مالفانكر التسعينيات كان أحمد شخـــصاً عـــصبياً، يعض أظافر أصابعه، يبتهل أمام كل كرة، ينكمش خـــوفاً كلمـــا يُضرب مالفانكر بواسطة كرة مقذوفة. إلا أن مالفانكر لعب كضارب كرة ضليع. تحرك من واحد وتسعين إلى خمسة وتسعين بـــضربة مستقيمة رائعة للكرة نال عنها أربع نقاط. بعدها أخذ دورة واحـــدة كي يصل إلى ستة وتسعين. بعدها دورة مفردة أخرى. سبعة وتـــسعون. ثم رمـــى جيلسبـــي كرةً قصيرةً، وجرها مالفانكر بصورة مهيبة إلى حد الغطاء. كان هايدن يركض وراءها، محاولاً أن يوقفها من عـــبور الحـــبل. مالفانكر وضارب الكرة المساعد خاصته أجاي ميشرا كانا يركضان بسرعة بين مجموعتي الجدعات. أخذا دورة واحدة. ثمانية وتسعون. بعدها انطلقا بأقصى سرعة كي يكملا الدورة الثانية. تسعة وتسعون. جمع هايدن الكرة بوصات داخل حد الغطاء، وأرسلها برمية لولبـــية، ليس إلى آدم غيلكريست، حارس الوكت، إنما إلى نهاية رامي الكرة. شاهد مالفانكر الرمية آتية، وصاح *لا ! ! ! !* لميشرا، الذي كان

يـــركض نحوه من أجل الدورة الثالثة. إلا أن ذلك الأبله ميشرا واصل تـــسديد الكرة صوب مالفانكر. بيأس، كان مالفانكر مرغماً على أن يبدأ بإكمال النقطة الدورة. كان تقريباً قد وصل إلى نهاية رامي الكرة حـــين هبطت الكرة المرسلة من قبل هايدن مباشرةً على الجدعات! لُمح مالفانكر ست بوصات فقط خارج خط الملعب، وأعلن الحكم الثالث نهاية الدورة. عند تسعة وتسعين.

يمكنك أن تتصور ماذا حدث لأحمد. كان قد راهن بمليون روبية على المئوية السابعة والثلاثين لمالفانكر والآن خسرها كلها بسبب دورة واحـــدة. شتم جيلسبـــي، شتم هايدن، وشتم أكثر من الجميع ميشرا. *أريـــد أن أقتل ابن الساقطة ذاك*، دمدم، وانطلق خارج المنـــزل. على الأرجح قصد مشرباً كي يتخلص من أحزانه.

بعـــد ظهيرة ذلك اليوم، وصل مغلف أصفر آخر. كنتُ قلقاً من احتمال أن يحتوي على صورة ضارب كرة هندي، لكنني حين شاهدتُ ما بداخله كدتُ أموت".

"لماذا؟ ماذا كان بداخله؟ قل لي بسرعة".

"داخل المغلف كانت هناك صورة فوتوغرافية صقيلة بقياس ثمانية في ســـتة لعباس رضفي، المخرج، وقطعة ورق دُون عليها عنوانه بالآلة الكاتـــبة. عرفتُ أنه سيكون الضحية المقبلة لأحمد، وأنه بموته سيموت أيـــضاً حلمـــي في أن أصـــبح ممثلاً. يلزمني أن أحذر رضفي. إنما إذا اكتـــشف أحمد الأمر، لن يشعر بتأنيب الضمير إذا ما قتلني أنا الآخر. على كل حال، كان قاتلاً محترفاً".

"إذاً ماذا فعلتَ؟" أسأل مقطوع الأنفاس.

"فعلتُ ما ينبغي لي أن أفعله. ذهبتُ فوراً إلى رضفي، وأخبرته. لم يصدقني، لذا أريته الصورة والعنوان وقد وصلا بواسطة أحد السعاة. ما

إن رأى الـــصورة الفوتوغرافية في يدي، حتى تلاشت شكوكه. قال لي إنـــه سيهرب إلى دبـــي، ويظل مختبئاً هناك سنةً أو نحو ذلك. إنه الآن مـــدين جـــداً لي، وعدني أنه عند رجوعه سيجعلني بطلاً لفيلمه المقبل وحـــتى ذلك الوقت سيحرص على تدريبـــي. لهذا السبب فهو يغطي تكاليف دراستي في حقل التمثيل ولهذا السبب أعد الأيام حتى أغدو في الثامنة عشرة".

"يـــا لهـــا من قصة، سالم"، أقول، وأنا أتنفس الصعداء. "إنما في أخـــذك المغلف إلى رضفي، ألم تكشف نفسك لأحمد؟ لا بد أنه تلقى اتصالاً هاتفياً مساء ذلك اليوم وعرف ما يتعلق بالمغلف المفقود".

"كـــلا. لم أكشف نفسي، لأن أحمد تسلم مغلفاً موضوعاً على مائدة الطعام حين عاد إلى المنـــزل ذلك المساء".

"لكن... وقتذاك كان أحمد سيقتل رضفي".

"لا، لأن المغلـــف احـــتوى صورةً جديدةً وعنواناً جديداً، طبعته لدى مركز طباعة قريب".

"ذكي. تعني أنكَ أعطيت عنواناً مزيفاً. هل كان باستطاعتك أن تعطي عنواناً مزيفاً؟".

"لم أســـتطع. لـــذا لم أعطِـــه عنواناً مزيفاً. أعطيتُ أحمد صورةً حقيقيةً. وعنواناً حقيقياً، وذهب فعلاً وأنجز المهمة. قبل أن يكتشف أنه قـــتل الـــرجل غير الصحيح، أخبرته أنه يلزمني الذهاب إلى بيهار لأمر ضـــروري جـــداً. وتركت العمل لديه. اختبأت هنا وهناك، لم أدخل بيكولا(1)، وحتى توقفتُ عن الذهاب إلى ضريح حاجي علي، الذي هو قبالتـــنا. الأســـبوع الماضـــي رأيتُ في **مراقبة الجريمة** أن الشرطة قتلوا بالرصـــاص قاتلاً مأجوراً مروِّعاً يحمل اسم أحمد خان في مداهمة قرب

(1) بيكولا Byculla: محطة قطار في إحدى ضواحي مومباي – م.

محطة بوابة دار العبادة. لذا أتيتُ اليوم إلى حاجي علي كي أشكر الله، وها قد التقيت بك!".

"أجل، إنها مصادفة مدهشة. إنما لديّ سؤال آخر فقط. صورة من وعنوان من أعطيتهما لأحمد؟".

"الشخص الوحيد الذي يستحق أن أعطي صورته وعنوانه. أعطيته صورة بقياس ثمانية في ستة للسيد بابو بيلاي، وعنوان مامان!!".

تصفق سميتا بيديها. "رائع! أعرف الآن أنك طباخ ذكي، لكنني لم أكن أعرف أن سالماً عبقري أيضاً. لديه رخصة للقتل بالوكالة، وقد اختار الهدف الصحيح. إذاً ماذا جرى بعدها؟ هل أخبرتَ سالم عن مساهمتك في برنامج المسابقات؟".

"لا. لم أكشف له سبب مجيئي إلى مومباي. ببساطة قلتُ له إنني كنتُ في دلهي، أعمل بصفة خادم، وكنتُ أزور المدينة مدة يومين".

"إذاً سالم ليس له أدنى فكرة عن ظهورك في W3B؟".

"كلا. كنتُ سأعلمه، إنما قبل أن أفعل هذا اعتقلتني الشرطة".

"فهمت. على كل حال، لنرَ الآن كيف ساعد لقاء الصدفة بسالم حظك في البرنامج؟".

في الاستوديو، الأضواء خافتة من جديد.

بريم كومار يخاطب الكاميرا. "الآن ننتقل إلى السؤال التاسع، بمليون روبية. يلتفت إليّ ويقول: "هل أنتَ جاهز؟" أجيب: "جاهز".

"حسن. هو ذا السؤال التاسع. هذا السؤال عن عالم الرياضة. قل لي، سيد توماس، أي رياضة تمارس؟".

"لا أمارس أي رياضة".

"لا تمـــارس أي رياضة؟ إذاً كيف استطعتَ أن تحصل على هذا الجـــسم المتناســـق، لقد اكتسبتُ ترهلاً كبيراً جداً بالرغم من قيامي بالتمارين الرياضية كل صباح".

"إذاً وجب عليكَ أن تعمل بصفة نادل وأن تقوم برحلة يومية من مقـــر إقامتك إلى مقر عملك طولها ثلاثون كيلومتراً ستغدو أنتَ أيضاً سليم الجسم متناسقة"، أرد عليه.

يـــضحك الجمهـــور ضحكات نصف مكبوتة. أما بريم كومار فيعبس.

"حـــسن، الآن يأتي السؤال التاسع، من عالم الكريكيت، كم عـــدد مـــئويات الاختبار التي سجلها ضارب الكرة الهندي الأعظم ســـاجين مالفانكر؟ خياراتك هي (أ) 34، (ب) 35، (ج) 36، أم (د) 37؟".

تبدأ الموسيقى.

"هل يمكنني أن أطرح سؤالاً؟".

"نعم. مؤكد".

"هل لعبت الهند مع بلد آخر منذ الدوري الحديث مع أستراليا؟".

"ليس لدي علم".

"إذاً أعرف الجواب إنه (ج). 36".

"هـــل هـــذا هو جوابك الأخير؟ تذكر، أن هنالك مليون روبية تتوقف على إجابتك".

"نعم. إنه (ج). 36".

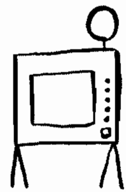
"هل أنتَ متيقن تماماً، مائة بالمائة؟".

"أجل".

ثمة تسارع في قرع الطبول. يومض الجواب الصحيح.

"صـــحيح تماماً، مائة بالمائة! ساجين مالفانكر سجل ستاً وثلاثين مـــئوية اختبارية. لقد ربحتَ الآن مليون روبية. سيداتي سادتي، سنأخذ الآن فاصلاً إعلانياً قصيراً".

أقول: "اقطعي!".



10.000.000
ملكة التراجيديا

دراما عائلية مع جرعات من الكوميديا والأكشن، تنتهي أخيراً في تـــراجيديا. بلغـــة السينما، هكذا أصف الزمن الذي أمضيته مع نيليما كوماري. كانت ممثلة. وقد عملتُ ثلاث سنوات في شقتها الواقعة في جوهو فيلي بارلي.

بـــدأ الأمر كله في تلك الليلة نفسها حين فررت وسالم من براثن ماman وعصابته. أخذنا القطار المحلي وترجلنا في جوهو. مشينا إلى شقة نيليما كوماري، ضغطنا على زر الباب وانتظرنا.

بعـــد برهة طويلة فُتح الباب. "نعم؟" تقف امرأة قبالتنا. رادهي، الغـــلام الأعرج، كان صادقاً. هي طويلة القامة وجميلة، تشبه بالضبط بطلة فيلم، إلا أنها أكبر سناً. تهاوى سالم عند قدميها. "معذرةً" بسرعة تراجعت إلى الخلف "من أنتما؟ ما الذي تفعلانه هنا في هذه الساعة؟".

"نحن صديقا رادهي"، أجبت. "أخبرنا أنك تحتاجين إلى خادم. لقـــد أتينا كي نعرض خدماتنا. نحن نعرف أنك سيدة رحيمة جداً. نحـــن بحاجـــة ماسة إلى الطعام والسكن، ونعدكِ أن نلبـــي كل ما تطلبينه منا".

"نعم، أنا أحتاج إلى خادم، لكنني لا أستطيع أن أستخدم شخصاً صغير السن جداً".

"مـــدام، نحن صغيرا السن فقط في المظهر الخارجي. في وسعنا أن نقوم بعمل أربعة رجال. يمكنني أيضاً أن أتكلم الإنكليزية. جربينا".

"لكنني لا أحتاج إلى خادمين. لدي مكان لخادم واحد فقط".

ســـا لم وأنـــا تبادلنا النظرات. أقول لها: "إذاً على الأقل اختاري واحداً منا".

تسأل سا لم: "ما اسمك؟".

"سا لم".

"أنت مسلم، أليس كذلك؟".

يومئ سا لم برأسه علامة الإيجاب.

"انظر، أنا متأسفة، لكن أمي العجوز التي تسكن معي لا تستطيع أن تأكـــل شيئاً مسه مسلم. أنا لا أوافقها الرأي، لكن ماذا أفعل حيال هذا الأمر؟" تهز كتفيها بلا مبالاة. يبدو سا لم مكتئباً، مخيَّب الأمل.

بعدها تلتفت إليَّ قائلة: "وماذا عنكَ؟ ما اسمكَ؟".

أقول لها: "رام".

هكـــذا حصلتُ على العمل، وحينذاك فقط اكتشفتُ أن الحياة مع نجمة سينمائية ليست فاتنةً كما تبدو ظاهرياً. حين تشاهدين نجوم السينما مـــن دون مكـــياج تكتشفين أنهم بالضبط مثلكِ ومثلي، مع القلق نفسه وعـــدم الأمـــان نفسه. الاختلاف الوحيد هو أننا مهتمون بشكل رئيس بالمال، أو بنقص المال، وهم مهتمون بشكل رئيس بالشهرة. أو نقصها.

شـــقة نيلـــيما كوماري واسعة ومعاصرة، مؤثثة بصورة تنم عن الذوق الرفيع بسجاجيد نفيسة تمتد من الجدار إلى الجدار وبالرسوم. في

الشقة خمس حجرات نوم. حجرة النوم الرئيسة الواسعة ذات الحمام الخاص بها. تعود لنيليما، حجرة النوم التي تأتي بعدها في المساحة تعود لأمها. على حد علمي، لم يكن لنيليما أقارب آخرون.

حجرة نوم نيليما هي أفضل حجرات الشقة. ذات سرير ضخم في الوسط مغطى بملاءة من المخمل. للجدران رقائق مصنوعة من الزجاج لذا ترين صورتكِ منعكسةً في ألف قطعة متناهية الصغر. ثمة مزينة[1] مليئة بالعطور والقناني. إلى جانب المزينة جهاز تلفاز سوني بخمس وعشرين بوصة، وهناك مسجل فيديو كاسيت، وأخيراً مشغل دي في دي. تتدلى من السقف ثريا باهضة الثمن. ثمة مكيف هواء عديم الصوت يجعل الغرفة معتدلة البرودة بصورة مبهجة. تكسو الجدران رفوف زجاجية، محمّلة بالميداليات والجوائز بكافة أنواعها. ثمة صندوق زجاجي آخر مملوء بمجلات سينمائية قديمة كلها تحمل على أغلفتها صورة نيليما كوماري. وأنا أتطلع إلى كل هذا، أشعر أنني أتمتع بامتياز كوني أعمل في منزلها. في زمنها، لا بد أنها كانت أشهر ممثلات الهند.

أم نيليما امرأة مزعجة حقاً. مع أن عمرها يناهز الثمانين، كانت تملك طاقة امرأة في الأربعين وهي دوماً ورائي. أنا الخادم الوحيد في المنزل الذي يعمل طيلة ساعات اليوم. ثمة سيدة مهاراشترية[2] برهمية[3] تأتي لتطهو الطعام مساءً وتغسل الأطباق، وثمة خادمة تعمل جزءاً من ساعات النهار تقوم بغسل الملابس. أما أنا فأقوم بالأشياء

(1) مزينة dresser: منضدة خفيضة ذات أدراج ومرآة؛ يجلس إليها المرء حين يتخذ زينته – م.

(2) ماهارشترية maharshatria: نسبة إلى ولاية مهاراشترا الواقعة في الساحل الشمالي الغربي للهند.

(3) برهمية brahmin: أحد أفراد طبقة الكهنوت العليا عند الهندوس – م.

الأخـــرى. أقـــوم بنفض الغبار والتنظيف. أكوي الملابس، وأعد شاي المـــساء. أقوم بمهمات خارج المنـــزل، وأشتري الحليب. لكن أم نيليما لم تكن مقتنعةً، حتى لو كنتُ أخاطبها بصورة تنم عن احترام كبير مثل مآجـــي. تقـــول لي: "رام، لم تجلـــب حليبـــي. رام، لم تكوي ملاءة سريري... رام، لم تنفض الغبار من هذه الحجرة بصورة مناسبة... رام أنـــتَ مجـــدداً تبدد الوقت... رام لم تسخن الشاي خاصتي". في بعض الأحـــيان أغدو غاضباً جداً من انتقاداتها المتكلفة والمستمرة باحثةً عن أخطائي الصغيرة، بحيث تراودني الرغبة في أن أشد شريطاً على فمها.

نيلـــيما، مع أنها مراوِغة في بعض الأحيان، لم تكن كثيرة المطالب. كانـــت تـــريد مني أن أكون خادماً مقيماً في منـــزلها. ثمة العديد من حجـــرات الـــنوم الخالية في الشقة يمكنني أن أمكث فيها، إلا أن أمها تـــرفض أن تسمح لذكر بالإقامة في المنـــزل. لذا فقد أبعدتني إلى مبنى سكني في جاتكوبار؛ ومن هناك أقوم برحلة يومية إلى شقتها. تدفع بدل إيجار غرفتي في المبنى السكني. إنها تناسبني بشكل من الأشكال، لأن في وسع سالم أن يمكث معي في الغرفة ذاتها.

أخـــرج للتسوّق مع نيليما. هي لا تملك سيارة، لذا نأخذ سيارة أجرة. لا أتمتع في الخروج معها. هي لا تشتري سوى مواد التجميل أو الثـــياب، ويجب عليّ أن أحمل أكياسها الثقيلة. هي لا تذهب أبداً إلى مطعـــم ماكدونالـــد. وهي لا تشتري لي أي شيء؛ لم يحدث أبداً أن اشترت لي أي شيء.

اليوم، نحن في مخزن غالٍ جداً يبيع ألبسة الساري. ننظر إلى مئات مـــنها على مدى أكثر من ساعتين، بعدها تشتري ثلاثة بخمسين ألف روبية، وهو يساوي تقريباً راتبـــي طوال سنتين. فيما نخرج من حجرة

العــرض مكيفة الهواء، تقترب منها مجموعة من الفتيات يرتدين الزي المدرسي. يُبدين فرحات جداً.

"معذرةً، هل أنتِ نيليما كوماري، الممثلة؟" تسألها إحداهن.

"نعم"، تقول نيليما، تبدو في منتهى السعادة.

تــصرخ الفتاة قائلةً لرفيقاتها: "أرأيتن. قلت لكن إنها نيليما". ثم تلــتفت إلينا. "نيليما، نحن معجبات جداً بكِ. إن رؤيتكِ أشبة بحلم يتحقق. نحن لا نحمل دفاتر تواقيع، إنما هلا تفضلتِ ووقعتِ على دفاتر التمارين خاصتنا".

"بالطــبع، بكل سرور" تقول نيليما، وتأخذ قلم حبر من حقيبتها الــيدوية. واحدةً إثر الأخرى تقدّم الطالبات دفاتر التمارين خاصتهن، مهتزات طرباً. تسأل نيليما كل واحدة منهن عن اسمها ومن ثم تسجل بخــط يــدها المتمدد من دون اتساق، *إلى ريتو مع حبــي، نيليما، إلى أنــدو مع حبــي، نيليما، إلى مالتي مع حبــي، نيليما، إلى روشني مع حبــي، نيليما*. الفتيات يقرأن الإهداءات إليهن ويصرخن مبتهجات.

تــتورد نيليما من جراء هذا التملق كله. هذه أول مرة شاهدتُ فيها شخصاً يتعرف إليها، وأعجب لمدى التأثر الذي أحدثه فيها. فجأةً تــتطلع إليّ بقلق، وأنا أنضح عرقاً من جراء حرارة الجو، وكوني أحمل أكياس التبضع الثقيلة. "رام، لا بد أنكَ الآن تشعر بجوع شديد. تعال، لنتناول الآيس كريم"، تقول. أصرخ مبتهجاً.

بين الحين والحين، تعلمني نيليما ما يتعلق بفنّ صناعة السينما. تخبرني عن مختلف التقنيين العاملين في صناعة الفيلم. "يعتقد الناس أن الفيلم السينمائي يصنعه فقط الممثلون والمخرج. إنهم لا يعرفون شيئاً عــن آلاف الــناس الــذين يعملون في الكواليس، الذين من دون

جهـــودهم لـــن يُصنع الفيلم. بعد أن يؤدي هؤلاء التقنيون عملهم حيـــنذاك فقـــط يفرقع المخرج بأصابعه ويقول للممثلين، الأضواء، الكـــاميرا، أكـــشن!" تروي لي عن الأجهزة ومستلزمات الإخراج الـــسينمائي، والإنارة، والمكياج، ورجال الأعمال، والغلمان الذين يسلطون الأضواء.

بعدها تعلمني ما يتعلق بأنواع الأفلام. "أكره الأفلام التي يصنعونها في أيامـــنا هـــذه، يحاولـــون فـــيها أن يحشدوا كل شيء؛ التراجيديا، والكوميديا، والأكشن، والميلودراما. كلا. الفيلم الجيد ينبغي أن يحترم نـــوعه. دأبتُ على أن أختار أفلامي بعناية، لن تلمحني أبداً وأنا أغني وأرقص في مشهد ما وأموت بعد مشهدين. كلا، رام. على الشخصية السينمائية أن تكون متناغمة مع نفسها. بالضبط كالرسام العظيم يتميز بأسلوب توقيعه الفريد، الممثل يُعرف بكفاءاته الفريدة. بنوع خاص به. الفنان العظيم ليس ذاك الذي ينطبق حصراً على نوع ما، إنما هو الذي يحدد النوع. هل رأيتَ العرض المكتوب في صحيفة تايمز أوف إنديا عن الفيلم الجديد **علاقات القلب**؟ ذكر كاتب العرض أن بووجا، الممثلة، عملـــت تـــشوشاً كاملاً في مشهد الوفاة. *كم تمنيتُ أن تكون نيليما كـــوماري في هذا الفيلم كي تكون منصفةً مع الشخصية. ينبغي على المـــثلات الشابات في يومنا هذا أن يتعلمن حرفتهن من عمالقة على غـــرارها*. في الحقيقة، أثلج صدري أن أقرأ هذا. أن يقدموكَ بوصفكَ نموذجاً، بوصفكَ مثالاً لجنس إبداعي، هو أقصى إطراء يمكن أن يتلقاه الممثل. لقد أطرّت هذا العرض".

"ما هو إذاً أسلوبكِ الفريد؟".

تبتـــسم. "أعـــرفُ أنـــكَ صغير السن جداً كي تعرف أن نيليما كوماري تُسمى ملكة التراجيديا في الهند. تعال، دعني أريكَ شيئاً ما".

تأخـــذني إلى حجرة نومها، وتفتح خزانةً معدنيةً. عيناي تكادان تجحظـــان لأن الخـــزانة تغص بكاسيتات فيديوية. "هل تعرف أن هذه الكاسيتات كلها هي لأفلام سينمائية لعبتُ فيها دوراً ما؟".

"صحيح؟ إذاً كم عدد الكاسيتات هنا؟".

"مائة وأربعة عشر. هذا هو عدد الأفلام التي عملتُ فيها طيلة عـــشرين سنةً. تشير إلى الصف الأول قائلة: "هذه الكاسيتات تمثل أفلامي الأولى. معظمها أعمال كوميدية رخيصة حافلة بالخشونة أو العـــنف. أنـــا متيقـــنة من أنك تعرف ما هي الأفلام الكوميدية، صحيح؟".

أومـــئ برأســـي بقـــوة. "أجل، على غرار الأفلام التي يمثل فيها غوفيندا".

تشير نيليما إلى الصفين التاليين. "هذه الأفلام من حقبتي المتوسطة. أغلبها أعمال درامية عائلية. لكنني أيضا أنجزتُ الفيلم المثير ذائع الصيت **سمّي القاتل** وفيلم الرعب الكلاسيكي **بعد ثلاثين عاماً**".

في الخـــتام أشـــارت إلى الصفوف الأربعة المتبقية. "وهذه كلها تـــراجيديات. هل ترى مئات الجوائز والميداليات التي نلتُها على مدى هـــذه السنوات كلها؟ نلتُ معظمها عن أفلام سينمائية في هذا الحقل. فيلمـــي المفضل هو هذا". تربت على كاسيت ما. أقرأ الرقعة الملصقة علـــيه. تشير إلى **ممتاز محل**. "هذا هو الفيلم الذي لعبتُ فيه دور عمر كامـــل، إنه دور زوجة الإمبراطور شاه جهان المدعوة ممتاز محل. حتى إنـــني تـــسلمتُ الجائزة القومية عن أدائي. أترى تلك الميدالية التي في الوسط؟ لقد تسلمتها من يديّ رئيس جمهورية الهند".

"إذاً، مدام، هل كان ذلك أعظم دور لكِ مثلتِه خلال مسيرتكِ كلها؟".

تتـــنهد. "إنـــه دور جيد، ما من ريب، ذو مجهود عاطفي كبير، يـــومذاك كـــنتُ أشعر أنه آن الأوان كي ألعب أعظم دور في حياتي كلها".

* * *

أم نيليما لم تعد على ما يرام. إنها تسعل وتئن كثيراً. انتقاداتها من دون أســـباب موجبة أصبحت لا تطاق. إنها تتشكى دوماً في ما يتعلق بحالـــتها الـــصحية و لم تكن تستثني حتى نيليما، مذكرةً إياها باستمرار بواجبها نحو الإنسانة التي أتت بها إلى هذا العالم. في اعتقادي أن نيليما تبدأ بالشعور بالغضب نوعاً ما. ناهيك عن مهماتي الأخرى، يجب عليّ الآن أن أمـــضي نصف يوم أشتري الأدوية لمآجي، وبعدها أضمن أنها تأخذ الأقراص، والكبسولات، والقطرات في أوقاتها المحددة.

ثمة هرج ومرج في الشقة. دووردارشان، القناة التلفازية القومية، ستعرض فيلماً سينمائياً لنيليما يحمل عنوان **الزوجة الأخيرة** هذا المساء. إنهـــا واحدة من تراجيدياتها ذائعة الصيت وتريد منا جميعاً أن نشاهده معهـــا في حجرة الاستقبال. تعال الساعة الثامنة مساءً، سنجتمع كلنا أمـــام الـــتلفاز. الطاهـــية، والخادمة وأنا نجلس على السجادة ومآجي تستلقي على الكنبة إلى جانب نيليما. يبدأ الفيلم. إنه يتعلق بأسرة فقيرة من الطبقة الوسطى تتغلب على كم كبير من المشاكل، هنالك كثير من البكاء والعويل في الفيلم، وكثير من الأنين في الخلفية صادر عن مآجي. يُظهـــر لنا الفيلم الحياة بصورة واقعية جداً. في اعتقادي أنه شيء مثير للـــسخرية أن نقوم بإنتاج أفلام كهذه. ما هي الغاية من مشاهدة فيلم إذا كنتِ قادرةً على رؤية الشيء الواقعي في منـــزل جارك في الناحية الثانية من الشارع؟ نيليما، مع ذلك، تبدو نضرةً جداً وجميلة في الفيلم

وتمــثل حقــيقةً تمثيلاً جيداً. إنه إحساس غريب أن تشاهدي فيلماً ما وتكون بطلته جالسةً خلفكِ. أسائل نفسي ما هو إحساسها حين ترى نفــسها على شاشة التلفاز. هل تتذكر أولئك الغلمان الذين يسلّطون عليها الأضواء الذين عملوا خلف الكواليس؟

تموت نيليما في الفيلم بعد أن تلقي كلمةً مشحونةً عاطفياً، ينتهي الفــيلم حالمــا تموت هي. نقف كي نمط سيقاننا، ثم ألاحظ أن نيليما تبكي. أسألها بقلق: "مدام، ما الخطب؟ لماذا تبكين؟".

"لا شــيء. رام. إنني فقط شعرتُ بإحساس قرابة مع شخصيتي على الشاشة. انظر، إنني أبتسم الآن".

"كيف تستطيعون أنتم الممثلون أن تضحكوا في دقيقة وتبكوا في الدقيقة التي تليها؟".

هذه هي السمة المميزة للممثل العظيم؟ هل تعرف لماذا يسمونني ملكة التراجيديا؟

"لماذا، سيدتي؟".

"لأنني لم أستخدم الغليسيرين أبداً كي أبكي في فيلم من أفلامي. يمكنني أن أستدعي دموعي إلى عينيّ ساعةَ أشاء".

"مــا هــو الــشيء العظيم جداً في ذلك؟ أنا أيضاً لا أحتاج إلى الغليسيرين كي آتي بالدموع إلى عينيّ" أقول للخادمة حين تكون نيليما خارج مرمى السمع.

كلمــا أتعــرف أكثر على نيليما، أبدأ بفهم لماذا سُميت ملكة التراجيديا. يغلفها جوهر من السوداوية. حتى في ابتسامتها أكتشف ذرةً مــن الحزن. أسائل نفسي عن حياتها الماضية، لماذا لم تتزوج. يبدو أنه لــيس لديها أصدقاء حقيقيون. لكنها تخرج من المنــزل من حين إلى

آخر وتعود في وقت متأخر من المساء. أسائل نفسي من هذا الذي تلتقي به، أشك هل هو صديق أم عشيق؟ لأنها حين تعود لا تبدو مشعةً، حين تعود تبدو منهكةً وكئيبةً وتذهب مباشرةً إلى حجرة نومها. هذا لغز أحب أن أفك مغالقه.

أسأل نفسي كذلك حول هاجسها في ما يتعلق بالجمال، الجمال الجسدي، هي جميلة المنظر، مع ذلك تمضي ساعات طويلة في استعمال مستحضرات التجميل وهندمة نفسها أمام المرآة. مزينتها مليئة بالكريمات. أحاول أن أقرأ الرقع المكتوبة عليها ذات يوم، ثمة كريمات مضادة للتجاعيد، وكريمات مضادة للتشحم[1]، وغسول مضادة للشيخوخة، هناك معززات للتألق العميق، وكريمات مرطبة مضادة للترهل، وكريمات ليلية تمنح حياةً جديدةً للبشرة، وأنواع عديدة لشد البشرة. حجرة حمامها مليئة بأنواع الصابون ذي الروائح الغريبة ومواد منظفة للبشرة وأقنعة وجه من المفروض أن تجعلكِ تبدين غضةً. خزانة الأدوية خاصتها تحوي أدويةً كثيرةً لها وكذلك لمآجي. هنالك هرمونات نمو بشرية، وكريمات لشد النهدين، وميلاتونين[2] ومواد مقاومة للتأكسد.

في النهاية أقول لها ذات يوم: "مدام، لماذا تحتاجين إلى كل مستحضرات التجميل هذه؟ أنت لم تعودي تمثلين الآن".

تنظر مباشرةً في عينيّ. "نحن القوم العاملون في السينما نصبح مزهوين جداً. نعتاد جداً على رؤية أنفسنا بمستحضرات التجميل بحيث

(1) كريمات مضادة للتشحم anti cellulite creams: المقصود بالتشحم هو كتل شحميه تتكون تحت الجلد عند النساء اللواتي يبلغن مرحلة الشيخوخة – م.

(2) ميلاتونين melatonin: هرمون موجود في الطبيعة، لدى الحيوانات وبعض الكائنات الحية، بما في ذلك الطحالب – م.

إننا لم نعد نملك الجرأة على النظر في المرآة كي نرى وجوهنا الحقيقية. تذكر، الممثل هو ممثل طيلة الحياة. الأفلام قد تنتهي، لكن التباهي يجب أن يستمر".

أسأل نفسي ما إذا قالت هذا من صميم قلبها، أم أنها تلت فقط بعض السطور من فيلم ما.

حدث اليوم شيء مدهش حقاً، توفيت مآجي خلال نومها.

بكت نيليما قليلاً، ثم انهمكت بإنجاز ترتيبات الجنازة. بدا كأن كل العاملين في صناعة السينما قد أتوا إلى شقتها لتقديم واجب العزاء. جلست بهدوء على كنبة في حجرة الاستقبال، مرتدية سارياً أبيض، وواضعةً طبقةً خفيفةً من مستحضرات التجميل على وجهها. ميّزت أناساً كثيرين ممن جاؤوا لمواساتها. أتى ممثلون وممثلات، ومخرجون، ومنتجون، ومغنون ومغنيات، وكتّاب أغانٍ. فاضت ردهة الاستقبال بالزائرين. لمحت بنظرة خاطفة إلى حجرة الاستقبال نجوم السينما المشهورين الذين شاهدتُ صورهم في مجلة ستار بيرست - انفجار نجم والذين رأيت أفلامهم على الشاشة. تمنيت لو أن سالماً كان معي هنا، إلا أنه كان ليصاب بخيبة أمل، لأن الزائرين لا يبدون كالنجوم الذين نراهم على الشاشة. إنهم لا يضعون مستحضرات التجميل على وجوههم ولا يرتدون الثياب المبهرجة. جميعهم يرتدون ثياباً بيضاء نظيفةً، ويبدون متجهمين وكئيبين. حتى أولئك الذين اشتهروا بالأدوار الكوميدية.

لا أعرف كيف كان وقع وفاة مآجي على نيليما. إنما بالنسبة إليّ رحيل مآجي عن هذا العالم يبدو أشبه بإحساس مرحب به، بالراحة بعد فيلم سينمائي يوقع الكآبة في النفس.

في غـــضون شـــهر على وفاة مآجي، تطلب مني نيليما أن أصبح خادمـــاً مقـــيماً في شقتها. كانت تعرف أن سالماً يمكث معي في المبنى الـــسكني، لـــذا استمرت في تسديد بدلات إيجار حجرة سالم. انتقلتُ للـــسكن في شقتها. لكنني لم أمكث في أي من حجرات النوم الخالية الأربع بل أُعطيت إليّ حجرة الكوي الصغيرة جداً.

لاحظـــت أنـــه بعـــد وفاة مآجي، بدأت نيليما بالذهاب خارج المنـــزل مرات أكثر، وفي بعض الأحيان لم تكن تبالي حتى بالعودة ليلاً. أنـــا مقتنع أنها تواعد شخصاً ما. أغلب الظن سيكون هنالك زواج في وقت قريب جداً.

أســـتيقظ علـــى جلبة آتية من ناحية حجرة الاستقبال، الصوت خفيف تماماً، إنما كافٍ كي يقلق نومي، أدعك عينيّ، وأنظر إلى الساعة المنـــبهة إلى جانبـــي. إنها تشير إلى الثانية والنصف بعد منتصف الليل. أسأل نفسي هل تتسكع نيليما في الشقة في هذه الساعة، فجأة أدرك أن عـــشيقها ربمـــا أقـــبل لزيارتها، واستبدت بـــي إثارة قوية. أسير على رؤوس أصابعي خارج حجرتي، وأتحرك صوب حجرة الاستقبال.

الحجـــرة غارقـــة في الظلام لكن ثمة رجل هناك، لا يبدو شبيهاً بعاشـــق، إنـــه يضع قناعاً أسود على رأسه مع شقين على عينيه فقط، يحمـــل بيده اليسرى كيساً أسود، وبيده اليمنى مصباحاً كهربائياً يوجه ضـــوءه إلى مـــسجل الفيديو كاسيت، بسرعة يفصل الأسلاك ويلتقط الجهـــاز، ويدخلـــه في كيسه الأسود. أعرف الآن أنه ليس عاشقاً، إنه لص. أصرخ، إنها صرخة حادة تهشم سكون الليل كعيار ناري، توقظ نيلـــيما كوماري، التي تأتي راكضةً إلى حجرة الاستقبال. صرختي تقلق اللـــص كلياً، فيسقط الكيس والمصباح الكهربائي، ويغطي أذنيه بيديه.

في غـــضون ذلك يتحطم التمثال الزجاجي الصغير الذي كان موضوعاً على سطح خزانة التلفاز.

"ما الخطب؟" تسأل نيليما لاهثةً، تشعل ضوء حجرة الاستقبال، بعـــدها ترى اللص، وتطلق صرخةً هي الأخرى، أصبح اللص أخرس الآن. يتهاوى على ركبتيه، ويبدأ بالتوسل إلينا: "أرجوكِ، مدام، لستُ لصاً، أتيتُ فقط كي أنظر إلى منـــزلكِ".

"رام، آتـــني بالهاتـــف سأتصل بالشرطة حالاً"، تقول لي نيليما. أجلب لها الجهاز النقال.

ينتزع اللص قناعه، إنه رجل أقرب ما يكون إلى الحدث ذو لحية صـــغيرة مشذبة. "أرجوكِ، مدام، أرجوكِ لا تستدعي الشرطة، أتوسل إليكِ، لستُ لصاً، أنا طالب في السنة الأخيرة في كلية سانت زافيير، أنا أحـــد المعجـــبين بكِ إعجاباً عظيماً. أتيتُ إلى منـــزلكِ لمجرد أن أرى كيف تعيشين".

ألاحظ أن نيليما تلين بشكل جلي لدى سماعها كلمات المعجب. أحـــذرها قـــائلاً: لا تـــصغي إليه، مدام، هذا الشخص لص، إذا كان معجباً، لماذا سرق الجهاز؟".

"ســـأقول لك لماذا، نيليما. لقد اشتريتُ أشرطة كل الأفلام التي مـــثلتِ فـــيها، المائة وأربعة عشر فيلماً. أشاهد على الأقل واحداً من أفلامـــكِ يومـــياً، لقـــد تعطل جهازي، إنني أقوم بتصليحه. لكنني لا أستطيع أن أتحمل أن يمر يوم من حياتي من دون مشاهدة أحد أفلامكِ. لذا فكرتُ في أن آخذ واحداً من أجهزة الفيديو كاسيت خاصتك. إن مجـــرد حقيقة أنني أشاهد فيلماً سيجعل التجربة جديرةً جداً أنْ تذكر. ســـأعيد لكِ الجهاز حين أنهي تصليح جهازي. أرجوكِ صدقيني، مدام، أقسم بوالدي المتوفي، إنني لا أكذب".

أصـــرخ: "هـــذا كلـــه كذب، مدام، خير لكِ أن تستدعي الشرطة".

تقول نيليما: "لا، رام. دعني أولاً أختبر إن كان هذا الرجل يقول الحقـــيقة. إذا كان قد شاهد المائة وأربعة عشر فيلماً في وسعه أن يجيب عـــن أسئلة قليلة. حسن، سيد، قل لي في أي فيلم لعبتُ دور فتاة قرية تحمل اسم جاندني؟".

"كيف يمكنني أن أنسى ذلك نيليما؟ إنه أحد أفلامي المفضلة، إنه **عودة إلى القرية** صحيح؟".

"صـــحيح. إنما هذا السؤال سهل جداً. قل لي، عن أي فيلم نلتُ جائزة السينما الهندية[1] عام 1982؟".

"هـــذا الـــسؤال حتى أسهل من سابقه. عن فيلم **الليلة الظلماء**، بالتأكيد".

"أنـــتَ على صواب. حسن، قل لي في أي فيلم مثلتُ مع مانوج كومار؟".

"إنه ذلك الفيلم الوطني **الأمة تدعو**".

"لقد شاهدت حتى ذاك؟".

"قلـــتُ لـــكِ، نيليما، إنني أكبر معجبيك الأحياء. أخبريني، لماذا وافقتِ على أداء ذلك الدور التافه في **حب أبدي**؟ كنتُ أعتقد دوماً أن المخرج قلل من أهميتك".

"إنه لشيء مذهل أن تسألني عن **حب أبدي**. أنا كذلك أشعر أنه مـــا كان يجب عليّ أن أؤدي ذلك الدور. كل الفضل في نجاح الفيلم ذهب إلى شارميلا، أما أنا فنلتُ صفقةً غير منصفة".

---

(1) جائـــزة السينما الهندية Film fare Award: هي الجائزة المساوية للأوسكار على نطاق السينما الهندية – م.

"يبدو أنكِ كنتِ رائعةً في إنها **تمطر على بومباي**. أعتقد أن المونولوج الذي قدمته في المعبد بعد وفاة والدكِ هو أبرز المشاهد في الفيلم كله. في الحقيقة، كان يجب أن تحصلي على جائزة السينما الهندية عنه، لكنهم بدلاً من ذلك منحوك الجائزة عن فيلم **امرأة**".

"أجل. لو خيروني بين **امرأة** و**إنها تمطر على بومباي**، فربما أنا أيضاً أختار الأخير. ينبغي لي أن أقول، إن لديكَ معلومات جمة عن أفلامي. ما اسمكَ؟".

"اسمي رانجيت ميستري، عمري أربعة وعشرون عاماً. كنتُ أرغب دوماً في أن أسألكِ عن **ممتاز محل**، الذي أعدّه أعظم فيلم حتى الآن، مشهد ولادة الطفل، حين كنتِ تعانين سكرات الموت ودليب صاحب، الذي يلعب دور الإمبراطور، يجلس إلى جانب سريركِ، تطلبين منه أن يقطع لكِ وعداً، وبعدها تنزعين سواركِ الذهبي – لكنكِ لم تعطه إليه – لماذا فعلتِ ذلك؟".

"هذا شيء مدهش. لقد تغلغلتَ إلى أدق تفاصيل ذلكَ الفيلم، سأخبركَ بالجواب، إنما لماذا تجلس على الأرض؟ تعال اجلس هنا على الكنبة. رام، ما الذي تفعله واقفاً والجهاز النقال بيدك؟ ألا ترى أن لدينا ضيفاً في المنزل؟ اذهب، واجلب لنا كوبين من الشاي وبعض البسكويت. إذاً كما كنتُ أروي لكَ، حين يتم فهم **ممتاز محل**...".

في الوقت الذي عدتُ فيه مع كوبي الشاي، كان اللص ونيليما يقهقهان ويتبادلان النكات كصديقين افترقا زمناً طويلاً وها هي المصادفة تجمعهما من جديد. أهز رأسي غير مصدّق، هذا الرجل جاء كي ينهبها ولمجرد أنه شاهد عدداً قليلاً من أفلامها تطعمه البسكويت مع الشاي.

ما بدأ بوصفه شيئاً مثيراً تحوّل إلى دراما عائلية.

تستدعيني ذات مساء. "رام، أريد منك أن تنتقل إلى المبنى السكني غداً، مدة يوم واحد فقط، أحتاج إلى عزلة في المنـــزل".

"لكن لماذا، مدام؟".

"لا تطرح الأسئلة"، تقول بصوت مغضب. "فقط افعل ما أقول لك".

هذه التعليمات أعطيت لي ثلاث مرات في الشهور الثلاثة التالية. أعرف أنني حين أكون خارج المنـــزل ستستقبل عشيقها في المنـــزل، ولا تريد مني أن أعرف ما يتعلق بهذا الأمر. إذاً في المرة التالية تقول لي فـــيها أن أمكث في جاتكوبار، وأعود في اليوم التالي، لا أنفذ تعليماتها بالكامـــل. أرجع إلى جاتكوبار لتمضية الليلة هناك، بدلاً من أن أرجع عـــند السابعة صباح اليوم التالي، أرجع عند الخامسة، وأتسكع خارج الـــشقة. عند السادسة صباحاً ينفتح الباب ويخرج رجل طويل القامة، حـــسن الوجه، إنما عيناه المحتقنتان بالدم وشعره القبيح يفسدان مظهره الخارجـــي، يرتدي سروالاً من الجينـــز الأزرق وقميصاً بيضاء اللون. يحمـــل رزمةً من الأوراق المالية وبيده اليسرى سيجارة مشتعلة، يستقل ســـيارته، يبدو مألوفاً بصورة مبهمة، لكنني لا أستطيع أن أصنفه. هو حـــتى لم ينظـــر إليّ قـــبل أن يهبط درجات السلم المؤدي إلى الطبقة الأرضية. لا أدخل المنـــزل إلا عند السابعة.

أتلقى أول صدمة حين أشاهد حال حجرة الاستقبال؛ هنالك أعقاب سجائر وبقايا من الرماد في كل مكان، وكأس مقلوبة ترقد وسط الطاولة، جنـــباً إلى جـــنب مـــع زجاجة شراب اسكتلندي فارغة، حبات الفول السوداني منتشرة على السجادة، ثمة رائحة شراب قوية في الحجرة.

الصدمة الثانية هي رؤيتي لنيليما كوماري، كانت لديها كدمات في كل أنحاء وجهها، وكانت عينها سوداء. أصرخ قائلاً: "مدام، ماذا جرى لكِ؟".

"لا شـــيء، رام. انقلبت من سريري وآذيتُ نفسي. ما من شيء يدعو إلى القلق".

أعـــرف أنها تكذب، ذلك الرجل الذي شاهدته يغادر الشقة هو الـــذي فعـــل هـــذا بهـــا، ومقابـــل ذلك أعطته السجائر، والشراب الاســـكتلندي، والمـــال أيضاً. شعرتُ بالألم يعصر فؤادي، وأحسستُ أيضاً بالغضب، وألا حول لي ولا قوة على حمايتها.

مـــنذ ذلـــك اليوم فصاعداً يحصل لنيليما تغير دقيق. تصبح أكثر انطواءً وعزلةً. أعتقد أنها تبدأ باحتساء الشراب الاسكتلندي، لأنني في كثير من الأحيان أشم رائحته في أنفاسها.

ذات صـــباح أجـــدها مجدداً بعين سوداء، وحرق سيجارة على ذراعهـــا. لم أعـــد أطيق المسألة، أسألها: "مدام، أشعر بحزن كبير لدى رؤيتكِ على هذه الحالة، من الذي يفعل هذا بكِ؟".

كان في وسعها أن تقول: "لا شأن لك بذلك"، غير أنها كانت في مـــزاج تأملـــي ذلك الصباح. "أنتَ تعرف، رام، قال أحدهم إنه من الأفضل أن تحب وتضيع من ألا تحب على الإطلاق. أسأل نفسي غالباً مـــا إذا كان هذا القول صحيحاً. أنا أيضاً أحببتُ. حتى الآن لا أعرف ما إذا كنت سأضيّع غرامي، لكنني تلقيتُ كماً كبيراً من الألم والمعاناة. ثمـــة رجل في حياتي. تارةً أعتقد أنه مغرم بـــي، وطوراً يخطر ببالي أنه يكرهني. إنه يعذبني ببطء، شيئاً فشيئاً".

أهتف قائلاً: "إذاً لماذا لا تهجرينه؟".

"ليس الأمر بهذه السهولة، هنالك شيء من السعادة حتى في الألم، نشوة حلوة. حين يعذبني بأعقاب السجائر لا أريد أن أصرخ، أريد أن أتلو تلك السطور العصية على النسيان من فيلمي **امرأة**. مشهد الموت.

أوه أيـــتها الحياة، كم أنت متقلبة. الموت هو عشيقي الحقيقي، رفيقي الدائم. تعال، أيها الموت، خذني بين ذراعيكَ، اهمس بالصوت العذب للصمت في أذنيّ، وادفعني بعيداً عبر الهواء إلى دنيا الحب السرمدي".

أناشدها قائلاً: "لكن ذلك مجرد فيلم، مدام".

"اصمت! هل نسيتَ أنني قلتُ لكَ ذات مرة، إن الممثل هو ممثل طـــيلة حـــياته؟ لا تنسَ أنني سأُسمى إلى الأبد ملكة التراجيديا وأنني لم أصـــبح ملكة التراجيديا لمجرد أنني تلوتُ السطور التي تلقيتها من كاتب الـــسيناريو، عشتُ حياة شخصياتي، لم يصبح غالب[1] شاعراً تراجيدياً عظـــيماً لمجرد أنه كتب بعض الأبيات في كتاب ما. لا. ينبغي لكَ أن تحـــس بـــالألم، تجـــرّبه، تعيشه في حياتك اليومية قبل أن تصبح ملكةً للتراجيديا".

"إذا هـــذه هي الميزة، إذاً هل أستطيع أن أصبح ملكاً للتراجيديا؟" أسألها ببراءة ساذجة لغلام في الثانية عشرة.

لا تجيب عن سؤالي.

تحـــاور صـــحافية من مجلة ستاربيرست نيليما في حجرة الطعام. أدخل مع صينية من حلوى غولاب جمون وسمبوسات.

"حـــسن، نيلـــيما، لقد تكلمنا عن الماضي، الآن دعينا نأتي إلى الحاضر. لماذا هجرتِ السينما؟" أراقب عن كثب فيما تعبث الصحافية بمسجل شريطي. هي صغيرة السن تماماً وذات مظهر مدهش نوعاً ما، ذات بشرة صافية وشعر أسود طويل يصل حتى كتفها. ترتدي سروالاً

(1) غالـــب Ghalib 1797–1869: ولد في أغرا وتوفي في دلهي يعتبر أعظم شـــاعر بالأوردية ومن كبار الشعراء العالميين كتب بالفارسية ثم بالأوردية وألف ديواناً صغيراً هو درة في الشعر الأوردي – م.

أسود أنيقاً مع قميص طويلة مُطبّعة وتنتعل حذاءً عالي الكعبين من دون شريط.

"لأنهم لم يعودوا يصنعون الأفلام كما اعتادوا. الهيام، الوعد، كلاهما راحا. ممثلو اليوم ليسوا سوى منتجات نظام التجميع[1]، كل واحد منهم يشبه الآخر تماماً، يرددون سطورهم كالببغاوات، وليس ثمة عمق، كنا ننجز فيلماً واحداً في وقت ما. الآن أجد ممثلين يهرعون إلى ثلاث مواقع تمثيل في يوم واحد. إنه لشيء مثير للسخرية". تومئ نيليما بيديها.

"حسن، معذرةً لما أقول، لكنني سمعتُ أن أحد أسباب اعتزالك السينما هو أنهم لا يسندون إليك أي دور من الأدوار".

يتوهج الغضب على وجهها. "من الذي قال لك ذلك؟ إنه محض كذب. أعطوني أدواراً عدة، لكنني رفضتُها. لم تَكن قويةً بصورة كافية. الأفلام لم تكن مكيفةً على وفق بطلة".

"ما تقصدينه هو أنهم لم يعودوا يسندون إليكِ أدوار بطلة، بل أدوار الأخت أو العمة الأكبر سناً".

"كيف تجسرين على أن تنتقصي مني ومن عملي؟ ينبغي لي أن أقول إنه حتى صحافيي اليوم فقدوا سلوكهم الحسن. ألا ترين الجوائز والميداليات تكسو الرفوف؟ أتعتقدين أنني نلتُ هذه من دون تمثيل؟ هل تحسبين أنني حصلتُ على لقب ملكة التراجيديا من خلال إنشادي الأغاني حول الأشجار كبطلات يومنا هذا التافهات، يُبدين وكأنهن ممثلات مستأجرات مبجلات؟".

---

(1) نظام التجميع assembly line: تجميع الماكينات والأدوات والعمال بحيث ينجز كل عامل عمليةً خاصةً على سلعة ناقصة. وهكذا إلى أن يتم صنع السلعة على الوجه المطلوب – م.

"لكننا. لكننا لا نتكلم عن مسيرتك الماضـــ -".

"أعرف على وجه الدقة عما تتكلمين. من فضلك غادري حالاً. رام، أرشـــد السيدة إلى طريق الخروج، ولا تفتح لها الباب مجدداً على الإطـــلاق". تهـــب واقفةً وتخرج من الغرفة بغضب. أرافق الصحافية المرتبكة إلى الباب.

لا أســـتطيع أن أفهـــم مـــا إذا كانت هذه كوميديا، دراما، أم تراجيديا.

هـــنالك صـــور عديدة مؤطرة في شقة نيليما، إنما كلها تظهرها بمفـــردها. نيلـــيما تتسلم جائزةً ما، نيليما تقص شريطاً، نيليما تشاهد أداءً، نيلـــيما تعطي جائزةً. ليس ثمة صور لأي نجم سينمائي آخر، عدا صـــورتين مؤطرتين في حجرة نومها. إنهما صورتان لامرأتين جميلتين، الأولى بيضاء، والثانية هندية.

أسألها ذات يوم: "من هما هاتان المرأتان؟".

"المـــرأة التي على اليسار هي مارلين مونرو والمرأة التي على اليمين هي مادهوبالا".

"من هما هاتان؟".

"ممثلتان شهيرتان جداً توفيتا في سن مبكرة".

"إذاً لماذا تحتفظين بصورتيهما؟".

"لأنني أيضاً أتمنى أن أموت في سن مبكرة. لا أريد أن أموت وأنا أبدو هرمةً ومنهَكةً. هل شاهدتَ صورة شاكيلا في عدد هذا الأسبوع مـــن مجلـــة فـــيلم دايجـــست؟ كانت نجمةً سينمائيةً ذائعة الصيت في الخمـــسينيات ولا بد أنها في التسعين الآن. انظر كم تبدو هرمةً. هكذا بالضبط سيتذكرها الناس بعد وفاتها. هرمةً، وكثيرة التجاعيد، ومنهَكةً.

لكـــن الـــناس يتذكرون دوماً مارلين مونرو ومادهوبالا شابتين لأنهما توفيتا في سن مبكرة. آخر صورة يروكَ الناس بها هي صورتكَ في زمن وفاتـــك. علـــى غرار مادهوبالا، أود أن أخلّف ورائي صور الشباب والجمال، والرشاقة الناصعة. لا أريد أن أموت حين أصبح في التسعين. كـــم أتمـــنى أحياناً أن يكون في وسعي إيقاف كل ساعات عالمنا هذا، أهشم المرايا كلها، وأجمّد وجهي الغض في الوقت المناسب.

يتسلل إلى داخلي حزن غريب حين أسمع هذه الكلمات. بشكل من الأشكال، نيليما يتيمة، مثلي. لكنها لا تشبهني، لديها عائلة أكبر، لديها معجبون ومعجبات، منتجون ومخرجون. وهي راغبة في أن تقدّم التـــضحية القصوى من أجلهم. كي يستطيعوا أن يتذكروها أبد الدهر بوصفها امرأةً في ربيع العمر.

لأول مرة في حياتي، أشعر أنني محظوظ لأنني لستُ نجماً سينمائياً.

يـــأتي منـــتج شـــهير إلى منـــزلها. نيليما مستثارة جداً. يدور في خلـــدها أنـــه سيمنحها دوراً وستتمكن من الوقوف أمام الكاميرا من جديـــد. تمـــضي النهار كله في وضع مساحيق التجميل على وجهها، وتجرّب ثياباً خاصةً متنوعةً.

يأتي المنتج مساءً. إنه قصير القامة وأصلع، وذو بطن بارز. تطلب مني أن آتي بحلوى غولاب جمون وسمبوسات وعصير فاكهة مثلج.

يقـــول المنتج: "... إنه دور عظيم لكِ، نيليما. كنتُ دوماً أحد معجبـــيك الكبار. شاهدتُ **امرأة** خمس عشرة مرة. مشهد الوفاة ذاك، أمـــوت علـــى رؤيـــة ذلك المشهد. لهذا السبب قررتُ أن أجرّك من عـــزلتك، هذا الفيلم، الذي اخترتُ له مخرجاً راقياً جداً، هو فيلم يركز على امرأة. إنني أمنحكِ دوراً رائعاً".

"من هو المخرج الذي تعاقدتَ معه؟".

"إنه جمبو دهاوان".

"لكن أليس هو مخرج أفلام كوميدية؟".

"وماذا يعني؟ على كل حال، ستكون هنالك بعض الكوميديا في هـــذا الفيلم. في ما يتعلق بالأدوار الرئيسة تعاقدتُ مع شاهروخ خان وتابو".

"لا أفهم. لقد تعاقدتَ مع بطلة. هل ستكون لديك بطلتان؟".

"لا أبداً".

"إذاً ما هو الدور الذي تعطيه لي؟".

"ألم تفهمي؟ إنني أعطيك دور أم شاهروخ خان".

تطرده خارج المنـــزل آنذاك.

يغادر المنتج، والزَبَد يلوح على فمه.

"كلـــبة، مـــن تعتقد نفسها؟ تظن نفسها لا تزال صالحةً لأدوار الـــبطولة. هل رأت نفسها في المرآة؟ هي محظوظة لأنني لم أعطِها دور الجدة. أوف!".

ظننتُ ساعتئذ أن هذا مشهد كوميدي جيد.

يزورها حبيبها مجدداً. إنما هذه المرة الأشياء أكثر خطورة، هي في الفراش وجرح عميق فوق حاجبها الأيسر وخدها متورم. إنها تعاني من صعوبة في التحدث.

"يجدر بنا أن نستدعي الشرطة، مدام، كي يعتقلوا ذلك الحيوان"، ألح عليها فيما أنا أضع مرهماً معقماً على كدماتها.

"كلا، رام. سأكون على ما يرام".

"على الأقل أخبريني عن اسمه".

تضحك بصوت خشن. "ما نفع ذلك؟ لا تقلق، ذلك الرجل لن يــأتي إلى هنا مجدداً. لقد انتهت صلتي به، لهذا السبب فعل بــي هذا. إذا حدث وعاد من جديد سأبصق عليه".

"وإلى متى ستبقين تتعذبين بصمت؟ انظري إلى ما فعله بوجهك".

"إنه قدر المرأة أن تعاني بصمت. وما فعله بوجهي لا شيء مقارنةً بما فعله ببقية أنحاء جسدي. هل تريد حقيقةً أن ترى؟ انظر إذاً". تفتح أزرار بلــوزتها، وتفتح حمالة صدرها. أرى ثديين عاريين لامرأة لأول مرة في حياتي. إنهما كبيران ومتذبذبان ويتدليان كضرعي بقرة. أتراجع مــصدوماً حين أشاهد علامات حرق السيجارة في كل أنحاء صدرها، تــبدو أشــبة بحفــر صغيرة سوداء على اللحم الأبيض الناعم. أشرع بالبكاء.

هي أيضاً تبكي. "لا أبغي العيش بقناع بعد الآن. نلتُ كفايتي من الجــراحات اللدائنية للوجه، أخذت كفايتي من مستحضرات التجميل. أريــد أن أكــون امرأةً من دم ولحم مرةً واحدةً في حياتي. تعال إليّ، غلامي"، تقول وتجر وجهي إلى صدرها.

لا أعــرف ما الذي كان يخطر ببال نيليما كوماري حين سحبتني إلى صــدرها. ما إذا رأتني ابناً أم عاشقاً، ما إذا فعلت ذلك كي تنسى وجعهــا أم إنها ببساطة تريد أن تحصل على إثارة رخيصة. لكنني حين مرّغتُ وجهي بين ثدييها، كل وعيي بالعالم الخارجي تلاشى في دماغي ولأول مــرة أحسستُ كما لو أنني لم أعد يتيماً. أحسست أن لي أماً حقيقــيةً، أماً أستطيع أن أرى وجهها، أماً أستطيع أن ألمس جسدها. واختلط الطعم المالح لدموعي مع عرق جسدها وعبقت فيّ تجربة مؤثرة جداً لكائن بشري في الثالثة عشرة من عمره. كل الألم والعذاب، كل الإهانــات والإذلال الذي تحملته على مر السنوات ذاب تماماً في تلك

اللحظـــة. أردتُ أن أوقف كل ساعات العالم، وأجمّد تلك اللحظة إلى الأبـــد. مع كونها موجزةً جداً بكل ما للكلمة من معنى، حتى في ذلك المدى القصير من الزمن أنتجت إحساساً أصيلاً جداً، ما من كمية من التمثيل يمكنها أن تطمح بمضاعفته.

لهـــذا الـــسبب لن أحاول أن أصف هذه الواقعة بكونها دراما أو تمثيلية مؤثرة أو تراجيديا. إنها أبعد ما تكون عنها كلها.

نيلـــيما وأنا لم نتكلم مجدداً عن ذلك الصباح، وما جرى يوم ذاك لم يتكرر مجدداً، إنما كلانا يحيا عارفاً بأن حياتينا تغيرتا بصورة نهائية.

تبغي هي أن تزيل قناعها، إلا أنها لا تملك الجرأة على فعل ذلك. وترفض أن تتقبل مساعدتي. القدر المحتوم لملكة التراجيديا يجرها بإلحاح متجدد. تصير أكثر كآبةً. يزداد شربها إلى درجة أنها لم تعد تعي بالعالم حـــولها. تصرف خادمتها وطاهيتها، أنا الوحيد الذي بقيتُ في شقتها. وبعدها تتهيأ لأعظم دور في حياتها.

تطلب مني نيليما أن أصف كل المجلات التي حوت صورها بشكل مرتب. ترتب كل ميدالياتها وجوائزها بنفسها، تضع الميداليات البلاتين في الأمـــام، تتـــبعها الميداليات الذهب والميداليات الفضة. ترتدي أغلى ســـارٍ لديها وتتزين بأروع مجوهراتها. تمضي ثلاث ساعات أمام المرآة لـــتجعل وجههـــا يبدو بأفضل صورة طيلة حياتها كلها. ثم ترمي كل كـــريمات التجميل خاصتها في الحمام، وتجعل الماء يتدفق فجأةً عليها. تمـــضي إلى خزانة الأدوية وترمي كل مستحضرات التجميل خاصتها. تفتح دُرجاً يحوي مسكنات الألم وُصفت لأمها. لا أعرف كم ابتلعت من هذه الأقراص.

في الختام، تدخل حجرة نومها وتُدخل فيلمها **ممتاز محل** في جهاز عرض الأفلام. تجلس على الفراش، وتضغط على زر التشغيل في جهاز التحكم عن بعد. يبدأ الفيلم على شاشة التلفاز. تطلب مني أن أشتري الخضار من السوق وتبقى في انتظاري.

أجـــدها مساء ذلك اليوم لدى عودتي من السوق، تبدو كعروس جمـــيلة جديدة نائمة على السرير. لم يكن عليّ لمس جلدها البارد كي أعرف أنها فارقت الحياة. تحمل بيدها ميدالية. تشير إلى الجائزة القومية لأفـــضل ممثلة. مُنحت للسيدة نيليما كوماري عن دورها في **ممتاز محل** 1985".

ما أراه أمامي لا يمكن وصفه إلا باعتباره قمة الدراما.

أنظر إلى جثة نيليما كوماري ولا أدري ماذا أفعل. الشيء الوحيد الـــذي أنا متأكد منه هو أنني لن أذهب إلى الشرطة. إنهم قادرون تماماً علـــى أن يلقوا اللوم عليّ وأن يعتقلوني لأنني ارتكبت جريمة قتل. لذا أقوم بالشيء المنطقي الوحيد. أهرب إلى المبنى السكني في جاتكوبار.

يسألني سالم: "لماذا أتيتَ إلى هنا؟".

"أنا أيضاً طردتني السيدة، مثلما طردت الخادمة والطاهية".

"ماذا سنفعل الآن؟ من الذي سيدفع بدل إيجار الغرفة في هذا المبنى السكني؟".

"لا تقلـــق، لقد دفعت مقدماً بدل الإيجار عن الشهرين المقبلين. خلالها سأحصل على عمل جديد".

* * *

كل يوم من أيام مكوثي في المبنى السكني يستبد بـــي الخوف من أن تـــأتي ســـيارة جيب ذات ضوء أحمر وامض وتأخذني بعيداً، إنما لا

يحدث شيء من هذا القبيل. كذلك ليس ثمة أنباء في الصحف عن وفاة نيليما كوماري. خلال ذلك أجد عملاً لي في سبك المعادن.

يكتشفون جثتها بعد مرور شهر، لمجرد أن أحد جيرانها يشتكي من الرائحة النتنة. لذا يكسرون الباب عنوةً ويدخلون. لا يجدون شيئاً في حجرة الاستقبال أو في حجرات النوم الأربع الأولى. ثم يكتشفون جثة متفسخةً في حجرة النوم الرئيسة. الساري يبدو جديداً، المجوهرات تتلألأ، لكن الوجه والجسم تفسخا ولم يعد بالإمكان التعرف إليهما. يحملون الجثة واضعين كمامات بيضاء على وجوههم فقط ويرمون الميدالية في سلة المهملات. يتأكدون من هويتها فقط من خلال تقارير طب الأسنان الخاصة بها. وحين يكتشفون من هي، ينشرون صورة جثتها المتفسخة على الصفحة الأولى من الجرائد كلها. **نيليما كوماري، ملكة التراجيديا، انتحرت. هي في الرابعة والأربعين. لم يكتشف جثمانها المتعفن بصورة سيئة في شقتها إلا بعد مرور شهر.**

الآن أدعو هذا تراجيديا حقيقية.

تطلق سميتا زفيراً طويلاً. "ما من عجب أن يكون نجوم السينما عصابيين! كما تعرف، لقد شاهدتُ **ممتاز محل** وأنا أيضاً كنت أرغب دوماً في أن أعرف السر الكامن وراء ذلك السوار الذهبي. إنني أتساءل ماذا قالت نيليما كوماري لذلك اللص".

"لسوء الحظ، سيبقى ذلك سراً. الآن هل سنتكلم فقط عن نيليما كوماري؟ أم ينبغي لي أن أروي لكِ ماذا جرى لاحقاً في برنامج المسابقات؟".

بتعبير ممانع، تضغط سميتا على زر التشغيل.

ثمة نشاط وهياج في داخل الاستوديو. نحن الآن في وسط فاصل طويل الأمد. مخرج البرنامج، رجل طويل القامة ذو شعر طويل أشبة بشعر امرأة – أو بشعر نجم من نجوم الروك – مشغول بالتشاور مع بريم كومار في إحدى الزوايا. بعد أن يغادر، يومئ إليّ بريم كومار أن أنضم إليه.

يقول لي بريم كومار: "انظر، سيد توماس، لقد نجحتَ نجاحاً رائعاً في ما يتعلق بالبرنامج. أنتَ تجلس مرتاحاً وفي جعبتك مليون روبية. قل لي، ماذا تنوي أن تفعل الآن؟".

"ماذا تعني؟".

"أعني هل ستنسحب أم أنكَ ستلعب من أجل جائزة البليون روبية؟ تذكر الآن أنت في مرحلة تلعب أو تخسر".

"حسن، إذاً. سأنسحب. كنتُ محظوظاً حتى الآن، إنما من المحتمل أن يغادرني الحظ".

"الآن إنه لشيء يدعو إلى الأسف حقيقةً، سيد توماس. نحن نعتقد أنكَ إذا واصلت كي تكسب هذه المسابقات يمكنكَ أن تصبح أعظم قدوة للشباب في بلادنا. لذا نحن في W3B قررنا أن نسهل الأمور لكَ كي تربح. أتتذكر كيف ساعدتكَ في ما يتعلق بالسؤال الثاني؟ لو لم أغيّر السؤال لك وقتذاك، لكنتَ في الخارج من دون روبية واحدة في جيبك. أريد أن أفعل الشيء ذاته في ما يتعلق بالأسئلة الثلاثة المقبلة. أعدكَ، إذا وافقت على دخول مرحلة تلعب أو تخسر سنساعدك كي تربح، لأننا نريدك أن تربح. سيكون أفضل شيء يحدث في برنامجنا في أي وقت مضى".

"أي نوع من الأسئلة تدور في بالك؟".

"إنه حقيقة شيء لا يهم، لأننا سنخبرك سراً بالأجوبة سلفاً. إذا كان في وسعك أن تثق بي في ما يتعلق بالسؤال الثاني، فأنا متيقن من

أنـــك ستثق بـــي في ما يتعلق بالسؤال العاشر، والحادي عشر والثاني عشر. إذاً هل نتفق على هذه الصفقة؟".

"حسن، إذا كنت تضمن فوزي، يصعب عليّ أن أقول لا. إذاً قل لي ما هو السؤال التالي".

"ممتاز". يصفق بريم كومار. يقول للمخرج: "بيلي، السيد توماس يوافـــق علـــى خوض جولات مرحلة تلعب أو تخسر". يلتفت إليّ من جديـــد ويهمس قائلاً: "حسن، دعني أروي لك في ما يتعلق بالسؤال التالي. سأسألك ما هو طول مضيق بالك بين الهند وسريلانكا؟ ستكون الخـــيارات (أ) 64 كلـــم، (ب) 94 كلم، (ج) 137 كلم و(د) 209 كلم. سيكون الجواب الصحيح (ج) 137 كلم. هل فهمت؟".

"نعم. إنما كيف يمكنني أن أكون متأكداً من أنه الجواب الصحيح؟".

"ألا تـــثق بـــي، سيد توماس؟ حسن، لن ألقي اللوم عليك. على كل حال، نحن نتكلم عن بليون روبية هنا. سأثبت لكَ صحة الجواب. الآن، انظـــر في هـــذا الكـــتاب. أنا متأكد من أنك تستطيع أن تقرأ الأعـــداد" يـــشير إلى ســـؤال. إنه السؤال نفسه الذي وجهه إليّ. وله الجواب نفسه: 137 كلم.

"هل أنتَ مقتنع الآن أنني لن أسحب سؤالاً دقيقاً يصعب عليكَ الإجابة عنه؟".

أومئ برأسي.

"حسن. الأفضل أن تعود إلى كرسيك، وسألتحق بك في غضون ثانية".

يـــأتي اللحن الخاص بالبرنامج وتشير لافتة الاستوديو إلى تصفيق. يخاطب بريم كومار الجمهور. "سيداتي سادتي، نحن عند مفترق طرقات

تاريخي في برنامجنا. معنا متسابق بلغ المليون روبية. الآن عليه أن يقرر ما إذا كان سيستمر في المنافسة من أجل أكبر جائزة أو ينسحب من اللعبة. سيد توماس، لحظة الحقيقة حانت. ما هو قرارك؟ هل ستلعب كي تربح أم أنك ستنسحب؟ تذكر، مع ذلك، إذا لعبت ستعرض كل ما كسبته حتى الآن للخطر. إذاً ماذا تقول؟" يبتسم لي كي يعيد طمأنتي.

أقول بوداعة: "سألعب".

يقول بريم كومار: "معذرة؟ هل يمكنكَ أن تقول ذلك بصوت أعلى، من فضلك؟".

"سألعب"، أقول بصوت عالٍ وثقة.

ثمة لهاثات صادرة من الجمهور. يقول أحدهم: "آه!" يقول آخر: "يا له من أبله!".

يقول بريم كومار: "هل هذا هو قرارك الأخير؟" يبتسم لي مجدداً.

أقول: "أجل".

"إذا لقد صنعنا التاريخ، سيداتي سادتي". يبتهج بريم كومار ابتهاجاً شديداً. "معنا متسابق مستعد للمخاطرة حتى النهاية. كان لدينا متسابق آخر من قبل خاطر حتى النهاية – وخسر. سنرى اليوم إن استطاع السيد توماس أن يكتب التاريخ بأن يصبح الحائز على أكبر جائزة في التاريخ. حسن، نحن إذاً مستعدون للأسئلة الثلاثة الأخيرة في مرحلة تلعب أو تخسر. من فضلكم امنحوه دورةً كبيرةً من التصفيق".

ثمة تسارع في قرع الطبول. تومض لافتة تلعب أو تخسر على الشاشة. يقوم الجمهور عن مقاعدهم ويصفقون بحماسة. بعد أن تخفت الموسيقى، يلتفت إليّ بريم كومار. "حسن، سيد توماس لقد ربحتَ مليون روبية وأنتَ الآن في مرحلة جولات الموت المفاجئ التي نسميها تلعب أو

تخسر. إنك إما أن تربح بليوناً أو تفقد كل ما كسبته حتى الآن. إذاً السؤال العاشر بعشرة ملايين، نعم، عشرة ملايين روبية قادمة الآن. هو ذا. نيليما كوماري، ملكة التراجيديا، حازت الجائزة القومية -".

"لكن هذا ليس السؤال".

"أرجوك، سيد توماس، لا تقاطعني وسط السؤال. دعني أكمل"، يقول بصرامة. "لذا كما كنتُ أقول، السؤال هو، نيليما كوماري، ملكة التراجيديا، حازت الجائزة القومية في أي سنة؟ هل كانت (أ) 1984، (ب) 1988، (ج) 1986 أم (د) 1985؟".

أتطلع إلى بريم كومار، يتكلف الابتسام. أفهمه الآن، ما أخبرني به في الفاصل كان حيلة كي يغريني لخوض هذه الجولة. لكنه لم يحسب حساباً لحظي. لا يزال مستمراً.

"أعرف الجواب. إنه (د) 1985".

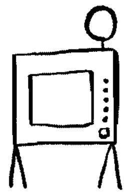
"ماذا؟" ينصعق بريم كومار. إنه مندهش جداً بحيث إنه حتى ينسى أن يسألني ما إذا كنت متأكداً مائة بالمائة من جوابي. يضغط على زره آلياً ويومض الجواب الصحيح. إنه (د).

يبدو بريم كومار كما لو أنه رأى شبحاً. "سيد... سيد توماس... ربح... الآن عشرة ملايين روبية" يتلعثم، وهو مرتبك تماماً.

يهتاج الجمهور، الجميع يقفون ويهتفون مشجعين. بعض الأشخاص يبدأون بالرقص في المماشي بين المقاعد.

يمسح بريم كومار العرق عن جبينه، ويأخذ جرعةً كبيرةً من عصير الليمون المحلى.

ما كان يجب أن يغدو تراجيديا يصبح مسرحيةً هزليةً ساخرةً.



100,000,000

X GKRZ OPKNU

أو قصة حب

الطعـــام. ذلـــك هو كل ما أستطيع أن أراه، وأسمعه، وأفكر فيه، وأشمـــه في محطـــة القطار المزدحمة وكثيرة الضجيج حيث كنتُ واقفاً بقميـــصي القطنـــية وســـروال الجينـــــز علامة ليفايز طيلة الساعتين المنصرمتين. إذا لم تأكلي لفترة فإن الجوع يذوي ويموت. لكنكِ إذا لم تأكلـــي لـــوقت طـــويل - وأنا لم أتناول وجبة طعام منذ ظهيرة يوم أمـــس - فـــإن عقلكِ يفعل أشياءً مضحكةً. في كل الجهات حولي لا أســـتطيع ســـوى أن أرى الناس يأكلون ويشربون. وأنفي يتعقب أثر الطعام ككلب يتشمم عظماً. يدوخني شذا الزلابيات وأرغفة الخبز غير المخمّر والمقلي بالزيت النباتي والكاجوريات[1] المصنوعة منذ لحظات. حـــتى شيئاً أساسياً كبيضة مسلوقة، التي لم أحبها أبداً، تجعل لعابـــي يـــسيل. لكنني حين أنقب في جيبـــي أكتشف فقط قطعة نقد من فئة

(1) الكاجـــوريات Kachoris: جمـــع كاجوري وهي وجبة خفيفة كثيرة التوابل شـــائعة فـــي مـــناطق عديدة من الهند، منها راجاستان، غوجرات، وأوتار براديش - م.

الــــروبية الواحدة، وبعد فقداني الليلة الماضية للخمسين ألف روبية، لا تبدو أي قطعة نقد جالبةً للحظ السعيد بعد الآن مطلقاً. لذا ألعق شفتيَّ المنفرجتين، وأسأل نفسي كيف يمكنني أن أقتل جوعي.

أكــــاد أقايض ساعتي الرقمية نوع كاسيو بطبق جهولي بهاتور[1] حـــين تقع عيناي على لوحة إعلانات ضخمة بالقرب من مطعم المحطة المــــؤقت. ببساطة تشير اللوحة إلى *أم؛ على بُعد كيلومتر واحد فقط.* أعرف فوراً أين يمكنني أن أحصل على الطعام. مجاناً".

أغادر محطة قطار أغرا، وأبدأ بالبحث عن لافتة *أم* حمراء ضخمة. أدور دورةً أو دورتــين غــير صــحيحتين، أسأل اثنين من أصحاب المخازن، وأجدها في الختام في قلب سوق ممتاز. النُدُل بالملابس الأنيقة في مطعم ماكدونالد ينظرون إليّ بريبة لكنهم لا يطردونني. لا يقدرون أن يــصدوا زبوناً بسروال جينــز علامة ليفايز، مهما يحتمل أن يكون وضــيعاً. أرمي بنفسي بالقرب من الصندوق الخشبــي، الصندوق ذو الفتحة المتأرجحة. حين لا يكون هنالك من ينظر بسرعة أدس يدي في الــداخل وآخذ أكبر عدد من تلك الأكياس الورقية البنية الجميلة التي تكون في متناول ذراعي. أخرج بعد أن أستخدم دورة المياه النظيفة كي أغسل بعض القذارة والسخام عن وجهي.

أولى محــاولاتي في الــبحث عن الطعام ناجحة تماماً. أجلس على مــصطبة خشبية خضراء في الخارج، وأتغدى برضا على السندويشات نــصف المأكــولة لبرجر بالخضار، بعض الشذرات من لحم الدجاج، علبــتان مليئتان تقريباً من البطاطا المقلية ونصف كوب من سفن آب. البحث عن الطعام هو جزء من عدة البقاء لدى طفل الشارع. عرفتُ

(1) جهولــي بهاتور chhole bhature: وجبة سريعة شعبية في شمال الهند من مقاطعة بنجاب، تتكون من الحمص المسلوق والخبز المسطح المقلي – م.

بعــض الــصبيان الــذين اعتادوا العيش على البقايا التي وجدوها في المقصورات مكيفة الهواء في إكسبرس راجدهاني. هنالك آخرون أدمنوا تناول بيتزا بيبروني من بيتزا هات، يفلحون في استخلاص سبع أو ثمان شرائح على الأقل كل مساء من الصندوق الكائن عند المخرج. لكنهم جمــيعاً وافقــوا علــى أن أسهل طريقة لتناول وجبة طعام مجانية هي الانــضمام إلى مــوكب زواج. اعــتاد سالم أن يكون خبيراً في هذا. المــتطلب الوحيد هو أن ترتدي ثياباً نظيفةً وتنتعل حذاءً مناسباً. تختلط مع الضيوف وبعدها تتراصف مع المدعويين لتناول طعام المائدة وقوفاً. أقــارب العــروس يعتقدون أنك من أقارب العريس وأقارب العريس يعــتقدون أنك من أقارب العروس. يمكنك أن تشرب عشر أو خمس عــشرة قنيــنة من الشراب، تتناول ما لذ وطاب من الأطعمة وتتمتع بطــيف واسع من الحلويات. يمكنك حتى أن تنسل هارباً مع مجموعة جمــيلة مــن سكاكين المائدة المصنوعة من الفولاذ. امتلك سالم طقماً كــاملاً تقريباً من أدوات الطعام. لكنه تخلى عن هذه العادة بعد حادثة وقعــت في ناريمــان بوينت، حين حضر زواجاً من دون دعوة حيث كانــت أسرتا العروس والعريس تتشاجران شجاراً قوياً، وصل إلى حدّ تبادل اللكمات. ضُرب سالم ضرباً مبرحاً من كلا الطرفين.

بعد أن أشبعتُ جوعي، قررت أن أستكشف هذه المدينة المجهولة. أمــشي عــبر أزقتها المزدحمة، المليئة بالجنركشات، والمشاة، والأبقار. أعجــب بالتعريــشات المعقدة على الهافلات[1] عتيقة الطراز، استمتع برائحة الطعام المنتشرة من مطاعم الكباب على جانب الطريق والطعام

(1) الهافلات havelis: في شمال الهند تكثر الهافلات المخصصة لكريشنا وهي ذات بناء أشبه بالقصر وتمتاز باللوحات الجصية – م.

النـباتي الخـالص من مطاعم الطرقات الخارجية وهي بسيطة ومرتجلة، وأجعّـد أنفـي حينما أشم الرائحة النتنة المنبعثة من المجاري المكشوفة ومدابغ الجلود. أقرأ الملصقات العملاقة الملصقة في كل مكان خالٍ، التي تحـث الـناس علـى مشاهدة أفلام سينمائية جديدة أو على انتخاب سياسيين كبار السن. أرى حرفيين هرمين وذابلين يجلسون في دكاكين متداعـية، يقومون بتصاميم رائعة على الرخام، وبائعين شبان متهورين يبـيعون الأجهزة النقالة في حجرات العرض مكيفة الهواء. أكتشف أن أثرياء أغرا لا يختلفون عن أثرياء دلهي ومومباي، يقيمون في منازلهم مع حـراس وأجهزة إنذار. وأن أحياء الفقراء في أغرا لا تختلف أيضاً عن نظيراتها في دلهي ومومباي. إنها تتكون من المجموعة نفسها من الصفائح الحديـد المتموجة المتنكرة باعتبارها سقوفاً؛ نفس الأطفال العراة ذوو الـبطون الضخمة يمرحون في الوحل، فيما تغسل أمهاتهم الأواني بمياه البالوعات.

أسـير بمحاذاة طريق متعرج مغبر، وعلى حين غرة أرى نهراً. إنه أخـضر ضارب إلى الإصفرار وموحل. مستوى الماء المتراجع يشير إلى حقـيقة أن موعد الرياح الموسمية لم يحن بعد. قطع من الخشب الطافي وحطـام البلاستيك تعوم في تياراته المدوِّمة. في مكان آخر أتتبع مجراه الملتوي بأم عينيّ، أنحني كي أرى علامة أعلى مستوى للماء في الضفة، أمد عنقي كي ألمح جيفة تطفو على سطحه. إنما ليس هنا، ليس الآن. لأن عـينيّ تتحجران عند شيء شاهدته على الضفة الأخرى. إنه مبنى أبيض يرتفع من قاعدة مربعة كقبة منتفخة، ذو أقواس مدببة وحجرات في تجاويـف. تحيطه من الجوانب الأربعة كلها منارات أشبه بالرماح. يـشع في ضوء الشمس إزاء السماء الفيروزية كقمر من عاج. يهزمني جماله الأخاذ.

ألـتفت إلى أول عابر سبيل أراه، وهو رجل متوسط العمر يحمل صـندوق غداء. "معذرةً، هل يمكنكَ أن تخبرني ما هو ذاك المبنى على الناحية الأخرى من النهر؟".

ينظر إليّ كما لو كنتُ مجنوناً. "معذرةً، إذا لم تكن تعرف ذلك، ما الذي تفعله في أغرا؟ ذاك هو تاج محل، أيها المغفل".

تاج محل. عجيبة الدنيا الثامنة. سمعتُ عنه، لكنني لم أرَ صورته من قـبل. أقـف مسمراً بالقرب من الصرح فيما تعرج السحب برفق في السماء ملقـيةً الظلال على قبته، تغير الضوء يحوّل الرخام الناعم من اللـون الكريمي الباهت إلى لون المغرة الصفراء إلى الأبيض المرمري. إن فقدان الخمسين ألف روبية خاصتي، والقلق المتعلق بأين أتناول طعامي لاحقـاً، وأين أنام لاحقاً، والخوف من أن تلقي الشرطة القبض عليّ، باهتةً في تفاهتها مقارنةً بصفاء جماله. أقرر وقتذاك وهناك أنه يجب عليّ أن أرى تاج محل اليوم. عن كثب.

ثلاثون دقيقة من المشي السريع على طول الضفة توصلني إلى بوابة المدخل الضخمة المشيدة من حجر رملي أحمر. لوحة بيضاء كبيرة تشير إلى: رسـم دخول تاج محل، الهنود عشرون روبية، الأجانب عشرون دولاراً. أيـام الاثنين مغلق، أيام الجمع مجاناً. أنظر إلى ساعة معصمي علامـة كاسيو ذات التاريخ - اليوم. تشير إلى الجمعة، الثاني عشر من حزيران. يبدو أن الحظ يقف إلى جانبـي اليوم.

أجـتاز كاشـف المعادن، أعبر الفناء الأمامي المشيد من الحجر الرملي الأحمر بمدخله المقوس وهناك يشمخ تاج محل بكل جماله وبهائه أمامـي، وامـضاً في سديم ما بعد الظهر. أشاهد الحديقة المزينة ذات النافورات والممرات الواسعة، البركة العاكسة مع صورة للتاج ترقص في مائها، وحينذاك فقط ألاحظ الحشود الفائضة. تاج محل يعج بالسياح،

شباناً وشيوخاً، أثرياء وفقراء، هنوداً وأجانب. ثمة ومضات كاميرات في كل حدب وصوب، ثرثرة أصوات ترتفع في الفناء، في حين أن رجال الشرطة بوجوههم الصارمة، وهراواقم التي يستخدمونها ببراعة، يحاولون أن يحافظوا على النظام.

بعد نصف ساعة من التحري عديم الهدف، ألاحظ مجموعة من السياح الغربيين الأثرياء مزودين بالكاميرات الرقمية والفيديوية، يصغون بتركيز إلى مرشد كبير السن عند أسفل القبة. أنضم إليهم بحذر. يشير المرشد إلى القبة الرخامية، ويتكلم بصوت خشن مثير للأعصاب. "لقد شرحتُ لكم السمات المعمارية للفناء الأمامي المشيد من الحجر الرملي الأحمر الذي مررنا به تواً. الآن سأروي لكم قليلاً عن تاريخ تاج محل.

في يوم من أيام سنة 1607، كان الأمير خورام من الأسرة المغولية الملكية يتجول في مينا بازار في دلهي حين لمحَ فتاةً تبيع الحرير والخرز في كشك صغير. شعر بنشوة كبرى لدى رؤيته جمالها الباهر بحيث إنه وقع في غرامها على الفور. إنما استغرق الأمر خمس سنوات قبل أن يتمكن أخيراً من الزواج بالفتاة. كان اسمها الحقيقي أرجومان بانو، لكنه منحها الاسم الجديد: ممتاز محل. كانت في ربيعها التاسع عشر وقتذاك وكان هو في العشرين. ممتاز وخورام تزوجا سنة 1612، وعلى مدى السنوات الثمانية عشرة التالية كان لهما معاً أربعة عشر طفلاً. كانت ممتاز رفيقة زوجها التي لا تنفصل عنه في كل رحلاته وحملاته العسكرية. كانت مستشارته، وألهمته أعمال الخير والإحسان نحو الضعفاء والمحتاجين. توفيت في أثناء ولادة طفلها الأخير في السابع من حزيران سنة 1630، في برهانبور، بعد ثلاث سنوات فقط من ارتقاء خورام عرش المغول بوصفه الإمبراطور شاه جهان. حين كانت ممتاز محل تعاني سكرات الموت انتزعت أربعة عهود من الإمبراطور: أولاً، أن

يقيم نصباً يليق بجمالها؛ ثانياً، ألا يتزوج مجدداً؛ ثالثاً، أن يكون عطوفاً مع أولادهما؛ ورابعاً، أن يزور ضريحها في ذكرى وفاتها. موت ممتاز جعل الإمبراطور كسير القلب بكل ما للكلمة من معنى بحيث إن شعره كما قيل انقلب رمادياً بين عشية وضحاها. كان حب الإمبراطور لزوجته كبيراً جداً بحيث إنه طلب أن يُشيد أجمل مبنى حجرياً على وجه الأرض لها، وأن يشتمل على ضريحها. بدأ العمل في سنة 1631. استغرق بناؤه اثنين وعشرين عاماً وتطلب جهوداً متظافرة لأكثر من عشرين ألف حرفي وفنان من بلاد فارس، والإمبراطورية العثمانية، وحتى أوروبا، والنتيجة هي ما ترونه أمامكم، تاج محل، الذي وصفه رابندارناث طاغور بوصفه *قطرة دمع على خد الزمن*".

ترفع فتاة صغيرة ذات سروال قصير مثير يدها قائلةً: "معذرةً، من هو طاغور؟".

يجيب الدليل: "كان شاعراً هندياً شهيراً جداً، نال جائزة نوبل. يمكن مقارنته بوليم ووردز ورث".

"وليم من؟".

"لا يهم. الآن، كما كنتُ أقول إن التركيب المعماري لتاج محل يتألف من خمسة عناصر رئيسة: الدروازة وهي المدخل الرئيس، باغيجا أو الحديقة، المسجد أو الجامع، ناكار خانة أو دار الاستراحة، والروضة أو المبنى الحجري الرئيس الذي يضم ضريحها. الضريح الحقيقي يقع داخل التاج الذي سنراه في غضون دقيقة. هناك سأريكم أسماء الله التسعة والتسعين على ضريح ممتاز، وعلبة قلم الحبر الموضوعة في ضريح شاه جهان، وهي السمة البارزة لحاكم ذكر. هذه النُصُب التذكارية وفق التقليد المغولي، هي مجرد تمثيل للقبور الحقيقية، التي تقع في المواقع نفسها في سرداب غير مزخرف ورطب تحت الأرض. مساحة المبنى 57

متراً مربعاً بحسب الخارطة. القبة الداخلية الوسطية بارتفاع 24,5 أمتار وقطـــرها 17,7 أمـــتار، وتعلوها محارة خارجية يبلغ ارتفاعها 61 متراً تقـــريباً. المنارات في الجهات الأربع بارتفاع 40 متراً. سترون كم هو معقـــد العمــــل الفني لذلك الزمن، لأنه حتى العنصر الزخرفي بقياس 3 ســــنتيمترات يحـــتوي على أكثر من 50 حجراً كريماً مرصعاً. وكذلك لاحظـــوا أن حـــروف الآيات القرآنية المحيطة بالمداخل المقنطرة تبدو متناسقة، بغض النظر عن علوها.

بوصـــفه نُـــصباً للحب الثابت، يكشف تاج محل أشياءه الرقيقة لأولـــئك الذين يعرفون كيف يقدرون الجمال. ستلاحظون أن القاعدة المـــستطيلة للتاج ترمز بحدّ ذاهّا إلى الجوانب المختلفة التي يُنظر منها إلى المـــرأة الحسناء. البوابة الرئيسة أشبه بخمار على وجه امرأة، الذي يجب أن يُرفع برقة وبطء شديدين في ليلة العرس. كجوهرة، يتلألأ التاج في ضوء القمر حين تلتقط الأحجار شبه الكريمة المطعمة في الرخام الأبيض في المـــبنى الرئيس وهج القمر. التاج ضارب إلى اللون الرمادي صباحاً، أبيض حليبـــي مساءً وذهبـــي حين يشع القمر. يقال إن هذه التغيرات تـــصف الأمزجة المختلفة للمرأة. سآخذكم الآن إلى داخل المبنى. من فضلكم اخلعوا أحذيتكم وأودعوها هنا".

يخلـــع السياح أحذيتهم ويدخلون المبنى الرئيس. أبقى في الخارج، أحاول أن أقارن الألوان المتبدلة على القبة مع ما رأيته من أمزجة نيليما كوماري المتغيّرة.

شخص ما يربت برفق على كتفي. أدور على عقبيّ لأرى أجنبياً يـــضع نظارة، مع زوجة وطفلين ينظرون إليّ. هو مزود بمستلزمات من كل الأنواع من الكاميرا الرقمية والكاميرا الفيديوية إلى ما عدا ذلك.

يسألني: "معذرةً، هل تتكلم الإنكليزية؟".

أرد عليه: "نعم".

"مـــن فـــضلك، هل يمكنكَ أن تروي لي قليلاً عن تاج محل. نحـــن ســـياح مـــن اليابان. نحن جديدون على مدينتك. أتينا اليوم تحديداً".

أشعر أنني أرغب في أن أقول له إنني أيضاً جديد على هذه المدينة وإنـــني كذلك أقبلتُ اليوم حصراً، إلا أن وجهه الفضولي يتوسل إليّ. مقلّـــداً النبرة الجدّية للدليل، بدأتُ أروي له ما أتذكره. "شُيد تاج محل من قبل الإمبراطور شاه جهان لزوجته سنة 1531. التقاها فيما كانت تبـــيع الأساور في حديقة ووقع في غرامها، لكنه لم يستطع أن يتزوجها إلا بعـــد مرور تسعة عشر عاماً. بعدها حاربت معه في معاركه كلها ومنحته ثمانية عشر طفلاً في أربعة عشر عاماً"(1).

يقاطعني الياباني قائلاً: "ثمانية عشر طفلاً في أربعة عشر عاماً فقط؟ هل أنتَ متأكد؟" يسأل بصورة حيية.

أوبخه قائلاً: "بالطبع. لا بد أن بعضهم كانوا توائم، كما تعرف. علـــى كـــل حـــال، خلال ولادة الطفل التاسع عشر، تموت ممتاز في ســـلطانبور في السادس عشر من حزيران. لكنها قبل أن تفارق الحياة طلـــبت من الإمبراطور أربعة عهود. أولاً أن يبني لها تاج محل، ثانياً أن يرعـــى أولادهمـــا، ثالثاً أن يجعل شعره أشيب... ورابعاً... لا أتذكر، لكـــنها ليـــست مهمة. الآن، كما ترى، تاج محل يتكوّن من مدخل، حديقة، دار ضيافة، وضريح".

يومـــئ الـــياباني برأسه بحماسة. "نعم. نعم. لقد شاهدنا المدخل والحديقة. الآن نرى الضريح. لكن أين هو دار الضيافة؟".

(1) المعلـــومات التـــي يوردها البطل – الراوي غير دقيقة، يرجى ملاحظة ذلك – م.

أعـــبس بوجهه. "ألم أقل لكَ إن الأضرحة الحقيقية تحت الأرض؟ لذلك كل المساحة التي فوق الأرض لا بد أن تكون دار الضيافة. الآن في داخـــل المبنى سترى ضريحي ممتاز والإمبراطور. لا تنسَ أن ترى قلم الحبر ذا الأحجار الكريمة التسعة والتسعين عليه، تذكر أن القبة بارتفاع 160 متـــراً ويبلغ علو المنارات سبعة عشر متراً. كذلك، حين تنظر إلى تاج محل من زويا مختلفة ستشاهد خمارات مختلفة لامرأة في ليلة عرسها. اذهـــب وجـــرّب. قـــبل أن أنسى، لا بد لي أن أقول لك إن طاغور، شاعرنا ذائع الصيت، الذي نال جائزة نوبل عن أشعاره حول تاج محل، أسماه: صفعة على خد وليم ووردز ورث".

"حقاً؟ يا سلام! إنه شيء مسلٍّ جداً. كتاب الدليل لا يذكر كل هذا". يلتفت إلى زوجته ويتحدث إليها بيابانية سريعة الطلقات. بعدها يتـــرجم مـــن أجل فائدتي. "أقول لزوجتي إنه شيء حسن أننا لم نتخذ دليلاً رسمياً غالي الأجر. لقد رويت لنا كل شيء بصورة لطيفة جداً". يبتـــسم لي بابتهاج. "نشكرك جزيل الشكر، أريغاتو"(1). ينحني ويدس شـــيئاً ما في يدي. أنحني أيضاً راداً له تحيته. فيما هو يبتعد أفتح قبضتي كـــي أرى ورقة مالية جديدة مجعدة من فئة الخمسين روبية. عن عمل استمر خمس دقائق لا غير!

أعـــرف الآن شيئين: أنني أرغب في البقاء في مدينة تاج محل، ولا مانع لديّ من أن أكون دليلاً سياحياً.

يـــبدأ الغسق بالهبوط في الوقت الذي أنتزع فيه نفسي أخيراً من النـــصب الرخامي، المغطى الآن بلون ضارب إلى الإحمرار. يلزمني أن أجـــد مكانـــاً كي أمكث فيه. أدنو من غلام صغير السن في الشارع،

(1) أريغاتو Arigato باليابانية: شكراً – م.

وأبـــادره بـــالكلام. هو في عمري تقريباً، ويرتدي قميصاً قطنية بيضاء اللـــون، وسروالاً قصيراً رمادياً، وينتعل خفاً أزرق من خفاف هاواي. يقـــف بلا حراك، يشاهد مشاجرةً في الشارع. أربت برفق على كتفه. أقـــول: "من فضلك". يستدير على عقبيه، ويتطلع إليّ بعينين عطوفتين جـــداً لم أرَ مثـــيلاً لهما في حياتي كلها. أحس بالصداقة، والفضول، والدفء، والترحيب في العينين البنيتين المعبرتين. أكرر: "من فضلك. أنا جديـــد على هذه المدينة. هل يمكنكَ أن تريني مكاناً أستطيع أن أمكث فيه؟".

يومئ الغلام برأسه قائلاً: "Uzo Q Fiks X Ckka Lgxyz".

أقول: "معذرةً؟".

يكـــرر قـــائلاً: "Ykh Sqpd Hz. Q Fiks X Ckka Lgxyz". ضارباً كفيه.

"معذرةً، أنا لا أفهم هذه اللغة. أنا آسف على إزعاجك. سأسأل شخصاً آخر".

"Ejop Bkggks Hz"، يصرّ على القول ويأخذ ذراعي. يبدأ بسحبـــي في اتجاه السوق، أفكر في أن أتحرر منه، إلا أن وجهه الودود جداً يجعلني أسمح لنفسي أن أُقاد. يمشي هو بطريقة خاصة، على رؤوس أصـــابعه تقريباً. يأخذني عبر ممرات جانبية متاهية ضيقة وأزقة ملتوية، وبعد خمس عشرة دقيقة نبزغ أمام قصر كبير. قلعة سوابنا تشير لوحة الاســـم النحاســـية المجاورة لباب حديد ضخم. يُفتح الباب وندخل. للقصر طريق خاص مقوس، مرج واسع ذو أرجوحة غوجاراتية مطلية وفـــيه نافورة. أرى بستانيين يكدحان على الحشائش. سيارة كونتيسا قديمـــة تقـــف على الطريق الخاص للقصر، يصقلها سائق يرتدي بذلة نظامية. واضح أن صديقي معروف لشاغلي القصر، لأن أحداً لم يوقفه

فـــيما هـــو يأخـــذني إلى الطريق الخاص المؤدي إلى المدخل الخشبـــي المزخرف للمنـــزل، ويضغط على زر الجرس. تفتح الباب خادمة داكنة البـــشرة، شابة، حسنة المظهر. تتطلع إلى صديقي وتخاطبه قائلةً: "هذا أنتَ، شانكار. لماذا تأتي إلى هنا المرة تلو المرة؟ أنتَ تعرف أن المدام لا تحبذ أن تأتي من هذا الجانب".

يشير إليّ شانكار قائلاً: "Dz Izzao X Nkkh".

تتفحـــصني الخادمة من أعلى إلى أسفل. "إذاً أتى بكَ شانكار إلى هـــنا بوصفكَ نـــزيلاً جديداً؟ لا أعتقد أن هنالك غرفة خالية في المبنى الملحق، لكنني سأستدعي المدام". تختفي داخل المنـــزل.

تظهـــر تواً امرأة متوسطة العمر عند المدخل. تلبس سارياً حريرياً نفيـــساً، وتضع أطناناً من المجوهرات الذهبية. وجهها مكسو بمساحيق التجمـــيل. ربما كانت جميلةً في سنوات شبابها، إنما، على خلاف نيليما كوماري، فقد وجهها بريقه. فضلاً عن ذلك كانت لها شفتان ذابلتان تجعلانها تبدو قاسيةً نوعاً ما. كرهتها بشكل فطري.

يغـــدو شانكار مستثاراً جداً لدى رؤيته المرأة. " Q Gkrz Ukj Hijhhu"، يقول بابتسامة عريضة لكن المرأة لا تكترث لوجوده. "من أنتَ؟" تسألني، ناظرةً ملياً إلى ثيابـــي. "ولماذا أتيتَ مع شانكار؟".

بدأتُ أذوي تحت نظراتها الفاحصة.

"اسمـــي راجو شارما" أقول. ما من حاجة إلى أن أستخدم أياً من أسمائـــي الحقيقية في هذه المدينة. ليس بعد قتلي لرجل مجهول في أحد القطارات.

"إذاً أنتَ براهمي؟" تسألني، وتغدو عيناها مرتابتين أكثر. كان يجـــب عليّ أن أدرك أن براهمياً داكن البشرة سيكون شيئاً جديداً، غير مألوف.

"نعـــم. أنا جديد على أغرا. أتيتُ لأسأل هل من مكان أقيم فيه؟".

لدينا مبنى ملحق حيث نُبقي فيه النـــزلاء". ألاحظ أنها تستخدم (نـــا) ضمير الجمع. "الآن تحديداً لا تتوفر حجرة، لكنك إذا استطعت الانتظار، يمكننا أن نرتب لكَ غرفةً. إنها تكلفك أربعمائة روبية شهرياً، علـــى أن يُدفـــع بدل الإيجار كاملاً في بداية كل شهر. إذا كان هذا مقبولاً بالنسبة إليك، لاجوانتي، يمكنها أن تريك المبنى الملحق. إنما يجدر بك أن تدبر حالك في مكان ما على مدى أسبوع".

أجيـــبها بالإنكليـــزية: "شكراً، مدام. سآخذ الغرفة وسأدفع لك الأربعمائة روبية الأسبوع المقبل".

تلقي عليّ المرأة نظرات حادةً حالما أتكلم الإنكليزية، تلين ملامحها القاســـية بعـــض الشيء. "ربما يمكنكَ أن تقيم مع شانكار على مدى أسبوع. لاجوانتي، أره المبنى الملحق".

هذه هي نهاية الحوار، الذي دار عند الباب.

ترشدني لاجوانتي إلى المبنى الملحق، الذي يقع خلف القصر مباشرةً والـــذي أكتـــشف أنه المعادل الهندي الشمالي للمبنى السكني. له فناء ضـــخم مرصـــوف بكبار الحصى، ذو حجرات مترابطة شُيدت كلها حـــول الحافة. لا بد أنه كانت هنالك ثلاثون حجرة في المسكن. تقع حجـــرة شـــانكار تقريباً في منتصف المجاز الشرقي. يفتح قفل الباب، وندلـــف إلى الـــداخل. ثمة سرير واحد فقط وخزانة مدفونة في أحد جـــدران الحجـــرة، وبالقرب منها، مطبخ صغير جداً، كما في مبنانا الـــسكني في جاتكـــوبار. دورات المـــياه مشاعية وتقع في نهاية المجاز الغربـــي. الاستحمام يمكن القيام به فقط في وسط الفناء، تحت صنبور محلـــي، على مرأى تام من نـــزلاء المسكن. تشير لاجوانتي إلى حجرتها

هـــي. ثماني حجرات قبل حجرة شانكار. والحجرة التي سأحصل عليها في بحر أسبوع أربع حجرات بعد حجرة شانكار.

قـــبل أن تعـــود لاجوانتي إلى القصر، أطرح عليها سؤالاً سريعاً. "معذرةً، لكن من هو هذا الغلام شانكار؟ التقيته تواً أمام تاج محل".

تتـــنهد. "إنه غلام يتيم يقيم هنا. نحن كلنا مولعون به. المسكين لديه مشكلة ما في دماغه ولا يستطيع أن يتكلم كلاماً معقولاً، إنه فقط يطلـــق كلمـــات لا معنى لها، إنه يطوف حول المدينة بلا هدف طيلة الـــنهار. إن شـــفقة المدام هي التي خصصت له حجرة مجانية، وتعطيه كـــذلك بعـــض النقود كي يشتري الطعام. بخلاف ذلك كان رجال المصح العقلي سيأخذونه منذ زمن طويل".

أُصـــبتُ بصدمة. بدا لي شانكار غلاماً ذكياً، عنده فقط عيب في الكـــلام. أغلب الظن تقديري للمدام هو أيضاً بعيد عن الهدف. كونها تعطـــي إحـــساسها إلى شانكار، لا تستطيع أن تكون صارمةً كما يبدو عليها. "والمدام. اروي لي مزيداً عنها"، أسأل لاجوانتي.

مـــثل مـــؤرخ بلاط يروي نسب إمبراطورة، تشرح لي لاجوانتي الـــسلالة المؤثرة لمستخدمتها. "اسمها الحقيقي الملكة سوابنا ديفي. لكننا نـــسميها المـــدام أو *الـــصاحبة* راني. كان والدها ملك الدولة الأميرية جمغـــرة، راجـــا شفيناث سنغ، من سلالة راثوري الحاكمة. من ناحية الأم، كـــان جدها ملك دهاريلا، قرب أغرا، راجا رافي براتاب سنغ، وهـــو المالـــك الأصلي لهذا القصر. حين كانت لا تزال في العشرين، تـــزوجت ســـوابنا ديفي من ابن ملك بهادوهي، كونوار براتاب سنغ، الـــذي ينتمي إلى سلالة غوتام الحاكمة، وانتقلت إلى بيناريس، حيث كانـــت العائلة تملك قصراً. لسوء الحظ، زوجها، الأمير الشاب، توفي خـــلال ســـنتين فقط من الزواج، لكنها لم تتزوج مجدداً. استمرت في

الإقامـــة في بيناريس اثنتي عشرة سنةً أخرى. خلال ذلك مات جدها راجـــا رافي بـــراتاب سنغ مورثاً هذا القصر بوصية لها. لذا انتقلت إلى أغرا، وسكنت هنا على مدى السنوات العشر الماضية".

أسألها: "وماذا عن الأطفال؟".

تهـــز لاجوانتي رأسها. "كلا. ليس لديها، لذا فهي تشغل نفسها بالأنـــشطة الخيرية والمناسبات الاجتماعية. على الأرجح هي أغنى امرأة في أغرا ولها صلات قوية جداً. مفوض الشرطة وحاكم المقاطعة يأكلان في منـــــزلها أسبوعياً، لذلك خير لك ألا تفكر في السكن هنا من دون أن تدفـــع بدل الإيجار. إذا لم تدفع لها الإيجار في الشهر الأول، ستكون مطروداً في الشهر الثاني. خير لك أن تفهم هذا صراحةً".

ذلـــك المـــساء، يطهو شانكار الطعام لي ويلح عليّ أن أنام على سريره. ينام هو على الأرض الحجرية الصلبة. هذه الشفقة تستدر الدمع من عينيّ. إن حقيقة كونه يتيماً مثلي تكون باعثة على صلة عميقة بيننا. صلة أبعد من الصداقة. أبعد من الرفقة. أبعد من الكلمات.

تلك الليلة يهطل المطر في أغرا.

يلزمني أن أدفع أربعمائة روبية للمدام في غضون سبعة أيام لذا لم أبـــدد وقـــتاً في اكتساب المعرفة التي لها صلة بمهنتي المفضلة. الخمسون روبية التي بحوزتي أهلتني للدخول إلى التاج على مدى يومين، وأقرضني شـــانكار عشر روبيات كي أدخل في اليوم الثالث أيضاً. أتسكع حول مجمـــوعات من السياح الغربيين، استمع إلى المرشدين الذين يتحدثون الإنكليـــزية، وأحـــاول أن أحفظ عن ظهر قلب أكبر عدد ممكن من الحقائق والأرقام المذكورة. لم يكن الأمر عسيراً جداً، جزئياً لأنني ألجأ إلى تـــاج محل مثلما يلجأ النشال إلى حافلة مزدحمة. ربما الأمر يجري في

دمـــي. ربما تكون ممتاز محل واحدة من أسلاف أمي. وربما كان أبـــي ينحدر من أصل مغولي. على كل حال، في اليوم الرابع التقطتُ معرفة كافـــية عـــن تـــاج محل كي أطمع إلى الانضمام إلى مراتب مئات من المرشـــدين غير المرخص لهم في أغرا. أتسكع حول المدخل ذي الحجر الرملـــي الأحمر، وأقدم خدماتي للسياح الأجانب الذين أقبلوا لمشاهدة التاج حتى في حر حزيران الخانق. كان أول زبائني مجموعة من طالبات جامعيات شابات من إنكلترا ذات كُلف، أصغين بانتباه إليّ، لم يطرحن علـــيّ أسئلةً صعبةً، أخذنَ كثيراً من الصور الفوتوغرافية وأعطينني ورقة مالـــية فئة عشر باونات. حين بدّلت الورقة المالية عند مكتب الصرافة وقـــتذاك فحسب أدركتُ أنني نلتُ سبعمائة وخمسين روبية، حتى بعد حسم العمولة البالغة ثلاثة بالمائة التي فرضها عليّ صاحب الصرافة. هذا المبلغ يكفي تقريباً لدفع بدل الإيجار للشهرين المقبلين!

انـــتقلتُ إلى حجرتي الخاصة في المبنى الملحق بعد مرور أسبوع، إنما خـــلال الأيـــام السبعة التي أمضيتها في حجرة شانكار عرفتُ أشياءً كثيرةً عنه. اكتشفتُ أن لغته لم تكن بربرة عديمة المعنى فقط... مع أن الكلمات تـــبدو هـــرائيةً بالنسبة إلينا، كانت بالنسبة إليه تحمل ترابطاً منطقياً داخلياً خاصاً. عرفتُ أيضاً أن الطعام الأثير لدى شانكار هو أرغفة الخبز الصغيرة والعـــدس. وكان يكره الباذنجان والكرنب. وليس لديه ولع بالألعاب. إنه يملك مهارات فنية فائقة ويستطيع أن يرسم شخصاً ما حتى أدق التفاصيل، ببـــساطة من الذاكرة. وأنه، على غراري، كان يحلم بأمه. في ليلتين سمعته يـــصرخ "مومي، مومي" في أثناء نومه. وعرفتُ أنه في أعماقه يملك القدرة على التكلم أكثر من المقاطع اللفظية غير المفهومة.

لا بد أن الإقامة معه تركت تأثيراً نفسياً عليَّ، لأنني أتذكر الحلم المتعلق بامرأة شابة طويلة القامة ترتدي سارياً أبيض اللون مع طفل بين

ذراعيها. الريح تعصف وراءها، فتجعل شعرها فاحم السواد يطير على وجهها، مخفياً إياه. يتطلع الطفل في عينيها ويقهقه بعذوبة، "ماما، ماما". الأم تفتح فمها كي ترد على الطفل، غير أن الصوت الوحيد الذي يخرج من بين شفتيها هو "Q Gkrz Ukj Hu Wxwu". يصرخ الطفل ويتشقلب من حضنها. أستيقظ من نومي، وأتأكد هل ما زال قادراً على التكلم.

خلال السنة التالية في أغرا، كسبتُ ثروةً من المعرفة عن تاج محل. عرفتُ تفاصيل خصوصية عن حياة ممتاز محل، مثل الحقيقة التي مفادها أن طفلها الرابع عشر الذي توفيت خلال ولادته، كان يُدعى غوهرار. حفظتُ عن ظهر قلب وصوفات مفصلة عن تشييد التاج، مثل أن خزانة الدولة زودت 466,55 كيلوغراماً من الذهب الخالص، الذي بلغت قيمته ستمائة ألف روبية في سنة 1631، وأن الكلفة الإجمالية للتشييد وصل إلى 41,848,826 روبية، سبع آنات[1] وست بايات[2]. نقبتُ في الجدول المتعلق بمن هو حقيقةً الذي شيد التاج والادعاء الكاذب لجيرونيمو فيرونيو، وهو صائغ إيطالي. اكتشفت ما يتعلق بأسطورة تاج ثانٍ ولغز حجرات السرداب وخبر ثالث محتمل كما ويمكنني أن أبدي رأياً في ما يتعلق بفن الفسيفساء[3]، المستخدم في الأنماط الزهرية على جدران التاج، والحدائق المخططة وفقاً لأسلوب

(1) الآنة anna: وحدة النقد السابقة في بورما والهند وباكستان وتساوي جزءاً من ستة عشر جزءاً من الروبية. يقال بالعامية العراقية عانة – م.

(2) باية pie: وحدة نقد هندية قديمة، حتماً قيمتها أقل من الآنة – م.

(3) الفسيفساء pietry dura: مصطلح فني تاريخي يتعلق باستخدام الأحجار الصغيرة المقطعة بشكل فاتن، والمفلترة، الملونة والمعقولة جداً لإحداث ما يُدعى الرسم بالحجر. تعد الفسيفساء فناً زخرفياً – م.

جار باغ[1] الفارسي. إن حقيقة كوني أتكلم الإنكليزية بطلاقة منحتني فــوراً أفــضلية. يحتشد حولي السياح الأجانب وفي الحال تذيع شهرة المرشـــد راجـــو. بيد أن هذا لا يعني أنني أصبحتُ خبيراً في تاج محل. كانت لديّ معلومة، إنما ليس معرفة. المرشد راجو ليس أفضل من ببغاء تلا بصورة صحيحة ما سمعه، من دون أن يفهم حقيقة كلمةً واحدةً.

بمرور الوقت، تعلمتُ أن أقول: "كونيجيوا"[2] للسياح اليابانيين و"دازفيدانـــيا"[3] للـــسياح الـــروس، "مـــوكاس غراسياس"[4] لمانحي (البقشيش) الإسبان و"هاودي"[5] للأميركيين حمر الأعناق. إنما للأسف الـــشديد، لم يكـــن لدي زبون أسترالي أستطيع أن أصفعه على ظهره قائلاً: "نهارك سعيد أيها الزميل، سأعطيك معلومات ممتازة إلى حدّ رائع عن هذا الضريح!".

بدأتُ أيضاً أكسب مالاً جيداً من السياح. ليست ثروة طائلة، إنما مبلغ يكفي لتسديد بدل إيجار غرفتي، وأن آكل في مطعم ماكدونالد أو بيتـــزا هات بين حين وآخر، وأستطيع أن أدخر شيئاً ما ليوم عصيب. عـــدا أن يوماً عصيباً يندر أن نجد له معنى بالنسبة إلى شخص عاش في العراء تحت سحابة موسمية معظم أيام حياته. خبرتُ كماً كبيراً جداً من المحن، مع الخوف المستمر في ذاكرتي من مجيء سيارة جيب ذات ضوء أحمـــر وامض في أي يوم من الأيام كي تعتقلني بسبب جريمة قتل لص مجهـــول الاسم أو قتل شانتارام أو حتى نيليما كوماري؛ شعرتُ بعدم

(1) جار باغ char bagh بالفارسية: الحدائق الأربع – م.
(2) كونيجيوا konichiwa باليابانية: عصراً سعيداً – م.
(3) دازفيدانا Dasvedanya بالروسية: مع السلامة، وداعاً – م.
(4) موكاس غراسياس muchas gracias بالإسبانية: شكراً جزيلاً – م.
(5) هاودي Howdy: كيف الحال. اختصاراً لـــ How do you do – م.

جدوى وضع خطط طويلة الأمد للمستقبل. عاملتُ النقود، هكذا، مثلما عاملتُ حياتي، بوصفها سلعةً قابلةً للاستهلاك. تأتي بسهولة، وتذهب بسهولة. وليس من العجيب، أنني أصبحتُ حالاً مشهوراً في المبنى الملحق بوصفي سهل الحصول على المال.

كان نزلاء المبنى الملحق خليطاً متنافراً: طلبة جامعيون فقراء من قرى نائية، موظفون حكوميون كتاب يؤجرون أسباب الراحة الرسمية خاصتهم بأسعار باهظة، سائقو قطارات، عمال مكوى، بستانيون، طهاة، منظفون، سمكريون، نجارون، شعراء. كثير منهم أمسوا أصدقائي. عشتُ وسطهم، توصلتُ إلى معرفة أن قصة شاه جهان وممتاز محل لم تكن الوحيدة في هذه المدينة الصغيرة الهادئة.

كانت لاجوانتي هي مجهزة الأخبار الرسمية للمبنى الملحق. كانت تتسمع إلى الأخبار وتعرف على وجه الدقة ماذا يجري في المحلة. كانت تعرف ضاربي الزوجات والزناة، السكارى والبخلاء، المتهربين من بدل الإيجار وآخذي الرشاوى. بالرغم من إخلاصها الجلي لمستخدمتها، لم تكن هي أيضاً كارهة لاقتسام بعض الأقاويل حول القصير. سمعتُ منها القيل والقال المتعلق بالماضي النابض بالحيوية لسوابنا ديفي. يُشاع أنه كانت لها قصة حب متقدّة مع شقيق زوجها المتوفي، كونوار ماهيندرا سنغ، لكنها تخاصمت معه وسممته حتى الموت. يقال كذلك إن علاقاتها الغرامية قصيرة الأجل نتجت عن ابنة غير شرعية في بيناريس. ماذا جرى للبنت، لا أحد يدري بالضبط، ويبدو أن أحداً لا يبالي بالأمر.

يقترب مني ذات مساء شاكيل، أحد الطلبة الفقراء المقيمين في المبنى الإضافي.

"ســـيد راجو، إذا لم يكن لديك مانع، هل يمكنني أن أطلب منك معروفاً"، يسألني بصورة حيية.

"نعم، شاكيل، ما هو؟" أرد عليه، مستشعراً غرض زيارته.

"في الحقيقة، والدي لم يكن قادراً على أن يبعث إليّ الحوالة المالية هذا الشهر بسبب الفيضان في القرية، وإذا لم أسدد رسوم الجامعة يوم الاثـــنين سيطردونني. من فضلك هل يمكنك أن تقرضني مائة وخمسين روبية؟ أعدك أن أعيدها إليكَ حالما أتسلم الحوالة المالية الشهر القادم".

"بالطـــبع، شاكيل. لقد أقرضت من قبل خمسين روبية لشاعرنا العظـــيم نجمي لغوبال، وقد احتفظتُ بمائة كي أشتري قميصاً جديدة. إنما حاجتك أهم من حاجتي، لذا خذها كلها".

دُعيـــنا شانكار وأنا من قبل لاجوانتي إلى حجرتها لتناول العشاء. هي غير متزوجة وتسكن وحيدةً في المبنى الملحق، إنما لديها أخت أصغر سناً تقيم في قرية تبعد نحو ثلاثين كيلو متراً عن أغرا. أول شيء ألاحظه في مـــا يتعلق بحجرة لاجوانتي هو ترتيبها المبالغ فيه. إنها أنظف حجرة شاهدتها في حياتي كلها. الأرضية الحجرية تم تلميعها إلى درجة التألق، ليس ثمة ذرة غبار، السرير مرتب جداً، وليس ثمة غضن واحد في ملاءة الـــسرير القطنية، ثمة أشياء صغيرة زينية معروضة على رف الموقد بدقة هندسية، كل شيء مرتب بصورة مزعجة. حتى المطبخ يبدو صحياً جـــداً بحيث إنني أكاد أتخيل السخام المنبعث من موقدها أبيض بدلاً مـــن أســـود. أجلـــس وشانكار على كرسيين؛ تجلس لاجوانتي على الـــسرير، مرتدية سارياً وردي اللون. تبدو فرحةً جداً وتخبرنا قائلةً إنها بـــدأت تبحث عن عريس مناسب لأختها، لاكشمي، التي يبلغ عمرها الآن تسعة عشر عاماً.

أســـألها: "لكن ماذا عنكِ؟ أليس من الواجب أن تتزوج الأخت الكبرى أولاً؟".

تجيب قائلةً: "نعم، يجب. لكنني لستُ مجرد أخت لاكشمي؛ لقد كـــنتُ والدها ووالدها منذ أن توفيّ أبوانا قبل خمسة أعوام خلت. لهذا السبب لا أستطيع أن أتصرف بصورة أنانية وأن أفكر في نفسي فقط. مـــا إن أزوّج شقيقتي، حتى تنتهي مسؤولياتي وبعدها أستطيع أن أبحث عن أميري".

"إذاً كيف ستفتشين عن عريسين مناسبين؟".

"وضـــعتُ إعلاناً تجارياً في دينيك أوجالا، الصحيفة الهندية، قبل شهرين، وبسبب بركات دورغا كانت الاستجابة جيدة جداً. انظر كم عـــدد الرســـائل الـــتي وصلت". تعرض رزمةً من الرسائل والمغلفات. تستخلص منها ست صور فوتوغرافية وترينا إياها. "قل لي، أي واحد من هؤلاء سيكون مناسباً للاكشمي؟".

أتفحـــص وشانكار العرسان المرتقبين ونجد عيباً في معظمهم. هذا يبدو هرماً جداً، هذا له ابتسامة كريهة، هذا قبيح المنظر، هذا له ندبـــة، صـــورة هـــذا تبدو أشبه بصورة فوتوغرافية لسجين، تبقى صـــورة واحـــدة تُظهـــر وجه شاب وسيم ذي تسريحة شعر أنيقة وشـــارب أســـود. "نعـــم، هـــذا الغلام يبدو أفضل الكل"، أقول للاجوانتي. شانكار هو الآخر يومئ برأسه بموافقة متحمسة. يقول: "Q Gqfz Pdz Wku".

لاجوانتي مسرورة باختيارنا. "إنه خياري أيضاً. ناهيكَ عن كونه أجمـــل الجميع، هو أيضاً أكثرهم تأهيلاً وينحدر من عائلة محترمة جداً. هل تعرف أنه موظف ذو درجة وظيفية عالية جداً؟".

"حقيقة؟ ماذا يعمل؟".

"إنـــه موظف مساعد في معمل تكرير قصب السكر في المقاطعة. ستعيش لاكشمي كالملكة معه. إذاً هل أبدأ مفاوضاتي مع عائلته؟ هل آخذ بركات دورغا كي أحرك العملية قُدُماً؟".

"بالطبع، من دون أي تأخير".

تقـــدم إليـــنا لاجوانتي وجبة طعام ممتازة ذلك المساء، مؤلفة من أرغفة الخبز غير المخمر والمقلية بالزيت النباتي، الكاجوريات، البطاطا، العدس، وموتار بانير[1]، على أطباق فولاذ نظيفة جداً يمكن استخدامها أيـــضاً كمرايا. أشعر تقريباً بالذنب بسبب أكلي طبخها الخالي من كل عيب، قلقاً من احتمال أن تصاب أطباقها بالخدش، لا أتمالك نفسي من أن أسألها: "لاجوانتي، كيف تنجحين بجعل منـــزلك مرتباً جداً ونظيفاً جداً؟ هل تحتفظين بخادمة؟".

تقـــدّر ملاحظـــتي. "لا تمـــزح معي. كيف تستطيع الخادمة أن تـــستخدم خادمة؟ أنا من يجعل هذا المنـــزل في نظام ممتاز. كانت هذه عـــادتي مـــنذ الطفولة. لا أستطيع الإقامة في منـــزل غير نظيف. تبدأ أصابعي توخزني في اللحظة التي أرى فيها ذرة قذارة على الأرض، قطعة طعام ملتصقة بمائدة الطعام أو غضناً على ملاءة السرير. اعتادت والدتي أن تقـــول: *لاجوانتي لا تستطيع أن تتحمل حتى ورقة تبرز بصورة غير صـــحيحة من شجرة*. لهذا السبب فإن *الصاحبة* راني سعيدة جداً معي. اسمعهـــا مصادفةً تقول لزوجة *الصاحب* المفوض ذات يوم أن لاجوانتي أفـــضل خادمـــة عملت لديها وأنها لن تسمح لي بترك العمل عندها".

تبتسم بابتهاج ينم عن الزهو.

(1) موتار بانير muttar paneer: طعام منكه بالكاري. يتألف من البازيلاء والحلوّم؛ وهـــو ضـــرب مـــن الجبن الأبيض. هذه الأكلة شائعة ومطلوبة كثيراً في المطاعم الهندية – م.

"أجـــل، أوافقك الرأي، لا بد أنكَ أكفأ خادمة في العالم بأسره. إنما الأفضل ألا تزوري حجرتي، وإلا ستمرضين".

يوافـــق شـــانكار كـــذلك علـــى أن لاجـــوانتي هي الأعظم. "Q Gkrz Gxesxipg" يقول بابتسامة عريضة فرحة.

آخـــر زبائني الدائمين اليوم أربعة طلبة جامعيين أثرياء من دلهي. إنهم مجموعة شابة، صخابة بسراويل جينـــز ونظارات شمسية مستوردة يدلون بملاحظات وقحة عن تاج محل، ينخسون أضلاع أحدهم الآخر باســـتمرار، ويطلقون نكاتاً فاحشةً. في نهاية الجولة الموجهة لم يمنحوني فقـــط أجرتي إنما بقشيشاً دسماً أيضاً. بعدها دعوني إلى الانضمام إليهم لتمضية ليلة في شاحنتهم المقفلة الصغيرة التي يقودها سائق. "أيها الدليل راجـــو، تعال معنا، سنمنحك وقت حياتك"، يتوسلون إليّ. أرفض في بـــادئ الأمـــر، لكنهم يصرون وأنا مدين جداً لهم ببقشيشهم السخي بحيث إنني لا أقدر أن أقول لا. أقفز إلى الشاحنة.

نـــذهب أولاً إلى فندق القلعة. هذه هي أول زيارة لي في حياتي كلـــها إلى فـــندق ذي خمـــسة نجوم. أجلس في مطعمه مكيف الهواء، وتسحرني ثرياته الوامضة، المضاءة إضاءةً مريحة للنظر، والنُدُل المرتدين بـــزات مميزة، والموسيقى الخفيفة المعزوفة على الآلات، والزبائن حسنو الهـــندام الذين ينضحون ثروةً وتأثيراً، الرجال يتكلمون بنبرات صوت منخفـــضة حميمة، والنساء أشبه بدمى رقيقة. الطعام يسيل له اللعاب. أحد الغلمان يمرر إليّ لائحة الأطعمة والمشروبات. "الآن، راجو. اطلب مـــا يحلـــو لـــك". ألقي نظرةً على اللائحة، وأكاد أختنق لدى رؤية الأســـعار. طبق الدجاج بالزبد يكلف ستمائة روبية! عند كشك على جانب الطريق بالقرب من المبنى الملحق أستطيع أن أشتري الشيء نفسه

بخمس وخمسين روبية لا غير. لكنني أدرك أنك هنا لا تدفع ببساطة عن ثمن الطعام، بل تدفع عن المحيط أيضاً. الطلاب يطلبون عملياً كل شيء في لائحة الأطعمة والمشروبات وزجاجتين من الشراب.

إن رؤيـــة هذا البذخ كله تجعلني مضطرباً ومرتبكاً. في مومباي، ســـالم وأنا نتطفل على أعراس الأغنياء من أجل الطعام المجاني، لكننا لا نحـــسدهم علـــى ثروتهم. غير أن رؤية طلاب الجامعة الأثرياء هؤلاء يـــنفقون المال كما لو كان ورقاً، يجعلني أحس إحساساً جديداً كلياً، الإحـــساس بالعوز. تقرصني المقارنة مع حياتي الشخصية الناقصة بقوة الأذى الجسدي. ليس من الغرابة، أن يذوي جوعي ويموت، بالرغم من أكـــداس الأطـــباق المغـــرية الموضوعة على مائدتي. أدرك وقتذاك أنني تغيرت. وأسائل نفسي كيف تكون الحال حينما تغادرك الرغبات لأنكَ أشبعتها كلها، خنقتها بالمال حتى قبل أن تولد. هل الحياة من دون رغبة مرغوبة جداً؟ وهل إن فقر الرغبة أفضل من منـــزلة الفقر نفسها؟ أفكر في هذه المسائل، لكنني لا أصل إلى أجوبة مقنعة.

بعـــد أن تـــناولوا كفايةً من الطعام وشربوا كفايةً من الشراب، يطلب مني الطلاب أن أقفز إلى الشاحنة المقفلة الصغيرة مرة أخرى.

أسأل: "إلى أين نحن ذاهبون؟".

"سترى"، يقولون ويضحكون.

يأخـــذنا الـــسائق عـــبر شوارع ضيقة، وأسواق مزدحمة صوب ضـــواحي أغرا. يدخل في الختام قريةً ذات مظهر غريب قرب الطريق السريع تُدعى بيساي موهالا. ثمة لوحة إعلانات في مدخلها تشير إلى: "ادخل منطقة الضوء الأحمر على مسؤوليتك الشخصية. تذكر دوماً أن تستخدم الواقي الذكري. امنع الإيدز. أنقذ الأرواح". لا أفهم الإشارة إلى الضوء الأحمر على لوحة الإعلانات، ليس ثمة أضواء حمراء على أي

من المنازل، على قدر ما أراه. هنالك ما لا يقل عن دزينة من سيارات متوقفة على طول الطريق. بعض الأطفال حفاة الأقدام يتسكعون في الشوارع؛ ليس ثمة علامة على أمهاتهم. الصوت الضعيف للموسيقى وخلاخيل الراقصات يطفو في جو الليل. في البعد، يمكنني أن أرى القبة.

المنائر الخاصة بتاج محل تومض تحت ضوء القمر الذهبي. هالة القمر ومنظر النصب الرخامي تصبغان حتى هذه الرقعة القذرة من الأكواخ وحيدة - وثنائية - الطابق بقليل من غبار الذهب.

يترجل طلاب الجامعة من شاحنتهم المقفلة، ويتوجهون صوب مجموعة من البنايات الصغيرة. أتردد، لكنهم يجرونني. أرى الآن أن المنطقة تزدحم بالناس. رجال ذوو مظهر وضيع يلبسون قمصان طويلة يتسكعون أمام المنازل، ماضغين أوراق التنبول. أرى فتيات في أعمار شتى يجلسن على الدرجات يلبسن فقط التنانير التحتانية والبلوزات، ويضعن مكياجاً سيئاً ومجوهرات. بعضهن يرسلن إلينا نظرات *تعال إلى هنا* ويقمن بإيماءات بذيئة وموحية بأصابعهن. الآن أفهم ما هي منطقة الضوء الأحمر. إنه المكان الذي تعمل فيه الساقطات. سمعتُ عن وجود طريق فالكلاند في مومباي وطريق GB في دلهي، إلا أنني لم أرَ فعلاً منطقة ضوء أحمر. ولم أكن حتى أعرف أن ثمة واحدةً من هذه المناطق في أغرا. هذه في الحقيقة ستثبت في النهاية إنها ليلة ذات تجربة جديدة بالنسبة إليّ.

يدلف الطلاب إلى داخل منزل كبير، ذي طبقتين، يبدو أقل قذارةً من المنازل الأخرى، متأكدين من أنني معهم. ندخل ردهةً، تقودنا منها مجازات ضيقة إلى مجموعات من الحجرات الصغيرة.

يلتقينا رجل. هو شاب، ذو وجه مليء بالندوب وعينين مراوغتين. يقول: "مرحباً بكم، أيها النبلاء، لقد أتيتم إلى المكان الصحيح. لدينا...".

يتشاور معه الطلاب، ويتفاوضون حول السعر. رزمة من الأوراق تبادلـــتها الأيدي. "لقد دفعنا عنك أيضاً، راجو. اذهب على نفقتنا"، يقولـــون، قبل أن يختفي كل واحد منهم في حجرة مع فتاة ما. تركوني وحـــيداً في الردهة. تأتي الآن امرأة عجوز تمضغ البآن وتأخذني معها. أتـــبعها مـــرتقياً مجموعة من درجات السلم. تقف أمام باب خشبـــي أخـــضر، وتقـــول لي أن أدخـــل بعدها، بخطوات متعبة، تمضي عائدةً وتنـــزل السلّم.

لا أســـتطيع أن أقـــرر هل أدخل الحجرة أم أعود إلى الشاحنة المقفلـــة الصغيرة. أحد أجزاء دماغي يقول لي أن أغادر المكان فوراً إنمـــا الجـــزء الآخر يجبرني على البقاء، مساقاً من قبل فضول جنوني تقـــريباً. في الأفلام الهندية شاهدتُ أن البطلة الساقطة هي بصورة محتومة فتاة طيبة القلب أُرغمت على هذه المهنة عكس مشيئتها. في نهاية الفيلم على الأغلب تنتحر بتناول السم. أسائل نفسي هل جيء بـــي إلى هنا لغرض ما؟ هل ثمة بطلة تنتظرني خلف الباب؟ هل أنا بطلـــها، الذي من المفروض أن ينقذها من المحنة. هل أستطيع تغيير النهاية وأحول دون موتها؟

أدفع الباب، فينفتح، وأدخل الحجرة.

إنها حجرة صغيرة، ذات سرير في الوسط. بشكل من الأشكال الأشـــياء المحيطة به لم تلفت انتباهي أبداً. تنجذب عيناي فقط إلى الفـــتاة الجالسة على الفراش بسارٍ وردي صارخ. هي داكنة البشرة وجمـــيلة، ذات عينين مكسوتين بالكحل محببتين إلى القلب، شفتين مـــصبوغتين مغـــريتين وشعر أسود طويل مجدول ذي أزاهير بيضاء فـــوّاحة. تضع على وجهها كميةً مفرطةً من مستحضرات التجميل وذراعاها وعنقها مزينة بالجواهر.

تقـــول: "هالـــو. تعـــال واجلس هنا معي على السرير". تنبعث الكلمات من فمها كما تنبعث الألحان الموسيقية من بيانو.

أدنو منها على مضض. تشعر هي بترددي وتبتسم. "لا تقلق. لن أعضك".

أجلـــس بالقرب منها على السرير. ألاحظ أن ملاءة السرير قذرة نوعاً ما، عليها لطخات وبقع غريبة.

تقول: "أنتَ جديد على هذا. ما اسمك؟".

"رام محمـــد تومـــ – لا، لا... راجو شارما"، أرد، ممسكاً نفسي في الوقت المناسب.

"يبدو أنكَ نسيتَ اسمكَ على مدى ثانية".

"كلا – كلا على الإطلاق. ما اسمكِ؟".

"نيتا".

"نيتا ماذا؟".

"ماذا تعني؟".

"عنيتُ ما هو اسمك الكامل؟ أليس لديك لقب؟".

تقهقـــه. "لقد أتيتَ إلى ماخور، أيها *الصاحب*، وليس إلى مكتب زواج. الفتـــيات هـــنا لا يملكـــن ألقاب، على غرار القطط والكلاب المدللـــة، نحن نُدعى فقط بأسمائنا الأولى. نيتا، ريتا، آشا، جامبا، مينا، ليـــنا، اختر ما شئتَ من الأسماء". تقول هذا بنبرة واقعية من دون أي ضغينة أو ندم.

"إذاً أنت ساقطة؟".

تـــضحك مجدداً. "أنتَ شخص غريب. معذرةً بابا، حين تأتي إلى بيساي موهالا لن تلتقي سوى الساقطات. أنتَ بالتأكيد لن تلتقي أمكَ وأخواتك في هذا الجزء من أغرا!".

"كم يبلغ عمركِ؟".

"الآن هذا سؤال له صلة أكثر بالموضوع. أنا في السابعة عشرة. لا تقل لي إنكَ تريد واحدةً أصغر سناً. أنتَ نفسك لا تبدو بالنسبة إليّ غلاماً يزيد عمره على ستة عشر عاماً".

"أنا أيضاً في السابعة عشرة. قولي لي، كم مضى على ممارستكِ هذا العمل؟".

"ما الفرق؟".

"ألا تقلقين من احتمال أن تصابي بمرض ما؟ هنالك لوحة إعلانات في المدخل تحذر من الإيدز".

تضحك من جديد ضحكةً جوفاء، فارغة. "انظر، هذه مهنة بالنسبة إليّ، وليست هواية. إنها تعطيني كفايتي كي أطعم نفسي وأفراد أسرتي كلها. لو لم أفعل هذا، لماتت عائلتي من الجوع منذ زمن طويل جداً. نحن نعرف عن الإيدز. إنما من الأفضل أن نموت من المرض غداً على أن نموت من الجوع اليوم، ألا توافقني؟ الآن هل ستستمر في طرح الأسئلة أم أنكَ ستفعل شيئاً ما؟ لا تلومني لاحقاً إذا ما انتهى وقتك، وأدخل شيام زبوناً آخر. أنا مطلوبة جداً".

"من هو شيام هذا؟".

"إنه قوّادي الذي أعطيته المال: الآن تعال...".

"لا. مهلاً. أود أن أطرح عليكِ أسئلة أخرى".

"معذرةً، هل أتيت إلى هنا كي تتكلم؟ أنتَ على غرار ذلك المراسل الصحفي الغربي الذي جاء إلى هنا مع آلة التسجيل الشريطي والكاميرا خاصته. قال إنه ليس مولعاً بي وإنه فقط يقوم ببحثٍ ما. لكنني لحظةَ... حتى نسي كل ما يتعلق ببحثه. الأصوات الوحيدة على مسجله الشريطي ستكون... دعني أرَ ما إذا كنتَ مثله".

بالفعل كنت مثله.

في ما بعد، حين كنا نستلقي جنباً إلى جنب تحت مروحة السقف الكسيحة وقد ساهمتُ أيضاً في إضافة لطخة إلى ملاءة السرير القذرة. أتنشق عبق الأزاهير في شعرها الأسود الفاحم وأقبلها بطريقة غير متقنة.

تقـــول لي: "لماذا لم تخبرني أنها تجربتكَ الأولى؟ لكنتُ أكثر وداعةً معك. إنما انصرف الآن، انتهى وقتك". تنهض من السرير فجأةً، وتبدأ بجمع قطع ثيابها.

تـــزعجني فظاظتها المباغتة. قبل خمس دقائق كنتُ عشيقها، لكن الآن أنـــا مجـــرد زبون انتهى وقته. أدرك حينذاك أن اللحظة قد مرّت حقيقةً. انتهت الدهشة، وأن الرغبة لم تعد تعميني، أرى الحجرة بألوانها الواقعـــية. أرى جهاز فيديو كاسيت عتيق الطراز على طاولة جانبية، مـــربوطاً إلى نقطة الكهرباء الرئيسة بسلك أسود قبيح. أرى الجدران العفنة ذات الطلاء المقشر. أرى الستارة الممزقة والحمراء التي بهتَ لونها عـــند النافذة. أرى البقع على الملاءة والثقوب في الفراش. أشعر بحكة طفـــيفة، ناجمة على الأرجح من العث الذي يغزو السرير. أشم الرائحة الفاســـدة، العفنة للحجرة. كل شيء الآن يبدو قذراً ورديئاً. مستلقياً على سرير متسخ، أشعر بأنني ملوّث ونجس. أنا، أيضاً، أنهض وبسرعة أجمع ملابسي.

"ماذا عن بقشيشي؟" تسألني، وهي تلبس بلوزتها من جديد.

أُخرج ورقةً ماليةً من فئة الخمسين روبية من محفظة الجيب خاصتي وأسلمها إليها. تدسها بعرفان جميل داخل بلوزتها.

تسألني: "هل ستأتي مجدداً؟".

"لا" أجيبها، وأغادر بعجالة.

لكن يبدو الجواب نعم سآتي مجدداً.

ثمة خوف من داء الكَلَب في المدينة. مات أطفال كثيرون بعد أن عضتهم كلاب مصابة. قسم الصحة ينصح المواطنين بأن يكونوا محترسين بصورة مفرطة وأن يتخذوا خطوات وقائية. أحذر شانكار: "كن يقظاً حين تذهب إلى الخارج. لا تقترب من أي كلب. فهمت؟".

يومئ شانكار برأسه.

جاء اليوم دور بيهاري الإسكافي. إنه الشخص الوحيد الذي لم يطلب مني النقود حتى الآن. "راجو، طفلي ناهي عليل جداً، وقد أُدخل عيادة الدكتور أغار وال الخاصة. يقول الطبيب إنه يلزمني أن أشتري الأدوية حالاً، وهي تكلف مبلغاً طائلاً. استطعتُ أن أجمع أربعمائة روبية حتى الآن. من فضلك هل تقدر أن تقرضني شيئاً ما؟ أتوسل إليك".

أمنح بيهاري مائتي روبية، عارفاً بأنني لن أسترجعها. لكنه مع ذلك غير قادر على شراء الأدوية كلها. بعد يومين، يتوفى ناهي ابن السنوات الست في العيادة.

مساء ذلك اليوم، يرجع بيهاري إلى المبنى الملحق مع جثة ابنه المغطاة بكفن أبيض. هو سكران بجلاء، ويسير بخطوات غير مستقرة. يضع جثة ابنه في وسط الفناء المكسو بكبار الحصى، قرب الصنبور المحلي، ويدعو الجميع من حجراتهم. بعدها يبدأ مونولوجاً مليئاً بذم غير واضح. لا يشتم أحداً بصورة خاصة ومع ذلك يشتم الجميع. يشتم الأغنياء الذين يسكنون في بيوتهم الفخمة ولا يبالون بالفقراء الذين يخدمونهم. يشتم الحكومة التي تعطي وعوداً على الورق فقط. يشتمنا كلنا لأننا متفرجون خُرس. يشتم أطفاله لأنهم وُلدوا. يشتم نفسه لأنه لا يزال حياً. يشتم العالم، تاج محل، الإمبراطور شاه جهان. حتى

المـــصباح الكهربائـــي المعلّق خارج منـــزله، الذي مسّه يوماً ما بتياره لناهي، بعد نصف ساعة من اللوم والهجوم القاسيين والمتواصلين، ينهار على الأرض ويبدأ بالنشيج. يحمل ابنه الميت في ذراعيه، ويبكي إلى أن تجف دموعه، إلى أن يضعف صوته.

في حجرتي الخاصة، أستلقي على سريري، وأفكر في شرور الحياة. تخطـــر بـــبالي صور ناهي الصغير وهو يمرح في المبنى الملحق. وأريد أن أبكـــي، لكن العبرات ترفض الجريان من عينيّ. رأيتُ جثثاً كثيرةً. لذا أجرّ الملاءة البيضاء المجعدة فوق رأسي وأخلد إلى النوم.

أزور نيـــتا مجدداً بعد أسبوع. هذه المرة ينبغي لي أن أدفع الأجرة الكاملة لشيام. ثلاثمئة روبية.

"إذاً هل تحبين مهنتك؟" أسألها.

"لماذا؟ ما هو الخطأ في الأمر؟ إنها مهنة، كأي مهنة أخرى".

"لكن هل تحبينها؟".

"أجل. إنها تهبني مالاً كافياً كي أعيل به أسرتي. وأستطيع أن أرى فـــيلماً جديداً في دار العرض كل يوم جمعة. ماذا تريد الفتاة أكثر من ذلك؟".

أنظـــر في عينيها الشبيهتين بعينيّ المها، وأعرف أنها تكذب. هي ممـــثلة تمـــثل دوراً. عدا أنها لم تحصل على أي جائزة من الجوائز، على غرار نيليما كوماري.

كلما تبدو نيتا لغزاً أصعب، أغدو متلهفاً أكثر لمعرفتها. تثير توقاً في داخلي مثلما لم يفعل أي شيء جرّبته من قبل. أريد الآن أن أدخل عقلها. لذا أبدأ بزيارتها في أيام الاثنين حين يكون تاج محل مغلقاً. بعد أربع أو خمس زيارات أنجح أخيراً في تحطيم دفاعاتها.

تخـــبرني أنهـــا فـــتاة من قبيلة بيديا من مقاطعة بهايند في مادهيا بـــراديش. والـــداها لا يزالان على قيد الحياة ولها أخ، وأخت متزوجة زواجاً سعيداً. في مجتمعها، ثمة تقليد أن تعمل فتاة واحدة من كل أسرة مـــثل عملها، تُدعى **بدني**. هذه الفتاة تكسب المال من أجل أسرتها، في مـــا يمضي الذكور وقتهم في الشرب ولعب الورق. "لهذا السبب فإن ولادة البنت هي مناسبة للاحتفال في مجتمعنا، وليس سبباً للكآبة. الولد هـــو، في الواقـــع، عائق. يمكنك أن تجد **البدنيات** اللواتي ينحدرن من قـــريتي في المـــواخير، مواقـــف الشاحنات، فنادق ومطاعم الطرقات الخارجية، كلهن يبعن أجسادهن من أجل النقود".

"لكن لماذا اختارتكِ أمكِ؟ كان في وسعها أن تختار أختكِ".

تطلق نيتا ضحكة جوفاء. "لأن جمالي أصبح لعنةً. والدتي لها الحق في أن تقـــرر أي واحدة من ابنتيها تتزوج وأيهما تعمل. اختارتني كي أصبح **بدني**. ربما لو كنتُ قبيحة المنظر، كشقيقتي ما كانت لترسلني إلى هـــذا المكـــان. ربما كنتُ سأذهب إلى المدرسة؟ أتزوج ويكون لديّ أطفـــال. هـــذا هو الثمن الذي يجب عليّ أن أدفعة لقاء جمالي. إذاً لا تدعوني جميلةً".

"ومنذ متى وأنتِ في هذه المهنة؟".

"مـــنذ بلوغـــي. ما إن ينتهي احتفال ناثني يوثرنا لإزالة حلقة الأنف وطقـــس سار داهكوانا لتغطية الرأس، يكون قدرك أن تكون امرأة. لذا في سن الثانية عشرة، بيعت عذريتي بالمزاد لأعلى المزايدين وبدأت العمل".

"لكـــن يقيناً لو كنتِ تريدين لهجرتِ هذه المهنة وتزوجتِ، ألا تقدرين؟".

"مـــن الذي يتزوج مثلي؟ من المفروض بنا أن نعمل إلى أن تبدأ أجسادنا بالضعف أو إلى أن نموت بسبب المرض".

"أعرف أنكِ ستجدين أميركِ ذات يوم"، أوضح، والدموع تترقرق في عينيّ.

لم تقبل مني أي بقشيش ذلك اليوم.

أتذكر في ما بعد حواري مع نيتا، وأسأل نفسي لماذا كذبتُ عليها. في الحقيقة، لا أريدها أن تعثر على أي أمير آخر. من دون أن أعرف، وقعتُ في غرامها.

حتى الآن، مفهومي عن الحب استند كلياً على ما شاهدتُه في الأفلام الهندية، حيث يكون بين البطل والبطلة اتصال بالعيون واندفاع سريع، كيمياء من نوع غريب تجعل فؤاديهما يخفقان وحبالهما الصوتية ترن، وما تراه لاحقاً منهما هو أنهما ينطلقان لينشدا الأغاني في القرى السويسرية والمراكز التجارية الأميركية. حسبتُ أنني جربتُ وميض الحب ذاك الذي يعمي الأبصار حين التقيت الفتاه التي ترتدي السروال والقميص الأزرقين في مقصورة القطار تلك. غير أن الحب الحقيقي زارني فقط ذلك الشتاء في أغرا. وأدركتُ مجدداً أن الحياة الحقيقية مختلفة جداً عن حياة البكرة[1]. الحب لا يحدث في لحظة، إنه يزحف إليكِ، ومن ثم يقلب حياتكِ رأساً على عقب. إنه يلّون لحظات صحوكِ ويملأ أحلامكِ. تبدأين بالمشي في الهواء، وترين الحياة بدرجات لونية جديدة مشرقة. لكِنه يجلب معه أيضاً كرباً عذباً، عذاباً لذيذاً. أُختزلت حياتي إلى لقاءات محمومة مع نيتا واللهفة الشديدة إليها بين هذه اللقاءات. زارتني في أغرب الأمكنة، وأغرب اللحظات. تصورتُ وجهها الجميل حتى حين كنتُ ألقي ما يمكن أن نسميه على سبيل التندر محاضرة على سائح

(1) البكرة reel: يقصد المؤلف الحياة الحقيقية تختلف عن حياة الفيلم السينمائي الذي يُلف على بكرة – م.

نهـــاري مـــنهك، في الثمانين من عمره. شممتُ شذا شعرها حتى حين أجلـــس علـــى مقعد المرحاض خاصتي. يقشعر بدني وأنا أفكر فيها حتى حين أشتري البطاطا والطماطم من سوق الخضار. وقد عرفتُ في أعماق قلبـــــي أنهـــا أميرتي. كان الطموح الخارق لحياتي هو أن أتزوجها ذات يوم. كان القلق المتلِف في حياتي هو هل ستوافق على عرضي؟

تأتي سيارة جيب ذات ضوء أحمر وامض إلى المبنى الملحق. يترجل مـــنها ضابط شرطة وشرطيان. يترنح فؤادي. عقدة باردة من الخوف تتشكل في تجويف معدتي.أخيراً، أدركتني جرائمي. هذا أسلوب حياتي. فقـــط حين أبدأ بالشعور أنني في ذروة الأشياء، يسحب القدر البساط من تحت قدميّ. لذا من المتوقع أنني حين أكتشف الحب الحقيقي، يجب أن يأخـــذوني إلى المعـــتقل حيث، على غرار الإمبراطور شاه جهان، سأجلس في مختلى، وأتوق توقاً شديداً لنيتا، ممتاز محل خاصتي.

يخرج ضابط الشرطة مكبر صوت. أتوقع منه أن يقول: "ليخرج رام محمد توماس، المدعو راجو شارما ويداه في الهواء" لكنه يقول بدلاً من ذلك: "ليخرج جميع نـــزلاء المبنى الملحق؟ حصلت عملية سطو في بـــنك أغرا ولدينا سبب كي نعتقد أن اللص هنا. عليَّ أن أقوم بتفتيش المـــبنى". حين أسمع هذا أشعر أن عبئاً ثقيلاً رفع عن قلبـــي. أنا سعيد جداً، وددت الخروج، ومعانقة ضابط الشرطة.

يـــدخل الـــشرطيان كل حجرة من الحجرات بالتوالي، ويقومان بتفتيش شامل. يأتيان إلى حجرتي ويسألانني عن اسمي، عمري، مهنتي، مـــا إذا شاهدتُ أي شخصيات مشبوهة تختبئ في المنطقة. لا أخبرهم أنـــني مرشـــد سياحي غير مرخص. أقول إنني طالب في الجامعة وإنني جديـــد على المبنى الملحق. هذا الجواب يقنعهم. ينظرون تحت سريري،

يختلسون النظر إلى المطبخ، يربتون على القدور والمقالي، يقلبون الفراش، ومن ثم يتحركون إلى الحجرة المجاورة. ينضم ضابط الشرطة إلى رجليه.

هم الآن في حجرة شانكار.

"نعم، ما اسمك؟" يسأل ضابط الشرطة شانكار بفظاظة.

"Hu Ixhz Qo Odxifxn" يجيب شانكار؟

"ماذا؟ هل يمكنك أن تعيد ذلك؟".

"Odxifxn".

"أيهـــا الحقير، هل تضحك عليّ؟" يقول ضابط الشرطة بغضب، ويرفع هراوته كي يضرب شانكار.

أتـــدخل بـــسرعة. "أيها *الصاحب* ضابط الشرطة، شانكار لديه مشكلة عقلية. لا يقدر أن يتكلم".

"إذاً لماذا لم تقل هذا من قبل؟" يلتفت إلى رجلي الشرطة. "دعونا نذهب إلى الحجرة التالية. لن نحصل على شيء من شخص مجنون".

يفتـــشون الحجرات الثلاثين كلها خلال الساعات الثلاث التالية، وفي الختام يكتشفون مخبأً للعملة في غرفة الشاعر الملتحي، الذي زعم أنه كاتب أغانٍ لبوليوود. جميعنا نندهش لدى اكتشافنا أن شاعرنا الشاب هو كذلك سارق بنك في جزء من ساعات اليوم. وهذا الأمر يكشف أن المظاهـــر يمكـــن أن تكـــون خادعـــة. حسن، حرفيو المبنى الملحق سيصابون بصدمة إذا اكتشفوا ما يتعلق بماضييّ المتفاوت.

تـــأتي لاجوانتي إلى حجرتي كي تقدم بعض العوّامات[1] الطازجة سهلة التفتت من معبد دورغا القريب. هي فرحة جداً.

(1) العـــوامات laddoos: حلوى باكستانية وهندية تصنع من الطحين ومكونات أخرى تغمس في عصير السكر – م.

"معذرةً، لاجوانتي، ما هي مناسبة هذه الحلوى؟ هل نلتِ ترقيةً؟" أسألها.

"هذا هو أسعد يوم في حياتي. ببركات دورغا، وافق الموظف على الزواج من لاكشمي. الآن ستحيا شقيقتي كالملكة. سأعد لعرس يضاهي الأعراس كلها".

"لكن ماذا عن المهر؟ هل طالبت أسرة العريس بأي شيء؟".

"لا، أبداً. إنهم عائلة كريمة جداً. هم لا يريدون أي مبلغ من المال. طلبوا فقط بعض الأشياء الصغيرة جداً".

"مثل ماذا؟".

"دراجة نارية منخفضة من نوع باجاج، خلاطة من نوع سوميت، خمس بذلات رجالية من نوع رايموند وبعض المجوهرات الذهبية. على كل حال، سأعطي هذه الأشياء كلها إلى لاكشمي".

أنا مروَّع. "لكن لاجوانتي، سيكلفكِ هذا مغلفاً من الأوراق المالية على الأقل مائة ألف روبية. من أين ستحصلين على هذا المال؟".

"كنت أدخر المال من أجل عرس لاكشمي. لقد ادخرت خمسين ألف روبية تقريباً. وسأقترض خمسين ألف أخرى من *الصاحبة* راني".

"هل أنتِ متأكدة من أنها ستقرضكِ مبلغاً طائلاً كهذا؟".

"بالطبع. أنا أفضل خادمة عملت لديها حتى الآن".

"حسن، حظاً سعيداً إذاً".

أواصل اللقاء بنيتا، غير أن الجو في مكان عملها يخنقني. وأمقت التعامل مع القوّاد شيام ذي العينين المراوغتين. لذا بناء على اقتراح من نيتا نبدأ باللقاء في الخارج. تذهب وحيدةً لمشاهدة الأفلام كل يوم جمعة. أنضم إليها. هي تحب الفشار. اشتري لها علبةً كبيرةً، ونجلس معاً

في الـــصف الأخير من أكاش تولكريز الداكنة والقذرة. تأكل الفشار وتقهقه حين أدس يدي في مكان ما. عند نهاية الفيلم أخرج من الصالة متوهجاً، لا أدري ما إذا شاهدتُ دراما عائلية، كوميديا أو فيلماً مثيراً. لأنني لا أنظر إلا إلى نيتا، وآمل أن تتحول قصتنا نحن الاثنين ببطء إنما بصورة مؤكدة إلى رواية رومنسية ملحمية.

يدخل شانكار إلى حجرتي باكياً.

أسأله: "ماذا جرى؟".

يـــشير إلى ركبته. إنها مجروحة ومرضوضة. في الحال أصبح قلقاً.

"كيف أُوذيتَ، شانكار؟ هل سقطتَ على الأرض؟".

يهز شانكار رأسه نفياً. يقول: "X Akc Wqp Hz".

لأول مرة، أرغب في أن يكون بمستطاعه أن يتكلم كلاماً معقولاً.

"أنا آسف، لا أفهم. لماذا لا تخرج وتريني كيف أُوذيتَ؟".

يأخـــذني شـــانكار إلى الخارج، ويشير إلى المكان الذي يتصل به الفـــناء المرصـــوف بكـــبار الحصى بالطريق الرئيس. هنالك حاجز في الزاوية، يتقافز فوقه أولاد المبنى الملحق دوماً.

يقول شانكار ويشير إلى ركبته:

"Yxi Ukj Ozz Pdxp Akc ? Dq Wqp Hz Dznz".

أتتبع اتجاه الإصبع، وأومئ برأسي علامة الفهم. أحسب أنه حتماً قفـــز عـــن الحاجز وكشط نفسه. "تعال، لاجوانتي تملك علبة طبية في حجرتها. سأجعلها تضع ضمادةً على جرحكَ".

اخفق في رؤية كلب الشارع الصغير الأجرب ذي البقع السوداء الـــذي يلهث فوق الرصيف المكسو بكبار الحصى أسفل الحاجز تماماً، اللعاب يقطر من أسنانه البيضاء الحادة.

بدأت سنةٌ جديدةً، جالبةً معها أمنيات جديدة وأحلاماً جديدةً. نيتا وأنا نصبح في الثامنة عشرة، العمر الرسمي للزواج. لأول مرة، أبدأ بالتفكير في المستقبل وبنيتا إلى جانبي. توقفتُ عن إقراض النقود للناس الساكنين في المبنى الملحق. أحتاج إلى كل قرش الآن.

اليوم جمعة، وكذلك ليلة البدر، في أحيان نادرة جداً تتوافق هاتان. أقنع نيتا ألا تذهب إلى صالة السينما، وبدلاً من ذلك أن ترافقني إلى تاج محل. نجلس على قاعدة العمود الرخامية في ساعة متأخرة من المساء، وننتظر ريثما يبزغ القمر وراء دفق النافورات وصفوف أشجار السرو داكنة الخضرة. في البداية يأتي وميض من الفضة عبر الأشجار الشاهقة الواقعة على يميننا، فيما يكافح القمر لاختراق مجموعة المباني المنخفضة وأوراق الأشجار، وبعدها، فجأةً، يرتفع بصورة مهيبة في السماء. ستارة الليل أُزيحت جانباً ويقف تاج محل مكشوفاً بكل بهائه. نيتا وأنا ممتلآن بالرهبة. يبدو التاج رائعاً. نشبك أيدينا، غافلين عن حشود السياح الأجانب الذين دفع كل منهم خمسين دولاراً لامتياز مشاهدة تاج محل على ضوء البدر.

أحدّق إلى التاج، ومن ثم أحدّق إلى نيتا. جمال التاج يكاد لا يقارن بجمال وجهها الخالي من العيوب. وتأخذ الدموع بالانهمار من عينيّ لأن كل الحب الذي حبستُه في فؤادي أوصدتُ دونه الأبواب على مدى ثمانية عشر عاماً طويلاً ينبثق الآن باندفاع صاخب. أشعر بتحرر عاطفي أشبه بانفجار مفاجئ لخزان، وأجرّب لأول مرة ما شعر به حتماً الإمبراطور شاه جهان نحو ممتاز محل.

هذه هي اللحظة التي كنتُ أنتظرها طيلة سنوات حياتي وقد تمرنتُ من أجلها جيداً. الشاعر الملتحي، ترك لي كتاباً من الشعر قبل ذهابه إلى السجن، وقد حفظتُ عن ظهر قلب أشعاراً رومانسية كثيرة.

في تفجـــر من الإلهام، كتب الشاعر غزلاً أصيلاً في مدح نيتا، من أجل أن أستخدمه أنا. تقول قصيدته الغزلية:

جمالك إكسير،
وهب اليتيم حياةً،
ملتاعاً سأموت، من القبر سأصرخ
هل تتنازلين كي تصبحي زوجتي؟

أتذكـــر أيضاً حوارات من قصص الحب الشفافة الشهيرة. إنما جالـــساً مع نيتا تحت تاج محل المضاء بنور القمر، أهجر عالم الشعر والأفلام. أتطلع في عينيها، وأسألها ببساطة: "هل تحبينني؟" وترد عليَّ بكلمة واحدة فقط. "نعم". تلك الكلمة الوحيدة بالنسبة إليّ تحمل معنىً أكثر من كتب الشعر كلها وكل كتب هداية السياح المتعلقة بأغـــرا. وحـــين أسمعهـــا يثب قلبـــي فرحاً. حبـــي الهائل ينسلخ متحـــرراً من الأرض، يتخذ له أجنحةً، ويحلق في السماء، كطائرة ورقـــية. وبعـــدها، لأول مرة يبدو لي تاج محل أشبه بمنـــزل نابض بالحـــيوية بدلاً من كونه ضريحاً موضوعياً، البدر فوق رأسينا يصبح قمراً صناعياً شخصياً، يشع بضوء خاص، ونحس أننا مباركان كوننا نستحم بوهجه.

يأتي شانكار راكضاً إلى غرفتي "Ykhz Mjqyfgu. Gxesqipq qo ynuqic"، ويأخذني إلى حجرة لاجوانتي.

لاجـــوانتي تبكـــي في سريرها. تنهمر الدموع من عينيها كلآلئ صـــغيرة وتـــسوّد قماش ملاءة سريرها عديمة الغضون الذي يبدو غير

ملائم في الترتيب البسيط لحجرها. أسألها: "ما هي المشكلة، لاجوانتي؟ لماذا تنتحبين؟".

"بسبب تلك الكلبة سوابنا ديفي. رفضت أن تعطيني قرضاً. الآن كيف سأدفع تكاليف عرس شقيقتي؟" تقول وتنتحب من جديد.

"انظـــري، ما من أحد في المبنى الملحق يملك ذلك المبلغ من المال. ألا تستطيعين أن تحصلي على قرض من مصرف ما؟".

"هوه، أي مصرف هذا الذي يقرض خادمةً مسكينةً مثلي؟ كلا، الآن لديّ بديل واحد فقط".

"ما هو؟ أن تلغي عرس شقيقتك؟

يومض الغضب في عينيها. "لا. لن أفعل ذلك. ربما سأفعل ما فعله شاعرنا نجمي. أن أسرق النقود".

أقفـــز عـــن كرسيي. "هل جننتِ، لاجوانتي؟ لا تفكري في هذا الأمر. ألم تري كيف اعتقلت الشرطة نجمي".

"ذلك لأن نجمي غبـــي. لديّ خطة سهلة جداً، سأخبرك بها لأنكَ على غرار أخي الأصغر سناً. لا تذكر هذا لأحد، ولا حتى لشانكار. كما تعـــرف، لقـــد شاهدتُ موقع الخزنة التي تخبئ فيها سوابنا كل حاجياتها النفيسة. في حجرة نومها ثمة رسم ضخم مؤطر على الجدار الأيسر. خلف الرســـم ثمة حفرة دُفنت فيها خزنة من فولاذ. تحتفظ بمفاتيح الخزنة تحت فراشها، في الزاوية اليسرى. لاحظتها سراً وهي تفتح الخزنة ذات يوم. إنها مليئة بالنقود والمجوهرات. لن أنهب النقود، لأن ذلك سيتم اكتشافه حالاً، لكـــنني أفكر في سرقة قلادة. لديها مصوغات ذهبية كثيرة في تلك الخزنة، حتى إنها لن تلاحظ اختفاءها. ما رأيكَ؟".

"لاجـــوانتي، لاجوانتي، أصغي إليّ. إذا كنت تعدينني أخاك، إذاً اتبعـــي نصيحتي. لا تفكري في هذا الأمر. كوني واثقةً، لديّ مشاكل

كـثيرة مـع القانون، وأعرف أن فعلتكِ ستلاحقكِ في نهاية المطاف. وبعدها، بدلاً من أن تساهمي في عرس شقيقتكِ، ستشحذين طاحونة في معتقل ما".

تقـول مـشمئزةً: "أوه، أنتم الرجال كلكم مخنثون. لا أبالي بما تقول. سأفعل ما ينبغي لي أن أفعله".

بـيأس، أرجـع إلى عملتي النقدية القديمة الموثوق بها. "انظري، لاجوانتي، إذا لم تصدقيني، فهذا شيء جيد. إنما ثقي بقدرة هذه العملة العجيبة. إنها لن تجعلك تسلكين الطريق غير الصحيحة. إذاً دعينا نرى مـاذا تقـول. سأقذفها بإظفري. إذا سقطت على وجهها، لن تنفذي خطتك، وإذا سقطت على قفاها، تفعلين ما يحلو لكِ. حسن؟".

"حسن".

أقذف قطعة النقد بإظفري. تسقط على وجهها. تتنهد لاجوانتي. "يبدو أنه حتى الحظ يقف ضدي. حسن، سأيمم وجهي شطر قريتي كي أجمـع المـوارد المالـية من الزعيم، الذي يعرفني. انسَ كلامنا المتعلق بالسرقة".

بعد ثلاثة أيام تقفل لاجوانتي حجرتها، تأخذ إجازة مدتها أسبوع، وتغادر إلى قريتها.

أقول لنيتا: "أريدك أن تكفي عن العمل".

توافـق نيتا. "لا أريد أن أموت قبل أن أبلغ العشرين على غرار رادها. خذني بعيداً من هنا، راجو".

"سـأفعل. هـل يلـزمني أن أتحـدث مع شيام بخصوص هذا الموضوع؟".

"أجل، علينا أن نأخذ موافقته.

تحدثتُ إلى القوّاد في أمسية ذلك اليوم. "انظر شيام، أنا مغرم بنيتا وأريد أن أتزوجها. لن تعمل مجدداً".

يتفحصني شيام بنظراته صعوداً ونـــزولاً كما لو كنتُ حشرةً.

"إذاً أنتَ الذي أودعتَ في دماغها كل هذه الآراء المجنونة. أصغي إليّ، لا أحـــد يقول لنيتا توقفي عن العمل. أنا وحدي من يستطيع أن يقول لها ذلك. ولا أريدها أن تتوقف عن العمل. إنها الإوزة التي تبيض ذهباً. وأريد أن يستمر البيض زمناً طويلاً جداً، جداً".

"ذلك يعني أنكَ لن تسمح لها بالزواج؟".

"يمكـــنني أن أسمح لها بالزواج، إنما في حالة واحدة فقط. هي أن يعوض عليّ من سيتزوجها خسارتي من توقفها عن العمل".

"وكم هي خسارتك المخمنة؟".

"لنقل... أربعمائة ألف روبية. هل يمكنكَ أن تعطيني ذلك المال؟" يضحك ويطردني.

أدقـــق مدخراتي مساء ذلك اليوم. لديّ ما مجموعه 480 روبية. عـــندي نقص مقداره ثلاثمائة وتسعة وتسعون ألفاً وخمسمائة وعشرون روبية.

أشعر بغضب شديد بحيث تحدوني الرغبة في أن أخنق القوّاد. أقول لنيتا في اليوم التالي: "شيام لن يوافق على زواجكِ مني. خيارنا الوحيد هو الهرب".

تقول نيتا بخوف: "كلا. سيعثرون علينا. حاولت جامبا أن تهرب السنة الماضية مع رجل. وجدوها، كسروا ساقيّ الرجل وجوّعوها على مدى عشرة أيام".

"في تلـــك الحالـــة ينبغي لي فقط أن أقتل شيام"، أقول وفي عينيّ ومضة حقد.

تقول نيتا: "كلا. عدني ألا تفعل ذلك".

أُصاب بالدهشة. "لكن لماذا؟".

"لأن شيام أخي".

تأتي سيارة جيب ذات ضوء أحمر وامض إلى المبنى الملحق. يترجل منها شرطيان. هذه المرة ثمة ضابط شرطة جديد. يتم استدعاؤنا من جديد. "أصغوا، كلكم عديمو القيمة، حدث شيء خطير. أحدهم سرق قلادة زمرد نفسية جداً من منزل سوابنا ديفي. لديّ شك قوي أن اللص هو واحد منكم. لذا أعطيكم فرصة كي تعترفوا بكل شيء، بخلاف ذلك حين أمسك باللص سأضربه بالسياط".

في الحال قلقتُ على لاجوانتي، لكنني حين أرى القفل على باب حجرتها وأتذكر أنها في قريتها، أطلق تنهيدة ارتياح. إنه شيء جيد أنها تخلت عن تلك الفكرة السخيفة المتعلقة بسرقة قلادة. كانت تعتقد أن سوابنا لن تنتبه لفقدانها، وها هم الآن رجال الشرطة يأتون للبحث عنها.

يتم استجوابنا واحداً واحداً. حين يأتي دور شانكار، يتم تمثيل المشهد نفسه.

يسأله المفتش: "الاسم؟".

يجيب شانكار: "Odxifxn".

"ماذا تقول؟".

"Q Oxqa Hu Ixhz Qo Odxifxn".

"ابن الساقطة، حاول أن تتصرف بذكاء معي..." يقول ضابط الشرطة من خلال أسنانه التي تُحدث صريراً. أشرح له من جديد، فيلين. ويترك شانكار.

هذه المرة يذهب رجال الشرطة خالي الوفاض، من دون أي قلادة ومن دون أي مشتبه به.

في مساء ذلك اليوم يموت كلب شارع صغير أجرب ذو بقع سوداء قرب تاج محل. لا أحد يهتم لأمره.

تـرجع لاجوانتي من قريتها اليوم التالي ويتم اعتقالها فوراً. يجرها شـرطي مـبلل بالعـرق من حجرها إلى الجيب ذات الضوء الأحمر الوامض. تبكي بصورة لا عزاء لها.

بصورة عاجزة أرى المشهد يتضح تدريجياً. أنا مع عبدول، الذي يعمل بستانياً في قصر سوابنا.

"عـبدول، لمـاذا تعتقل الشرطة لاجوانتي؟ لماذا لا تفعل *الصاحبة* راني شـيئاً؟ بالرغم من كل شيء، لاجوانتي هي أفضل خادمة عملت لديها".

يبتـسم عبدول ابتسامةً عريضةً. "المدام نفسها هي التي استدعت الشرطة ليلقوا القبض على لاجوانتي".

"لكن ما السبب؟".

"لأن لاجـوانتي سـرقت القـلادة من خزانتها. الشرطة فتشوا منـزلها في القرية ووجدوها اليوم".

"لكـن كـيف عرفت سوابنا ديفي أن لاجوانتي هي التي سرقت القلادة؟ إنها حتى لم تكن هنا حين حدثت السرقة".

"لأنها تركت وراءها علامة. أنتَ تعرف، أنها لم تذهب إلى قريتها مباشـرةً. لقد مكثت في أغرا، وانتظرت فرصةً كي تخترق المنـزل من دون أن ينتـبه إلـيها أحد. حين دخلت أخيراً حجرة النوم كي تنهب القلادة، كانت المدام في حفلة. لكنها قبيل مغادرتها المنـزل إلى الحفلة،

مـــشطت المدام شعرها وهي جالسة على السرير وكان هناك عدد قليل من دبابيسها ومشابكها ملقاة على ملاءة السرير الساتان. حين عادت المدام في ساعة متأخرة من الليل، اكتشفت أن كل دبابيسها ومشابكها مـــرتبةً بـــشكل جـــيد على مزينتها. هذا الأمر نبهها حالاً. تفحصت خـــزنتها الفولاذية ووجدت أن قلادةً ما مفقودة. لذا عرفت فوراً أن لاجوانتي هي التي فعلت ذلك ولا أحد سواها.

أضع إبهامي على جبيني. لم تستطع لاجوانتي أن تمنع نفسها من أن تكون الخادمة المثالية، حتى وهي تسرق!

أحـــاول أن ألـــتمس الرحمة من سوابنا ديفي لمصلحة لاجوانتي، لكنها توبخني بازدراء جليدي. "لست مؤسسة خيرية. لماذا وجب عليها أن ترتب عرساً مبذراً كهذا لشقيقتها؟ أنتم القوم الفقراء يجب ألا تمدوا أرجلكـــم أكثر مما يسمح بذلك بساطكم. ابقوا ضمن حدودكم ولن تواجهوا أي مشكلة".

أشـــعر بـــضغينة أصيلة نحوها ذلك اليوم. لكنها ربما تكون على صواب. اقترفت لاجوانتي الخطأ الفادح في محاولتها عبور الخط الفاصل بـــين حياة الأغنياء وحياة الفقراء. ارتكبت الغلطة القاتلة في الحلم أكثر مما يجب. كلما كان الحلم أكبر تكون خيبة الأمل كذلك. لهذا السبب لـــديّ أحلام صغيرة، طيّعة. مثل الزواج من نيتا بعد أن أدفع لشقيقها القوّاد غير الشريف أربعمائة ألف روبية. فقط.

ما كدتُ أشفى من اعتقال لاجوانتي حتى تصيبني تراجيديا أخرى.

يـــأتي شانكار إلى حجرتي وهو يسعل ويتهاوى على السرير. يبدو متعباً ويعاني من الألم في ذراعية وركبتيه. يقول: "Q Xh oqyf"، ويشير بيديه.

ألمس جبينه، وأجد أن لديه حمى خفيفة. أقول له: "لقد أخذتَ برداً، شانكار. اذهب إلى حجرتك واسترح، سأوافيك حالاً وأعطيكَ بعض الأدوية". ينهض من الفراش، ويسير على رؤوس أصابعه إلى حجرته. يبدو قلقاً ومضطرباً.

في وقت لاحق من تلك الليلة، أعطي شانكار بعض المسكنات، إلا أن حالته تستمر في التردي. في اليوم الثاني تصبح حالته أسوأ. إنه غير قادر على تحريك ذراعه، ويصرخ حين يُفتح الضوء. بصعوبة بالغة أستطيع أن أقيس حرارته، وأصاب بصدمة حين أكتشف أنها تجاوزت إلى 103 درجة فهرنهايت. أخرج حالاً وأستدعي طبيباً. الطبيب الذي يعمل في مستوصف حكومي يرفض صراحةً أن يأتي معي، لذا أنا مرغم على الذهاب إلى طبيب خاص. يطلب مني ثمانين روبية كي يأتي إلى المبنى الملحق. يفحص شانكار، ويسألني ما إذا رأيتُ عليه أي جروح أو رضوض حديثة. أخبره عن الركبة المكشطة. يومئ الطبيب برأسه، ويعلن تشخيصه. شانكار أُصيب بداء الكَلَب؛ ربما من كلب مسعور. كان يلزمه أن يأخذ سلسلةً من الحقن المكوَّنة من لقاح *الخلية المضاعفة* البشري وإميونو غلوبيولين الخاص بداء الكَلَب البشري حالَ إصابته بالعدوى، إنما الآن فات الأوان. حالته خطيرة جداً. سيبدأ حالاً بكُره الماء. ربما يُبدي علامات اهتياج وتشوش وربما يكون لديه هلوسات. ربما سيصاب بتشنجات عضلية ونوبات مرضية. وربما سيتوقف عن الكلام كلياً حين تصاب الحبال الصوتية بالشلل. في الختام، سينزلق إلى الغيبوبة، ويتوقف عن التنفس. بلغة بسيطة، سيموت. وكل هذا في بحر ثمان وأربعين ساعة.

يشرح الطبيب فهرس الرعب هذا بطريقته الطبيعية جانب سرير الغلام المحتضر. أنا مدّمر كلياً. حتى مجرد التفكير في موت شانكار

يستقطر الدمع من عينيّ. أتوسل إليه قائلاً: "دكتور، هل ثمة شيء مهما كان يمكننا أن نقوم به كي ننقذ شانكار؟".

يتلعثم الطبيب. "حسن. ما من شيء إلا أنه منذ شهر قيل لي إن ثمة لقاحاً تجريبياً جديداً من أميركا تم توريده تواً إلى الهند. يُدعى رابكيور وهو متوفر فقط في صيدلية جوبتا".

"تلك الواقعة في راكاب غانج".

"نعم. لكنني لا أعتقد أنك تقدر على شرائه".

أسأل بقلب ضعيف: "كم ثمنه؟".

"أربعمائة ألف روبية تقريباً".

أتأمل سخرية الموقف. تتطلب معالجة شانكار أربعمائة ألف روبية، وقوّاد نيتا كذلك طلب هذا المبلغ بالضبط. ولديّ المبلغ السخي الذي مقداره أربعمائة روبية في جيبي.

لا أدري من أين سأحصل على المال اللازم لمعالجة شانكار، لكنني أعرف أنه لا يمكن تركه وحيداً، لذا أقرر أن آخذه إلى حجرتي. أحمله بين ذراعيّ. بالرغم من أنه كان في سني تقريباً، يبدو جسده عديم الوزن. يداه وساقاه تتدلى بارتخاء إلى جانبه، وأشعر كما لو أنني لا أحمل شخصاً حياً إنما كيساً من البطاطا. أضع شانكار على سريري، وأستلقي على الأرض، على عكس ما فعله لي قبل سنتين، مع أنهما تبدوان الآن أشبه بعشرين سنة.

شانكار يتقلّب على فراشه، وينام بصورة متشنجة. أنا كذلك أعيش ليلةً صعبةً، تتخلل نومي كوابيس عن كلاب مسعورة وأطفال لا يتكلمون إلا بمقاطع لفظية هرائية. ومن ثم، على حين غرة، في منتصف الليل، يتراءى لي أنني أسمع "مومي، مومي" يصرخ بها بصوت عالٍ. أفيق من نومي، وأجد شانكار نائماً بسلام. أدعك

عينيّ، وأسائل نفسي ما إذا تقاطع حلم شانكار بصورة غير متوقعة مع حلمي.

يمـضي شـانكار كل ساعات اليوم التالي طريح الفراش، يغدو أضـعف فأضـعف. أعرف أنه يحتضر، لكنني أتظاهر أنه لا يملك شيئاً أكثـر مـن حالة خفيفة من الزكام. ينفطر فؤادي عندما أرى وجهه الوديـع، وعندما أتخيل أنني لن أراه مجدداً. حتى مقاطعه اللفظية عديمة المعـنى تـبدو اليوم كمقولات عميقة المغزى يجب أن يحفظها المرء عن ظهر قلب.

يحل الليل، وتبدأ التشنجات في ذراعيّ شانكار. كان يعاني من صـعوبة شرب السوائل، تناولَ رغيف خبز واحد مع العدس، طبقه المفـضل. يتوهج جبينه. أقيس حرارته، وأجد أنها ارتفعت فجأة إلى 105 درجة فهرنهايت. يقول: "Q Akip SXip Pk Aqe, Nxcj"، ويـبدأ بالبكاء. أحاول أن أريحه قدر استطاعتي، إنما من العسير أن تمنحي القوة لشخص آخر حين تحسين أنتِ نفسكِ أنك خاوية تماماً من الداخل.

أنام متشنجاً من جديد، تعذبني ذكريات أيامي الماضية. في الهزيع الأخـير من تلك الليلة، حين كانت عقارب الساعة تقترب من الثانية، أسمـع صوتاً آتياً من سرير شانكار، كما لو أن شخصاً ما يئن. أنهض ببطء، وأنا لا أزال في وضع غير سوي. أتطلع إلى وجه شانكار. عيناه مغمـضتان، إلا أن شـفتيه تتحركان. أجهد نفسي كي أسمع ما الذي يتمتم به، وأكاد أقفز خارجاً من جلدي. لأنني أقسم إن شانكار يقول: "مومي، أرجوك لا تضربيني".

أندفـع بعجالة إلى سريره. "شانكار! شانكار! لقد قلتَ تواً شيئاً ما، أليس كذلك؟".

إلا أن شـــانكار غافـــل عني تماماً، ضائع في عالمه الخاص. عيناه تدوران إلى الأعلى ومن الجلي أنه مصاب بهذيان الحمى. يتقلص صدره كما لو كان في حالة تشنج، ويسيل البلغم من فمه. يغمغم: "ماما، لماذا رميـــتني؟ أنا متأسف، كان يجب أن أُضرب، كيف كنتُ سأعرف أن عمـــي معـــك في الداخل؟ أحبك، ماما. أرسم صوركِ. دفتر يومياتي الأزرق ملـــيء بالـــصور. صـــورك. أحبك ماما. أحبكَ حباً جماً. لا تضربيني، ماما. أعدك بأنني لن أخبر أحداً، ماما، ماما، ماما...".

يتكلم شانكار بصوت طفل في سن السادسة. لقد ارتد إلى زمن منسي من أمد بعيد. إلى زمن حينما كانت له أم. إلى زمن حين كانت لحياته، ولكلماته، معنىً. لا أدري كيف استطاع فجأةً أن يتكلم بصورة مُدرَكـــة وممكن فهمها في حين قال الطبيب إنه سيتوقف عن التحدث كلـــياً. إنما لا تراودني الرغبة في اكتشاف السبب. ينبغي على المرء ألا يسأل عند حدوث أعجوبة.

ذلك هو كل ما أسمعه من شانكار تلك الليلة، وحين يستيقظ من الـــنوم صباح اليوم التالي يصبح نفس الغلام بالأعوام الستة عشر الذي يـــتحدث بمقاطـــع لفظـــية عديمة المعنى. لكنني أتذكر إشارته إلى دفتر مذكرات أزرق. أفتش غرفته، وأجده مخبأً تحت سريره.

يضم الدفتر صفحات مهلهلة من ورق الرسم، كلها تحوي رسوماً جمـــيلةً بقلـــم الرصاص لامرأة. الرسوم دقيقة جداً، حتى آخر تفصيل. لكنني أقف متحجراً ليس بسبب الجودة الفائقة للرسوم، بل بسبب هوية موضوعها. لأن المرأة في الصور كلها هي سوابنا ديفي.

"شـــانكار، أعـــرف ما كنتَ تخفيه عني طيلة هذه المدة"، أقول لشانكار، وأنا أحمل عالياً دفتر اليوميات الأزرق.

تتسع عيناه بخوف، ويحاول أن يسحب الدفتر من يديَّ، يصرخ قائلاً:

"Cqrz Hz Wxyf Hu Aqynu".

"شانكار، أعرف أنه شيء حقيقي. أعتقد أنكَ اكتشفت سرها القذر ولهذا السبب رمتكَ خارج المنزل. وحينذاك فقدتَ قدرتكَ على التكلم كغلام طبيعي. أعتقد أن أمكَ عاشت مع هذا الإثم طيلة سنوات حياتها. ربما لهذا السبب تدفع بدل إيجار غرفتك وتعطيكَ المال. لكنني سأذهب إلى أمك الآن حالاً، كي أطلب منها أن تدفع ثمن علاجك".

يصرخ قائلا: " Ik Ik Ik Lgzxoz Akip Ck Ck Pk Hu Hjhuhu" لكنني كنتُ قد انطلقتُ متجهاً إلى قصر سوابنا كي أتحدث قلباً لقلب مع *الصاحبة* راني.

ترفض *الصاحبة* راني لقائي في بداية الأمر، زاعمةً أنها تلتقي الناس بحسب المواعيد فقط. أعسكر عند عتبة منزلها طيلة ساعتين، إلى أن تلين أخيراً.

"نعم، لماذا أتيتَ لتزعجني؟" تسألني بغطرسة.

أقول بوجهها: "أعرف سركِ، سوابنا ديفي. لقد اكتشفتُ أن شانكار هو ابنك".

ينزلق قناعها الملكي لحظةً، ويغدو وجهها شاحباً، لكنها تستجمع رباطة جأشها بالسرعة نفسها ويعود سلوكها المتعجرف ليجمدني بازدراء. "أنت أيها الولد عديم القيمة، كيف تجرؤ على التفوه بهذا الزعم السفيه؟ ليس لي أي علاقة بشانكار. لمجرد أنني أبديتُ النزر اليسير من التعاطف نحو ذلك الصبي، جعلت منه ابني؟ اخرج من هنا الآن حالاً، وإلا سأرميكَ خارجاً".

أقــول لها: "سأنصرف. إنما بعد أن أجمع أربعمائة ألف روبية له. أحتاج إلى المال لمعالجة شانكار. لقد أصابته عدوى داء الكَلَب".

تــصيح بقــوة: "هل جننتَ؟ تعتقد أنني سأعطيك أربعمائة ألف روبية؟".

"لكــنني إذا لم أحصل على المال، سيموت شانكار من جراء داء الكَلَب خلال أربع وعشرين ساعة".

"لا أكترث بما تفعل، إنما لا تقلقني". بعدها تقول أكبر الكلمات حقــداً سمعتُ أماً تقولها طيلة حياتي كلها. "ربما من الأفضل أن يموت. ســيتخلص الــصبــي المسكين من بؤسه. ولا تجسر على تكرار تلك الكذبة أمام أي شخص بخصوص كونه ابني". تغلق الباب.

أقف عند عتبة منــزلها وعيناي تذرفان دموعاً غزيرة. ربما كنتُ علــى الأقل محظوظاً بدرجة كافية عندما رمتني أمي عند الولادة، لكن شانكار المسكين تنبذه أمه في منتصف الطريق خلال حياته، وهي الآن ترفض أن تحرك ساكناً كي تمنع موته الوشيك.

أعود إلى حجرة شانكار بقلب مثقل بالهم. كلمات سوابنا ديفي تــرن في أذنيّ بقوة كضربة مطرقة. تريد هي أن يموت شانكار ككلب مسعور. في أي وقت مضى لم يكدرني فقري بهذا القدر مثلما هو فاعل الآن. كــم تمنــيتُ أن يكون في وسعي أن أشرح للكلب الذي عضّ شــانكار أنه قبل العض كان يجب عليه أن يتأكد ما إذا كان الشخص الذي كان يهاجمه قادراً على شراء اللقاح".

الــيوم التالي، أقوم بشيء لم أفعله على مدى عقد من الزمن. أذهب وأتضرع في دور العبادة كلها التي ينم اسمي على أنني من اتباع ديانتها. إلا أن كــل تــضرعاتي لم تثمر، فطيلة النهار يبقى شانكار في كرب، والألم يلازمه عملياً في أوصال بدنه كلها. يصبح تنفسه غير منتظم بصورة أكثر.

يرخـــي اللــيل سدوله. إنه بلا قمر، إنما لا يبدو الأمر كذلك في المبنى الملحق بسبب الوهج المنعكس من آلاف المصابيح التي أنارت قصر ســوابنا كــشمعة عملاقة. ثمة حفلة في القصر. جاء مفوض الشرطة، فــضلاً عن حاكم المقاطعة، وجمهرة من رجال الأعمال، وشخصيات المجــتمع الــبارزة، والــصحفيين والكتاب. صوت الموسيقى الخفيفة والقهقهــات يــصل إلى المبنى الملحق. نسمع صلصلة كؤوس الشراب الفرنسي، وصدى المناقشات، وخشخشة النقود. في غرفتي يخيم سكون غريب، لا يكسره سوى تنفس شانكار الذي يجري بمشقة. كل نصف ساعة أو نحو ذلك ترهق جسده التقلصات. إلا أنه كان منــزعجاً جداً من الضيق في حنجرته، حيث تكوّن لعاب لزج، دبق، مسبباً له إزعاجاً كبيراً. الآن يصاب بالتشنج حتى لدى رؤيته كوب ماء[1]. كما أن أدنى نسمة هواء تسفر عن النتيجة ذاتها.

من بين الأمراض الكثيرة التي يمكن أن يموت بسببها المرء، ربما داء الكَلَب الهايدروفوبيا هو الأكثر ضراوةً، حيث الماء، الذي من المفروض أن يهــب الحياة، يصبح سبباً للموت. حتى المريض المصاب بالسرطان قــادر على أن يعلل نفسه بالأمل، أما المريض المصاب بداء الكَلَب فلا أمل له ولا رجاء.

وأنــا أشاهد موت شانكار البطيء، أستطيع فقط أن أتصور أن سوابنا ديفي حتماً امرأة عديمة الشفقة كلياً، كي تسمح لابنها أن يموت بهذه الطريقة المروِّعة فيما هي تقيم حفلةً في منــزلها. من حسن حظي أنــي رميتُ مسدس كولت ذاك في النهر، بخلاف ذلك لكنتُ اقترفت بالتأكيد جريمة قتل أخرى هذه الليلة.

(1) المــصاب بــداء الكَلَــب ينتابه الخوف من الماء. لذلك يسمى هذا المرض بالإنكليزية hydrophobia – م.

فيما يتقدم الليل، تتكرر تشنجات شانكار أكثر، يصرخ بكرب، ويبدأ يزبد من فمه. أعرف أن النهاية باتت وشيكةً.

في النهاية يموت شانكار عند الثانية عشرة وسبع وأربعين دقيقة ظهراً. قبيل وفاته، كانت له لحظة أخرى ممكنه الفهم. يمسك بيدي ويطلق كلمة واحدة، "راجو". بعدها يقبض على دفتره الأزرق ويبكي، "ماما، ماما". ومن ثم يغمض عينيه إلى الأبد.

تصبح أغرا مدينة الموت. في غرفتي جثة وفي يديّ دفتر أزرق: أقلّب صفحات الدفتر من دون هدف ما، محدّقاً إلى تخطيطات قلم الرصاص لامرأة كانت أماً عديمة الشفقة. كلا، لن أسميها "أماً"، لأنني حين أقول ذلك فإنني أوجه الإهانة لكل الأمهات.

لا أدري كيف سيكون رد فعلي حيال موت شانكار. يمكنني أن أصرخ صراخاً حاداً وأن أصيح على غرار بيهاري. يمكنني أن أسب كل السلطات في الأرض. يمكنني أن أحطم باباً، أرمي بعض قطع الأثاث، أركل عمود مصباح. وبعدها سأنهار وأبكي. إنما اليوم، العَبرات ترفض المجيء. غضب بطيء، متوهج يعتمل في أحشائي. أنتزع الصفحات من الدفتر وأمزقها طولياً إلى قصاصات متناهية الصغر. ثم، على حين غرة، آخذ شانكار بين ذراعيّ، وأتقدم صوب القصر المضاء.

الحرس بالبذلات النظامية يسدون الطريق بوجهي، إلا أنهم حالما يرون الجثمان في يدّي يفتحون البوابة بسرعة. أجتاز الطريق الخاص المقوّس، حيث اصطفت سيارات الضيوف المستوردة واحدة وراء الأخرى. أصل إلى المدخل المزخرف، وأجده مفتوحاً للترحيب. أجتاز الردهة الرخامية متجهاً صوب حجرة الطعام، حيث أواني تقديم الحلويات للضيوف. تتوقف الحوارات لحظة مشاهدتهم لي.

أصعد فوق سطح المائدة، وأضع جثة شانكار في الوسط، بين كعك الفانيليا وطاسة من حلوى إلارازاغولا. يقف النُدل جامدين كالتماثيل. رجال الأعمال ذوو البذلات الأنيقة يسعلون ويتنحنحون بانــزعاج في مقاعدهم. السيدات يمسكن بقلائدهن. حاكم المقاطعة ومفــوض الشرطة يراقبانني بعيون قلقة. سوابنا ديفي، جالسةً عند رأس المائدة، ترتدي سارياً من الحرير السميك ومحمّلة بالمجوهرات، تــبدو كمـــا لو أنها تكاد تختنق. تحاول أن تفتح فمها، إلا أنها تجد حبالها الصوتية مشلولة. أنظر إليها مباشرةً بازدراء بقدر ما أستطيع أن أحشد وأقول.

"ســيدة سوابنا ديفي، إذا كان هذا هو قصرك، وأنتِ ملكته، إذاً اعترفي بالأمير. أتيتُ كي أسلم جثمان ابنكِ كوثمار شانكار سنغ غوتام إلــيك. لقــد مات قبل نصف ساعة، في المبنى الملحق حيث أبقيته مخبأً طيلة هذه السنوات كلها. لم تدفعي ثمن علاجه، لم تؤدي واجب الأم. الآن اوفي بالتــزامكِ بوصفكِ صاحبة القصر. من فضلكِ ادفعي أجور جنازة نــزيلكِ الذي لا يملك من الدنيا شيئاً".

أقول قطعتي الأدبية، أومئ برأسي للضيوف الذين يراقبون المشهد بــصمت وجمــود، ويخرجون من القصر فاسد الهواء إلى الليل معتدل البرودة. قيل لي إن أحداً لم يتناول الحلوى ليلتها.

يؤثــر فيّ موت شانكار تأثيراً بالغاً. أنام، أبكي وأنام من جديد. انقطعتُ عن الذهاب إلى تاج محل، انقطعت عن لقاء نيتا، انقطعتُ عن مــشاهدة الأفــلام السينمائية. ضغطت زر توقف مؤقت على حياتي الخاصــة. علــى مدى أسبوعين أو نحو ذلك بعد وفاة شانكار، أحوم حــول أغــرا كحيوان مجنون. يجدني شاكيل، الطالب الجامعي، أقف

خـــارج حجـــرة شانكار ذات مساء، محدقاً إلى قفل الباب كما يحدق الـــسكير إلى زجاجة شراب اسكتلندي. يكتشفني بيهاري، الإسكافي، جالساً جانب الصنبور، والماء يقطر من عينيّ بدلاً من الصنبور. يلمحني عبدول، البستاني في قصر سوابنا أسير على رؤوس أصابعي حول المبنى الملحـــق كما أعتاد شانكار أن يفعل. في ذروة الشتاء، صارت المدينة بالنسبة إليّ صحراءً حارةً ومنعزلةً. أحاول أن أضيّع نفسي في وجودها الفوضوي. أحاول أن أصبح مقطعاً لفظياً عديم المعنى في ثرثرها التي لا تنقطع، وكدتُ أفلح في أن أرسل نفسي إلى حالة غيبوبة.

حـــين أســـتيقظ من النوم، يكون الوقت متأخراً جداً. ثمة اتصال هاتفـــي في مكتب الاتصالات العمومي المحلي يأتي إليّ شاكيل راكضاً كي يخبرني. "راجو، راجو" اتصلت امرأة ما اسمها نيتا. تريدك أن تأتي إلى ردهة الطوارئ في مستشفى سنغانيا الآن".

يـــثب فؤادي إلى حلقي حين أسمع هذا، وأركض الأميال الثلاثة كلها المفضية إلى مستشفى سنغانيا. بشق النفس أتجنب الاصطدام بأحد الأطـــباء، وكدتُ أقلب عربةً، وأهاجم ردهة الطوارئ كضابط شرطة يقتحم موقعاً ما لدى حصول سطو مسلّح.

"أين هي نيتا؟" أسأل ممرضةً حائرةً.

"أنا هنا راجو". يبدو صوت نيتا ضعيفاً. هي خلف حاجز مزود بـــستارة، تـــستلقي على عربة. ألقي نظرةً واحدةً عليها، وأكاد أفقد الوعـــي بـــسبب الـــصدمة. كانت لديها كدمات مزرقة في كل أنحاء وجههـــا، وكانت شفتاها ملتويتين بصورة خاصة، كما لو أن فكها قد أُنتـــزع مـــن موضـــعه. ثمة دم على اثنتين من أسنانها، وعينها اليسرى مسوّدة.

"مَنْ... مَنْ الذي فعل هذا بكِ؟" أسألها، وقلما أميز صوتي.

تعـــاني من صعوبة في التكلم. "إنه رجل من مومباي. بعثني شيام إلى غـــرفته في فندق القلعة. ربطني وفعل كل هذا بـــي، ما تراه على وجهي لا شيء، انظر ماذا فعل بجسدي".

تـــنقلب نيتا على جانبها، فأرى علامات الضرب الحمراء الغامقة علـــى مؤخرتها الضامرة، كما لو أن أحدهم استخدم سوط حصان. ثم ترفع بلوزتها، وأكاد أموت من التأثر. ثمة علامات حروق سيجارة على كل صدرها، أشبه بآثار بثور الجدري القبيحة على اللحم الأسمر الناعم لثدييها. رأيتُ هذا من قبل.

بـــدأ دمـــي يغلي في عروقي. "من الذي فعل هذا بكِ. هل ذكر اسمه؟ سأقتله".

"لا أعرف اسمه، لكنه طويل و -".

يـــدخل شيام إلى الغرفة في هذه اللحظة، ممسكاً بعلبة دواء. يلقي عليَّ نظرةً واحدةً ويغدو شديد الهياج. "أنتَ كيف تجرؤ على المجيء إلى هنا؟ بسببك أنتَ حدث هذا كله لنيتا".

أصرخ قائلاً: "هل جننتَ، شيام؟".

"كلا، أنتَ هو المجنون. أنتَ تعتقد أن نيتا هي ملكك، وكنتَ تقول لهـــا أن تهجـــر المهنة وألا تخدم الزبائن بعد الآن. هل تعرف كم دفع هذا الـــشخص من مومباي لها؟ خمسة آلاف روبية. لكن شقيقتي صدقتك؛ لا بد أنها تمنعت عنه وانظر ماذا حصل. الآن دعني أقول لكَ شيئاً. إذا أردتَ أن تـــرى نيـــتا مجدداً، إذاً تعال إليّ مع أربعمائة ألف روبية. إذا لم يكن في وســـعك أن توفر هذا المبلغ، إذاً انسَ كل ما يتعلق بنيتا. إذا رأيتك تتسكع حول المستشفى، سأقتلك، هل تفهم؟ الآن اخرج من هنا".

كـــان في وســـعي أن أقتل شيام في تلك اللحظة بالذات، أخنقه وأحـــبس أنفاسه، أو أقتلع عينيه بأظافري. لكنني تذكرتُ الوعد الذي

قطعتـــه لنيـــتا، وبـــشكل من الأشكال كظمت غيظي الذي يغلي في عروقـــي. لم أكـــن أطـــيق رؤية وجه نيتا بعد الآن، وغادرتُ ردهة الطـــوارئ. عرفتُ شيئاً واحداً فحسب. بشكل من الأشكال عليّ أن أحصل على أربعمائة ألف روبية. إنما من أين؟

أعـــد خططي وانتظر مناسبةً ما حينما لا تكون سوابنا ديفي في منـــــزلها. بعد ليلتين، أرى *الصاحبة* راني تؤخذ بسيارتها الكونتيسا إلى حفلـــة أخرى في المدينة، وأخترق الأرض المخصصة لقصر سوابنا عبر ثغـــرة في السور. شرحت لي لاجوانتي الطوبوغرافية المفصلة للمنـــزل ولا أملـــك أي صعوبة في تحديد موقع الشباك الذي ينفتح على حجرة نوم سوابنا ديفي. أخلع النافذة، وأتسلل إلى حجرة نومها المترفة. ليس لدي الوقت كي أبدي إعجابـــي بسريرها الضخم المنحوت، المصنوع مـــن خشب الجوز أو بمزينتها الساج. أفتش فقط عن رسم كبير مؤطر وأكتشفه على الجدار الأيسر. إنه رسم ذو ألوان زاهية لعدد من الجياد وموقـــع من قبل شخص يُدعى حسين. بسرعة أرفع الرسم من كلاّبه، وأكتـــشف حفرةً مربعة في الجدار دُفنت فيها خزنة من الفولاذ. أنظر تحت الزاوية اليسرى من الفراش، وأجد أنه لا وجود لمفتاح هناك. أفقد توازني بصورة مؤقتة، لكنني أتعافى حالاً حين أكتشف المفتاح في الزاوية الـــيمنى. المفـــتاح يلائم القفل بصورة مضبوطة ويتأرجح الباب الثقيل منفـــتحاً ببطء. أنظر داخل الخزنة، وأصاب بصدمة أخرى. إنها خالية عملـــياً. ليس ثمة قلائد من الزمرد ولا حتى أساور من الذهب. هنالك فقـــط أربعة أكداس خفيفة من الأوراق المالية، وبعض الوثائق القانونية وصورة بالأبيض والأسود لطفل يمشي بخطى قصيرة قلقة. ما كان يجب علـــيّ أن أنظـــر عـــن كثب كي أعرف أنها صورة شانكار. لم أشعر

بوخزات ضمير في ما يتعلق بالسرقة من الخزنة. أحشر الحزم الأربع في جيوبـــي، أغلق الخزنة، أعيد الرسم والمفتاح إلى موضعيهما الأصليين، وأغادر بالطريقة نفسها التي أتيتُ بها.

أسرع إلى غرفتي في المنـــزل الملحق، أقفل الباب خلفي، وأجلس كـــي أحصي مبلغ الغنيمة. الحزم الأربع يبلغ مجموعها ثلاثمائة وتسعة وتـــسعون ألفاً وثمانمائة وأربعة وأربعين روبية. أنقب في جيوبـــي كلها وأجـــد مائـــة وســـتاً وخمسين روبية. تكوّن معا أربعمائة ألف روبية بالضبط. يبدو أن دورغا منحتني بركاتها.

أضـــع المال في كيس ورقي أسمر، أحمله بقوة بيدي اليمنى، وأشد الخطى صوب المستشفى. وفي ما أنا داخل إلى ردهة الطوارئ يصطدم بـــي رجل متوسط العمر، يضع نظارةً، ذو وجه غير حليق وشعر غير ممشط. أسقط على الأرضية المكسوة برقاقات المطاط وينـــزلق الكيس الـــبني مـــن قبضتي. تتدفق الأوراق المالية بسرعة واختلاط من الكيس. يـــرى الرجل الأوراق المالية وتدخل عينيه ومضة مجنونة. يبدأ بالتقاط الأوراق المالية كطفل صغير مسرور. أتجمد لثانية، مسائلاً نفسي هل أرى تكراراً لحادثة السرقة في القطار؟ إنما بعد جمع الأوراق المالية كلها، يعيدها الـــرجل إليّ ويطوي كفيه. "هذا المال ملكك، لكنني أتوسل إليك، أخي، من فضلك أقرضني إياه. أنقذ حياة ابني. إنه لم يتجاوز السادسة عشرة. لا أستطيع أن أتحمل رؤيته وهو يفارق الحياة"، يتوسل كالشحاذ.

بـــسرعة أحشر الأوراق المالية من جديد في الكيس الورقي الأسمر وأحاول أن أتخلص منه.

"ما هي قصة ابنك؟".

"لقـــد عـــضه كلب مسعور. هو مصاب الآن بداء الكَلَب. يقول الطبـــيب إنه سيموت هذه الليلة ما لم أستطيع شراء لقاح يُدعى رابكيور

المتوفـــر فقط في صيدلية جوبتا. لكنه يكلف أربعمائة ألف روبية وليس في وســـع معلم مدرسة أن يجمع مبلغاً ضخماً كهذا. أعرف أنك تملك ذلك المـــبلغ، أيها الأخ. أتوسل إليك، أنقذ حياة ابني الوحيد وسأكون خادمك المطيع طيلة سنوات حياتي"، يقول ويشرع بالبكاء كالطفل الوليد.

"هـــذا المال أحتاج إليه لمعالجة إنسان عزيز عليَّ جداً. أنا متأسف لا أستطيع أن أساعدك"، أقول له، وأدخل عبر الباب الزجاجي.

يـــركض الـــرجل ورائي ويمسك بقدميّ. "أرجوك انتظر دقيقةً، أخي. فقط شاهد هذه الصورة. هذا ابني. قل لي كيف سأحيا بقية أيام عمري إذا مات الليلة؟" يُبرز صورة فوتوغرافية ملونة لغلام نضر، جميل الطلعـــة. له عينان سوداوان معبرتان وترتسم على شفتيه بسمة دافئة. يذكـــرني بـــشانكار، وبسرعة أشيح بصري. "قلت لكَ، أنا متأسف أرجوك لا تزعجني"، أقول له وأحرر ساقيّ من ذراعيه.

لا أنظـــر ورائي كي أرى إذا كان لا يزال يلاحقني، لكنني أهرع إلى ســـرير نيتا. شيام ورجل آخر يجلسان على كرسيين كما لو كانا حارســـين قبالة نيتا. إنهما يأكلان السمبوسات الموضوعة على صحيفة مبللة. يبدو أن نيتا نائمة. وجهها مغطى بأكمله بالضمادات.

"نعـــم؟" يقـــول شـــيام، وهو يلوك سمبوسةً. "لماذا أتيتَ يا ابن الساقطة؟".

"وفـــرتُ المـــال الذي طلبته مني. أربعمائة ألف روبية بالضبط. انظر". أريه حزم الأوراق المالية.

يصفر شيام. "من أينَ نهبتَ هذا المال كله؟".

"لا دخل لك. أتيتُ لآخذ نيتا معي".

"نيـــتا ليـــست ذاهـــبة إلى أي مكان. يقول الأطباء إن شفاءها يـــستغرق أربعـــة شهور. وبما أنكَ مسؤول عن إصاباتها، فالأفضل أن

تدفـــع أجور معالجتها أيضاً. إنها تحتاج إلى جراحة تجميلية. إنها تكلف الكثير، تكلفني نحو مائتي ألف روبية. لذا إذا كنت تريد نيتا حقيقةً عُد مع ستمائة ألف روبية، أو إن صديقي هنا سيتولى العناية بكَ".

يخـــرج الـــرجل الجـــالس إلى جانب شيام مديةً نابضية من جيبه ويديـــرها في أصـــابعه كـــالحلاق الذي يهم بحلاقة لحية زبون. يبتسم ابتسامةً عريضةً تنم عن ضغينته، كاشفا عن أسنان صبغها البآن.

أعرف وقتذاك أن نيتا لن تكون ملكي. شيام ذاك لن يطلق سراحها. حـــتى وإن جلبت بشكل من الأشكال ستمائة ألف روبية، فسيزيد شيام الطلـــب. يبدو أن دماغي يتخدر وأرى السواد يحيطني من الجهات كلها. تهـــاجمني موجه غثيان بعنف. حين أستعيد عافيتي، أرى صحيفةً ملقاةً على الأرض. فيها إعلان يُظهر وجه رجل يبتسم ابتسامةً عريضةً، ويحمل أوراقاً نقديـــةً عديدةً من فئة ألف روبية بين أصابعه. تحت الصورة ثمة تعليق يشير إلى: **مـــرحباً بكم إلى أعظم برنامج في التلفاز. مرحباً بكم في W3B – مـــن سيربح البليون؟ خطوط الهاتف مفتوحة. اتصل الآن أو اكتب إلينا كي ترى هل ستكون الفائز المحظوظ بأكبر جائزة على الأرض؟** أنظرُ إلى العنوان المذكور في الإعلان. يشير إلى: استوديوهات بريم، خار، مومباي. أعرف في تلك اللحظة بأنني سأذهب إلى مومباي.

أخـــرج من ردهة الطوارئ كما لو كنتُ في حالة نشوة. الرائحة المعقمـــة للمستشفى لن تزعج حواسي بعد الآن. الرجل ذو النظارة لا يـــزال في المجـــاز. يتطلع إليّ بعينين طافحتين بالأمل، لكنه لا يحاول أن يبادرني الكلام هذه المرة. أغلب الظن لقد روّض نفسه على موت ابنه. الكيس الورقي الأسمر لا يزال في يدي. أومئ إليه. يأتي إليّ جاراً قدميه جـــراً، ككلب يتوقع عظماً. "الآن، خذ هذا". أسلمه الكيس. "داخله أربعمائة ألف روبية. اذهب وأنقذ حياة ابنك".

يأخذ الرجل الكيس، يتهاوى عند قدميّ، ويبدأ بالبكاء. يقول لي: "أنتَ شخص عظيم".

أقهقه. "أنا مجرد مرشد سياحي صغير ذو أحلام كبيرة". أقول هذا، وأحاول أن أسير قُدُماً، لكنه يسد طريقي مجدداً. يخرج محفظة جيب جلدية من جيبه وينتزع بطاقةً. "المال الذي أعطيتني إياه دين في عنقي، هذه بطاقتي، سأعيده إليكَ في أقرب وقت ممكن، لكنني منذ هذه اللحظة خادمك".

"لا أعتقد أنني أحتاج إليك. في الحقيقة، لا أظن إنني سأحتاج إلى أي فرد في أغرا. إنني ذاهب إلى مومباي"، أقول له بشرود ذهن، وأدس البطاقة في جيب قميصي. ينظر إليّ الرجل مجدداً بعينين دامعتين، ثم يندفع خارجاً من المستشفى، راكضاً صوب راكاب غانج وصيدلية جوبتا التي تبقى مفتوحة طيلة الليل.

أهمُّ بالخروج من المستشفى حين تأتي سيارة جيب ذات ضوء أحمر وامض وتتأهب للوقوف. يثب منها ضابط شرطة وشرطي. رجلان آخران يبزغان من المقعد الخلفي عرفتهما فوراً. أحدهما حارس في قصر سوابنا والثاني عبدول، البستاني. يشير إليّ الحارس. "أيها *الصاحب* ضابط الشرطة، هذا هو الغلام راجو. هو الذي سرق مال *الصاحبة* راني". يعطي الضابط التعليمات لرجال الشرطة. "طالما أننا لم نجد شيئاً في حجرته، فإن النقود حتما معه. فتشوا جيوب ابن الساقطة". يفتش رجلا الشرطة قميصي وسروالي. يجدان علبةً صغيرةً من العلكة الفقاعية، بعض حبوب الذرة وقطعة نقد من فئة روبية واحدة، التي يبدو أنها لم تعد جالبةً للحظ بعد الآن.

"أيها *الصاحب*. ليس لديه نقود"، يردد أحد الشرطيين.

"حقيقة؟ مع ذلك، لنأخذه إلى التحقيق. سنكتشف أين كان هذا المساء"، يقول الضابط بفظاظة.

"Ztyjoz Hz?" أجيب، شفتاي تلتويان بطريقة مشوّهة.

"مـــاذا قلتَ الآن؟ لم أفهم ما قلته"، يقول الضابط، مرتبكاً بعض الشيء.

."Q Oxqa Ukj Xnz Xi Qaqkp"

"ما هذا الهراء؟" يقول الضابط بغضب. "هل تحاول أن تهزأ مني، يـــا ابـــن الساقطة؟ سألقنك درساً". يرفع هراوته كي يضربني، لكن عـــبدول يـــتدخل. "أرجوك لا تضربه، أيها *الصاحب* ضابط الشرطة. أصـــبح راجو مختلاً عقلياً منذ وفاه صديقة شانكار. اعتاد شانكار أيضاً أن يتكلم هكذا".

"آه، هل تلك هي الحالة؟ إذاً لماذا تظنه مشتبهاً به؟ لن نحصل على أي شـــيء من مجنون. تعالا. لنذهب"، يومئ للشرطيين. ثم يتطلع إليّ قائلاً: "متأسف على إزعاجك، يمكنكَ أن تذهب إلى البيت الآن".

أقول. «Pdxif Ukj» وأضيف: «Pxif Ukj Rznu H jyd».

أنـــا جالس على سرير سميتا والدموع تسيل من عينيّ. تأخذ سميتا يـــدي بـــيدها، وتضغط عليها برفق. ألاحظ أن عينيها أيضاً يغشاهما الدمع. تقول: "شانكار المسكين. من خلال ما رويته لي يبدو أنه كان طفـــلاً متوحداً[1]. يا للموت الفظيع الذي تحمله. توماس، لقد كابدتَ الجحيم حقيقةً. أنتَ لا تستحق كل ذلك الألم".

"لكن جحيمي أفضل من جحيم نيتا. فقط تخيلي ماذا كان يجب عليها أن تقاسيه منذ سن الثانية عشرة".

(1) متوحد autistic: التوحد هو الاسترسال في التخيل تهرباً من الواقع – م.

تومــئ سميتا برأسها. "نعم، في وسعي أن أتخيل. هل لا تزال في أغرا؟".

"يجــب أن تكــون هــناك، لكنني لا أستطيع أن أعرف بصورة مؤكدة. ليس لديّ أخبار عنها منذ أربعة شهور خلت. لا أدري ما إذا كنت سأراها مجدداً".

"أنــا علــى يقــين من أنكَ ستراها. دعنا نرى السؤال قبل الأخير".

تشير لافتة الاستوديو إلى سكوت، إلا أن الجمهور يرفض الانتباه إليها. يشيرون إليّ ويثرثرون بفرح في ما بينهم. أنا النادل الغبــي الذي كدّس مائة مليون روبية من سؤال واحد.

يخاطب بريم كومار آلة التصوير. "ننتقل الآن إلى السؤال الحادي عــشر بمائــة مليون روبية. صدقوني إنني أقشعر بمجرد التفكير في هذا المبلغ. إذاً، سيد توماس، هل أنتَ متوتر؟".

"كلا".

"ذلك مدهش. هو ذا أنتَ الآن، تقامر بملغ العشرة ملايين روبية الــتي ربحــتها حتى الآن ولا تحس بذرة من القلق. تذكر، إذا أعطيتني إجابــةً غــير صــحيحة، ستفقد كل شيء. لكنكَ إذا أعطيتني إجابةً صحيحةً، سيكون مبلغ المائة مليون روبية ملكك. ما من أحد ربح هذا المبلغ الهائل حتى الآن، ولا حتى في اليانصيب. إذاً دعنا نرى ما إذا بات صنع التاريخ وشيكاً، هنا تحديداً، الآن تحديداً. حسن، هنا يأتي السؤال الحــادي عشر، وهو من عالم..." يتوقف بريم كومار توقفاً قصيراً من أجل التأثير الدرامي، من ثم يكمل الجملة... "الأدب الإنكليزي!" تتغير لافتة الاستوديو إلى تصفيق.

"قل لي، توماس، هل لديكَ بعض المعرفة بالأدب الإنكليزي؟ هل طالعتَ الكتب الإنكليزية، المسرحيات، القصائد؟".

"حسن، في وسعي أن أتلو: خا خا خروف أسود، إذا كان ذلك هو ما تقصده بالشعر الإنكليزي".

يضحك الجمهور بصوت مرتفع.

"علـــيّ أن أعترف، أنني أملك شيئاً أكثر تعقيداً في عقلي، إنما لا يهم. لا بد أنكَ سمعت بشكسبير؟".

"شيك من؟".

"هــل تعــرف، بــارد أفون، الكاتب المسرحي الأعظم في اللغة الإنكليـــزية؟ كم أتمنى أن يكون في وسعي العودة إلى أيام الكلية، حين كـــنتُ أمــضي وقتي كله أمثل مسرحيات شكسبير. هل يتذكر أحد مـــنكم هاملت الخاص به؟ أكون أو لا أكون؟ ذلك هو السؤال؟ أمن الأنـــبل للنفس أن يصبر المرء على مقاليع الدهر اللئيم وسهامِه أو يُشهر الـــسلاح علـــى بحر من الهموم، وبصدها ينهيها[1] إنما يكفي ما يتعلق بـــي. إنه السيد توماس الذي ينبغي له أن يجيب على السؤال التالي؛ وهـــو ذا يـــأتي، وهو بمبلغ هائل إلى حدٍّ لا يصدق مقداره مائة مليون روبـــية. في أي مـــسرحية مـــن مـــسرحيات شكسبير نجد شخصية كوســـتارد؟ هـــل هي (أ) الملك لير، (ب) تاجر البندقية، (ج) مجهود الحب الضائع أم (د) عطيل؟".

تبدأ الموسيقى. أرسل نظرةً خاليةً من المعنى إلى بريم كومار.

"قـــل لي، ســـيد توماس، هل لديك أدنى فكرة مهما كانت عما نتكلم عنه الآن؟".

(1) اعـــتمدنا تـــرجمة جبـــرا إبراهيم جبرا للاقتباس الوارد أعلاه من مسرحية هاملت، دار المأمون، بغداد 1986 – م.

"لا".

"لا؟ إذاً ما الذي تنوي أن تفعله؟ عليكَ أن تعطي جواباً، حتى إذا اعـــتمد علـــى قـــذف قطعة نقد بالإظفر. من يدري ربما يكون الحظ مـــستمراً إلى جانـــبك، فربما تهتدي إلى الإجابة الصحيحة وتربح مائة مليون روبية. إذاً ما هو قرارك؟".

يـــصبح عقلي عقيماً. أعرف أنني وُضعتُ في موقع حرج أخيراً. أفكر على مدى ثلاثين ثانيةً، ومن ثم أقرر. "سأستخدم قارب نجاة".

ينظر إليّ بريم كومار بفضول. يبدو أنه نسي أن هذه اللعبة تملك شـــيئاً يُسمى قاربـــي النجاة. يفرقع بإصبعه متنبهاً أخيراً. "قارب نجاة؟ نعـــم، بالطـــبع، قاربا النجاة خاصتك موجودان. قل لي أيهما تريد أن تستخدم؟ يمكنك إما أن تطلب مني حذف إجابتين أو تذهب إلى فكرة مفيدة من صديق".

أنا مشوش الذهن مجدداً. من هو الذي التفت إليه كي يجيب عن هذا السؤال؟ سالم مثلي ليس لديه أدنى فكرة. صاحب مشرب جيمي لديـــه وعي بشكسبير بقدر وعي السكران بالاتجاه. والأدب بعيد عن أذهان نـــزلاء دهارافي كبعد النـــزاهة عن أذهان الشرطة. فقط الأب تيموثي كان في وسعه أن يبدي لي المساعدة، في ما يتعلق بهذا السؤال، وهـــو الآن في عداد الأموات. هل ينبغي لي أن أطلب حذف إجابتين؟ أدخل أصابعي في جيب قميصي كي أخرج قطعة النقد القديمة والموثوق بها خاصتي، وأندهش حينما تمس أصابعي حافة بطاقة ما. أجر البطاقة. إنهـــا بطاقة زيارة تشير إلى: "أوبتال جاترجي، معلم الإنكليزية، مدرسة القـــديس جـــون، أغرا" وفيها رقم هاتف. لم أفهم في بداية الأمر. لا أتذكـــر أي فـــرد بهذا الاسم ولا كيف دخلت هذه البطاقة إلى جيب قميـــصي. وبعـــدها، فجـــأةً، أتذكر المشهد في المستشفى: الرجل ذو

النظارة، والشعر غير الممشط الذي كان ابنه المصاب بداء الكَلَب يعاني سكرات الموت. تفلت من شفتي صرخة لاإرادية.

يسمعها بريم كومار وينظر إليّ نظرةً حادةً. "أعذرني، ماذا قلت؟".

"قلتُ من فضلك هل يمكنك الاتصال بهذا الرجل النبيل؟" أسلّم البطاقة إلى بريم كومار. "إنني استخدم قارب النجاة الخاص بفكرة مفيدة من صديق".

يقلب بريم كومار البطاقة في أصابعه. "إذاً أنتَ تعرف شخصاً ما يستطيع أن يساعدك في ما يتعلق بهذا السؤال". تبدو على وجهه نظرة قلقة. يتصل مع المخرج بنظرات العين. ينشر المخرج ذراعيه. كلمتا قارب نجاة تومضان على الشاشة. نرى الرسوم المتحركة لقارب ينفجر في وسط البحر، ثمة سبّاح ينادي طلباً للمساعدة ويرمى له طوق نجاة أحمر اللون.

يلتقط بريم كومار هاتفاً عديم السلك من تحت مكتبه ويمرره إليّ. "هو ذا. اسأل من تريد، أيَّ شخص تريد. لكن لديك دقيقتين فقط، وزمنكَ يبدأ"، ينظر إلى ساعة معصمه "... الآن!".

آخذ الهاتف، وأتصل بالرقم المكتوب في البطاقة. ينجح الاتصال، ويبدأ الهاتف الذي اتصل عبره بالرنين في أغرا. لكنه ببساطة يرن ويرن ويرن ويرن ولا أحد يرفعه. تمر نصف دقيقة. الترقب في الاستوديو يمكن قطعة بواسطة سكين. الجمهور يراقبني محبوس النَفَس. بالنسبة إليهم، أنا لا أختلف عن بهلوان في سيرك يؤدي ألاعيبه على سلك عالٍ من دون شبكة أمان في الأسفل. حركة واحدة غير صحيحة منه تورده موارد الهلاك. تسعون ثانية أخرى وسأفقد مئة مليون روبية.

حين كدتُ أنهي المكالمة الهاتفية، رفع شخص ما الهاتف. بقي لديّ الآن ما يزيد على الدقيقة. "هالو؟".

"هالو. هل أستطيع أن أكلّم السيد أوبتال جاترجي؟".

"إنه يتحدث".

"سيد جاترجي. أنا رام محمد توماس".

"رام محمد... ماذا؟".

"توماس. ربما لا تعرف اسمي، لكنني ساعدتك في مستشفى سنغانيا، حيث كان ابنك قد أُدخل المستشفى. هل تتذكر؟".

"آه" بغتةً تتغير النبرة كلياً. "كنتُ أفتش بصورة يائسة عنكَ طيلة الشهور الأربعة الماضية حمدا لله على اتصالك الهاتفي. لقد أنقذتَ حياة ابني، ليس لديكَ أدنى فكرة كم حاولتُ أن -".

أقاطعه. "سيد جاترجي، ليس لدي وقت طويل. أنا مشارك في برنامج مسابقات وأحتاج إلى أن تجيب بسرعة عن سؤال موجه إليّ".

"سؤال؟ نعم، بالطبع. أنا جاهز لكل ما تبغيه".

بقي الآن أقل من ثلاثين ثانية. العيون كلها ترصد عقارب الساعة الجدارية، وهي تتكتك بنشاط معلنة مضي الثواني واحدة بعد الأخرى.

"قل لي، بسرعة شديدة، في أي واحدة من مسرحيات شكسبير ثمة شخصية تُدعى كوستار؟ هل هي (أ) الملك لير، (ب) تاجر البندقية، (ج) مجهود الحب الضائع أم (د) عطيل؟".

الثواني تتكتك وثمة صمت من جانب جاترجي.

"سيد جاترجي، هل يمكنك أن تخبرني الجواب؟".

بقي فقط خمس عشرة ثانية حين أجاب جاترجي: "لا أدري".

ذُهلتُ. "ماذا؟".

"أنا متأسف، لا أعرف الجواب. بالأحرى، لست متيقناً لا أتذكر هذه الشخصية في تاجر البندقية أو عطيل. إنها إما في الملك لير أو مجهود الحب الضائع؛ لستُ متأكداً أيهما".

"لكنني لا أستطيع أن أعطي سوى جواب واحد".

"إذاً اذهـــب إلى مجهـــود الحب الضائع. لكنني كما قلتُ لستُ متأكداً جداً. أنا متأسف، لا أستطيع أن أكون أكثر نفعاً".

يقاطعه بريم كومار. "معذرةً، سيد توماس. الدقيقتان المخصصتان لك انتهتا. أريد جوابك الآن".

الموسيقى في الخلفية لم تعد تبدو مترقبةً بعد الآن. إنها فاترة بصورة إيجابية. أستغرق في تفكير عميق.

"ســـيد توماس، ما مدى معرفتك بالسيد جاترجي هذا؟" يسألني بريم كومار.

"التقيت به مرةً واحدةً فقط".

"وكم تبلغ كفاءته كمعلم للإنكليزية؟".

"ليس لدي فكرة".

"إذاً هل تثق بجوابه، أم أنكَ ستلجأ إلى فطرتك".

أصمم. "سألجأ إلى فطرتي، فطرتي تقول لي أن أثق بالجواب الذي أعطاني إياه السيد جاترجي. إنه (ج). مجهود الحب الضائع".

"فكّـــر مـــن جديد. تذكر أنكَ ليس فقط لن تربح المائة مليون روبية، بل ستفقد أيضاً العشر ملايين روبية التي ربحتها حتى الآن".

"جوابـــي الأخير لا يزال (ج)".

"هل أنتَ متأكد تماماً، مائة بالمائة؟".

"نعم".

"إنـــني أتحـــدث إلـــيكَ مجدداً. هل أنتَ متأكد تماماً، تماماً، مائة بالمائة؟".

"أجل".

ثمة تسارع في قرع الطبول. الجواب الصحيح يومض على الشاشة.

"إنه (ج). أنتَ على صواب تام، مائة بالمائة!" يقف بريم كومار.
"رام محمـــد توماس، أنتَ أول شخص في هذا البرنامج ربح مائة مليون روبية. سيداتي سادتي، لقد صُنع التاريخ! والآن ببساطة نأخذ فاصلاً!".

يغـــدو الجمهور شديد الحماسة. كل شخص من الجمهور يقف ويصفق بيديه على مدى أكثر من دقيقة.

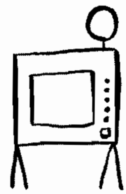
يتخضب وجه كومار بالإحمرار. إنه يتعرق بشدة.

يسألني: "إذاً كيف تشعر الآن؟".

أقول: "Q Bzzg Cnzxp!".

يبدو بريم كومار مضطرباً. "معذرةً، ماذا قلت تواً؟".

"قلتُ أشعر إنني عظيم"، أرد وأرفع بصري. أرى شانكار يبتسم لي من الأعلى. ويبدو أن دورغا تتطلع إليّ حقيقةً هذه الليلة.



1,000,000,000
السؤال الثالث عشر

نحن لا نـــزال في الفاصل الإعلاني. بريم كومار في إحدى الزوايا يتشاور مع المخرج طويل الشعر. أجيل بصري في الاستوديو، ناظرا إلى الألـــواح الخـــشبية الـــزينية الجميلة التي تكسو الجدران، إلى الأضواء الكـــشافة، الكـــاميرات المـــتعددة، نظام الصوت عالي التقنية. أعضاء كـــثيرون من الجمهور يراقبونني، ربما يسائلون أنفسهم ما الذي يخطر ببالي.

ينهي بريم كومار تشاوره ويمشي نحوي. تلوح على محياه ابتسامة عريضة مشؤومة. "توماس، لا ندري كيف استطعتَ أن تجيب عن أحد عـــشر سؤالاً حتى الآن، لكن ليس ثمة فرصة أمامك كي تكون قادراً على الإجابة عن السؤال الأخير".

"سنرى".

"كـــلا، سأرى. حضّر نفسك كي تفقد المبلغ كله"، يقول بريم كومار ويجلس على مقعده.

تتحول لافتة الاستوديو إلى تصفيق. يأتي اللحن الخاص بالبرنامج. يصفق الجمهور بصوت عالٍ.

يـــتطلع بريم كومار إلى آلة التصوير. "سيداتي سادتي، نحن نقف على حافة لحظة تاريخية، ليس بالنسبة إلى هذا البرنامج إنما على الأرجح بالنـــسبة إلى الأجـــيال القادمـــة كلها. رام محمد توماس، النادل ذو السنوات الثمانية عشرة المقيم في مومباي، قد وصل إلى مرحلة أبعد من أي متـــسابق آخر في هذا البرنامج. هو الآن يوشك أن يبدع مَعلَما[1] آخـــر. إذا أجاب عن هذا السؤال الأخير بصورة صحيحة، سيكسب أكـــبر جائزة في التاريخ. بليون روبية. إذا أخفق في أن يعطيني الجواب الـــصائب، سيخسر أكبر مبلغ خسره إنسان في أي زمن خلال ستين ثانـــيةً؛ مائـــة مليون روبية. في كلتا الحالتين، التاريخ سيُصنع. لذا من فضلكم نوروا عقولكم، املأوا أفئدتكم، وانضموا إليّ كي نحيي مجدداً متسابقنا هذه الليلة، السيد رام محمد توماس!".

تـــتغير لافـــتة الاستوديو إلى تصفيق. الجميع، حتى بريم كومار، يقفون وثمة تصفيق مؤازر.

لا بـــد لي أن أبـــدي إعجابـــــي بتكتيكات 3صB. كانوا قد كـــرموني قـــبل أن يرسلوني إلى البرنامج خالي الوفاض. كالحمل، إنهم يـــسمنونني ويـــتملقونني قبل أن يذبحوني في السؤال التالي. اللحظة التي كـــنتُ أنتظـــرها، وأخشاها، حانت أخيراً. أعبُّ نفساً عميقاً وأستعد لمواجهة مصيري.

"سيداتي وسادتي، أنا على وشك أن أكشف عن السؤال الثاني عـــشر، السؤال الأخير، ببليون روبية، أكبر جائزة مُنحت في تاريخ الكوكب. وتذكر أننا لا نـــزال في جولات **تلعب أو تخسر**، أي أن تربح الكل أو تخسر الكل. حسن، من دون أي ضوضاء إضافية، هو

(1) مَعلَـــم milestone: حـــدث مهم يمثل مرحلة من مراحل التاريخ أو الحياة الإنسانية – م.

ذا السؤال الأخير الموجه إليك، سيد توماس، وهذا من... صفحات التاريخ! كلنا نعرف أن ممتاز محل كانت زوجة الإمبراطور شاه جهان وأنه شيد تاج محل المشهور عالمياً تخليداً لذكراها، لكن ما اسم والد ممتاز محل؟ خياراتك، سيد توماس، هي (أ) ميرزا علي قلي بيك، (ب) سراج الدولة، (ج) آصاف جاه أو (د) عبد الرحيم خان خانان.

فكر في الجواب بعناية، سيد توماس. تذكر، أنكَ في مفترق طرقات تاريخي. أعرف أنكَ تحتاج إلى الوقت كي تفكر ملياً في جوابك، وكي نسمح لكَ بذلك، سنأخذ الآن فاصلاً إعلانياً آخر. سيداتي وسادتي، أرجوكم لا تفكروا في أن تذهبوا إلى أي مكان".

تتغير لافتة الاستوديو إلى تصفيق. يعزف من جديد اللحن الخاص بالبرنامج.

يبتسم لي بريم كومار ابتسامة عريضةً. "لقد حيرتك؟ أليس كذلك؟ ما لم تكن حاصلاً على شهادة الماجستير في تاريخ العصور الوسطى، ليس ثمة فرصة لك كي تجيب عن هذا السؤال، إذاً ألقِ تحية الوداع على المائة مليون التي كسبتها الآن، واستعد لاستئناف مسيرتك كنادل. من يدري، ربما آتي إلى مشرب جيمي غداً. ماذا ستقدّم إليّ؟ دجاج بالزبد وحمل مع الشراب الفرنسي والثوم" يقهقه.

أبادله الضحك. "ها! ليس لدي شهادة الماجستير في التاريخ، لكنني أعرف الإجابة عن هذا السؤال".

"ماذا؟ لا بد أنكَ تمزح، بالتأكيد؟".

"أنا لا أمزح. الجواب هو آصاف جاه".

يبدو بريم كومار مذعوراً. "كيف... كيف تعرف هذا؟".

"أعرفه لأنني عملتُ مرشداً طيلة عامين في تاج محل".

يستحيل وجه بريم كومار شاحباً كشحوب الأموات. لأول مرة ينظر إليَّ بشيء قليل من الخوف. "أنتَ... أنتَ تلعب نوعاً من السحر، أنا متأكد"، يقول ويركض إلى المخرج. يتهامسان. يومئ بريم كومار في أثناء كلامه مرات عدة ناحيتي. ثم يجلب شخص ما كتاباً سميكاً وينقبان فيه. تمر عشر دقائق. يبدأ الجمهور بالتململ. في الختام، يعود بريم كومار إلى مقعده. تعبير وجهه حيادي، لكنني متأكد بأنه يتلوى داخلياً.

تتغير لافتة الاستوديو إلى تصفيق وتبدأ الموسيقى الخاصة بالبرنامج.

"سيداتي سادتي، قبل أن نمضي إلى الفاصل وجهتُ السؤال، ما اسم والد ممتاز محل؟ أنا متيقن من أنكم جميعاً ظننتم أن هذا هو السؤال الأخير، لكنه ليس كذلك".

الجمهور منذهل. أنا منذهل. هل يدخلون سؤالاً آخر؟ يصبح الجو مثقلاً بالتوتر.

يواصل بريم كومار كلامه: "ليس فقط أنه ليس السؤال الأخير، بل هو ليس سؤالاً البتة. كنا ببساطة نسجل إعلاناً تجارياً لشاي ممتاز، وهي واحدة من المؤسسات التجارية التي ترعى هذا البرنامج. لهذا السبب، علينا أن ندخل سؤالاً كاذباً".

يبدأ أعضاء الجمهور بالتهامس في ما بينهم. ثمة ضحك مكبوت. ينادي أحدهم: "سيد كومار، أنتَ حقيقةً تمزح معنا!" يتبدد التوتر. تتغير لافتة الاستوديو إلى تصفيق مجدداً.

أنا الوحيد الذي لا تلوح على ثغره بسمة. أعرف الآن أن هذا برنامج يديره قوم غير مستقيمين.

تتبدل لافتة الاستوديو إلى سكوت، ويبدأ اللحن الخاص بالبرنامج. يتكلم بريم كومار إلى الكاميرا: "سيداتي سادتي، أكاد الآن

أكشف السؤال الثاني عشر، السؤال الأخير، ببليون روبية، أكبر جائزة منحت حتى الآن في تاريخ كوكبنا الأرضي. وتذكر، نحن لا نزال في مرحلة **تلعب أو تخسر**، أي إما أن تربح الكل أو تخسر الكل. حسن، من دون ضوضاء إضافية، هو ذا السؤال الأخير لكَ، سيد توماس، وهذا من عالم... الموسيقى الكلاسيكية الغربية! سوناتا بيتهوفن المعزوفة على البيانو المرقمة تسعة وعشرون بمائة وست قطع موسيقية، التي تسمى أيضاً سوناتا لوحة المفاتيح الطرقة[1] هي في أي مقام موسيقي؟ هل هي في (أ) السلم الكبير *العجم* مع صوت أعلى بنصف درجة على درجة السي، (ب) السلم الموسيقي الصغير *النهاوند* على درجة الصول، (ج) السلم الكبير *العجم* مع صوت أعلى بنصف درجة على درجة المي، أم (د) السلم الموسيقي الصغير *النهاوند* على درجة الدو؟[2].

"فكّر في الإجابة بعناية، سيد توماس. تذكر أنك في مفترق طرقات تاريخي. هذا هو القرار الأخطر في حياتك. أعرف أنك تحتاج إلى الوقت كي تفكر ملياً في جوابك، ولكي نسمح لكَ بذلك، سنأخذ الآن فاصلاً إعلانياً سريعاً آخر. سيداتي سادتي، لا تفكروا أبداً في أن تذهبوا إلى أي مكان".

تتبدل لافتة الاستوديو إلى تصفيق. يتطلع إليّ بريم كومار ببسمة متكتمة. يبدأ الجمهور الثرثرة في ما بينهم.

يقف بريم كومار. "إنني ذاهب فقط حول الزاوية. سأعود حالاً".

أنا أيضاً أقف على قدميّ. "أحتاج إلى الذهاب إلى دورة المياه".

(1) سوناتا لوحة المفاتيح الطرقة: وردت بالألمانية Hammerklaver Sonata – المترجم.

(2) المصطلحات الموسيقية أعلاه بحسب النظام الفرنسي – المترجم.

يقــول كومار: "إذاً الأفضل أن تأتي معي. تشترط القواعد على مرافقة المتسابق أينما ذهب".

أنـــا في غرفة مغاسل الاستوديو المضاءة بالفلورسنت. إنها نظيفة جداً. الرقاقات التي تكسو الجدران والأرضية بيضاء لامعة. هنالك مرايا ضخمة. وليس ثمة نقوش على الجدران.

بريم كومار وأنا الشخصان الوحيدان في غرفة المغاسل. يصفر لحناً في ما هو يتبول. بعدها يلاحظ أنني أتطلع إليه. "ما الذي يحدث لـــك بحيث إنكَ تقف ببساطة؟ لا تقل لي إن السؤال الأخير عسير جــداً بحيث إنك حتى نسيت كيف تفرّغ مثانتك؟" يرد رأسه إلى الـــوراء ويـــضحك. "إنه لشيء سيئ جداً أن تنتهي المسابقة بهذه الطريقة. لولا مساعدتي لكنتَ خارجها منذ زمن طويل، في السؤال الثاني نفسه. أي لولا مساعدتي لكنتَ في البيت مع ألف روبية فقط. ما رأيكَ بأن نعقد صفقة؟ غداً، آتي إلى مطعمكَ، أعدك أن أعطيكَ بقشيـــشاً قـــدره ألف روبية. وصدقني، هذا وعد سأحافظ عليه". يبتسم لي بتفضل.

أقـــول له: "أنتَ لم تعمل لي معروفاً بإخباري الإجابة عن السؤال الثاني، لقد عملتَ معروفاً لنفسك".

ينظر إليّ بريم كومار نظرةً حادةً. "ماذا تقصد؟".

"مـــا أقـــصده، ســـيد كومار، هو أنني لم آتِ إلى برنامجك كي أكسب المال. لا. هدفي بعيد عن هذا". أهز رأسي بمبالغة. "كلا، أتيتُ إلى برنامج المسابقات خاصتك كي أنتقم".

يختصر بريم كومار تبوله في منتصف الدفق. يصعد سحاب بنطاله بسرعة وينظر إليّ نظرةً جانبية. "تنتقم، ماذا تقصد؟ تنتقم ممن؟".

"منكَ". أقول بجرأة. أخطو إلى الوراء، وأسحب مسدساً من رباط خصر سروالي. إنه مسدس صغير، أفطس الأنف، متراص جداً، لا يزيد حجمه على حجم قبضتي. أمسكه بقوة بيدي وأوجهه إليه.

الدم ينسحب من وجه بريم كومار. "أنتَ... أنتَ مخطئ، سيد توماس. نحن لم نلتقِ من قبل"، يقول، صوته يكاد يكون همساً.

"كلا، أنتَ مخطئ. لقد التقينا مرةً خارج شقة نيليما كوماري. كان ذلك في الصباح الباكر. كنتَ تختال بسروال الجينز الأزرق وبقميص بيضاء، بعينين محتقنتين بالدم وشعر غير مغسول. كنتَ تحمل رزمةً من المال أجبرتَ نيليما على التخلي عنها. لقد حطمتها. لكنكَ لم تكتفِ بذلك. فعلتَ الشيء نفسه مع محبوبتي نيتا".

"نيتا؟" يرفع بريم كومار حاجبيه. "هذا الاسم لا يعني لي شيئاً البتة".

"هي الفتاة التي تحرقت شوقاً لتسدي إليكَ شكرها في أغرا، والآن"، أمسك المسدس بصورة أقوى، "لقد جاء دوركَ كي تموت".

يتطلع بريم كومار بقلق إلى يدي. يتوقف فجأة. "هل قلتَ أغرا؟ لكنني لم أذهب إلى أغرا منذ شهور".

"دعني أنشط ذاكرتك. قبل أربعة شهور مكثتَ في فندق القلعة. دعيتَ فتاةً إلى حجرتكَ. ربطتها. وبعدها بوحشية ضربتها وأحرقتها بسيجارة مشتعلة، كما فعلتَ بنيليما".

أرى شفتيه تبدأان بالارتعاش. ثم تبدأان بالتجعد.

"هي مجرد ساقطة، إكراماً لله. دفعتُ لقوّادها خمسة آلاف روبية. لم أكن أعرف حتى اسمها".

"اسمها نيتا". ارفع مسدسي.

يرفع بريم راحته نحوي. "لا... لا..." يصيح ويخطو إلى الوراء. قدمه اليمنى تغوص في المجرى المفتوح وراءه. "لا تطلق النار –

أنـــــزل ذلك الشيء الآن، أرجوك". يتوقف قليلاً كي يخرج قدمه من المجرى.

أصـــوّب المسدس إلى قلبه مباشرةً. يمكنني أن أرى أنه يرتجف هلعـــاً. "لقد أقسمتُ أن أنتقم من الشخص المسؤول عن إيذاء نيتا. لكـــنني لم أكـــن أعرف كيف أعثر عليكَ. ومن ثم رأيتُ إعلاناً في إحـــدى الجرائد في أغرا. أظهر الإعلان وجهك، مكشراً كالحمار، تدعـــو الناس إلى المشاركة في برنامج للمسابقات في مومباي. لهذا السبب أنا هنا. كان يجب عليّ أن أطلق عليكَ النار عند أول سؤال يـــتعذر علـــيّ الإجابـــة عنه، إنما بصورة عجائبية كنتُ قادراً على الإجابـــة عن كل سؤال من الأسئلة. لذا حين ساعدتني في السؤال رقـــم اثـــنان لم تسدي إليّ معروفاً البتة، أنتَ حصراً أطلتَ حياتكَ قليلاً. إنما الآن ما من مفر".

"أصـــغي إليّ"، يتضرع بريم كومار. إنه ينهار الآن. "لقد عاملتُ نيليما معاملةً سيئةً وكنتُ فظاً مع تلك الساقطة من أغرا. لكن ما الذي تكـــسبه مـــن إطلاق النار عليّ؟ لن تحصل على مالك. أنـــزل ذلك المسدس الآن، وأعدكَ بأنني سأجعلكَ قادراً على أن تربح تلك الجائزة الكبرى. فكر فقط، ستنال ثروةً أبعد ما تكون عن أكثر الأحلام جموحاً لنادل مثلك".

أقهقه بمرارة. "ما الذي سأفعله بكل تلك الثروة؟ في نهاية المطاف لا يحتاج الإنسان سوى إلى ست أقدام من القماش لكفنه".

يمسي هو أكثر شحوباً ويرفع يده مدافعاً. "من فضلك، لا تضغط علـــى الـــزناد. انظر، لحظةَ تقتلني سيتم القبض عليكَ. وستُعدم شنقاً. أنتَ، أيضاً، ستصبح في عداد الأموات".

"وماذا يعني؟ الشيء الوحيد الذي أعيش من أجله هو الانتقام".

"من فضلك فكّر في الأمر من جديد، توماس. أقسم لكَ، وفرّ عليّ حياتي، وسأخبركَ بجواب السؤال الأخير. ستكون رابحنا الأكبر".

"لن أعود إلى برنامج المسابقات، ولا حتى أنتَ"، أقول وأزيل سقاطة الأمان.

يتهشم تظاهر بريم كومار بالشجاعة. أرى كم هو جبان. يمسك بالجدار الذي خلفه، ويغمض عينيه بإحكام. اللحظة التي كنتُ أنتظرها طيلة الشهور الأربعة المنصرمة حانت أخيراً. بريم كومار قبالتي ومسدس محشو بيدي. المسدس جيد حقيقةً. رميت طلقة اختبار، ووجدتُ أن ارتداد السلاح أقل ما يمكن. على كل حال، عند المدى القريب جداً قلما أستطيع أن أخطئه.

أزيد الضغط على الزناد، لكن كلما أضغط عليه أكثر أصادف مقاومة أكثر. يبدو كما لو أن إصبعي قد استحال حجراً.

في الأفلام السينمائية يُظهرون لك أن قتل الإنسان بسهولة فرقعة بالون. بام، بام، بام... الناس في الأفلام يطلقون النار من المسدسات كما لو أن الطلقات تخرج من الدورة الدموية. إنهم يقتلون الناس كما نسحق النمل. حتى البطل المبتدئ، الذي لم يرَ في حياته قط مسدساً، يكون قادراً على إطلاق النار وقتل عشرة أشرار في وكر النذل من مسافة خمسمائة قدم. لكن الحياة الواقعية مختلفة جداً. من السهل أن تحمل مسدساً محشواً وتصوبه بوجه امرئ ما. لكن حين تعرف أن طلقةً حقيقيةً ستصيب قلباً حقيقياً وأن السائل القرمزي سيكون دماً وليس صلصة الطماطم، تكون مرغماً على أن تفكر مرتين. من اليسير جداً أن تقتل إنساناً. تحتاج أولاً إلى أن تتخلى عن عقلك. احتساء المشروبات يمكن أن يفعل ذلك. وكذلك الغضب.

لذا أحاول أن أستجمع أكبر قدر ممكن من الغضب. أسترجع في عقلـــي كـــل الـــذي أتى بـــي إلى هذا المأزق في الحياة. صور نيليما كوماري ونيتا تطفو عبر عقلي. أرى علامات حرق السيجارة السوداء علـــى جسد نيليما، آثار الضرب الأحمر على عجيزة نيتا، الكدمات في كـــل أنحاء وجهها، عينها المسوّدة، فكها المخلوع. إنما بدلاً من إصبع مـــرفوع، أشعر بحزن منتشر، وبدلاً من عيار ناري يخرج من مسدسي، أجد دموعاً حبيسة تخرج من عينيّ.

أحاول أن أنال الدعم من جهات أخرى. أفكر في كل الإهانات التي عانيتُ منها، كل الأذى والإذلال الذي تحملته. أرى الجثة الملطخة بالـــدم للأب تيموثي، أرحم إنسان عرفته، وجثة شانكار الرخوة، أرق غـــلام التقيته. أتذكر كل تجار العذاب الذين مروّا بحياتي. صور سوابنا ديفـــي، شـــانتارام ومامان تطن عبر دماغي، وأحاول أن أضغط هذه العواطـــف كلها في جزء الثانية ذاك الذي ستثور به الطلقة. بالرغم من مجهودي، أجد أنني لا أستطيع أن ألقي اللوم الناجم عن محني كلها على الرجل الذي قبالتي. لا أملك غضباً كافياً في داخلي كي أبرر موته.

وأدرك بعدئذ، ربما كمحاولة، أنني لا أستطيع أن أقتل بدم بارد، ولا حتى حشرةً طفيليةً مثل بريم كومار.

أخفض المسدس.

هـــذا كله يحدث في فضاء زمني أمده نصف دقيقة. يتحمله بريم كومار بعينين مغمضتين بإحكام. حينما لم يسمع صوت طلقة مسدس، يفتح عيناً واحدة. إنه يتعرق ككلب. يرسل إليّ نظرةً خاليةً من المعنى، مسدس في يدي والتردد يظهر جلياً على وجهي.

خـــتاماً، يفـــتح كلـــتا عينيه. "شكراً على إبقائك على حياتي، تـــوماس". يقـــول وصدره يعلو وينخفض. "مقابل رأفتك، سأخبرك

بجـــواب السؤال الأخير، لقد ربحتَ بأمانة حتى الآن. كان السؤال عن ممـــتاز محل هو السؤال الأخير، وقد عرفتَ الجواب. لذا الآن سأخبركَ بجواب السؤال الجديد".

"وكيف أعرف بأنكَ لن تغيره مجدداً في الدقيقة الأخيرة؟".

"ابـــقَ ممـــسكاً بمـــسدسك. لكـــن صدقني، إنك لن تحتاج إلى استخدامه، لأنني الآن بإخلاص أريدك أن تربح الجائزة الكبرى. بليون روبية هو بليون روبية. وستحصل عليه كله نقداً وعداً".

لأول مرة، تغويني إمكانية الحصول على هذا المال كله. مع بليون أستطيع أن أنجز أشياءً كثيرةً. أستطيع أن أشتري حرية نيتا. أستطيع أن أحقـــق حلـــم سالم في أن يصبح نجماً سينمائياً. أستطيع أن أنير حياة آلاف الـــزملاء الأيتام وأولاد الشوارع مثلي. أستطيع أن أمتلك سيارة فيراري حمراء جميلة. أتخذ قراري. إنه نعم للبليون ولا للقتل.

أسأل: "حسن، ما هو الجواب إذاً؟".

"ســـأخبرك" يقـــول بريم كومار. يخفض بصره ناظراً إلى قدميه ويتوقف مؤقتاً.

أسأله: "ما هي المشكلة؟".

"أدركـــتُ أنـــني إذا أخبرتك بالجواب، سأنتهك حرمة عقدي وكـــذلك قـــواعد البرنامج. جائزتك من المحتمل أن تلغى". يهز رأسه ببطء. "كلا، لن أخبرك بالجواب".

أنا مرتبك.

ظـــل ابتسامة يبدأ بعبور وجه بريم. "قلتُ إنني لا أقدر أن أخبرك بالإجابة، إنما ليس ثمة شيء في عقدي يمنعني من أن أشير إشارةً عرضيةً. الآن أصغي إليّ بعناية. إنني ذاهب إلى محطة القطار بعد البرنامج مباشرةً وسآخذ القطار. دُعيتُ إلى زيارة أربعة أصدقاء في حيدر آباد، بارودا،

كـــوجين ودلهي، لكنني أستطيع فقط أن أزور واحداً منهم. لذا قررتُ أن أيمـــم وجهي شطر حيدر آباد، كي أغسل كل خطاياي من خلال غطسة في سنغام. حسن؟".

"حسن"، أومئ برأسي.

نغـــادر غرفة المغاسل ونعود إلى مقعدينا. يرسل إليّ بريم كومار نظرةً قلقـــةً. أســـائل نفسي هل سيفي بكلمته؟ الجميع يصفقون حين أجلس. يجلس مسدسي بعدم ارتياح في جيبـــي الجانبـــي. أضع يدي فوقه.

تتغير لافتة الاستوديو إلى سكوت.

يلـــتفت إليّ بـــريم كومار. "سيد رام محمد توماس، قبل أن نأخذ فاصـــلنا الأخـــير، وجهتُ إليك السؤال الأخير، السؤال الثاني عشر، بليـــون روبية. سأعيد السؤال من جديد. سوناتا بيتهوفن المعزوفة على البيانو المرقمة تسعة وعشرون، ذات المائة وست قطع موسيقية، عُرفت أيضاً بسوناتا لوحة المفاتيح المطرقة، هي في أي مقام موسيقي؟ هل هي في (أ) الـــسلم الكبير *العجم* مع صوت أعلى بنصف درجة على درجة الـــسي، (ب) السلم الصغير *النهاوند* على درجة الصول، (ج) السلم الكـــبير *العجم* مع صوت أعلى بنصف درجة على درجة المي، أم (د) السلم الصغير *النهاوند* على درجة الدو؟ هل جهزت الإجابة؟".

"كلا".

"كلا؟".

"أعني أنني لا أعرف الجواب على هذا السؤال".

تقتـــرب الكاميرا التلفازية من وجهي بسرعة أي تزوّم. ثمة لهاثات مسموعة من الجمهور.

"حـــسن، ســـيد توماس، كما أخبرتكَ، أنتَ تقف عند مفترق طـــرقات تاريخي. أحد الطرقات يفضي إلى ثروة لا يمكن تخيلها، لكن

الثلاثة الأخرى ببساطة تعود بكَ إلى نقطة البداية. لذا حتى إذا اخترتَ التخمين المتهوّر، خمّن بعناية وحذر. يمكنك أن تربح الكل أو تخسر الكل. هذا هو أهم قرار في حياتك".

"أحبذ أن أستخدم قارب نجاة".

"حسن، بقي لديك قارب نجاة واحد وهو حذف إجابتين. لذا سنحذف إجابتين غير صحيحتين، تاركين إجابة واحدة صحيحة وواحدة غير صحيحة. عندئذ يكون لديك فرصة خمسين بالمائة في الحصول على الجواب الصحيح".

كلمتا قارب النجاة تومضان على الشاشة. نرى رسماً متحركاً لقارب ينفجر في وسط البحر، ثمة سبّاح ينادي طلباً للمساعدة ويرمى له طوق نجاة أحمر اللون. تتغير الشاشة إلى عرض السؤال كاملاً مرةً أخرى. ثم تختفي إجابتان ويومض خياران فقط على الشاشة هما الخيار (أ) و(ج).

يقول بريم كومار: "ها قد حذفنا لكَ إجابتين. الجواب أما (أ) أو (ج). أعطني الإجابة الصحيحة وستصبح أول إنسان في التاريخ يربح بليون روبية. أعطني الإجابة غير الصحيحة وستصبح أول إنسان في التاريخ يخسر مائة مليون روبية في أقل من دقيقة. ما هو قرارك؟".

أخرج قطعتي النقدية الجالبة للحظ السعيد من فئة روبية واحدة. "إذا جاءت على وجهها الجواب سيكون (أ)، وإذا جاءت على قفاها سيكون الجواب (ج). حسن؟".

الجمهور يلهث أزاء جرأتي. يومئ بريم كومار برأسه موافقاً. عاد البريق إلى عينيه.

أقذف العملة النقدية بإظفري.

تركزت العيون كلها على العملة النقدية في ما هي ترتفع إلى الأعلى، بحركة بطيئة بعض الشيء. لا بد أن هذه هي العملة النقدية من

فئة روبية واحدة الوحيدة في التاريخ التي يركب عليها بليون. تهبط على مكتبـــي، وتدوّم هنيهةً قبل أن تتوقف عن الحركة. ينحيْ بريم كومار كي يتطلع إليها ويعلن قائلاً: "إنه الوجه!".

"في تلك الحالة جوابـــي هو (أ)".

"هل أنتَ متأكد مائة بالمائة، سيد توماس؟ لا يزال في وسعك أن تختار الجواب (ج) إذا شئتَ".

"قذف العملة النقدية قرر جوابـــي. إنه (أ)".

"هل أنتَ متأكد تماماً، مائة بالمائة؟".

"نعم. أنا متأكد تماماً، مائة بالمائة".

ثمة تسارع في قرع الطبول. الجواب الصحيح يومض على الشاشة لآخر مرة.

"إنـــه (أ)! صحيح تماماً، مائة بالمائة! سيد رام محمد توماس، لقد صـــنعتَ التاريخ من خلال فوزكَ بأكبر جائزة في العالم. بليون روبية، أجـــل، بليون روبية هو ملكك، وستدفع لك بعد وقت قصير. سيداتي ســـادتي، من فضلكم أعطوا دورةً قويةً جداً من التصفيق لأكبر فائز في الأزمنة كلها!".

تـــبدأ قـــصاصات الـــورق الملوّنة بالسقوط من السقف. أضواء كـــشافة حمـــراء، خضراء، زرقاء، وصفراء تغمر المسرح. على مدى دقيقـــتين تقـــريباً، يقف الجميع ويصفقون. ثمة صفارات. ينحني بريم كومار. ثم يغمز لي بعينه بمكر. لا أرد على غمزه.

فجـــأةً يأتي المخرج إلى المنصة ويأخذ بريم كومار معه. يتبادلان كلمات ساخنة.

هيوستون، أعتقد أن لدينا مشكلة.

تـــطلع سميتا إلى ساعة معصمها، وتنهض من السرير. "فيو! يا له من برنامج، يا لها من قصة، يا لها من ليلة! إذاً الآن أعرف كيف ربحتَ بلـــيون روبـــية. إن قذف العملة النقدية بالإظفر في النهاية كان لمجرد العرض، أليس كذلك؟ كنتَ تعرف أصلاً أن الإجابة هي (أ)".

"أجل. لكن قرري هل أستحق الجائزة الكبرى أم لا. لم أخفِ أي شيء عنكِ. لقد رويتُ لكِ أسراري كلها".

"أعـــتقد أنـــه من العدالة أن تعرف أسراري أنا أيضاً. لا بد أنكَ تسأل نفسك من أنا ولماذا ظهرتُ فجأةً في مركز الشرطة".

"حسن، نعم، لكنني قررتُ ألا أسأل".

"أنــــا غوديا. أنا الفتاة التي مددتَ لها يد العون في المبنى السكني. ولا أشعر بالندم لأنكَ دفعتَ والدي نحو موته. لقد كسر ساقاً حصراً، وهذا ما جعل عقله يستقيم. لم يضايقني بعد ذلك. أنا مدينة بكل شيء لـــك. على مدى سنوات طويلة حاولتُ العثور عليك، لكنكَ تلاشيتَ عن الأنظار. ثم يوم أمس شاهدتُ اسمكَ في الجريدة. كان الخبر يفيد أن غلاماً اسمه رام محمد توماس تم اعتقاله من قبل الشرطة. كنتُ أعرف أن هنالك فقط رام محمد توماس واحداً، وأتيتُ راكضةً إلى مركز الشرطة. لـــذا فقـــط فكر في هذا باعتباره رداً صغيراً جداً للدَين الذي لك في ذمتي".

تغلبني العاطفة. أمسك بيد سميتا، أتحسس لحمها وعظمها، وتبدأ دموعي بالانهمار. أعانقها. "أنا سعيد جداً أنكِ وجدتني. لديّ محامية، وصديقة، وأخت في وقت واحد".

"مصاعبك كلها هي الان مصاعبـــي، يا سيد رام محمد توماس"، تقـــول سميتا، مع تصميم قوي في عينيها. "سأحارب من أجلكَ، كما حاربتَ من أجلي".

فئة روبية واحدة الوحيدة في التاريخ التي يركب عليها بليون. تهبط على مكتبـــي، وتدوّم هنيهةً قبل أن تتوقف عن الحركة. ينحني بريم كومار كي يتطلع إليها ويعلن قائلاً: "إنه الوجه!".

"في تلك الحالة جوابـــي هو (أ)".

"هل أنتَ متأكد مائة بالمائة، سيد توماس؟ لا يزال في وسعك أن تختار الجواب (ج) إذا شئتَ".

"قذف العملة النقدية قرر جوابـــي. إنه (أ)".

"هل أنتَ متأكد تماماً، مائة بالمائة؟".

"نعم. أنا متأكد تماماً، مائة بالمائة".

ثمة تسارع في قرع الطبول. الجواب الصحيح يومض على الشاشة لآخر مرة.

"إنـــه (أ)! صحيح تماماً، مائة بالمائة! سيد رام محمد توماس، لقد صـــنعتَ التاريخ من خلال فوزكَ بأكبر جائزة في العالم. بليون روبية، أجـــل، بليون روبية هو ملكك، وستدفع لك بعد وقت قصير. سيداتي ســـادتي، من فضلكم أعطوا دورةً قويةً جداً من التصفيق لأكبر فائز في الأزمنة كلها!".

تـــبدأ قـــصاصات الـــورق الملوّنة بالسقوط من السقف. أضواء كـــشافة حمـــراء، خضراء، زرقاء، وصفراء تغمر المسرح. على مدى دقيقـــتين تقـــريباً، يقف الجميع ويصفقون. ثمة صفارات. ينحني بريم كومار. ثم يغمز لي بعينه بمكر. لا أرد على غمزه.

فجـــأةً يأتي المخرج إلى المنصة ويأخذ بريم كومار معه. يتبادلان كلمات ساخنة.

هيوستون، أعتقد أن لدينا مشكلة.

تـــتطلع سميتا إلى ساعة معصمها، وتنهض من السرير. "فيو! يا له من برنامج، يا لها من قصة، يا لها من ليلة! إذاً الآن أعرف كيف ربحتَ بلـــيون روبـــية. إن قذف العملة النقدية بالإظفر في النهاية كان لمجرد العرض، أليس كذلك؟ كنتَ تعرف أصلاً أن الإجابة هي (أ)".

"أجل. لكن قرري هل أستحق الجائزة الكبرى أم لا. لم أخفِ أي شيء عنكِ. لقد رويتُ لكِ أسراري كلها".

"أعـــتقد أنـــه من العدالة أن تعرف أسراري أنا أيضاً. لا بد أنكَ تسأل نفسك من أنا ولماذا ظهرتُ فجأةً في مركز الشرطة".

"حسن، نعم، لكنني قررتُ ألا أسأل".

"أنـــا غوديا. أنا الفتاة التي مددتَ لها يد العون في المبنى السكني. ولا أشعر بالندم لأنكَ دفعتَ والدي نحو موته. لقد كسر ساقاً حصراً، وهذا ما جعل عقله يستقيم. لم يضايقني بعد ذلك. أنا مدينة بكل شيء لـــك. على مدى سنوات طويلة حاولتُ العثور عليك، لكنكَ تلاشيتَ عن الأنظار. ثم يوم أمس شاهدتُ اسمكَ في الجريدة. كان الخبر يفيد أن غلاماً اسمه رام محمد توماس تم اعتقاله من قبل الشرطة. كنتُ أعرف أن هنالك فقط رام محمد توماس واحداً، وأتيتُ راكضةً إلى مركز الشرطة. لـــذا فقـــط فكر في هذا باعتباره رداً صغيراً جداً للدَين الذي لك في ذمتي".

تغلبني العاطفة. أمسك بيد سميتا، أتحسس لحمها وعظمها، وتبدأ دموعي بالانهمار. أعانقها. "أنا سعيد جداً أنكِ وجدتني. لديّ محامية، وصديقة، وأخت في وقت واحد".

"مصاعبك كلها هي الآن مصاعبـــي، يا سيد رام محمد توماس"، تقـــول سميتا، مع تصميم قوي في عينيها. "سأحارب من أجلكَ، كما حاربتَ من أجلي".

الخاتمة

مرت ستة شهور منذ أطول ليلة في حياتي.

بقيت سميتا مخلصةً لكلمتها. حاربت من أجلي كما تحارب الأم من أجل أولادها. في البداية تعاملت مع الشرطة. أثبتت لهم أنهم لا يملكون أساساً كي يعتقلوني. اكتشفتُ كذلك أن ما من أحد قد سمع عن اللص الميت في القطار وليس ثمة تحقيق غير مبتوت فيه. لذا فإن اللص مجهول الاسم بقي مجهول الاسم، حتى في مماته.

ثم تعاملت مع شركة المسابقات. هددوني بمزاعم تتعلق بالخداع والاحتيال، إلا أن سميتا برهنت على أن تسجيل الدي في دي أثبت بجلاء أنني الفائز الشرعي في البرنامج. بعد أربعة شهور من التلكؤ، كانت الشركة مجبرة على أن تسلّم بأنها لا تملك أي أسس تعتمد عليها كي تمتنع عن دفع مبلغ الجائزة الكبرى لي.

لم أحصل على بليون روبية تماماً. حصلتُ على مبلغ أقل بنزر يسير. أخذت الحكومة بعض المال. أسموه *ضريبة برنامج المسابقات*. أفلست الشركة التي أنتجت W_3B بعد تسديدها المبلغ الضخم. لذا أصبحتُ أول وآخر فائز في البرنامج.

توفي بريم كومار قبل شهرين. بحسب أقوال الشرطة، انتحر مسمماً نفسه بالغاز حتى الموت في سيارته الخاصة. غير أن تقارير الصحافة تعزو سبب الوفاة إلى لعبة قذرة. أما حدسي الباطني فيذهب إلى أن قطاع الطرقات الذين يمولون البرنامج ربما انتقموا منه.

أدركتُ منذ زمن بعيد أن للأحلام سلطة على عقلك الشخصي فحسب؛ لكن مع المال يمكنك أن تتسلط على عقول الناس. ما اكتشفته بعد تسلم المبلغ هو أنه مع المال أصبحتُ أتسلط حتى على الشرطة. لذا، رافقني فريق ضخم من الشرطة، وقمتُ بزيارة غوريغاون الشهر الماضي، زرتُ مبنى كبيراً متداعياً منتصباً في فناء ذات حديقة صغيرة ونخلتين. اعتقل رجال الشرطة خمسة أشخاص، وحرروا خمسة وثلاثين ولداً معوقاً. هم الآن في عناية وكالة عالمية شهيرة تعني برفاهية الأولاد.

كذلك ضُمن إطلاق سراح لاجوانتي من السجن الشهر الماضي وهي الآن تقيم معي في مومباي. في الحقيقة، رجعت الأسبوع الماضي تحديداً من عرس شقيقتها لاكشمي في دلهي حيث تزوجت من موظف ذي رتبة عالية في الخدمة الإدارية الهندية. لم تطلب عائلة العريس أي مهر، لكن لاجوانتي مع ذلك منحت شقيقتها سيارة تويوتا كورولا، وجهاز تلفاز باثنتين وثلاثين بوصة من نوع سوني، وعشرين بذلة رايموند رجالية وكيلوغراماً من المجوهرات الذهبية.

لعب سالم دور بطل في الكلية يبلغ من العمر سبعة عشر عاماً في فيلم كوميدي من إخراج جمبو دهاوان، وهذه الأيام مشغول بالتصوير في استوديوهات محبوب. يعتقد أن المنتج هو رجل يدعى محمد بهات، إنما في الواقع أنا.

محبوبة حياتي انضمت إليّ في مومباي. هي الآن زوجتي التي اقترنتُ بها قانونياً، بلقب مناسب، نيتا محمد توماس.

نتمشى أنا وسميتا على طول الطريق البحري. تهب ريح لطيفة، بين الفينة والفينة، ترسل رذاذاً سديمياً من المحيط حيث الأمواج العملاقة تنسحق وتدور على الصخور. يتبعنا السائق ذو البذلة النظامية بخطى

حلـــزون في ســـيارة مرســـيدس بينـــز، محافظاً على مسافة دالة على الاحترام. مخفف الصدمة الخلفي للمرسيدس بينـــز يحمل لصقة تقول: "سيارتي الأخرى هي فيراري".

أقول لسميتا: "كنت أود أن أسألكِ شيئاً ما".

"تفضل".

"ذلـــك المـــساء، حين أنقذتني من مركز الشرطة، لِمَ لم تخبريني صراحةً أنك كنتِ غوديا؟".

"لأنـــني أردتُ أن أسمع قصصك وأكتشف الحقيقة. حين سردتَ قـــصتي، من دون أن تعرف أنني أمامك، حينها عرفتُ بصورة مؤكدة أنكَ كنتَ تسرد الحقيقة، الحقيقة كلها ولا شيء سوى الحقيقة. لذلك أخبرتكَ منذ البداية أنني لا أحتاج إلى أن تقسم بأي كتاب. أنا شاهدة عليك، كما أنتَ شاهد عليّ".

أومئ برأسي علامة الفهم.

تسألني سميتا: "هل يمكنني أنا أيضاً أن أطرح عليكَ سؤالاً؟".

"مؤكد".

"في تلك الأمسية نفسها حين أتيتُ بكَ أول مرة إلى منـــزلي قبل أن تخبرني بقصصك، قذفتَ عملةً نقديةً. لماذا؟".

"لم أكـــن متأكداً هل أثق بكِ أو لا؟ إن قذف العملة النقدية هي آلـــيتي في اتخاذ القرار. إذا جاءت على وجهها سأروي لكِ كل شيء، أمـــا إذا جاءت على قفاها سأقول لكِ وداعاً. كما اتضح، لقد جاءت على وجهها".

"إذاً لو أنها جاءت على قفاها بدلاً من وجهها، ما كنتَ لتخبرني بقصتك؟".

"ما كان يجب عليها أن تأتي على قفاها".

"أتعتقد بالحظ إلى هذه الدرجة؟".

"مـــا صلة الحظ بها؟ الآن، انظري إلى قطعة النقد". أُخرجُ قطعة النقد من فئة روبية واحدة من سترتي وأعطيها إليها.

تنظـــر إلـــيها وتقذفها. ثم تقذفها من جديد. "إنها... إنها تحمل وجهين في كلا الجانبين!".

"بالضبط. إنها قطعتي النقدية الجالبة للحظ. إنما كما قلتُ، لا صلة للحظ بها".

آخذ قطعة النقد منها، وأقذفها عالياً في الهواء. ترتفع عالياً، عالياً، تـــومض بإيجاز بإزاء السماء الفيروزية، ومن ثم تهبط بسرعة في المحيط، وتغوص في أعماقه.

"لماذا رميتَ قطعتكَ النقدية الجالبة للحظ؟".

"لا أحتاج إليها بعد الآن. لأن الحظ يأتي من الداخل".

عن المؤلف

ولد المؤلف فيكاس سواروب في الهند، لأسرة من المحامين. نشأ وسط نقاشات حول الحكام وقضايا المحكمة دارت حول مائدة الطعام. (إحدى حسنات النشوء في هذا الجو هو أنني ربما كنتُ طفل السنوات السبع الوحيد في المدينة الذي يستطيع أن يتهجى كلمة "juris prudence – القانون" و"habeas corpus – أمر قضائي بإحضار شخص للمثول بين يدي المحكمة"!) هكذا يقول الدبلوماسي الهندي الذي خدم في تركيا، والولايات المتحدة الأميركية، وأثيوبيا وبريطانيا العظمى. إبان عهد طفولته، حلم سواروب أن يصبح طياراً أو فلكياً حين يكبر طالما أن أمه أبعدت عن الأذهان وبصورة قاطعة مهنة العائلة بوصفها مسيرةً محتملةً: "إذا أصبح أي واحد من أبنائي الثلاثة محامياً، سأرميه خارج المنزل". المسيرة العلمية نُبذت هي الأخرى بسبب التجارب غير المشجعة مع تشريح الضفدع في مختبر علم الأحياء وتلك المجلدات ذات الألف صفحة مثل "القواعد الأساسية للفيزياء النظرية". الفكرة المتعلقة في أن يصبح موظفاً حكومياً أخذت تسيطر عليه شيئاً فشيئاً، تخرج فيكاس في الجامعة في اختصاصات بالتاريخ الحديث، علم النفس والفلسفة، وفي النهاية انضم إلى الخدمة الخارجية الهندية.

بدخول ذاتي إلى عالم الأدب، كان فيكاس سواروب دوماً مفكراً مبدعاً مع أن *أسئلة وأجوبة*[1] هو أول كتاب قصصي منشور له. تجلى

(1) الاسم الأصلي لرواية (المليونير المتشرد) – م.

خـــياله النـــشيط جـــداً أول مـــرة في مقالة له عن الحظ السيئ حدد موضوعها معلمه في المرحلة السادسة من دراسته. في الوقت الذي كتب فـــيه الأولاد الآخـــرون عـــن حوادث عادية مثل أن يقطع قط أسود طـــريقهم، اختار فيكاس أن يصف تجارب ثلاثة لصوص يابانيين يحدث أن يقعـــوا في الـــشرك خـــلال زلزال بعد أن ينجحوا في السطو على مصرف بالرغم من المصاعب.

جـــرّب فـــيكاس كتابة قصة أخرى حملت عنوان **السيرة الذاتية لحمار** حينما كان طالب مدرسة قبل أن يشرع بكتابة مشروعه الناجح عالمياً **أسئلة وأجوبة**.

المؤلـــف فـــيكاس سواروب عضو الخدمة الخارجية الهندية. تُعد **المليـــونير المتـــشرد** أحد الكتب الأكثر مبيعاً. ترجمت هذه الرواية إلى خمس وعشرين لغة، كما نال الفيلم الذي حمل الاسم نفسه ثماني جوائز أوسكار.

هي ليست ببساطة قصة برنامج مسابقات، بل هي بالأحرى شيء يذكـــرنا بالـــسبل المتنوعة، العشوائية في الظاهر، التي يمكن بواسطتها اكتـــساب المعـــرفة مـــن خلال التجارب الحافلة بالمغامرات، وحب الاستطلاع والملاحظة الدقيقة. سواروب كاتب بارع وروايته **المليونير المتشرد** تملك كل فورية وتأثير الوصف **الشفاهي**.

ديلي ميل

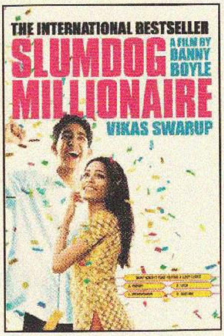
يـــصوّر سواروب **وبطريقة نابضة بالحيوية حياة المتشردين** مستلاً شخـــصياته **مـــن طـــيف احتماعي كامل: الساقطات،** نجوم السينما، الدبلوماسيون، **نـــزلاء الأحياء الفقيرة، ويرسم بورتريه** ملوناً، واسعاً، غـــير **مزخرف للهند المعاصرة، حيث ليس كل الفقراء** ملائكة، وليس جميع الأغنياء **أنذال.**

لتوري رفيو

"غريبة **بصورة رائعة... تعتمد الاسم جاعات** التي يصفها الكاتب علـــى صورة **حياته وصورة عالمه الخاص بطريقة** لا يرحم: عصابة مافيا

تعـــيق الأطفـــال وتـــدربهم كـــي يعملوا بصفة شحاذين، أناس بيض متغطرسون يضطهدون خدمهم، عوائل ترغم إحدى بناتها على ممارسة الـــبغاء، الحقارة الموحشة للأثرياء، الأعمال الإجرامية النابعة من اليأس الذي يجبر الفقرُ الناسَ الاعتياديين على القيام بها.

التايمز



أفلح رام محمد توماس، وهو نادل سابق من مومباي، في الإجابة على الاثني عشر سؤالاً في البرنامج التلفزيوني الشهير «من سيربح البليون روبية». ولكنه يتعرّض الآن للاحتجاز في زنزانة بتهمة الاحتيال. فكيف لفتى شوارع أن يعرف من هو شكسبير، ما لم يكن متورّطاً بخدعة ما؟

بناءً لتسلسل أسئلة البرنامج، يُفصح رام عن المغامرات المدهشة التي عاشها كفتى شوارع والتي مكّنته من الإجابة على الأسئلة بدقة. فبين المياتم والمواخير، ورجال العصابات وزعماء المتسولين، وصولاً إلى منازل نجوم بوليوود المشاهير والأثرياء، تطفح رواية المليونير المتشرّد بالكوميديا المتشعّبة، والتراجيديا الآسرة، والبهجة المطفرة للدمع. إنها تستقرئ الهند المعاصرة.



نال في فيلم «المليونير المتشرّد» ثماني جوائز أوسكار عام 2009

- أفضل فيلم: المليونير المتشرّد.
- أفضل مخرج: داني بويل لفيلم المليونير المتشرّد.
- أفضل نص مقتبس: المليونير المتشرّد.
- أفضل تصوير سينمائي: المليونير المتشرّد.
- أفضل موسيقى تصويرية: المليونير المتشرّد.
- أفضل تحرير: المليونير المتشرّد.
- أفضل أغنية: «جاي هو» من المليونير المتشرّد.
- أفضل هندسة صوتية: المليونير المتشرّد.

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

ISBN 978-614-01-0014-5
9 786140 100145